الله والرسول

صلاح الدين أبو العنين

نبذة عن المؤلف

وُلد في الثاني من شهر مايو سنة ١٩٢٦

ودرس القانون ودرس الشريعة الإسلامية في الدراسات العليا في كلية الحقوق بجامعة (فؤاد الأول) بالقاهرة. وتعلم من "المكتبة العامة" كثيراً من فروع العلم المختلفة مع التركيز على علوم القرآن الكريم واللغة العربية بفروعها والتفسيرات القرآنية وصحيح السنة المطهرة والسيرة النبوية الشريفة والأدب الجاهلي وتاريخ العرب والمذاهب الإسلامية والفلسفية وكثيراً من الدراسات بغير حصر ...

وقرأ ودرس كثيراً من كتب الطبيعة التي تبحث في المادة ومتغيراتها ... وتاريخها ... وما كتب في شأن "وجود" الكون. وآراء مختلف العلماء الماديين. والإسلاميين ... وكذلك كيف "وجد" البشر !!

وما زال .. وسيظل يقرأ ويدرس في هذه العلوم الكونية عن هذا "الكون" المهول ...

والمؤلف ... مارس مهنة "المحاماة" حتى كان محامياً بالنقض وعضواً عاملاً باتحاد الكتاب. وأثناء هذا الخضم من إرهاصات الحياة والفكر؛ فقد ألَّف خمسة كتب ...

وكان أول هذه الكتب هو "الله والكون" بياناً عن "الخلق" و "الأمر" بالقدرة الإلهية مقارناً بالأفكار العلمية المادية. وتفصيلاً لموضوع خلق الكون ومادة الخلق وكيفه وترتيبه وكيف تسخيره فقد جاء ذلك في كتابه الثاني "رحلة في أعماق الكون". وأصدرت وزارة التربية والتعليم قرارها سنة ٩٢ – ٩٣ بوضع هذا الكتاب على رأس قائمة الكتب التي اختارتها لتثقيف الأساتذة المدرسين في جميع مراحل التعليم.

وكان لا بد من دراسة علمية عميقة لموضوع خلق الإنسان؛ فأصدر كتابه الثالث "حكاية البشر .. علمياً" الذي أصدرت وزارة التربية والتعليم قرارها سنة ٩٥ – ٩٦ بوضع هذا الكتاب في أول قائمة الكتب العلمية البحتة لدراسة الثانوية العامة.

وبيانًا لمنهج التفكر القرآني

وتأكيداً لإثبات حقيقة كيف وترتيب خلق الكون وتسخير أجرامه بالمشاهد المادية الكونية والآيات العلمية القرآنية ... وبيانًا مادياً لكيف تكوين الأهلة القمرية والبدر والمحاق ... وتوضيحاً لحقيقة الأقمار الصناعية والإعلامية ... وحتى يرسخ "اليقين" بالله العظيم في قلوب وصدور الناس ويزداد الذين آمنوا إيمانًا؛ فقدأصدر كتابه الرابع "القمر في الطبيعة".

وقد صدر قرار وزارة التربية والتعليم لسنة ١٩٩٨ في شأنه كالكتابين السابقين.

ومن ثم؛ كان هذا الكتاب "الله والرسول" مبينًا بالبرهان أصول الدين التي هي "الغيب" موضوع الإيمان الحق .. حتى لا تكون ثمة تعلّة للماديين الذين يزعمون أن الدين غيبيات ..

والمؤلف هو خطيب وإمام مسجد «نورالرسول» بمدينة نصر بالقاهرة منذ ١٩٧٩ وإلى أن يشاء الله رب العالمين وأنه ليس للإنسن إلا ما سعى. وأن سعيه سوف يُرى.

والحمد والشكر لله العلي القدير والصلاة والسلام على رسوله رحمة للعالمين.

الفهـــرس

الصفحة

تابع الفهـــرس

الصفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تبارك وتعالى:

﴿ ألم. ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين. الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ﴾

[أول البقرة]

وقال جل جلاله:

﴿ إن الذين لا يؤمنون بآيات الله - أي ملكوت الغيب والشهادة - لا يهديهم الله ولهم عذاب أليم ﴾.

[النحل: ١٠٤]

قال العلي الكبير:

﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم، والله غفور رحيم. قل أطيعوا الله والرسول، فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين ﴾.

[آل عمران: ٣١، ٣٢]

وقال العلي الكبير:

﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظًا ﴾.

[النساء: ٨٠]

وقال رب العالمين:

﴿ ألم يعلموا أنه من يحادد - أي يخالف - الله ورسوله فأن له نار جهنم خالداً فيها، ذلك الخزي العظيم ﴾.

[التوبة: ٦٣]

﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدي ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم، وساءت مصيراً ﴾

[النساء: ١١٥]

خطبة الافتتاح

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، الأحد الصمد، المتفرد بصفات الكمال والجلال والعظمة والعزة والقوة والخلق رب العرش المجيد.

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد عبد الله ورسوله وفيض رحمته ونور هدايته ونبراس علمه وبرهانه الآكد، وعلى آله وصحبه ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليماً كثيراً ..

أما بعد

فقد تناول المؤرخون والمفكرون السيرة العطرة لصفوة خلق الله بالسرد والشرح والبيان، ذاكرين وشارحين ومبينين الواقعات التي كانت من قبل بعثة الرسول ﷺ لقرون طوال، وشملت منطقة شبه الجزيرة العربية وقبائلها وما حولها من فرس وروم ويمن وأحباش، ثم تركيز في البيان على قريش ونسبها ونشأتها وقيامها بمكة وما حولها، وأخذها اللواء والسدانة والرفادة والسقاية لبيت الله الحرام والحاج.

ثم هم من بعد ذلك يخلصون إلى بني هاشم فبني المطلب، حتى إذا ما وصلوا إلى أكرم والدين، والدي الرسول الكريم، قالوا وأفاضوا ونوروا الأصل الذي كان الرسول من بين صلبه وترائبه.

وذكر السيرة هكذا أفاد وبين للناس مراد تاريخ البشر للبشر ...

ولكن ..

ولأن الرسول ﷺ، له نسيجه وحده، وله أسراره وأنواره التي كشف الله سبحانه

وتعالى عن بعضها عندما أخبر بنزول القرآن العظيم بالعلم الإلهي العزيز الحكيم على القلب الشريف، وأن هذا القرآن لو أنزل على جبل لرأيته خاشعًا متصدعًا من خشية الله.

ولأنه الرسول المأخوذ له ميثاق النبيين من قبل هذه الحياة الدنيا.

ولأنه الرسول لكل الناس أجمعين.

ولأنه الرحمة والنذير للعالمين .. ولأنه السراج المنير ..

فإنه وإن كان بشرًا ... فإن لبشريته نورًا انفرد بها عن كل ما خلق الله سبحانه حتى جاء كما جاء بعدما عُلِّم ما عُلِّم، فهدى ونصح وبين، وقاتل في سبيل الله إلى شهور قلائل من قبل أن يلحق بالرفيق الأعلى.

لذلك، لزم أن تكون دراسة متأنية من نبع القرآن العظيم نور الله العلي الحكيم، وبيان السنة المحمدية إلهام الخالق العظيم ووحيه لرسوله، عن خلْق رسول الله كيفه خلقه، وكيف صنعه خالقه، حتى يكون هو الرسول لكل الناس والرحمة والنذير للعالمين ..

ثم بيان لمعنى «الأسماء» و «العالمين» ومن ثم معرفة لمناط الرحمة المهداة من رب العالمين لكل ما خلق من شيء، وأيضًا إحاطة بأقطارها.

وإذ اختلف العلماء في واحد من أهم أصول الدين ألا وهو حقيقة رسول الله، ثم تفرقوا في معاني الإيمان والعبادة والحرية والتوحيد والإسراء والمعراج والقتال في سبيل الله. فإن ذلك قد استوفى سردًا وتمحيصًا وبيانًا حتى أتى اليقين بفضل الله تبارك وتعالى في كتابه وسنة رسوله. وحتى يكون الناس على بينة من حقيقة أمرهم مع الله جل شأنه خالقهم وخالق كل شيء، لا يأخذهم في الله شطحة إلى خروج عن نطاق برهان الله، أو يزيغ بهم إلى دركات التخدير، فإذا هم من فرط الشطط أكثر قربًا للغيابات من الله الرحمن الرحيم.

وإذا كان ذلك؛ فإن في رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرًا.

لهذا، كان الفهم الموضوعي لحياة الرسول مع أهله وعشيرته والناس جميعًا، في دعوته وجداله وبيانه، وفي تحمله للأذى، وفي وداعته ولينه وخفض جناحه للمؤمنين، وفي رضاه طاعة لله واحتسابًا، وفي غضبه لربه العلي العظيم، وشدته على الكافرين، ورحمة بالمؤمنين؛ هو السبيل الصحيح الهادي لفتح باب حرية الإنسان على مصراعيه، وسد منافذ التضليل والتخييل على الذين أرادوا أن يفتنوا المسلمين ويوهنوا منهم العزم، ويضيعوا نور الإيمان من قلوبهم، بما أشاعوا: إن الموضوع جبر لا خيار فيه، وأن الهجرة هروب وأن الهروب فرار.

وقد دفعت الحقيقة الساطعة والحجة البالغة سفاهة السفهاء فادخلتهم الجحور، وأضاءت للناس طريقهم، فترى المسلمين في ازدياد دائم في كل أرجاء الأرض، شمالها وجنوبها من بعد مشرقها ومغربها.

وإذا كان العلي الحكيم، قدر ودبر، بأعظم حدث في تاريخ البشر وهو الإسراء والمعراج ليطهر صفوف المسلمين، فأخرج الغث الذي كان يؤمن على حرف، وأبقى على أصحاب اليقين بالحق، فإن كان قد نقص العدد، فقد زاد قدر القوة والصلابة .. ثم أذن العلي الكبير للمسلمين بالهجرة حتى يخرجوا من الضعف إلى القوة ومن ذرئهم بين الكفرة إلى الاتحاد والظهور، منفردين بأرض خاصة بهم وحكم الله فيهم وقيادة رسول الله لهم؛ فكانت الدولة الإسلامية الأولى، وبنورها شمل الإيمان أرض الرسول والرسالة والكعبة بيت الله الحرام، ومنه انطلق قويًا باليقين مستقيمًا بصراط الله إلى مشارق الأرض ومغاربها، جهادًا في سبيل الله ذروة سنام الدين تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويُقتلون .. ﴾ [التوبة: ١١١] وتنفيذًا لأمر العلي الكبير ﴿ يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة ... ﴾ [التوبة: ١٢٣].

وأضاء الرسول ﷺ للمؤمنين أنفسهم وأمرهم بمراقبتها حتى لا تنوء تحت الغطاء وتنحرف بهم عن الصراط المستقيم، وتقعد بهم فينسلخوا من آيات الله ويخلدوا إلى الأرض، فيكونوا من الغاوين.

وإذا كان الإنسان وقد خلقه رب العالمين على الفطرة في أحسن تقويم، فإنه لا يبقى كذلك إلا إذا آمن وعمل صالحًا.

لذا، فإن هذا الكتاب موضوع لبيان أصول الدين مركزًا على حقيقة خلق الرسول وحقيقة صُنْعه، وبيان لمعنى السيرة الطاهرة ومفهوم لمضمونها بالحق وإظهار لمنهاج الحياة. وإن فات الكتاب شيئًا، فلأن الرسول أنواره لا تحصر وأسراره لا تنتهي ولا تنقطع، لذلك أمر الله سبحانه المسلمين كلهم بالصلاة عليه وأن يسلموا عليه تسليمًا كثيرًا، حتى يظلوا في ربيع سكينته وطمأنينة رحمته وفرحة صحبته.

ولأن الرسول ﷺ غيب، فقد اتبع هذا الكتاب سنة أصيلة صحيحة في تتبع معاني القرآن الكريم فيه، بأن يأخذ المعنى من اللفظ القرآني الإلهي لا يتجاوز مدلوله فلا يحمله ما لا يحتمل، ولا يُخضعه لمعقولات البشر المادية أو يطوعه لهواهم؛ ذلك بأن الغيب لله وحده؛ فهو الذي لا إله إلا هو عالم الغيب، لا يعلمه إلا هو؛ فلا نكون ك ﴿الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين﴾ [الأعراف: ١٧٥].

ولما كنَّا قد صَدَّقنا الله وآمنا به سبحانه، فوجب علينا أن نأخذ معاني كلامه من كلامه ﴿إنَّ علينا جمعه وقرءانه. فإذا قرأناه فاتبع قرءانه. ثم إنَّ علينا بيانه﴾ [القيامة: ١٧ – ١٩].

ذلك بأن إخضاع قدرة الله لعقل البشر إنما هي من قبيل إخضاع الله جل شأنه للبشر ومن ثم إحاطتهم به .. وهذا باطل وفاسد. ومن ثم لا يؤدي إلا إلى الباطل من الفكر والفاسد من الفهم والنهج.

ومن هنا، نرى الذين تكلموا – على سبيل المثال – في الإسراء والمعراج – وهو غيب – بالمعقولات البشرية أي بالمنطق العقلي للماديات والسبل العلمانية قد وصلوا إلى الضلال والشرك وإن لم يجهروا به.

ذلك بأن القاعدة الأصولية التي بينها رسول رب العالمين هي أن القرآن لا يفسر برأي الإنسان. قال ﷺ (من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار).

أما الذين آمنوا بالإسراء والمعراج بأنه من قدرة الله جل جلاله، فإن الله سبحانه اثبت إيمانهم فثبتهم بإيمانهم، وكان نصر الله عزيزاً حكيماً.

وهذا هو منطق الإيمان، فالإيمان هو اليقين بالله وغيبه كله ومنه القرآن العظيم كلام الله تقدست أسماؤه.

والقرآن كلام الله يُفهم بمعاني اللغة التي أنزله الله سبحانه وتعالى بها، بقواعد نحوها وصرفها، وبيان بلاغتها وقواعد دلالتها في حدود مدلول ألفاظها لا نحيد ولا نزيغ ولا نسكت، فالساكت عن الحق شيطان أخرس. قال العلي الحكيم ﴿ **لا مبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحداً** ﴾ [الكهف: ٢٧] ﴿ **وكذلك أنزلناه حكماً عربياً** ﴾ [الرعد: ٣٧] ﴿ **عربياً غير ذي عوج لعلهم يتقون** ﴾ [الزمر: ٢٨].

وإذا كان ذلك

فإنه أيضاً تنفيذ لقول الرحمن ﴿ **وقل الحق من ربكم** ﴾. فالحق من عند الله العلي العظيم في كتابه الكريم، وليس من عند عقل الإنسان!

وليس هذا إهدار للعقل، كما قد يُفهم لغير المتدبر، إنما هو إعمال للعقل فيما حدده الله سبحانه وتعالى له من علم ﴿ **ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء** ﴾ فالميدان الصحيح للعقل هو إدراك العلم من ألفاظ القرآن وليس بإخضاع علم الله وقدرته لعقل الإنسان وخطئه وخطله وهواه فضلاً عن قصوره وعجزه وجهله.

فوقائع التاريخ الإسلامي تحدثنا أن المسلمين، والمعتزلة منهم خاصة، قد ترجموا فلسفات الإغريق في أواخر الدولة الأموية ومن أوائل الدولة العباسية إلى المأمون؛ حتى يواجهوا طعن النصارى واليهود في الإسلام بنفس الاصطلاحات الفلسفية التي يطعنون بها على الإسلام، دفاعاً عن الدين ودحضاً لخبيث أقوالهم التي جاسوا بها خلال المسلمين والضعاف منهم خاصة.

فكان من الطبيعي أن ينتشر في علماء المسلمين أساليب المنطق العقلي الأرسطي - وهو منطق نظري أساسه الظن - وزاد هذا عند المعتزلة حتى أخرجهم من سبيل الجدل

الكلامي المؤسس على المقدمات الحقيقية والهادف إلى البرهنة على الحقيقة القرآنية؛ إلى الاستبداد العقلي والطغيان الفكري المؤسس على المنطق العقلي الأرسطي وحده.

ومن ثم؛ وبالتالي؛ لا بد وأن ينعكس بعض هذا المنطق العقلاني فيما بعد على التفاسير القرآنية التي جاءت جميعًا من بعد هذه الوقائع التاريخية في الفكر الإسلامي.

وكان من سطوة هذا المنطق العقلاني ان افسد على أئمة الفقهاء والمفسرين السبيل الحق في تفسير الآيات الغيبية القرآنية فجعلهم يتجاهلون قواعد اللغة العربية بل وقواعد دلالتها وأصول التفسير كلما اصطدموا بحقيقة غيبية. !! فيتجاوزون أصول التفسير وقواعد اللغة وبلاغتها ودلالتها ويقفزون من فوقها مع التجاهل الكامل لها، أو يستخدمون أساليب المنطق العقلي الأرسطي في بيان المعاني التي تضمنتها الايات العيبية، فنرى النظام العروض وهو من زعماء المعتزلة وكذلك عبد الرحمن بن خلدون يتجاوزان أي يتجاهلان حقيقة خلق الإنسان من تراب ونفخ الروح فيه فكان بشراً بمطلق القدرة الإلهية، إلى قولهم بالنشوء والارتقاء حسبما نقله عنهما بعد ذلك داروين وزاد وفرّع فيه؛ ونرى كثيراً من العلماء المحدثين عندما يشرحون آية الإسراء والمعراج يتجاهلون القدرة الإلهية إلى استخدام العقل البشري والمنطق الأرسطي فيقولون بانه رؤيا منامية. أو عروج روحي وليس بالجسد !!

وهذه أمثلة للبيان والتوضيح.

ومن ثم، فقد أدى هذا السبيل الفاسد الضال – كما سنبين بعد – إلى التناقض والتضارب والتعارض والخطأ في تفسير آيات خلق الرسول ﷺ وحقائق صنعه وحقائق آيات الإسراء والمعراج وشرح الصدر وغير ذلك كثير..

ذلك بانه لا يستدل على كيف الغيب بالمنطق العقلي؛ إلاّ إذا كان للغيب اثر مادي، ليس في معرفة ذاته، ولكن لمعرفة كيف ان هذا الأثر المادي من خلق الله وحده على وجه القطع ولا يمكن ان يكون لغيره.

فيقول العرب إن البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير..

أما إذا لم يكن للغيب من اثر مادي كما هو في حقائق خلق الرسول وصنعه وإنزاله وإسرائه ومعراجه.

فإن الإيمان – بمعنى التصديق اليقيني – بأن «القرآن العظيم» هو قول ربنا، وهو أصل ضخم من أصول الدين، يلزمنا أن نفهم كلامه بقواعد اللغة وقواعد دلالتها وبلاغتها وأصول تفسير آيات الله.

فإذا استقرأنا آيات الكتاب العظيم قرآن ربنا العلي الكبير وجدنا أنه لا يأمرنا باستعمال العقل إلا في الماديات والمحسوسات، فإذا تكلم ربنا سبحانه عن الغيب الذي ليس له من أثر مادي لم يطالب الناس بعقله، وإنما يطالبهم بتصديقه ويتوعد الذين لا يصدقون بأشد العذاب. وحيث لا يوجد شهود ولا إقرار، فإن القسم هو السبيل للإثبات، وهكذا جاء القسم القرآني، فيقسم عن القرآن العظيم ويقسم عن الرسول الكريم كوقائع غيبية ليس لها آثار مادية تدل عليها.

وإذا كان الله تبارك وتعالى قد جعل من القرآن معجزة، فإن هذا ليس من أجله صدر القسم، ولكنه أقسم بمواقع النجوم أنه ﴿**في كتاب مكنون. لا يمسه إلا المطهرون. تنزيل من رب العالمين**﴾ [الواقعة].

أما الوقائع الغيبية التي لها آثار مادية فإن الله تبارك وتعالى يطالبنا بالتفكر فيها أي عقلها وفهمها واستنباط النتائج. فهذا سبيل القرآن في واقعات خلق السماوات والأرض وتسخير السنن الكونية جميعاً وخلق الإنسان في النشأة لأول مرة.

ذلك أن تصورات أي خيالات المنطق العقلي في الغيبيات تتغشى الحقيقة وتطمس معالمها فتضيعها .. كما هو الحادث حاليًا في أسس علوم الطبيعة جميعًا عند الماديين.

وقد حذرنا العلي العظيم من هذا كله في أبلغ وأعظم خبر يبين الضلال والتيه الفكري في قصة خلق آدم عليه السلام وعصيان إبليس الرجيم تحت عنوان ضخم ﴿**قل هو نبؤا عظيم**﴾ [ص: ٦٧] إخباراً للناس بلزوم التدبر في فهم آيات الغيب من معاني كلماتها حسب قواعدها؛

فقد ذكر سبحانه وتعالى في بيان سبب رفض إبليس السجود لآدم ﴿**قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين**﴾ [ص: ٧٦]؛ فدل على أن إبليس قد أسس عصيانه على منطق عقلي هو أنه خير من آدم، وأن هذا سببه أن «النار» أفضل من «الطين» ..

هكذا تخيل بعقله .. فإنه لم يستطع أن يقدِّر أن هذا الطين قد نفخ الله عز وجل فيه من روحه.

ولكن ولأن «النار» و«الطين» خلق غيبي بالنسبة لإبليس والجِّنة أجمعين لقوله تعالى ﴿ **ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم** ﴾ [الكهف: ٥] و«الطين» موجود في الأرض، و«النار» هي مادة خلق الجن وإبليس منهم.

فإن الله تبارك وتعالى يعلمنا أن استعمال المنطق العقلي في فهم الغيبيات، إنما يؤدي إلى الضلال وبالتالي إلى العصيان والكفر ومن ثم نفهم معنى قوله تعالى ﴿ **إن الشيطان كان للرحمن عصياً** ﴾.

وإذا كان الله العظيم قد أورد لنا هذا النبأ العظيم ليعلمنا أن نفهم كتابه العظيم بمعاني ودلالة كلامه حسب القواعد المستنبطة من القرآن بالفهم العقلي البشري بغير رأي يدخل عليها.

فإن الرسول ﷺ قد حذر المؤمنين تحذيراً واضحاً مبيناً بقوله «**من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار**».

وذلك حتى يقطع على الراشدين تصور الغيب وتجاهل الصراط المستقيم من نبع كلمات خالق الغيب.

وهذه الحقيقة الأساسية الرئيسية المهمة هي الأساس الصلب والصحيح لفهم القرآن العظيم على الوجه السليم الصحيح؛ ومن ثم كانت هي بالتالي أساس هذا الكتاب «الله والرسول» الذي هو من نبعه القدسي.

وثمة قاعدة مهمة أخرى طبقها الرسول وركز عليها حتى لا نضل أبداً، ذلك بأن الله تبارك وتعالى وقد أمره بأن يبين للناس القرآن ﴿ **وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم، ولعلهم يتفكرون** ﴾ [النحل: ٤٤] فكانت من مهام الرسول الكريم أن يُفَصِّل ما أجمله القرآن وأن يُفَسِّر ما جاء مُبهماً فيه. فإذا كان القرآن واضحاً فلا وجه إطلاقاً إلى اللجوء إلى غيره. بل إنه لا تكون ثمة أحاديث للرسول ﷺ فيما جاء واضحاً بالقرآن.

وطبق الرسول ﷺ هذه القاعدة الأساسية. ويقول علماء أصول الفقه في مجال بيان ترتيب مصادر التشريع والتفسير من باب أولى: [وأما البرهان على ترتيبها في الاستدلال بها بهذا الترتيب، فهو ما رواه البغوي عن معاذ بن جبل ان رسول الله ﷺ لما بعثه إلى اليمن قال: (كيف تقضي إذا عرض لك قضاء؟ قال أقضي بكتاب الله. قال فإن لم تجد في كتاب الله؟ قال فبسنة رسول الله. قال فإن لم تجد في سنة رسول الله؟ قال اجتهد رأيي ولا آلو. قال فضرب رسول الله ﷺ على صدره وقال: الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله].

وما رواه البغوي عن ميمون بن مهران ان ذلك ايضًا كان نهج أبي بكر وعمر واقرهما على ذلك الصحابة ورءوس المسلمين ولم يعرف بينهم مخالف في هذا الترتيب(١).

وهذه القاعدة وهذا التطبيق هو الذي يتفق تمامًا مع حكم التوحيد بأن لا إله إلا الله وحده لا شريك له. ذلك بأن إشراك اي قول مع حكم القرآن الواضح هو في الحقيقة إنما يكون إشراك بكتاب الله العلي العظيم، وهذا ما نفاه الرسول وكرس حياته وبعثته كلها لنفي الشرك وإثبات التوحيد لله جل شانه لا شريك له؛ إلا ان تكون السنة لهذا صحيحة مبينة أو منشئة، فتكون الدليل الثاني بعد القرآن العظيم.

كان هذا النهج هو ما اقره وسار عليه الخلفاء الراشدين والأئمة الأربعة وكل علماء أصول الفقه من السلف والخلف والمحدثين.

ولا يخفى أننا باتباع هذا الطريق الواضح المستقيم، نكون بمنأى عن الضياع في متاهات الذين زيفوا القول وابدعوا، حتى ضج الناس من كثرة ما افتراه الكثيرون ونسبوه زوراً إلى رسول الله وهو منه براء.

ومن ثم لا نتوه ولا نضل إلى سبل المستشرقين وأصحاب البهتان الذين تخرصوا

---

(١) كتاب «علم أصول الفقه» للشيخ عبد الوهاب خلاف/١٩ وكتاب «دراسات في علم أصول الفقه بقسم الدراسات العليا بكلية الحقوق (جامعة فؤاد) للشيخ محمد أبو زهرة/٤.

على رسول الله ﷺ، وأفسدوا في الأرض وخلقوا الفرق المتناقضة حتى جعلوا المسلمين في شوق إلى معرفة الحق من الضلال.

لذلك وبالتالي، جاء هذا الكتاب حفيًا بالحق منوراً بكلمات الله التامات وبنور هدي رسوله ﷺ على الأسس والقواعد التي بيناها، يهدي إلى الحق في أمهات المسائل التي اختلف فيها العلماء أو لم يصلوا بقول فيها إلى بيانها، فهو من ثم وبعون الله تبارك وتعالى وإذنه شفاء ورحمة وهدى للمسلمين.

تمهيد ...

قال العلي الحكيم تبارك وتعالى عن رسول الله ﷺ والقرآن العظيم:

﴿ ... فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

و **﴿ وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً ﴾** [الإسراء: ١٠٥]

وعن جابر بن عبد الله قال: قلت ما أول ماخُلق يا رسول الله؟ قال ﷺ (نور نبيك يا جابر).

وأخرج الإمام أحمد بن حنبل بسنده عن العرباض بن سارية: قال: قال رسول الله ﷺ: (إني عند الله لخاتم النبيين وإنَّ آدم لمنجدل في طينته وسانبئكم باول ذلك، دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسى ورؤياي أمي التي رأت وكذلك امهات النبيين يرين). وكذلك رواه ابن وهب والليث عن سعيد ابن سويديه(١).

وأمر الله العلي الحكيم رسوله الكريم بعد ان انزله وبعثه بالحق **﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعًا الذي له ملك السموات والأرض، لا إله إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾** [الاعراف: ١٥٨] وبين الخالق الرحيم مضمون الرسالة والرسول فقال سبحانه **﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾** [الانبياء: ١٠٧].

و **﴿ تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ﴾** [الفرقان: ١].

وقال الرسول ﷺ:

(إنما بعثت لاتمم مكارم الأخلاق) و (الدين المعاملة) و (الدين النصيحة).

ولأن الرسول ﷺ بُعث في الناس وهو بينهم، فقد جعل الله سبحانه القرآن العظيم وثيقة ورسالة تثبت أنه رسول الله العظيم.

---

(١) تفسير الإمام ابن كثير جـ١ / ١٨٤.

جعل القرآن وثيقة محفوظة أبد الدهر فهي دائمة إلى يوم القيامة وجعل الوثيقة فريدة في نوعها فهي الكتاب كله، ولا يمكن تزويرها ولا تقليدها. وجعل الوثيقة تحديًا دائمًا وأبدًا للإنس والجن معًا.

﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ [الإسراء: ٨٨].

ورسول الله

هو نور الله في السماوات والأرض، هو الرحمة المهداة، هو الخلق العظيم؛ هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة ابن كعب بن لؤي بن غالب بن **فهر (قريش)** بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة ابن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن **عدنان** بن أدد بن ثابت بن **إسماعيل** ابن **إبراهيم** بن آزر بن ناحور بن ساروغ بن راعو بن فالخ بن عيبر بن شالخ بن أرفخشد ابن سام بن **نوح** بن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ «**إدريس**» بن يرد بن مهلهيل بن قين بن يانش بن شيت بن **آدم**(١).

وسُئل الإمام مالك عن صحة هذا النسب فقال كيف لنا ان نعلم ذلك. وأنكر إمكان هذه المعرفة. والرأي الغالب أنها ثابتة حتى عدنان(٢).

ويقول رب العالمين تبارك وتعالى:

﴿ ألم يأتكم نبؤُا الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلاّ الله .. ﴾ [إبراهيم: ٩].

ومعنى الآية ان من كان بعد قوم نوح وعاد وثمود غير معروفين للناس فلا يعلمهم

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام جـ١ / ٤ - ٧ ويرى الإمام النووي في كتابه «شروح البخاري» ان النسب ثابت حتى «عدنان»، بإجماع الائمة، وما وراءه مختلف فيه وان النضر هو ابو قريش في قول جمهور العلماء، وقيل فهر وقيل غيره. صفحة ٢٣.

(٢) تاريخ الأدب الجاهلي للدكتور علي الجندي/١٨ - ٣٠.

إلا الله، ومن باب أولى إذاً أن الذين من قبلهم لا يعلمهم إلا الله(١).

وإذاً فالنسب ثابت حتى إبراهيم عليه السلام لقوله تبارك وتعالى:

﴿.. ملة أبيكم إبراهيم ...﴾ [الحج: ٧٨] و ﴿وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب﴾ [العنكبوت] فهذه الآية وتلك تتكامل مع الآية السابقة.

وام الرسول ﷺ هي السيدة آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر (قريش) بالمدينة(٢).

حملته أمه لأبيه عبد الله الذي مات والرسول ما زال جنيناً في بطن امه، ولما وُلد أُرضع في بني سعد، وفي السادسة من عمره درج مع أمه إلى أخواله بني النجار بالمدينة المنورة. وفي طريق العودة إلى مكة ماتت امه بالأبواء ودفنت بها، وعاد الرسول إلى جده عبد المطلب وحيداً.

كان يتيماً من الأب والأم، واستقبل السماء ببصره دائماً وأبداً وكأنما اتصل بها برباط مسحور.

وُلد ﷺ في يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول في ذلك العام الذي اشتهر بعام الفيل الموافق ٥٧١ شمسية على أرجح الآراء. وهاجر من مكة في أول شهر ربيع الأول ووصل «قباء» قبل المدينة بفرسخين حيث أقام أول مسجد في الإسلام، وفي يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول دخل ﷺ المدينة والشمس تعتدل في السماء وانتقل إلى رحاب ربه الكريم في يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول(٣).

فمن وقائع حياته: يوم مولده هو يوم هجرته لبناء أول دولة إسلامية هو يوم انتقاله إلى الرفيق الأعلى، بعد أن بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة، وتركها على المحجة

---

(١) صفوة التفاسير جـ٢ / ٩٢: لا يعلمهم إلا الله اي لا يحصي عددهم إلا الله.

(٢) شروح البخاري / ٢٤.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام جـ٢ / ١٦٦ وشروح البخاري / ٢٤.

البيضاء؛ نرى أن الله تبارك وتعالى – على خلاف كل الرسل من قبل – قد واحدها بالتخصيص.

وكانت الرسل من قبله، لكل قوم رسول بلسانهم، قد أعدوا الحياة للرسالة الكاملة الشاملة الباقية أبداً، التي نزلت بلسان عربي مبين غير ذي عوج للعالمين، رسالة العلم والهدى والرحمة ومكارم الأخلاق.

فجاء الرسول مع الرسالة نور على نور، خاتم للنبيين.

أمر الله سبحانه الرسول الكريم أمرًا لا يتصور صدوره إلا من الله ولا يصدر إلا إلى الرسول ﷺ؛ ذلك بأن الأمر عجيب على قلب أي بشر وتنفيذه ليس في مُكنة البشر.

قال الله تبارك وتعالى:

﴿ و سئل مَنْ أرسلنا مِنْ قبلك مِنْ رسلنا أجعلنا مِنْ دون الرحمن آلهة يُعبدون ﴾ [الزخرف: ٤٥].

ومن سبقه من الرسل ماتوا منذ مئات وآلاف السنين؛ فكيف له بسؤالهم؟! ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ ولقد ءاتينا موسى الكتاب فلا تكن في مرية من لقائه ... ﴾ [السجدة: ٢٣].

وأخبره الخالق عالم الغيب والشهادة أنه شهيد على كل الأنبياء منذ آدم حتى عيسى عليه السلام: ﴿ ويوم نبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم وجئنا بك على هؤلاء شهيداً .. ﴾ [النحل: ٨٩].

ومقتضى الشهادة السمع الواعي والرؤية بحقها والفهم الراشد؛ فكيف يمكن لرسول الله رؤية وسماع أولئك جميعًا !! وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه بسنده عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ قال: (أنا وأمتي يوم القيامة على كوم مشرفين على الخلائق ما من الناس أحد إلا ودَّ أنه منا وما من نبي كذبه قومه إلا ونحن نشهد أنه قد بلغ رسالة ربه عز وجل) ورواه الحاكم في مستدركه. وأخرج الإمام ابن كثير أن الإمام

احمد بن حنبل روى بسنده عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ (يُدعى نوح يوم القيامة فيقال له هل بلغت؟ فيقول نعم. فيدعى قومه فيقال لهم هل بلغكم؟ فيقولون ما أتانا من نذير وما أتانا من أحد، فيقال لنوح من يشهد لك. فيقول محمد وأمته، قال فذلك قوله: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطًا﴾ قال والوسط العدل فتدعون فتشهدون له بالبلاغ ثم أشهد عليكم). رواه البخاري والترمذي والنسائي وابن ماجة من طرق عن الأعمش(١).

وفي العام العاشر من البعثة المحمدية، والمسلمون بعضهم في مكة بين رحى التكذيب والتعذيب، وبعضهم قد لجا إلى ملك الحبشة نجاة من أذى قريش، والدعوة إلى الإسلام تكاد تكون من فرط معارضة قريش كأنها تسير في بحر لجي فيه ظلمات ورعد وبرق، يتوفى رب العالمين السندين اللذين كانا من البشر يمنعان رسول الله شدة وطأة الكفرة من قريش في مكة. تصعد خديجة إلى بارئها ويموت أبو طالب عم الرسول ﷺ.

ويحزن الرسول حزنًا شديدًا، حزن البشر لفراق أعز البشر.

ويتوجه إلى الطائف يدعو أهلها إلى الإيمان فلم يسمعوا له والتفتوا عنه، وعاد أسيفًا إلى مكة .. يقول ربي .. إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي.

وشاء رب العالمين أن يريه ما وعده وأن يأمره بقرة عينه الصلاة وأن يوحي إليه، فاسرى به إلى المسجد الأقصى ثم عرج به إليه سبحانه في الأفق الأعلى المبين حتى كان قاب قوسين منه أو أدنى، ثم رأى من آيات ربه الكبرى.

ويعود الرسول ﷺ إلى بيته بمكة في ذات الليلة .. وفراشه ما زال ساخنًا ... مع أن الله سبحانه أنذر الجن والإنس ﴿يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا، لا تنفذون إلا بسلطان. فبأي آلاء ربكما تكذبان. يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران﴾ [الرحمن].

---

(١) تفسير الإمام ابن كثير جـ١ / ١٩٠، ١٩١.

والرسول الكريم نفذ من هذه الاقطار جميعًا وتعداها كثيراً دون ان يمسه اذى، ذلك بأن الذي اسرى به هو خالق كل شيء وبيده ملكوت كل شيء ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير ﴾ [الإسراء].

ويقول العلي الحكيم ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ والعالمين هم كل ما خلق الله من شيء في عالم الغيب وعالم الشهادة؛ الناس على الأرض والملائكة والجن والأنعام والدواب والهوام والسماوات بما فيها من أجرام والأرض والجبال والحيتان في أعماق البحار والشجر والمدر .. وما لا نعلم من خلق الله ... فكيف برسول الله ﷺ يكون رحمة لكل هؤلاء ونذيراً.

والله الرحمن الرحيم، عندما يذكر شيئًا مع شيء آخر أو أشياء، فإنما بترتيب علمه سبحانه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .. فاخبر سبحانه باسم الرحمن وبمعاني الرحمن وبعلم الرحمن وبفضل الرحمن وبقوة الرحمن .. عَلَّم رسوله القرآن ﴿ الرحمن. علم القرآن ﴾ ثم أعقب ذلك بقوله تعالى ﴿ خلق الإنسان. علمه البيان ﴾ أي أنَّ واقعة تعليم الرسول القرآن(١) كانت قبل واقعة خلق الإنسان كما وأن واقعة خلق الإنسان كانت بالضرورة قبل تعليمه البيان.

واخبر العلي العظيم في محكم التنزيل ﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبي ﴾ [الاحزاب]. والقرآن العظيم قديم ومن قبل الخلق وكلمة «يصلون» تفيد قيام الصلاة منذ القدم .. وحتى الأبد ..

واخبرنا العلي الكريم ان الرسول ﷺ أول من اسلم فهو أول المسلمين. مع ان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام جَدًّا رسول الله ﷺ دَعَوا الله سبحانه وهما واقفين يرفعان جدران الكعبة ﴿ ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ﴾ [البقرة].

---

(١) طبقًا لقاعدة «الاقتضاء» في دلالة النص.

ويخبرنا العلي العظيم انه أمر رسوله الكريم بأن يخبر الناس ﴿ **قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين. لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين** ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

ثم يبين لنا العلي الكبير موعد إسلام الرسول من بقية خلقه ... ﴿ **قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم** ﴾ [الانعام: ١٤] و ﴿ **وأمرت لأن أكون أول المسلمين** ﴾ [الزمر: ١٢]!!

والله الرحمن الرحيم، علم رسوله الكريم القرآن، ولأن القرآن كله رحمة ظهر اسم الله الرحمن في الآية ﴿ **الرحمن. علم القرآن** ﴾ ولأن القرآن كله رحمة وأنه رسالة صفوة خلق الله، فإن الرسول وصف بأنه «رحمة للعالمين».

ولكن عندما علم الله سبحانه عبده آدم الأسماء، فإنه جل شانه لم يظهر اسمه في الآية: ﴿ **وعلم آدم الأسماء كلها** ﴾ [البقرة: ٣١]؛ ذلك بأن الأسماء وإن كان فيها رحمة إلا أن فيها نقمة. لهذا أظهر الظلوم الجهول وحده[١].

ولأن الرسول نسيج وحده وخصه رب العالمين بما لم يخص به أحداً من الرسل، فإنَّ الله سبحانه خلقه بكمالات ليست للبشر.

ومعروف أن أسلوب التشبيه إنما يأتي لإثبات وجه شبه بين شيئين مختلفين. لذلك قال العلي العظيم للبشر جميعًا ﴿ **قل إنما أنا بشر مثلكم** ﴾ [الكهف: ١١٠] و [فصلت: ٦] حتى يبين للناس أن كل ما فيهم في الرسول منه ليس إلا وجه الشبه بينهم وبين الرسول وهو البشرة، وفيما عدا هذه البشرية فللرسول ﷺ كمالاته التي ليست في البشر وخصائصه التي اختص بها وحده من عند الله العظيم خالقه.

ويقول العلي العظيم ﴿ **وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم** ﴾ وقاعدة التشبيه واحدة فوجه الشبه كلمة «أمم» وفيما عدا ذلك يختلفون.

---

(١) الأسماء هي كل ما يصنع حتى القصعة والقصيعة كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما.

ولا نحصي على رسول الله ﷺ كمالاته وأسراره التي حباه الله سبحانه وتعالى بها، فله أسرار وبه أسرار لا يعلمها إلا خالقه سبحانه.

وسيدنا رسول الله الكريم وسيم الطلعة، ربعة في الرجال، ليس بالطويل البائن ولا بالقصير المتردد، ضخم الرأس، ذا شعر رجل شديد سواده، مبسوط الجبين فوق حاجبين سابغين منونين، أبلج الوجه، واسع العينين، أدعجهما، تشوب بياضهما في الجوانب حمرة خفيفة، تزيد في قوة جاذبيتهما، وذكاء نظرتهما، لهما أهداب طوال حوالك، مستوى الأنف دقيقة، مفلج الأسنان، يرسل ذقنًا كثة في غير قرن، عالي العنق جميله، عريض الصدر، رحب الساحتين، أزهر اللون، شثن الكفين والقدمين، يسير ملقيًا جسمه إلى الأمام، مسرع الخطو ثابتة، على ملامحه سيما التفكير والتأمل، وفي نظرته سلطان الآمر الذي يخضع الناس لأمره، وفي صوته صحل. وتلك أوصاف البشر. ﴿قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً﴾ [الإسراء: ٩٣].أي شكليات ..

وكان ﷺ في بيته في مهنة أهله، يُفلي ثوبه ويرقعه ويحلب شاته ويخصف نعله ويخدم نفسه، ويعقل البعير ويأكل مع الخادم، ويقضي حاجة الضعيف والبائس والمسكين، ويؤثر ذوي الحاجة على نفسه وعلى أهله ولو كان به وبهم خصاصة.

وكان ﷺ، لا يدخر شيئًا لغده، جم التواضع، شديد الوفاء، حييًا، زاهدًا في الحياة، ينام على أُدم حشوه ليف.

لا يأكل حتى يجوع، وإذا أكل لا يشبع(١).

كفله جده عبد المطلب – سيد قريش – حتى الثامنة من عمره، ومن بعده كفله عمه أبو طالب، وفي الثانية عشرة رحل مع عمه إلى الشام في تجارة، ووصل «بصرى» في جنوب الشام. وتروي كتب السيرة أنه التقى هناك بالراهب النصراني «بحيرا» الذي رأى فيه أمارات النبوة الموجودة في كتب النصرانية.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام جـ٢/٧، و «حياة محمد» للدكتور محمد حسين هيكل.

واشترك مع عمومته في حرب الفجار، ثم اشتغل برعي الغنم لأهله وأهل مكة. ثم استأجرته السيدة خديجة بنت خويلد في تجارة لها إلى الشام فأحسن ما قام به، وقابل في هذه المرة الراهب نسطور وتحدث إليه.

ولما عاد من الشام وكان في الخامسة والعشرين، خطبته السيدة خديجة إلى نفسها، فخطبها الرسول وتزوجها وهي في سن الأربعين، وكان رسول الله ثالث زوج لها.

وولدت السيدة خديجة له ﷺ القاسم والطاهر والطيب وزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة.

لم يعبد ما كان قومه يعبدون. بل كان حنيفًا مسلمًا في طلبه للحق، متأملاً متحنثًا في غار حراء بجبل حراء بمكة، شاخصًا ببصره إلى السماء كأنما يقرأ فيه ولا يلتفت أبدًا عنها.

ولعظم استقامته وأمانته وعلو منزلة الحق في نفسه وتشبعه بالأمانة في كل سلوكه، لقبه قومه بالصادق الأمين، حتى أنهم لما اختلفوا فيمن يضع الحجر الأسود من جوار الكعبة وكادت تنشب الحرب بينهم، ارتضوا أن يحكم بينهم محمداً، فحكم بينهم واشترك معهم في وضع الحجر الأسود بمكانه من جدار الكعبة.

وفي شهر رمضان، من بعد أربعين سنة من مولده ﷺ، على أرجح الأقوال وهي رواية ابن عباس عن أنس في الصحيحين[1]. ويوافق ذلك سنة ٦١٠. شمسية، وفي قطع من الليل أثناء تحنثه بالغار من جبل حراء، ويقال أثناء غفوة أو سنة من النوم، جاءه الروح الأمين جبريل عليه السلام وقال له «اقرأ» وضمه وزمه حتى ردد ما قرأه عليه جبريل ﴿ **اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم** ﴾. [العلق]

---

(١) ويقول الواقدي وهو في سن الثالثة والأربعين، وفي تاريخ يعقوب عن مكحول إن القرآن نزل والنبي في الثانية والأربعين. وهذا هو سبب الخلاف في مدة إقامة الرسول في مكة من عشر سنين إلى خمسة عشر سنة من حين البعثة.

وقرأ رسـول الله ﷺ وجف حلقه وتصبب منه العرق، ورأى جبريلاً وقد ملأ وجهه ما بين السماء والأرض يقول له «يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل"(١).

ويقول العلي الحكيم ﴿ **شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان** ﴾. [البقرة: ١٨٥].

وكان ذلك ليلة الاثنين، قيل الموافق ١٧ من رمضان وقيل في وتر من العشر الأواخر منه وقيل غير ذلك ...

وقوله تعالى ﴿ .. **إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان** ﴾ [الانفال: ٤١] وذلك يوم لقاء رسول الله وصحبه مع المشركين ببدر وكان يوم الجمعة صبيحة سبع عشرة من رمضان. وبالحساب يتبين أن يوم نزول القرآن وافق يوم الاثنين السابع عشر من رمضان في غار حراء.

وآمنت به زوجه العظيمة السيدة خديجة فكانت أول من آمن به من الناس كافة ثم طمأنه وبشره ابن عمها ورقة بن نوفل الراهب النصراني.

ونزلت من بعد ذلك سورة المدثر وأمره خالقه أن ﴿ **قم فأنذر** ﴾.. ثم فتر الوحي ردحًا من الزمن، تراوحت الروايات فيه ما بين شهور قلائل إلى ثلاث سنوات، حتى ظن الرسول ﷺ أن الله سبحانه ودعه وقلاه. فانزل العلي الكريم سورة الضحى مقسمًا فيها بآيات كونية أنه لم يتركه ولم يكرهه بل ووعده ﴿ **وللآخرة خير لك من الأولى ولسوف يعطيك ربك فترضى** ﴾ [الضحى].

وآمن علي بن أبي طالب فكان كرم الله وجهه أول من آمن من الذكور في الناس ثم زيد بن حارثة ثم الصديق أبو بكر بن أبي قحافة الذي دعا أصفياءه للإيمان فآمن عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد الله وسعد بن أبي وقاص والزبير بن العوام ومن بعدهم عبيدة بن الجراح وغيره.

---

(١) كتاب «القرآن» لمحمد صبيح/ ٢١.

وبعد ثلاث سنوات، أمر الله العظيم رسوله بالجهر بالدعوة لعشيرته الأقربين: ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين. واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين** ﴾ [الشعراء: ٢١٤ – ٢١٥].

وكان العرب أهل فصاحة وبلاغة، ففهموا الآيات القرآنية على وجهها الصحيح، وعرفوا أن الدعوة قوية وقاطعة، تهدم الغث من الحياة .. فتحطم الأصنام والأوثان والنصب .. وتطهر المجتمع من الزور والآثام، وتحرر الفرد من العبودية والقهر، وتجعله قائماً بذاته مستقلاً أمام ربه الذي خلقه وأمام الناس؛ وتصحح الأسرة فتضع الرجل قوأما عليها، وتضع المرأة في موضعها منه . وتحفظ للمرأة كرامتها وتجعل لها كياناً إنسانياً وذمة مالية مستقلة وتكسوها بحرمة وقدسية.

وتعلم الناس الكتاب والحكمة وتعلمهم ما لم يكونوا يعلمون.

وبين لهم الرحمن الرحيم أن الأمر كله بيده سبحانه وأنه كتب على نفسه الرحمة، وأن آجالهم محددة في كتاب وأن أرزاقهم عنده وما يوعدون. وأنه سبحانه خالق السماوات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى، وخالق كل شيء .. فالمال مال الله وأنهم مستخلفون فيه، وأن الله سبحانه هو مالك الملك وأنه يؤتي ملكه من يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء، وأن الحكم لله وحده، وأن الحكم بكتاب الله وسنة رسوله، وأن الطاعة لله وحده وأن من يطع الرسول فقد أطاع الله.

وليس لأحد أن يتبع غير سبيل الله وإلا تفرق إلى سبل باطلة كثيرة وصار إلى شدة وبؤس وهوان وذل وخزي في الدنيا وعذاب أليم في الآخرة.

وأن العلم لله وحده، وأما الناس فلا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء. وأن العمل الصالح هو العبادة بإطلاق وأن الجهاد في سبيل الله ذروة سنام الدين.

وجاهد الرسول ﷺ المشركين بالقرآن ﴿ **وجاهدهم به جهاداً كبيراً** ﴾ [الفرقان: ٥٢].

وبعد ثلاث عشرة سنة، صدر له الأمر من ربه سبحانه بالهجرة إلى المدينة، فكانت بيعة العقبة الأولي ثم الثانية ثم هجرة المسلمين ومن بعدهم هجرة الرسول ﷺ، فكان آخر من ترك مكة شأن القائد البطل.

ويقول المشركون الذين يسمون أنفسهم بالمستشرقين: إن محمداً هرب بدينه، ليضعوا في وجدان المسلمين المعاني الخبيثة لكلمة "الهروب" مع مظهرية قولهم "بدينه" من باب التعمية ووضع السم في العسل؛ ذلك أن الهروب لا يجوز إلا من الجبان، وحاشا لله أن يجعل رسالته فيمن كان كذلك. بل جعل رسالته فيمن خلقه رسولاً للعالمين، في أحسن صورة خلقه وأثبت جنان جعله، وأقوى قلب وأنوره شرحه حتى ليتحمل ما لا تتحمله الجبال.

أمر الرسول ﷺ أصحابه بالهجرة، واحداً أو جماعات حسبما يوحى إليه، حتى لم يبق بمكة غيره ﷺ وصديقه أبي بكر وعلي بن أبي طالب، فيترك عليًا نائمًا في فراشه مغطى ببردته الحضرمية الخضراء، ويصحب أبا بكر ويهاجران إلى المدينة. وفي غار ثور والمشركون بسيوفهم على بابه والرسول وصاحبه بداخله، يقول له ﴿لا تحزن إن الله معنا﴾ [التوبة: ٤].

ولا يفعل ذلك إلا القوي العزيز الجانب بقوة العزيز الحكيم و﴿أن القوة لله جميعًا﴾.

واستقبلت المدينة رجالها نساؤها أطفالها، البدر خير داع ..

وملأ نور الرسول ونور الرسالة المدينة .. فصارت «المنورة».

وأسس الرسول الدولة الإسلامية في المدينة المنورة.

ودارت الأيام .. والرسول ﷺ هو الأسوة الحسنة للناس جميعًا، فلا يظهر أبدًا في مظهر الرياسة الدنيوية، فإذا جلس كان من حيث انتهى مجلس صحابته، يمازحهم ويخالطهم ويحادثهم ويداعب أولادهم ويجلسهم في حجره؛

يجيب دعوة من يدعوه حرًا أو عبدًا أو أمة، مسكينًا أو غنيًا، ويعود المرضى ويقبل العذر، ويبدأ من لقيه بالسلام والمصافحة، وإذا جلس إليه أحد وهو يصلي خفف من صلاته، وعندما يفرغ يعود إليها.

وكان ﷺ أكثر الناس تبسمًا، وطيب نفس وسعة صدر وأعظم حلم، لا ينطق عن الهوى ويخفض جناحه للمؤمنين(١).

والهدي المحمدي منذ أكثر من ١٤٠٠ سنة، هو ما اعتنقه علماء أوروبا في العصر الحديث، فسمعنا من مفكري !! فرنسا عن مبادئ الحرية والإخاء والمساواة. واتخذوها مبادئًا وأعلامًا لثورتهم، وذاع بها ڤولتير وروسو، وما هي في الحقيقة إلا نقلاً منهم عن التراجم الأوروبية للعلوم الإسلامية وترجمة القرآن في النصف الأول من القرن السادس عشر (حوالي سنة ١٥٤٢ شمسية).

فالحرية هي أساس ومضمون الإنسان. ويقول رب العالمين مبينًا لها على أعلى مستوى ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ [الكهف]، معطيًا الإنسان كل الحرية حتى القمة الغيبية في التفكر. يقول نعم لله أو يقول لا ..!! أما الحرية الإيمانية فهي أن تكون مطيعًا لله وحده فلا تطيع معه أحد إلا في الله، لأن الطاعة خضوع والخضوع لغير الله شرك واستعباد.

والمساواة بينها العلي القدير ﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب﴾ [الحج:] أي أن جميع الناس من تراب و ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى﴾ [الحجرات: ١٣] ثم يعود بهم إلى الأصل حتى لا يركب الجهل أحدهم ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء﴾ [النساء] أي أن جميع الناس نسل آدم وحواء فلا عرقية ولا عنصرية.

---

(١) "مختصر إحياء علوم لدين" للإمام أبي حامد الغزالي/ ١٣٥ - ١٤٢ بتصرف.

أما الإخاء فيقول سبحانه وتعالى: ﴿ **إنما المؤمنون إخوة** ﴾ [الحجرات: ١٠]، فقصره على المؤمنين. أما غيرهم فقد وصفهم رب العالمين بأنهم مجرمون ﴿ **أفنجعل المسلمين كالمجرمين** ﴾ [القلم: ٣٥].

تلك هي الرسالة الأزلية والباقية. التي مهدت لها كل الرسالات وكل دعوات الأنبياء والمرسلين .. فسار الدين الإسلامي شامخًا لا يحفل بصغار ولا يوقفه حقد، تنلب بالحق والرحمة حتى أذن الله جل شأنه أن يدخل الرسول مكة فاتحًا منتصرًا محطمًا الأصنام والأوثان والنصب، مطهرًا البيت الحرام من الرجس وقول الزور؛ مستجيبًا لله: لبيك اللهم لبيك.

وحضرت الوفود من جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية إلى رسول الله في مكة وفي المدينة وبايعته ودخلت الإسلام، وسمي ذلك العام بعام الوفود وهو الثامن الهجري. وكما كان العام العاشر للبعثة المحمدية عام الحزن؛ فقد دارت الأيام: أيام الجهاد والقتال في سبيل الله والطاعة الكاملة لحكم الله وسنة رسوله، فأبدل الله المؤمنين نصرًا مؤزرًا تحقيقًا لقوله تعالى ﴿ **كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئًا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون** ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وكما أن القتال في سبيل الله بلاء للمؤمنين وتمحيص لما في الصدور ﴿ **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين** ﴾ [آل عمران: ١٤٢] فالله جل شأنه بعلمه الكامل للسابق والحاضر واللاحق إنما يفعل هذا البلاء تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿ **ويتخذ منكم شهداء** ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

وكما كانت الغزوات الإسلامية مرابدًا لفروسية المؤمنين وثروة بأسهم في سبيل الله؛ فإن قضاءهم على اليهود: بني قينقاع وبني قريظة وبني النضير وفي خيبر؛ كان قطعًا لشأفة الخديعة والخسة والنجس من أرض شبه الجزيرة العربية.

وفي السنة التاسعة، أمر الرسول ﷺ، أبا بكر، أن يحج بالمسلمين (٣٠٠ مسلم). وفي أثناء موسم الحج، أوحى الله لعبده وحبيبه ﷺ بقطع كبير من سورة التوبة فبعث

عليًا بن أبي طالب رضي الله عنه إلى مكة ليقرأها على الناس وفيها الإنذار بأن المشركين لا يقربون مكة بعد عامهم هذا ولا يطوف بالبيت الحرام مشرك ولا عريان ولا يدخل الجنة كافر.

وفي العام الأخير من البعثة والهجرة المحمدية، حج رسول الله ﷺ بالمسلمين، فسميت حجة الوداع، بين فيها الرسول مناسك الحج ونزلت آية ﴿ ... **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا** ... ﴾ [المائدة: ٣] فلما سمعها أبو بكر – وقيل عمر – علم أن النهاية قربت فبكى.

وعاد الرسول ﷺ إلى المدينة. وأصابته الحمى وارتفعت حرارته، ولم يستطع أن يصلي بالناس، واستأذن نساءه أن يقيم لدى عائشة رضي الله عنها، ولما اشتد عليه النزع دعا الله ربه وخالقه: (اللهم أعني على سكرات الموت) ثم قبض.

وكانت رأسه الشريفة في تلك اللحظة على صدر عائشة فقالت: وجدته يثقل في حجري فذهبت انظر في وجهه فإذا بصره يشخص وهو يقول: (بل الرفيق الأعلى من الجنة) في يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول(١).

[ودخل أبو بكر الصديق على عائشة فتيمم رسول الله ﷺ وهو مغطى بثوب حبرة: فكشف عن وجهه ثم أكب عليه وقبله وبكى ثم قال: بأبي أنت وأمي والله لا يجمع الله عليك موتتين: أما الموتة التي كتبت عليك فقد مُتها](٢).

وإذ مات الرسول الكريم جسداً أمام العيان، فإنه يعيش مع المسلمين رسالة وأمراً ونوراً، هادياً إلى الله جل جلاله في علاه بإذنه سبحانه وسراجًا منيراً. يصلي الله تعالى عليه وملائكته، ويصلي عليه المؤمنون. والنبي الكريم يصلي على المؤمنين.

---

(١) "حياة محمد" للدكتور هيكل/٥٠٤ – ٥١٥ و"مختصر إحياء علوم الدين" /٢٨٣ – ٢٨٦.

(٢) تفسير ابن كثير جـ١ /٤٠٩. ويقول رب العالمين عن كل الناس ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتًا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون﴾ [البقرة: ٢٨] أي أن كل الناس ماتوا من قبل هذه الحياة ثم يموتون في هذه الحياة، فيكونون قد ماتوا موتتين كما في قوله تعالى: ﴿ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا ..﴾ [غافر: ١١]. أما الرسول ﷺ فلم يمت إلا في هذه الحياة الدنيا.

والصلاة منذ الأزل إلى ان تقوم الساعة دائمة.

والصلاة هي أعظم الدعاء والصلة معًا وأكرمها، والصلة هي المعرفة التامة، بالسمع والرؤية، والرؤية كما تكون بالقلب من الباصرة، تكون بالفؤاد بعد الاحتواء بالوجدان لنور الرسول الكريم.

والله العظيم، وملائكته، يصلون على النبي، لأنه مبعوث الرحمن بالرحمة. وصلاة الله دائمة لأن رحمة الله دائمة ووسعت كل شيء.

والله العظيم وملائكته، يصلون على المؤمنين، ليخرجهم من الظلمات إلى النور ﴿ **هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين** رحيمًا ﴾ [الاحزاب: ٤٣]، ذلك بأن الله رحيم بعباده ﴿ **كتب على نفسه الرحمة** ﴾ [الأنعام: ١٢].

والرسول الكريم الرؤوف الرحيم ﷺ يصلي على المؤمنين لأن صلاته سكن لهم ﴿ **وصلّ عليهم إن صلاتك سكن لهم** ﴾ [التوبة: ١٠٣] ليزداد إيمانهم فتزداد رحمة الله بهم ﴿ **هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم** ﴾ [الفتح: ٤] والرسول ما أرسله ربه إلا رحمة للعالمين.

والمؤمنون يصلون على النبي ذكرًا له وذكرًا لرسالته، واتصالاً به وإعمالاً لرسالته، وحبًا له وحبًا في سيرته، وترديداً لذكره وتذكيرًا بسنته، ورغبة فيه وطمعًا في حكمته، وصلة به ووصلاً لصحبته، وأملاً فيه وفي شفاعته.

اللهم صلي على سيدنا محمد الحبيب العالي القدر العظيم الجاه، نور الأنوار وسر الأسرار وترياق الأغيار ومفتاح باب اليسار وعلى آله الأطهار وصحبه الأخيار عدد نعم الله وأفضاله وسلم تسليمًا كثيرًا (١).

والحمد لله رب العالمين حمداً كثيرًا طيبًا مباركًا فيه كما يحب ربنا ويرضى.

---

(١) صيغة صلاة السيد أحمد البدوي على الرسول (كتاب السيد أحمد البدوي) لشيخ الأزهر الأسبق دكتور عبد الحليم محمود.

الفصل الأول
صُنْع الرســول

كان عرش ربنا العظيم على الماء، وأراد أن يخلق العالمين. فقد خلق القلم. قال رسّول ﷺ : (أول ما خلق القلم قال: اكتب. فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة)(١).

وحتى نفهم ذلك جيداً، لا بد لنا أن نعلم أن الله جل جلاله كتب تفصيل كل شيء في كتابه المبين من قبل أن يخلق أي شيء .. ولذلك سُميَ مبينًا أي شديد الوضوح محقق الوقوع.

ولتقريب هذا إلى الأذهان، فليتصور القارئ الفاضل مُؤلفًا لرواية .. فإن هذا المؤلف سيخلق في فكره كيانًا عامًا لرواية ويجعل لها أحداثًا كلية أي أحداثًا رئيسية تسير على منهاجها بقية الأحداث ثم يبين الأحداث الفرعية وجزئياتها وتفاصيلها وأشخاصها وأوقاتها .. وجميع ما يقال فيها من كلام وما يترتب عليها من أحداث وانفعالات ونتائج وهكذا إلى أن تنتهي الرواية، ثم تكون هذه الرواية مسرحية أو فيلمًا سينمائيًا تحدث وتدور أمام الناس هكذا كما رسمها المؤلف – وكل من يراها لأول مرة فإنه لا يعرف شيئًا من أحداثها إلابعد وقوعها. ولكن المؤلف وحده هو الذي يعرف كل جزيئاتها من قبل أن تقع ومن قبل أن تمثل.

وهذا المثل لتقريب حقيقة "الحياة الدنيا" التي نعيشها، فإن الله سبحانه وتعالى قد أمر القلم فكتب بأمره كل شيء. ثم ها هي الأحداث بأشخاصها الذين خلقهم الله سبحانه وتعالى لها ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾ [الصافات: ٩٦] يقومون بأدوارهم التي رسمها الله سبحانه وتعالى لهم في القصة الإنسانية التي بدأت بنشأة الإنسان وتسويته ثم موته ويتوسطها إحياءه في الحياة الدنيا لابتلائه أيهم أحسن عملاً فموته ثم بعثه يوم

---

(١) رواه الإمام أحمد بن حنبل عن الوليد بن عبادة (كتاب "أصول الإيمان" / ٢٠ للإمام محمد بن عبد الوهاب.

القيامة لحسابه وجزائه[1]. قال تعالى﴿ **الله يبدؤا الخلق ثم يعيده - أي الخلق - ثم إليه ترجعون** ﴾ [الروم: ١١].

وقد أخبرنا العلي العظيم عن هذه الأحداث الكلية في كتابه العظيم الذي أنزله مع رسوله الكريم نوراً على نور؛ يبين الخلق كيف بدأ ثم الموت ثم الحياة الدنيا ثم الموت. ثم البعث والحساب والجزاء ﴿ **وأنزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين** ﴾ [النمل: ٨٩] ففيه البيان الكثير لكل شيء خلقه بداية ونهاية.

ولم يترك ربنا العظيم شيئًا دون ذكر حقيقته:

﴿ **ما فرطنا في الكتاب من شيء** ﴾ [الانعام: ٣٨].

ثم أنه سبحانه وتعالى رحمة منه وهدى للمؤمنين فصل لهم كل شيء:

﴿ **ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم** ﴾ [الاعراف: ٥٢].

﴿ **وكل شيء فصلناه تفصيلاً** ﴾ [الإسراء: ١٢].

وكتب سبحانه جل جلاله كتابه باللغة العربية فقال جل من قائل ﴿ **ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته** ﴾ [فصلت: ٤٤] ولذات السبب أي حتى يتم عقل القرآن وفهمه أنزله سبحانه بذات اللغة التي كتبه بها.

﴿ **إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون** ﴾ [يوسف: ٣].

ثم بين جل شأنه الحكمة التي تحققها هذه العلة فقال تعالى:

﴿ **عربياً غير ذي عوج لعلكم تتقون** ﴾.

وأخبرنا سبحانه ان هذا الذي أنزله إلينا هو من "أم الكتاب" ﴿ **وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم** ﴾ [الزخرف] وأنه سبحانه وتعالى جمعه منه وقرأه لنتبعه بعد أن يبينه لنا.

﴿ **إن علينا جمعه وقرآنه. فإذا قرأناه فاتبع قرآنه. ثم إن علينا بيانه** ﴾ [القيامة].

---

(١) "حكاية البشر علمياً" للمؤلف.

والقى الله العظيم، القرآن للرسول بحرفه ولفظه ورسمه ولحنه والقى الله العظيم بيان القرآن للرسول إلهاماً فكانت السنة الشريفة .. ومن القرآن والسنة يخبرنا العلي الحكيم كيف صنع رسوله الكريم.

وكمقدمة لهذا

فإن العلي العظيم يذكر لنا بياناً واضحاً ومفصلاً كيف صنع رسوله موسى عليه السلام حتى يكون رسولاً إلى فرعون لإخراج بني إسرائيل من مصر. فكان رسولاً إلى فئة من الناس هم بني إسرائيل وموكولاً بمهمة محددة تبدأ وتنتهي بأحداث معينة، ومع هذا فإن النظر في كيفية صنع موسى يعطينا فكرة واضحة عن كم كانت صناعة سيدنا محمد رسول الله ﷺ!!

فقد أمر الله الحكيم أم موسى ﴿ **إذا أوحينا إلى أمك ما يوحى. أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم فليلقه اليم بالساحل، يأخذه عدو لي وعدو له، وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني** ﴾ [طه: ٣٨ - ٣٩].

فمنذ كان وليداً بدأت صناعة موسى، الرسول لقوم بعينهم ولمهمة محددة: ﴿ **إنا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم ...** ﴾ [طه: ٤٧]. ومع هذا، فإن النظر في هذه الصنعة يفسر مهمة موسى عليه السلام أوضح تفسير؛

فإن موسى عليه السلام سيبعث إلى فرعون في عقر داره وسيخاطبه مخاطبة الند للند بنفس علم فرعون وأقوى وبالحق من ربه.

لهذا، فإن الله سبحانه يسلم موسى إلى فرعون ويرجعه مع ذلك إلى أمه مرضعة وحاضنة في قصر فرعون، فينشأ مع حنان الأم ودفئها مطمئناً، ويُلقي العلي العظيم محبة منه على موسى، فيجعله بقدرته سبحانه قرة عين لفرعون وزوجه: ﴿ **وقالت امرأة فرعون قرت عين لي ولك، لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وهم لا يشعرون** ﴾ [القصص: ٩].

وكان فرعون يقتل من يولد ذكراً في بني إسرائيل ﴿ ... **يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم؛ وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم** ﴾ [البقرة: ٤٩].

وتلقى موسى تعليمه في فرعون مع أمراء الفراعنة فشب فيهم كأنه منهم، وعلى يد أعظم الكهنة الأساتذة، فتعلم الفلك والهندسة والطب والكيمياء والرياضة وفنون الحكم والقيادة والحرب؛ حتى إذا ما أتم ذلك، أرسله رب العالمين إلى شعيب عليه السلام كي يتعلم منه "الحكمة" من الحياة: ﴿ **فلبث سنين في أهل مدين** ﴾ [طه: ٤](١) وفي طريق عودته إلى الوادي المقدس علمه ربه الرشد على الخضر عليه السلام ﴿ **قال هل اتبعك على أن تعلمني مما علمت رشداً** ﴾ [الكهف: ٦٦]؛ ثم واصل طريقه في الله وإلى الله ﴿ **ثم جئت على قدر يا موسى. واصطنعتك لنفسي ذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تنيا في ذكري. اذهبا إلى فرعون إنه طغى** ﴾ [طه: ٤٠-٤٣] وبدأت مهمة موسى عليه السلام وبدأت رسالته ...

هذا عن كيف صنع الله العلي العظيم رسوله إلى بني إسرائيل وفرعون الاثنين معاً!!.

فكيف صنع الله سبحانه رسوله إلى العالمين ...

إن البداية، تحتاج دائماً ان تكون يقيناً ابلجاً، فهي المقدمة، فإذا ما كانت صحيحة وحق، فإن ما يبنى عليها يكون صحيحاً وحقاً كذلك.

والبداية من عند الله واضحة جلية ..

فالله سبحانه يخبرنا عن واقعات ثلاث حدثت من قبل هذه الحياة الدنيا.

الواقعة الأولى.

هي واقعة خلق الإنسان وتعليمه البيان وأخذ الميثاق عليه ﴿ **ألست بربكم" قالوا بلى ...** ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

---

(١) صفوة التفاسير جـ٢/ ٢٣٤.

فالله جل جلاله يقرر أنه خلق الإنسان اي كل الناس من قبل هذه الحياة الدنيا في قوله تعالى ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتًا فأحياكم .. ﴾ [البقرة: ٢٨] ذلك بأن الموت هو نهاية الحياة فلا موت بغير حياة من قبله .. ولانه كذلك فإن الله يبدي عجبه من كفر الناس بالله الذي عرفوه في حياتهم الأولى واعطوا له الموثق ﴿ الست بربكم قالوا بلى ﴾ وبعد أن اماتهم فإنه لما احياهم في هذه الحياة الدنيا كفروا به !!

أما كيف عرف الناس ربهم في حياتهم الأولى التي يسميها بعض العلماء بحياة الذر، فهو أن الله خلق الناس جميعًا أو أخذهم جميعًا من ظهر آدم ذرًا وركب لهم عقولاً وعلمهم وأخذ عليهم العهد والميثاق بأن الله ربهم(١).

ويقول بعض العلماء غير ذلك، ولأن التفسير لا يتفق مع ألفاظ الآية. فقد قال الحسن البصري رضي الله تعالى عنه إن الناس في حياتهم الأولى جاءوا نسلاً من نسل جيلاً بعد جيل وقرنًا بعد قرن فذلك قوله تعالى ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا ﴾ فلم يقل من آدم وإنما قال من بني آدم مطلقًا. ويوافقه الإمام ابن كثير وكل السلف تقريبًا على هذا التأويل الصحيح الذي يتفق مع كلمات الآية الكريمة(٢).

ومهما اختلف العلماء في تسمية تلك الحياة كما ورد في القرآن بأنها الحياة الأولى أو النشأة الأولى أو الخلق لأول مرة، فإن الثابت أن هناك خلقًا كان قبل هذه الحياة التي نعيشها وأن تلك الحياة الأولى قد تم فيها تعليم الإنسان البيان لأعظم الحقائق وأصل الحقائق كلها وهي حقيقة "الأحدية الإلهية" وما في هذا البيان من سعة شمول وعمق وعظمة ودقة وعلوم تجعل الإنسان أهلاً لأن يفهم ويعي من بعد أن يعقل حتى يكون قادراً على استنباط هذه الحقيقة العظمى، ومن ثم يكون مؤهلاً لأن يسأل فيجيب عن أعظم الحقائق وأصل الحقائق كلها ثم يقسم أن الله سبحانه وتعالى ربه.

(١) تفسير الجلالين/١٥٨ ومقالات كثيرة لبعض المشايخ وغيرهم مثل مقالة الدكتور زكي مشعل/١٩٩-٢٠٣ في كتاب "مولد سيدنا محمد" الصادر عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ربيع أول ١٣٩٥ والتفسير الوسيط/١٠٤٧ و"صفوة التفاسير"/٤٨١ قال ابن عباس: مسح الله آدم فاستخرج كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة.

(٢) تفسير ابن كثير جـ٢/٢٦٤.

ثم إن الإنسان ليفهم ويعي ويقدر التقدير الكامل مسئولية هذا القسم ومغبة الحنث بالعهد والجزاء الصارم الرهيب الذي ينتظره إن هو غفل عن هذه الحقيقة وحنث في عهده وأصر. وهو ما يذكره ربنا عنهم في قوله ﴿ **ونسي ما قدمت يداه** ﴾ [الكهف: ٥٧] وفي قوله ﴿ **ويصرون على الحنث العظيم** ﴾ [الواقعة: ٤٦].

والله سبحانه لكي يبين لنا ان تلك الحقبة من الحياة الأولى كانت كاملة شاملة ابتداء من آدم حتى آخر ذريته فإنه سبحانه خلقهم جميعًا واعذرهم بما علمهم من بيان وقال لهم: ﴿ **أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين. أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون. وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون** ﴾ [الأعراف: ١٧٢-١٧٤].

إذًا فقد خلق الله سبحانه آدم وأولاده جميعًا وجميع الآباء وجميع الأبناء أي الذرية جميعًا، وأخذ عليهم كلهم العهد ووجه إليهم كلهم التحذير والإنذار ثم أماتهم.

ولما كان الناس جميعًا لم يكمل خلقهم كلهم بعد في هذه الحياة الدنيا بدليل المواليد الذين يولدون كل يوم بل كل دقيقة؛ فإنه لذلك وبالتالي يكون ذلك الخلق الأول وما وقع فيه من «بيان» وقسم وتعذير وتحذير، إنما تم قبل هذه الحياة الدنيا، اي تم في الحياة الأولى أو النشأة الأولى أو عند الخلق لأول مرة.

ولما كان الله سبحانه وتعالى سيقول للناس يوم العرض عليه في يوم القيامة ﴿ **وعرضوا على ربك صفًا، لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة ...** ﴾ [الكهف: ٤٥]؛ ولما كنا في هذه الحياة الدنيا لم نقف جميعًا أو فرادى صفًا أمام الله؛ فإن الآية الكريمة إنما تذكرنا بموقفنا في الحياة الأولى الذي وقفناه عند أخذ الميثاق علينا.

ولما كنا في يوم القيامة، سنقف جميعًا أمام الجبار ملك يوم الدين، كاملي الخلق، فإنه لا يكون ثمة دليل قرآني على القول «بحياة الذر» وإنما الأدلة كلها أنها كانت حياة كاملة عريضة عظيمة البيان للخلق جميعًا بأجسادهم ملتبسة نفوسهم، كما سيكونون في يوم الحشر تمامًا.

والواقعة الثانية.

هي أن الله سبحانه بعد أن علم الناس البيان وأخذ عليهم العهد والميثاق، فقد عرض الأمانة على آدم بعد بعثه وحده في الجنة، فقال سبحانه وتعالى ﴿ **إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها، وحملها الإنسان، إنه كان ظلومًا جهولاً** ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

وهذا العرض يتطلب بالضرورة حرية من عرض عليهم ..

ورغم اختلاف العلماء في من عرضت عليهم الأمانة؛ فقد قال بعضهم أنهم كل من خلقهم الله: الملائكة والناس وغيرهم .. وقال آخرون بل عرضت على كل من يسكن السماوات والأرض .. وآخرون قالوا بل عرضت على الكواكب والأرض وما في السماوات ..

وسواء كان هذا الرأي أو ذاك؛ فإن الثابت يقينًا أن كل ذلك كان له إرادة حرة كاملة حتى أن الله سبحانه «عرض» عليهم، ولأن العرض يتطلب الاختيار، ولأن مقتضى الاختيار حرية المختار. وإذًا فلم يكن شيئًا مسخرًا لشيء عند حدوث «العرض».

وعندما أهبط الله جل جلاله، آدم وزوجه وإبليس إلى الأرض، فإن الثابت أنه سبحانه كان قد سخر كل شيء فعلاً لآدم وزوجه؛

أي أن آدم، عندما بدأت حياته على الأرض في هذه الحياة الدنيا، وجد كل شيء مما خلق الله تعالى مسخرًا له.

ومن هنا، فإن عرض «الأمانة» لابد وأن يكون قد تم قبل استخلاف آدم، أي قبل جعله "خليفة" في الأرض.

وعندما يذكر العلي العظيم قصة استخلاف الإنسان في الأرض، ويجعل آدم أول الخلفاء، فإنه سبحانه يذكر لنا أنه أمر الملائكة بأن يسجدوا لآدم ﴿ **فسجد الملائكة كلهم أجمعون** ﴾ [ص: ٧٣].

أي أن الملائكة كانوا مسخرين .. لذلك سجدوا لآدم.

ولما كان ذلك، فإن «عرض الأمانة» يكون قد تم قبل سجود الملائكة لآدم ومن باب أولى يكون قد تم قبل إهباط آدم إلى الأرض أي قبل هذه الحياة الدنيا.

والواقعة الثالثة.

أن الله جل جلاله جمع الأنبياء جميعًا[1] وأخذ عليهم الميثاق للرسول الكريم ﷺ في قوله تعالى **﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه؛ قال ءأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري؛ قالوا أقررنا؛ قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين. فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾** [آل عمران: ٨١ - ٨٢].

وهذا الموثق من النبيين يدل - على فرض أخذه منهم فرادى أو مجتمعين - على أنه أخذ منهم قبل هذه الحياة الدنيا، لأن الميثاق كان على وعد من الله جل شأنه هو **﴿ لما آتيتكم من كتاب وحكمة ﴾** أي عندما يأتيكم ما أعددت لكم من كتاب ومن حكمة يكونا مضمونا لرسالاتكم إلى أقوامكم عندما تبعثون إليهم.

ولما كان الوعد يسبق حدوث الشيء الموعود به أي يقع قبل حدوثه ولما كان الموعود به هو مجيء الرسول ﷺ ومعه القرآن[2].

إذًا، فهذا الميثاق قد أُخذ على النبيين من قبل بعثة رسول الله ﷺ، ولكن على علم بها. ولما كان النبيون من آدم فمن بعده، فإن الميثاق يكون من البداية من قبل هذه الحياة، لأن لفظ الآية يعني جمع الأنبياء، وجمعهم معًا لم يكن في هذه الحياة، إذًا فهو لا بد أن يكون من قبلها. مثله مثل جمع الناس معًا وقول ربنا العظيم لهم **﴿ ألست بربكم ﴾**.

---

(١) قال بعض العلماء إن الميثاق أخذ على النبيين فرادى. انظر التفسير الوسيط/٦٠٧ و ٦٠٨.

(٢) جاء بالتفسير الوسيط/٦٠٨ (فالغرض من الآية - آل عمران ٨١ - أن محمداً ﷺ وقد أيده الله بالمعجزات المحققة لرسالته، وجاء مصدقًا لما مع الأنبياء قبله، فهو مؤيد من المرسلين قبله. كما قال ابن جرير (لم يبعث الله تعالى نبيًا، آدم فمن بعده - إلا أخذ عليه العهد في محمد ﷺ) وهذا هو الأرجح وهو قول الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه على عهدة الراوي. فكلها روايات لأشخاص الله وحده العليم بحقيقتها.

ولما كان ذلك

ولما كان الأنبياء قد عرفوا في تلك الحياة الأولى أنهم قد أختيروا من الله ربهم للنبوة؛ ومن ثم أُخذ عليهم الميثاق..

ولما كان الميثاق قد أخذ عليهم للرسول ﷺ؛ فإن الرسول الكريم يكون قد أُعد للرسالة قبل هذا الموثق أي من قبل الحياة الأولى ومن باب أولى من قبل هذه الحياة الدنيا.

فأين أُعد الرسول ﷺ؟

أين صنعه الله جل جلاله؟ أين علمه وربّاه وأدبه؟

الثابت يقينًا أن الله سبحانه وتعالى لم يقذف بمحمد وليداً إلى قصر قيصر أو إيوان كسرى ليتعلم فيه على عينه جل جلاله.

والثابت يقينًا كذلك، أن الله جل شأنه لم يُهيئ للرسول أي نوع من التعليم في الأرض. فلم يجلس إلى معلم، ولم يمش إلى مدرسة. فشب لا يعرف شيئًا مما يتداوله الناس من أهل الكتاب، ولم يتعلم القراءة ولا الكتابة. وانحصر نشاط رسول الله وعمله في رعي الغنم والسير في التجارة كعامة قومه.

ورغم ذلك، فإنه عندما نزل عليه الوحي بالرسالة، فإنما أمر بأن يدعو إلى الله وحده لا شريك له. وهي ذات الحقيقة الكبرى التي بين الله للناس اقطارها وحذافيرها في تلك الحياة الأولى بعد أن علمهم البيان كله. فأين لرسول الله الذي لا يعلم شيئًا من الكتاب ولا يكتب ولا يقرأ بذلك البيان وهذه الحقيقة الكبرى.

بل إن الرسول وصف جملة وتفصيلاً بأنه رحمة للعالمين، وأن رحمته هذه إنما تتبلور في أن يعلم الناس الكتاب والحكمة ويزكيهم ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون. قال العلي الحكيم:

﴿ كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴾ [البقرة: ١٥١].

وإذا بهذا الرجل الذي يرعى الغنم ولا يكتب ولا يقرأ وليس له نصيب مع أهل الكتاب، يدعو الناس ويتصدى بدعوته إلى كل النقاش العلمي والإرهاصات الفكرية التي تبدي من يهود الجزيرة العربية والنصارى بها ومن المشركين والملحدين، كل أولئك معًا في رباط واحد للعمل على تقويض الرسالة المحمدية، وإذا برسول الله ﷺ يفحم كبيرهم قبل صغيرهم ويزلزل الأرض من تحتهم، فيؤمن الواحد منهم تلو الآخر، حتى إذا أخذت الدعوة دولة وكيانًا، كان الإيمان بالله العظيم ورسوله الكريم أفواجًا أفواجًا.

والرســـول ﷺ

يســير في الطريق فيجد عمـر بن الخطـاب يبول واقفًا بجـانب الطريق، فيأمره: (لا تبل وأنت واقف). ويحتار كل علماء الطب في الأرض كلها حتى يهتدوا إلى بعض الفوائد الصحية التي تكمن في هذا الأمر النبوي الشريف.

ويتلقى الرسول الكريم هدية من المقوقس عظيم قبط مصر: طبيبًا وجاريتين وعسل، فيأخذ الهدية ويرد الطبيب قائلاً: (نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع).

وهي القاعدة الكبرى للوقاية من جميع الأمراض الباطنية وغيرها.

ثم يلجأ الناس إليه ﷺ لعلاج مرضاهم فيقول ﷺ مقررًا حقيقة طبية مذهلة: (المعدة بيت الداء). ثم يصف الدواء الذي لم يكتشف إلا منذ سنوات (والحمية أس الدواء). وما وصل الراسخون في علوم الطب إلى أن الجوع أي الحمية يُوَلِّدُ في الجسد خمائر تفوق فعاليتها أعظم المضادات الحيوية في قتل الميكروبات والجراثيم معًا.

ويتكلم الرسول الكريم في أعظم حقيقة فلكية، لم يصل العلم إليها بعد: فيقول لأبي ذر رضي الله تعالى عنه وهو جالس معه في المسجد عند الغروب: يا أبا ذر أتدري أين تذهب الشمس؟ فيقول أبو ذر الله ورسوله أعلم. فيقول الرسول ﷺ: إنها تذهب حيث تسجد تحت العرش لتستأذن فيؤذن لها. ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها؟ وتستأذن فلا يؤذن لها ويقال ارجعي من حيث جئت فتطلع من مغربها فذلك قوله تعالى: ﴿والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم﴾[1].

---

(١) كتاب «الله والكون» للمؤلف / ١٨٠ عن صحيح البخاري.

وإذا تتبعنا سنة رسول الله ﷺ في كل ما قال لوجدنا العلوم تتفجر من أحاديثه الشريفة مُبينة للناس وهادية، حتى قال علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: علمني رسول الله ﷺ الف باب وتشعب لي من كل باب ألف باب. ذلك بان رسول الله كما وصف نفسه مدينة العلم وعلي بابها.

- فأين صنع الله العظيم رسوله الرؤوف الرحيم الذي هو مدينة العلم؟

يقول العلي الحكيم في محكم تنزيله:

﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم ..﴾ [البقرة: ٨٩] أي لما جاء لأهل الكتاب القرآن مصدق للتوراة والإنجيل.

وفي قواعد اللغة: كلمة «عند» ظرف مكان مبهم، وظرف المكان المبهم يدل عليه ويبينه الاسم المضاف إليه. فيدل ويحدد المكان.

ولما كان الله سبحانه قد حدد هذا المكان في قوله «عند الله»، وإذاً فالكتاب جاءهم من عند الله جل جلاله.

وتبياناً لهذا المكان. وتحديده على وجه واضح مبين. قال سبحانه ﴿حم. والكتاب المبين. إنا جعلناه قرءانا عربياً لعلكم تعقلون. وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم﴾ [الزخرف: ١-٤].

وإذاً فمكان القرآن العظيم هو «لدينا» أي عند الله في أم الكتاب وأنه علي حكيم.

وبهذا يكون مكان الكتاب الذي أخبر الله عنه في آية البقرة واضحاً محدداً(١).

ولما كان ربنا يقول في محكم التنزيل:

﴿ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم ...﴾ [البقرة: ١٠١].

---

(١) قال تعالى: ﴿ربنا إني اسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة ....﴾ [إبراهيم: ٣٧] و«عند» في الآية الكريمة بإضافتها إلى «بيتك» تفيد بوضوح تام المكان الذي ترك فيه إبراهيم عليه السلام ذريته. مما يد على النسق القرآني في استعمال كلمة «عند» كما ان ذلك هو القاعدة النحوية.

أي لما جاءهم رسول الله ﷺ ومعه القرآن مصدق للتورة والإنجيل.

ولما كانت الصياغة لهذه الآية الكريمة هي ذات الصياغة للآية ٨٩ البقرة والآية ٣٧ إبراهيم، وكقوله تعالى عن الملائكة ﴿**إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون**﴾ [الاعراف: ٢٠٦]. نسق قرآني واحد ومبين.

إذاً فمكان صناعة وإعداد وتعليم وتاديب الرسول ﷺ كان هو ذات مكان «الكتاب» أي «لدينا» أي لدى الله جل جلاله في علاه.

لذلك قال الرسول ﷺ (أدبني ربي فاحسن تأديبي).

وقال العلي الحكيم في ثاني طائفة من القرآن نزلت على رسول الله ﴿**وإنك لعلى خلق عظيم**﴾ [القلم: ٤].

خلقه الله سبحانه من قبل هذه الحياة الدنيا، كما خلق الناس جميعاً من قبلها؛ ولكنه خلق الرسول من قبل الناس جميعاً.

وعلمه ربه سبحانه "القرآن" من قبل هذه الحياة الدنيا، ومن قبل أن يعلم الناس جميعاً "البيان" لحقيقة الربوبية أصل الحقائق كلها في النشأة الأولى.

وصنعه ربه العظيم رسولاً للعالمين ورحمة، واختار الأنبياء المرسلين الذين سيعدون العدة ويمهدون لرسالته من قبل بعثته، واخذ له الميثاق عليهم، حتى إذا أرسلوا وأدوا مهمتهم ونصحوا للناس وبينوا تنفيذاً للموثق وإيماناً بالله والرسول ونصروه بالتبشير له ﴿**جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم ..**﴾.

وكذلك صنع الله جل جلاله عبده ورسوله محمداً. علمه القرآن ﴿**الرحمن. علم القرآن**﴾ وعلمه الصلاة ونسك العبادة في نور أفقه الأعلى تحقيقاً لقوله تعالى «لدينا».

فكان الرسول ﷺ في تلك الحياة الأولى من قبل خلق الإنسان؛ تلميذاً للرحمن سبحانه في علياء الله جل جلاله عابداً متنسكاً لله وحده لا شريك له. كان الرسول وحده عبداً لله وحده، فكان لذلك أول من أسلم.

وأخبر العلي العظيم بذلك في أمره لرسوله : ﴿ **قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين. لا شريك له وبذلك أمرت ..** ﴾ [الانعام: ١٦٢-١٦٣] ونجد أن الواقعات التي في الآية الكريمة هي بالترتيب: صلاتي ونسكي في ملك الله وحده ثم محياي في هذه الحياة الدنيا وموته فيها.

• وكل شيء عند الله جل جلاله بميزان الحكمة الربانية، فترتيبه للواقعات إنما بعلمه سبحانه المحيط بكل شيء والسابغ لكل شيء. فامر الرسول ان يخبر الناس أن صلاته لله كانت ثم تعلمه نسك العبادة لله وحده لا شريك له، ثم من بعد ذلك كانت حياته في هذه الحياة الدنيا ومماته فيها.

لهذا،

قال أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه عندما كشف عن وجه رسول الله ﷺ وهو مسجى ميتًا: بأبي أنت وأمي والله لا يجمع الله عليك موتتين: أما الموتة التي كتبت عليك فقد مُتّها.

وإذا كان الناس جميعًا قد ماتوا من بعد حياتهم الأولى فأحياهم في هذه الحياة الدنيا ﴿ .. **كنتم أمواتًا فأحياكم ..** ﴾ [البقرة: ٢٨].

فإن رسول الله ﷺ خُلق - نفسًا نورانية - وظل حيًا مصليًا لله وحده متنسكًا في عبادته، حتى أذن الله سبحانه له في البعثة فبعثه في هذه الحياة الدنيا حتى إذا ما انتهت بعثته، ذاق الموتة التي كتبت عليه، سنة الله التي كتبها على كل من عاش فيها.

والمعلوم أن إخراج الترتيب عن ترتيبه هو من قبيل إخراج المعنى عن مدلول اللفظ، بل وأكثر، لأن البعد بالمعنى عن مدلول اللفظ هو تاول وليس تأويلاً.

أما عدم الالتزام بترتيب الواقعات فهو تحريف للقول وتزييف للحقائق، فليس للبشر أن يرتبوا لخالق البشر.

ذلك بأن الفهم للغيبيات - التي هي موضوع الإيمان - ينبغي الا يعدو التفسير

الصحيح للألفاظ القرآنية بمدلولها الحقيقي وترتيبها ونسقها القرآني الذي أتت به دون إخضاع تفسيرها للمعقولات الإنسانية والظواهر المادية التي هي من عالم الشهادة.

ولأن الغيبيات من علم الله جل شانه وحده لا يعلمها إلا هو، فيجب التقيد في تفسيرها وفهمها بالألفاظ ومعاني الكلمات التي أخبرنا الله بها عنها وبدقة وحذر وبذات ترتيبها التي أنزلت به.

ومن ثم فإن الانسلاخ من الآيات القرآنية الغيبية إلى مادية التعقل، إنما يؤدي فوراً إلى الزيغ عن الحق واتباع الهوى والتردي في التصور والولوج في البطلان.

ويقول العلي الحكيم:

﴿ واتل عليهم نبأ الذي ءاتيناه ءاياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين. ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه، فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث؛ ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٦].

وقوله تعالى **﴿ ولكنه أخلد إلى الأرض ﴾** أي اتبع ماديات التعقل، لأن كوكب الأرض هو أكبر مادة كما أنه أصل كل المواد.

وإذا كان العلي الكبير ينهانا عن مادية التفكير في آيات الله التي تتكلم عن الغيب والغيبيات، فإنه جل شانه يعرفنا ان القرآن - موضوع التفكر - روح من عند الله في قوله سبحانه وتعالى:

﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ... ﴾ [الشورى: ٥٢] والروح ليست من عالم الشهادة المادية.

وكذلك التفكر في الروح لا يكون بالماديات وعقلها.

من هذا يتبين

أن السبيل الوحيد إنما يكون بالالتزام التام والدقيق بمعاني الألفاظ القرآنية والمحافظة في بيان وفهم واقعات الغيب بترتيبها الوارد في كلمات الله . ﴿ فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته ، واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾ [الاعراف : ١٥٨] .

فإذا أخبرنا العلي العظيم ان الرسول صلى لله وتنسك له سبحانه وأن ذلك في الترتيب من قبل حياته في هذه الدنيا التي هي من قبل مماته فيها ؛ فإن النسق القرآني يستقيم فضلاً عن أنه هو الصراط المستقيم .

لهذا

يقول ربنا على لسان رسوله « وبذلك أمرت » .

ثم يبين علة هذا جميعًا في الحقيقة الكبرى بالنسبة لغيب الإنسان وهي : ﴿ وأنا أول المسلمين ﴾ [الانعام : ١٦٢–١٦٣] أي أسلم من قبل أن تسلم الأرض والسماء أي من قبل خلق الكون .

فما كانت للرسول صلاة ونسك من قبل حياته على الأرض إلا لأنه أول من أسلم ﴿ قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم ﴾ [الانعام : ١] ﴿ وأمرت لأن أكون أول المسلمين ﴾ [الزمر : ١٢] .

ذلك بأنه لو لم يكن أول المسلمين لأنه أول من أسلم لله، لكانت الأرض والسماء وكذلك الملائكة ثم آدم أسبق منه وكذلك جميع الرسل ومن تبعهم أجمعين .

ولهذا

يبين العلي العظيم هذا الدليل واضحًا في قول إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وهما يرفعان القواعد من البيت الحرام ﴿ ربنا واجعلنا مسلمين لك . . ﴾ [البقرة] .

ومن هذا نعرف سبب الخطأ الشائع في تفسير تلك الآيات، ذلك بأن هذه التفاسير قد اعتمدت على المعقولات البشرية، فخرجت بذلك عن نطاق مدلول الآية الكريمة بألفاظها، أي زاغت عن الصراط المستقيم وتفرقت سبلاً بغير حق .

فقد دعا إبراهيم وإسماعيل ربهما رب السماوات والأرض وهما واقفان على جدار الكعبة يرفعان منها القواعد ان يجعلهما العلي العظيم مسلمين و﴿ **وصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون. أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل واسحق إلهًا واحدًا ونحن له مسلمون** ﴾ [البقرة: ١٣٢-١٣٣].

وكثير من بعدهم ﴿ **إنا أنزلنا التوارة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون والذين أسلموا للذين هادوا والربانيين والأحبار** ﴾.

والذين من بعدهم ﴿ **وإذ أوحيت إلى الحواريين أن ءامنوا بي وبرسولي قالوا أمنا واشهد بأننا مسلمون** ﴾ [المائدة: ١١١].

ولأن وجود هؤلاء المسلمين، وهم بآلاف الآلاف، من قبل بعثة سيدنا رسول الله ﷺ لا يستقيم ترتيبًا مع قوله ﴿ **أول من أسلم** ﴾، ذلك بان المسلمين ليسوا هم أمة محمد فقط كما يتبادر إلى فهم العامة من الناس، وإنما هم كل من آمن بالله جل شانه منذ آدم عليه السلام وحتى تقوم الساعة للرسول الذي آتاهم، فإذا ما بعث محمد ﷺ، كان المسلمون هم الذين يؤمنون بالله والرسول ﴿ **قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين** ﴾ [آل عمران: ٣٢] فمن كفر بذلك فقد خرج من زمرة المسلمين.

ولأن الله سبحانه تبارك وتعالى قد حدد ان محمدًا ﷺ هو «أول من أسلم» ولم تات بالآية قرينة تقيد هذا المطلق من القول

فإن «ال» في كلمة «المسلمين» في قوله تعالى ﴿ **وأمرت لأن أكون أول المسلمين** ﴾ [الزمر: ١٢] تكون للجنس وليس للعهد.

ومن ثم، فهو ﷺ أول من أسلم وقبل الناس جميعًا اي من قبل خلق الكون ذاته.

لأنه لو كان كما قال قتادة – وهو قوله وحده لم يشترك معه فيه أحد –(١) ان «أول من أسلم» و «أول المسلمين» أي من أمة محمد، لكان القول متناقضاً، ذلك بأن الرسول لم يؤمر بالإسلام كما أمر نوح مثلاً في قوله تعالى ﴿ وأمرت أن أكون من المسلمين﴾ وواضح أن كلمة «من» تفيد التبعيض لوجود مسلمين قبله. وكذلك قوله تعالى لإبراهيم ﴿ ... ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين. إذا قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين﴾ [البقرة: ١٢٩-١٣٠]. وإبراهيم من بعد نوح عليهما السلام، ولم يقل له ربنا العظيم إنه أول من أسلم مع أن كلا منهما كان أول من أسلم من أمته.

وإذا كان ذلك

فهمنا معنى آية ميثاق النبيين ومعنى أخذ الميثاق من النبيين جميعاً لرسول الله ﷺ، فهو اللواء الذي اندرجوا تحته وقالها ولي الله الصالح السيد أحمد البدوي رضي الله تعالى عنه وأرضاه في صلاته على رسول الله ﷺ: من اندرجت النبيون تحت لوائه فهم منه وإليه(٢).

ولأن الرسول ﷺ، أسلم من قبل هذه الحياة الدنيا ومن قبل كل شيء فكان أول من أسلم، ومن ثم أول المسلمين.

لذلك كله..

فإن الله جل جلاله لم يختبره للرسالة العالمية الخالدة والباقية كما اختبر إبراهيم عليه السلام من قبل ﴿ وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّه بكلمات فأتمهن، قال إني جاعلك للناس إماماً..﴾ [البقرة: ١٢٤]، ولم يعلمه كما علم موسى عليه السلام وغيره من النبيين..

وإنما.. وكان محمد ﷺ في سنة من النوم، نزل عليه الروح الأمين جبريل عليه السلام يحتضنه ويقول له اقرأ فيستيقظ الرسول ويقرأ باسم ربه الذي خلقه.. وينادي جبريل سيدنا رسول الله: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢/١٩٨.

(٢) «السيد أحمد البدوي» للشيخ عبد الحليم محمود شيخ الأزهر الأسبق/١١٣.

ويتوالى تنزيل الرسالة على الرسول الذي كان قد علمه ربه القرآن لديه سبحانه ليكون رسولاً للناس كلهم أجمعين ورحمة ونذيراً للعالمين.

ويقول له ربه العظيم:

﴿ فتعالى الله الملك الحق؛ ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضي إليك وحيه؛ وقل رب زدني علماً ﴾ [طه: ١١٤].

الفصل الثاني

﴿ إنا أنزلناه في ليلة مباركة ﴾

يقول جميع المفسرين في بيان معنى « الهاء » في « أنزلناه » أنه القرآن العظيم، مهما كانت قواعد اللغة وقواعد التفسير تدل على غير ذلك، لأنهم أخضعوا الأمر للعقلانية البشرية للمنطق المادي ضاربين عرض الحائط بقواعد اللغة(١).

وسنرى أن ذلك فضلاً عن أنه خطأ، فإنه أيضاً يؤدي إلى فساد المعنى وفساد التفسير بالتالي، بل وترك الأمور نهباً للغموض ومن ثم للمتأول وكثرة الخوض في المجهول..

فيقول المفسرون في تفسير آية الدخان التي يقول فيها ربنا تبارك وتعالى:

﴿ إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين ﴾.

أن الله سبحانه أنزل القرآن في ليلة مباركة هي ليلة القدر ذلك بأن الله سبحانه يقرر في آية القدر ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر ﴾.

والسبب في قولهم أن المقصود بالإنزال في ليلة القدر هو القرآن، أن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن .. ﴾ [البقرة: ١٨٥] وليلة القدر هي إحدى ليالي شهر رمضان(٢).

ومن ثم، فعند هؤلاء المفسرين، تكون الهاء في « أنزلناه » سواء في سورة القدر والدخان والإسراء إنما هي عائدة على « القرآن » بسند واضح عندهم هو آية البقرة ١٨٥.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٤ /١٣٧.

(٢) الإنزال يدل على القرآن التزاماً طبقاً لقواعد رجوع الضمير (الإمام السيوطي في كتابه « قواعد مهمة يحتاج إليها المفسر».

وقد روي بعض المفسرين روايات عن ابن عباس بعضها بغير وجه والآخر ضعيف أو مقطوع السند تقول: ان القرآن أُنزل جملة واحدة في ليلة القدر إلى السماء الدنيا فجعل في بيت العزة !! ثم نُزِّل على رسول الله ﷺ في عشرين سنة لجواب كلام الناس. وروي الإمام الحافظ بن كثير حديث واحد أخرجه الإمام أحمد بن حنبل بسند ضعيف يقول فيه: قال رسول الله ﷺ: (أنزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان، والإنجيل لثلاث عشرة من رمضان، وأنزل الله القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان)[1].

وما يقال في أن القرآن العظيم أنزل في شهر رمضان، فإنه لا يحتاج إلى بيان طالما أن هذا مقرر في القرآن العظيم نفسه.

ولكن الخلاف بين العلماء هو في بيان وتحديد ليلة القدر من شهر رمضان التي أُنزل فيها القرآن .. هل هي في السابع عشر منه أو في ليلة وتر من العشر الأواخر من رمضان ..؟

ولأن تعيين «الليلة» التي أنزل فيها القرآن أمر قد يبدو ذو أهمية لزيادة المجاهدة في هذه الليلة التي هي خير من الف شهر.

فإن تعيين «من» الذي أنزل في ليلة القدر، هل هو القرآن أم الرسول ومعه القرآن، يكون ذو أهمية قصوى .. في معرفة حقيقة رسول الله ﷺ، وهو من الأمور التي يبحثها هذا الكتاب أساساً.

ولما كان ذلك.

فإن الرجوع إلى تفسير فواتح سورة الدخان مع آية ليلة القدر يكون ذو فاعلية في معرفة «الهاء» في كلمة «أنزلناه» في "الدخان" ومن ثم في "القدر". ذلك بأن قول المفسرين في هذه الآيات المباركات هو دليلهم الذي يستندون إليه. فإذا كان الدليل غير

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ / ٢١٦ وقال الإمام ابن كثير ان السند ضعيف.

صحيح وجب أن نتبين وجه الدليل الصحيح وقاعدته التي يركن إليها من القرآن العظيم ﴿ والله يقول الحق وهو يهدي السبيل ﴾.

المعلوم في قواعد التأويل أن الواو تفيد مغايرة ما قبلها لما بعدها وأنها في هذه الحال تعتبر واو عطف فيأخذ ما بعدها حكم ما قبلها في حركة الإعراب.

• والثابت في آيات فواتح الدخان ﴿ حم. والكتاب المبين ﴾ أن الواو فيها ليست واقعة بين « حم » و « الكتاب المبين » لأن « حم » آية بذاتها وأن الآية التي بعدها تبدأ هكذا « والكتاب المبين » أي أن كلام الله تبارك وتعالى في هذه الآية يبدأ بحرف الواو. ونرى بعد الواو كلمة « الكتاب » مكسورة أي في حالة جر.

وتقول قواعد اللغة العربية إن « الواو » في هذه الحالة هي واو القسم وأن واو القسم حرف جر وليست واو عطف.

وهذا النسق ظاهر في كل آيات القسم التي استعمل العلي العظيم فيها الواو كأداة للقسم كما في قوله تعالى: ﴿ والتين والزيتون. وطور سينين. وهذا البلد الأمين ﴾ وقوله تعالى ﴿ فلا وربك لا يؤمنون ... ﴾ [النساء: ٥٨] وقوله تعالى: ﴿ يس. والقرآن الحكيم ﴾ .

فهذه إذاً قاعدة نحوية لا جدال فيها.

كما أنه لا خلاف عليها بين علماء النحو.

ومن سياق الآية ﴿ والكتاب المبين ﴾ [الدخان]؛ نجد أن الله تبارك وتعالى يقسم بالكتاب المبين أي بالقرآن العظيم الواضح حقاً.

وهذا أمر .. لا خلاف عليه بين علماء التفسير كذلك ...

لهذا، وجب علينا أن نعرف: هل يكون القسم أي الشيء المقسوم به هو نفسه جواب القسم أي المقسوم عنه؟ أم يلزم أن يكون مغايراً؟

الثابت من النسق القرآني العظيم في كل آيات القسم ان الله جل جلاله يُقسم بشيء معين عن شيء معين آخر. وهذا هو السليم وإلا أصبح القسم لغواً. فمثلاً في سورة التين يقسم العلي العظيم بالتين والزيتون وطور سنين ومكة المكرمة عن مقسوم عنه هو ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾ ذلك بان القسم ليس هو جواب القسم وكذلك في كل آيات القسم.

وإذاً فالذي يقسم به يكون مغايراً تماماً لما يقْسم عنه اي ان القسم لا بد وان يكون مغايراً لجواب القسم.

وإذا تأملنا قوله تعالى ﴿ يس. والقرآن الحكيم. إنك لمن المرسلين ﴾ لوجدنا ان الله العلي العظيم يقسم بالقرآن الحكيم (القسم) عن «إنك لمن المرسلين» وهو (جواب القسم) والمعنى هو والقرآن الحكيم إنك يا محمد لمن المرسلين وهو يقابل تماماً قوله تبارك وتعالى «والكتاب المبين. إنا أنزلناه في ليلة مباركة» أي والقرآن الواضح الحق (القسم) إنا أنزلناك يا محمد في ليلة مباركة (جواب القسم) أما إذا قلنا والقرآن الواضح الحق إنا أنزلنا القرآن في ليلة مباركة، فإنه يكون لغواً من القول لأننا نكون قد جعلنا القسم جواباً لذات القسم. ذلك بأن القسم وجه من وجوه الإثبات حيث لا إقرار ولا شهود ولا دليل، فانت تقسم بشيء لإثبات شيء آخر فتطلب ذلك ان يكون الأول غير الثاني. فإذا فسرت الآيتين: والقرآن إنا أنزلنا القرآن، كان التفسير سفهاً من القول.

وإذاً فالحق ان يقال في تفسير آيات الدخان ما يقال في تفسير آيات يس. ولما كان هذا هو الصحيح والذي يتفق تماماً مع قواعد اللغة العربية، وان غيره يخالف هذه القواعد. فإن الذي عناه الله تبارك قدره في «أنزلناه» في ليلة مباركة التي هي ليلة القدر، إنما يكون سيدنا رسول الله ﷺ. مثلها مثل آيات سورة يس تماماً.

كما أن التفكير السليم بالإضافة إلى ذلك يأبى إرسال الرسالة بغير رسول، كما يأبى إرسال الرسول بغير رسالة.

فالرسالة بغير رسول أمر غير متصور، كما أن الرسول لا يكون رسولاً بغير رسالة.

فإذا تيقنا من ذلك

تبين لنا أن العلي العظيم عندما أقسم عن القرآن العظيم لم يقسم بالقرآن العظيم وإنما أقسم بمواقع النجوم ﴿ **فلا أقسم بمواقع النجوم. وإنه لقسم لو تعلمون عظيم. إنه لقرآن كريم . . .** ﴾ [الواقعة].

ذلك – كما قلنا – أن منطق الأشياء وبالذات منطق القسم كوجه من وجوه الإثبات أن يكون المقسوم به شيئًا غير المقسوم عنه حتى يعتبر قسمًا وبالتالي دليلاً.

لذلك

فإن الرسول ﷺ هو الذي "أنزل" في "ليلة مباركة" التي هي "ليلة القدر".

وفواتح الدخان تقول ذلك بكل وضوح.

﴿ **إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين. فيها يفرق كل أمر حكيم. أمرًا من عندنا إنا كنا مرسلين. رحمة من ربك، إنه هو السميع العليم** ﴾.

والله جل جلاله لم يصف القرآن بأنه منذر أو نذير إنما الذي وصف بهذا هو رسول الله في قوله تعالى ﴿ **قل إنما أنا منذر، وما من إله إلا الله الواحد القهار** ﴾ [ص: ٦٥].

وقوله تعالى ﴿ **يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا** ﴾ ومثلها آيات أخرى كثيرة و ﴿ .. **وإنما أنا نذير مبين** ﴾ [الملك: ٢٦].

ولم يقل العلي الحكيم انه "ارسل" قرآنًا وإنما قال "أرسل" رسولاً "وأنزل" قرآنًا، كما وصف إرسال الرسول بأنه رحمة ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾ [الانبياء: ١٠٥].

أما القرآن، وإن كان قد وصفه رب العالمين بأنه رحمة ولكن ليس مع كلمة أرسل أو مرسل، وإنما في معرض بيان عنه كما في قوله تعالى: ﴿ **ونزلنا عليك الكتاب تبيانًا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين** ﴾ [النحل: ٨٩].

ومن ثم، نجد أن آيات الدخان، تتكلم عن الرسول ﷺ لذلك عقب عليها رب العالمين بقوله تعالى ﴿ إنه هو السميع العليم ﴾ أي السميع لتبليغ الرسول لرسالته وإجابة الناس عليه.

فالآيات الكريمة هي إذاً عن الرسول ﷺ، سواء بتفسير كلماتها طبقًا لقواعد اللغة العربية وقواعد التفسير والتأويل أو ببيان سياق المعنى فيها.

وإذا تبينا ذلك

فإن بيان مجال "القسم" الإلهي في القرآن العظيم يكون ذا مغزى عظيم في توضيح آكد لهذا الأمر العظيم وهو إنزال الرسول الكريم ﷺ ومعه القرآن الكريم في ليلة مباركة هي ليلة القدر.

ذلك بأن السياق الرباني في القسم يسير مع قاعدة بينة واضحة .. فعندما يقسم العلي العظيم عن شيء في الأرض فإنه سبحانه يقسم عنه بشيء موجود في الأرض.

وعندما يقسم بشيء في السماء أو عالٍ عن الأرض، فإنه سبحانه يقسم بشيء عالٍ كذلك عن هذه الأرض علواً كبيراً.

أما إذا أقسم سبحانه عن شيء يختص بذاته جل جلاله وتقدست أسماؤه فإنه سبحانه يقسم عنه بذاته.

ولنضرب مثلاً ولله المثل الأعلى

فعندما يقسم سبحانه عن خلق الإنسان، والله جل شأنه خلقه من طين ﴿ الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ﴾ [السجدة]، فإنه سبحانه يقسم بأشياء موجودة في الأرض فيقول جل شأنه ﴿ والتين والزيتون وطور سنين. وهذا البلد الأمين. لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾. فالقسم شيء من الأرض وجواب القسم الإنسان المخلوق من الأرض.

وعندما يقسم سبحانه عن القرآن العظيم، وهو عالٍ علواً عظيماً فإنه سبحانه يقسم بأشياء عالية أيضاً علواً عظيماً فيقول جل من قائل ﴿ **فلا أقسم بمواقع النجوم. وإنه لقسم لو تعلمون عظيم. إنه لقرآن كريم. في كتاب مكنون** ﴾ [الواقعة].

وعندما يقسم سبحانه عن الإيمان به جل جلاله وكتبه ورسله والملائكة واليوم الآخر يقسم سبحانه بذاته القدسية ﴿ **فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ..** ﴾ [النساء: ٥٨].

فإذا ما كان الأمر خاصاً بالقسم عن رسوله ﷺ، فإنه لا يقسم بشيء في الأرض كما أقسم عن الإنسان بأشياء في الأرض.

ولا يقسم سبحانه عنه بذاته، لأن الرسول عبد الله وإن كان صفوة خلقه.

لذلك أقسم عنه بهذا الذي هو عالٍ علواً كبيراً، أقسم عنه سبحانه بالقرآن العظيم فيقول سبحانه ﴿ **والقرآن الحكيم. إنك لمن المرسلين** ﴾ [يس: ٢ -٣] و ﴿ **والكتاب المبين. إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين** ﴾ [الدخان: ٢ - ٣] والقرآن العظيم أقسم عنه العلي الحكيم بمواقع النجوم. وأنه في أم الكتاب «لدينا» لعلي حكيم؛

فإذا ما أنزل الرسول من علٍ إلى الناس في الأرض، فإنه جل شأنه، لذلك، يقسم عن كلام الرسول الكريم بالكواكب والظواهر الفلكية، لأن قول الرسول من وحي الله قرآناً ومن إلهام الله سنة شريفة؛ فقول العلي الحكيم:

﴿ **فلا أقسم بالخنس. الجوار الكنس. والليل إذا عسعس. والصبح إذا تنفس. إنه لقول رسول كريم** ﴾ [التكوير].

وهو الرسول ﷺ - على خلاف ما يقول المفسرون - لأن القسم عن "قول" والقول ينسب للرسول ﷺ لبشريته. أما جبريل فلا ينسب إليه "قول" ولكن ينسب إليه دائماً «وحي».

والقول يكون كلاماً مسموعاً. وهو الذي يصدر من البشر.

والوحي إعلام بخفاء. وهو الذي يكون من الملائكة.

لهذا،

يتبين لنا بالأدلة القرآنية القاطعة وهي حجة الله البالغة، ان الذي أنزل في ليلة القدر هو الرسول ﷺ.

فهل أنزل الرسول بغير رسالة؟

كلا. وإلا لكانت صفة الرسول فيه بغير مضمون.

لذلك، فإن العلي الحكيم يقطع بأنه سبحانه أرسل رسوله ومعه الرسالة الكاملة فيقول جل في علاه: ﴿ **هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون** ﴾ [التوبة: ٣٣] والباء في كلمة «الهدى ودين الحق» تفيد المصاحبة.

وقوله تعالى ﴿ **الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون. قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السماوات والأرض، لا إله إلا هو يحيي ويميت ،فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته، واتبعوه لعلكم تهتدون** ﴾ [الاعراف: ١٥٧-١٥٨].

والثابت في جميع التفاسير القرآنية ان معنى كلمة «والنور» في الآية ١٥٧ هو القرآن العظيم. وهذا صحيح، و «معه» تفيد المعية أي المصاحبة.

ولكن جاء في جميع التفاسير القرآنية ان الهاء في كلمة «معه» تعود على جبريل عليه السلام. فهل هذا صحيح أم خطأ؟

يقرر جميع المفسرين أن الهاءات المتصلة بالافعال الواردة في الآيتين السابقتين إنما

تعود على رسول الله ﷺ . وعندما يصلون إلى كملة «ومعه» يخالفون القاعدة اللغوية، ويدعون - بغير دليل من اللغة وقواعدها ولا النسق الكلامي - أن الهاء تعود على جبريل!!(١).

وهذا هو السبب في أننا عندما بدأنا الكلام في هذا الموضوع أصلنا القاعدة بأن كلام الله يفسر بقواعده وأن كلامه في غيبه لا يخضع إلا لهذه القواعد دون إعمال للعقلانية المادية وإلا خرجنا عن المعنى الأصيل وكذبنا العلي العظيم وكفرنا بما قال.

فكلمة «مع» تفيد المصاحبة.

والهاء في «معه» تعود على رسول الله ﷺ طبقًا لقواعد اللغة العربية التي أنزل بها القرآن وكتب بها في «أم الكتاب» لدى العلي الحكيم كما تخالف قاعدة رجوع الضمير على أقرب مذكور وهو سيدنا رسول الله ﷺ.

والقاعدة في التفسير أن قولاً بغير دليل لا يؤبه له ولا نرد عليه.

ولأن المفسرين الأجلاء جميعًا لم يأتوا بدليل ولن يأتوا بدليل، فإن الاعتراف بالحق في قول الله تعالى هو السبيل الوحيد لمعرفة المعنى فيه.

وإذا فسرنا الغيبيات جميعًا على هذا الأساس، لجاء التفسير صحيحًا وصائبًا وبغير حرج ولا إبهام، الأمر الذي يتفق مع أصل القرآن أنه ﴿روحًا من أمرنا﴾ [الشورى: ٥١] فهو إخبار من خالق الغيب والشهادة بالغيب والشهادة. فإذا عقلت الشهادة صدقت الغيب. وقست شهادة على شهادة، وقست غيبًا على غيب، وفسرت الغيب بكلام الله وقواعد كلامه. ذلك بأن مجال المنطق العقلي هو عالم الشهادة، فإذا أعملناه في الغيبيات فإنه يلجأ إلى التخيل والظن فيضل، وكل الخلافات وما ترتب عليها جاءت من هذا الطريق الفاسد فضلاً عن نسيان الأخذ ببعض القواعد الأصولية التشريعية واللغوية.

وقد يدعي البعض بأن الله سبحانه وهو غيب، قد أثبت وجوده وأحديته بالمعقولات المادية.

---

(١) وهذا يخالف قاعدة رجوع الضمير على أقرب مذكور كما يخالف قاعدة توافق الضمائر في المرجع حذراً من التشتت وتنافر النظم الذي هو أم إعجاز القرآن.

ولكن، إذا تمعنا الأمر، وجدنا ان هذا القول ليس دقيقًا ولا صحيحًا. ذلك بان الله جل شانه اثبت وجوده بآثار وجوده أي بانه هو سبحانه الذي خلق السماوات والأرض وكل شيء وأنزل القرآن. وتحدى الناس وغيرهم ان يخلقوا شيئًا أو يكتبوا سورة واحدة مما في القرآن ﴿ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾ [البقرة: ٢٤].

ولأن أحداً لم يخلق شيئًا ولم يكتب سورة مثل ما في القرآن، فإن هذا التحدي أعجز كل أحد وأعجز الجميع معًا، ومن ثم لم يستطع احد ان يقول إنه خلق شيئًا أو يستطع ان يكتب شيئًا. فآمن من آمن. ومع ذلك فقد كفر من كفر.

ومن آمن فقد فعل ذلك بعد ان عقل الأشياء المادية مع أسبابها، وأما من كفر فليس له ثمة حجة وليس معه أدنى دليل.

أي أن المنطق العقلي في إثبات الإلهية وأحديتها كان مجاله الآثار المادية لهذه الحقيقة الكبرى والعجز معها.

فإذا كنت قد آمنت بكلام الله، فكيف لا تصدقه؟! اي عليك إذًا أن تفسر الغيب بكلام الله ذلك بان الذين يفسرون غيب الله بعقولهم، إنما يصدقون أنفسهم ولا يصدقون الله. وإذًا فقد خرجوا من نوره إلى ظلمات الذين أشركوا أنفسهم بالله.

ونعود إلى ما أُنزل مع رسول الله ﷺ، نعود إلى ذلك الغيب بنص الألفاظ الربانية وتبعًا لمنطق قواعد اللغة ودلالتها وأصول تفسير الكتاب العظيم قال تبارك وتعالى:

﴿ إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً، ولا تُسأل عن أصحاب الجحيم ﴾ [البقرة: ١١٩].

و"الحق" اسم من أسماء الله الحسنى. وإذا فليس هذا هو المقصود من الكلمة.

و"الحق" هو كل شيء له موضوع فيه علة وحكمة وثابت ولا يتغير ولا يتعارض. وهو بهذا المعنى يطلق على القرآن العظيم في قوله تعالى ﴿ وقل الحق من ربكم ﴾

[الكهف: ٢٩] وقوله تعالى: ﴿ **وبالحق أنزلناه وبالحق نزل** ﴾ [الإسراء: ١٠٥]. **والحق فيها يعني القرآن.**

وإذاً فمعنى الآية ﴿ **إنا أرسلناك بالحق** ﴾ **أي أرسلناك بالقرآن.** والباء تفيد المصاحبة، **أي أرسلناك ومعك القرآن. وهو معنى قوله تعالى** ﴿ **يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم** ﴾ [النساء: ١٧٠].

وإذاً فالرسول قد جاء الناس ومعه الحق أي ومعه القرآن من ربهم. وإذا تمعنا قوله تعالى ﴿ **وبالحق أنزلناه** ﴾ **وجدنا ان المعنى لا يستقيم إذا فسرناه كالذين قالوا: إن الهاء في أنزلناه تعني القرآن، فيجئ التفسير بالقرآن أنزلنا القرآن ؟!!.**

وإنما يستقيم التفسير إذا قلنا وبالقرآن (الحق) انزلنا محمداً (الهاء) وبالقرآن نزل، فهو بذلك يكون إخباراً وتقريراً صريحين واضحين.

فإذا علمنا ان هذه الآية وردت في سورة الإسراء أي في السورة التي أخبرت عن إسراء رسول الله ﷺ وعروجه إلى الأفق المبين مروراً بسدرة المنتهى بعد السماوات السبع، لفهمنا بوضوح وجلاء معنى قوله تعالى ﴿ **وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً. وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً** ﴾ [الإسراء: ١٠٥ - ١٠٦] **أي وبالقرآن أنزلنا محمداً وبالقرآن نزل وما أرسلناه إلا مبشراً** برحمة الله ونذيراً بعذابه. **وان هذا القرآن - بعد ذلك - فرقناه أي انزلناه طوائف ليقرأه** الناس على فترات نزوله إجابة لحاجاتهم وأحوالهم، ولذلك نزلناه في المبعث تنزيلاً أي نزولاً كثيراً حتى إذا ما تم نزول القرآن كله رد الله سبحانه رسوله الكريم إلى مكان يعلمه في وقت يعلمه، فقال سبحانه:

﴿ **إن الذي فرض عليك القرآن لرادُّك إلى معاد** ﴾ [القصص: ٨٥] **وإذاً فاليقين ان** الرسول ﷺ هو الذي أُنزل ومعه القرآن - نور على نور - في ليلة مباركة هي ليلة القدر.

علمه ربه العظيم القرآن ﴿ **الرحمن. علم القرآن** ﴾ **وفرض عليه أن يكون رسولاً به**

للناس جميعًا يتلوه عليهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم، فإذا ما أتم عليهم نعمة ربهم، رده رب العالمين إلى حيث كان حتى يكون يوم القيامة شهيداً على العالمين.

ولأن القرآن الكريم أُنزل مع الرسول ﷺ في قلبه، وأن الله العظيم وصف القرآن بأنه ﴿ وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين ﴾ [النحل: ٨٩]، فإن الرحمة أي القرآن هي المنفعلة برسالة الرسول للعالمين.

وقد وصف العلي الحكيم موكب إنزال الرسول ومعه القرآن ﴿ والنور الذي أُنزل معه ﴾ في ليلة القدر بأن الملائكة كانت تنزل معه ﷺ من السماوات كلما مر بسماء وعلى رأسهم جبريل «والروح فيها» بإذن ربهم من كل أمر مسبحين مهللين: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ويصلون على النبي داعين الله جل جلاله أن يصلي عليه «إن الله وملائكته يصلون على النبي».

فإذا ما أسفر نور الفجر، كان هذا الموكب الملائكي لرسول الله وقرآنه الكريم قد وصل إلى أفق الأرض

وأخرج ابن كثير عن ابن عباس رواية يقول فيها: الذي أُنزل في ليلة القدر هو القرآن حتى السماء الدنيا حيث جعل في بيت العزة فيها. ويعقب ابن كثير على هذه الرواية ومثلها بأنها من غير وجه أي ليس عليها دليل من قرآن أو سنة فضلاً عن أن رواتها منقطعين أي أن السند غير صحيح. ومن ثم فهي مجردة من الحق فلا يعتد بها[1].

وقال الأستاذ محمد صبيح: ولكن نفهم من آيات اللوح المحفوظ وليلة القدر وأم الكتاب أن القرآن نزل أول ما نزل جملة واحدة، وأن الوحي كان يهبط به آيات آيات على قلب النبي حسب الحوادث العارضة، وذلك أنه سبق في علم الله أن هذه الحوادث ستحدث فقال فيها كلامه، ثم هبط بهذا الكلام الإلهي الوحي كل قسم منه في موعده.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ / ٢١٦.

وقد ذكر ابن عباس أن القرآن أنزل جملة واحدة إلى سماء الدنيا ليلة القدر، ثم أنزل بعد ذلك مفرقًا في عشرين سنة وقرأ: ﴿ **وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً** ﴾(١).

وما روي عن ابن عباس غير صحيح كما قال الإمام ابن كثير ... ذلك بأن القرآن العظيم كلام رب العالمين يحدد المواقف ويبين كل شيء ﴿ **وكل شيء فصلناه تفصيلاً** ﴾ فالملائكة في الموكب الملائكي الذي نزل فيه الرسول والقرآن معًا قد وصلوا إلى الأرض بدليل قوله تعالى ﴿ **سلام هي حتى مطلع الفجر** ﴾ ذلك بأن الفجر لا يطلع إلا على كوكب الأرض أي أن الفجر علامة كونية خاصة بكوكب الأرض ولا تتبدى إلا في الغلاف الجوي فليس ثمة «فجر» إلا على كوكب الأرض عند التقاء أوائل أشعة الشمس بالغبار والأبخرة الموجودة في الغلاف الجوي المحيط بالأرض فينعكس ضوء الشمس فتظهر الخيوط البيضاء للفجر وهو ما يعبر عنه بإسفرار النهار. فليس ثمة فجر إلا في الغلاف الجوي وهذا أمر ثابت مادي، أي بين السماء والأرض. وهذا ينفي رواية نزول القران إلى بيت العزة في السماء الدنيا.

لهذا قال الإمام ابن كثير بتمعن العالم المدقق إن ما روي عن ابن عباس مقطوع السند وبغير وجه.

ولما كانت كلمة «الفجر» لا تحدد أية بقعة على الأرض، لأن الفجر موجود دائمًا على وجه الأرض طوال الأربع والعشرين ساعة بحسب مكان طلوع الشمس على الأرض؛

فإنه يلزم لنا بكلمة أخرى أو بيان آخر لتحديد مكان طلوع الفجر عند إنزال الرسول ﷺ ومعه القرآن، لنعرف المكان الذي أُنزل إليه الرسول على وجه التحديد.

وقد أخبرنا العلي العظيم بهذا المكان في قوله تعالى: ﴿ **شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآن** ﴾ [البقرة]. فدل بذلك على أن إنزال الرسول ومعه القرآن كان في شهر رمضان الذي هو أهم الشهور العربية على إطلاقها.

---

(١) "القرآن" لمحمد صبيح / ٧١ - ٧٢.

والشهور العربية في ذلك الوقت لم يكن يعرفها إلا العرب سكان شبه الجزيرة العربية.

ولما كان شهر رمضان، شهراً شهيراً أخذه الناس بحب التنسك فيه لأنه الشهر الذي يسبق مباشرة أشهر الحج شوال وذي القعدة وذي الحجة.

ولما كانت قريش - من دون قبائل العرب - هي القبيلة التي تسكن مكة وما حولها، وهي بهذه المثابة القائمة على خدمة الكعبة بيت الله الحرام وسقاية ورفادة الحجيج؛ فإنها هي إذاً أولى القبائل بمعرفة هذه الشهور والعمل بها واحترامها.

لذلك وبالتالي

فإن إنزال الرسول ﷺ ومعه القرآن في ليلة القدر التي هي من ليالي شهر رمضان الذي لا يعرفه إلا العرب يكو قد تم في مكة أم القرى وفي قريش بالذات .... الكعبة البيت الحرام والقوامين على نسك العبادة.

وإذاً فقد أُنزل الرسول نوراً ومعه القرآن نوراً إلى مكة في فجر ليلة القدر من شهر رمضان، في بيت من بيوت قريش.

فكيف صار النور بشراً؟

هذا هو السؤال.

الفصل الثالث
نورٌ على نورٌ

صرَّف الله العظيم أمثالاً كثيرة لبيان قدرته جل جلاله، حتى يعقل الناس أن قدرة الله عظيمة وأنه سبحانه وتعالى على كل شيء قدير.

فضرب سبحانه لنا مثلاً بقدرته يوم القيامة، فقال جل شأنه ﴿ **وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعًا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون** ﴾ [الزمر: ٦٧].

وكذلك وحتى يعقل الناس هذه القدرة، ويعلموا بمنطق الشهادة المادية أن ذلك حق، فقد أبان عن بعض قدرته مع من أرسلهم من النبيين.

فقال للنار التي تحرق كل شيء ﴿ **قلنا يا نار كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم** ﴾ [الانبياء: ٦٩] فأكلت النار كل شيء إلا إبراهيم الذي كان يشعر بالبرودة من حوله !! (١).

وسنة الله في النار أن تحرق فلا تبقي ولا تذر، بل إن سمومها يعطي السخونة ويشوي من يقترب منها، ولكن إبراهيم وهو في وسطها، وعلى أعين الملك نمرود وملايه والناس من قومه أجمعين، يرون النار قد حرقت كل شيء ويرون إبراهيم لم يلم به شيء.

فكانت آية من الله العظيم للناس على أعينهم.

وأوحى العلي العظيم إلى موسى ﴿ **وأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم** ﴾ [الشعراء: ٦٣].

---

(١) صفوة التفاسير حـ/٢٦٨ . قال ابن عباس: لو لم يقل الله «وسلامًا» لآذى إبراهيم بردها.

وأي إنسان يستطيع ان يضرب البحر بعصاه فما يحدث إلا ان يناله رذاذًا متطايرًا مما ضرب من الماء.

فإذا ما فعل موسى عليه السلام ما أُوحي إليه به، فقد راى بنو إسرائيل جميعًا بأعينهم شيئًا من قدرة الله، فعقلوا ان هذا من قدرة الله جل جلاله، ذلك بعد ان ربطوا بين الفعل والنتيجة، فعلموا ان هذا الفعل لا يؤدي إلى هذه النتيجة، وإذًا فهي ليست للفعل ولكنها لقدرة الله جل جلاله.

والله سبحانه امر موسى ان يلقي بعصاه، فإذا هي ثعبان مبين، فلما رأى سحرة فرعون ذلك ﴿ **فألقى السحرة سجدًا قالوا آمنا برب هارون وموسى** ﴾ [طه: ٧٠] ذلك بأنهم يعلمون ان العصي لا تصير ثعابينًا بإلقائها إلى الأرض، فأيقنوا، وهم خبراء السحر، ان هذه إنما هي قدرة الله، فآمنوا بالله فورًا عن يقين.

تلك أمثلة من كثير، أبان الله العظيم بها عن شيء من قدرته سبحانه حتى يعقل الناس قوله جل جلاله ﴿ **إن الله على كل شيء قدير** ﴾ وان قدرة الله لا حد لها بحيث لا يعقلها الناس ولا يفهموا مضمونها وأسبابها فيعرفوا قدرها، وإنما يعرفها الناس بمعنى ان يعلموا أنها لله سبحانه وليست لأحد من خلقه، ومن ثم يؤمنوا بقدرته التي قال عنها أنه سبحانه على كل شيء قدير. وأنه جل جلاله يفعل ما يريد. وان ما أظهره الله سبحانه من قدرة إنما هو مثال لدليل على غيب القدرة، وأن ما خفي كان أعظم ﴿ **ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه؛ إن الله بالناس لرؤوف رحيم** ﴾ [الحج: ٦٥].

وقوة الله وقدرته، يجعلها سبحانه حيث يريد. فليس لقدرته نطاق توضع فيه بحسب حجمها، بل قد يكون أصغرها حجمًا أكثرها قوة وأشدُّها عُتوًا.

فالله سبحانه خلق الملائكة من نور وهو اخف انواع المادة تقريبًا ومع ذلك يحكي لنا العلي الحكيم أن جبريل عليه السلام رفع سدوم وعمورة، مدينتين كبيرتين، وقلبهما

على أم رأسيهما ﴿ **فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود** ﴾ [هود: ٨٢].

وإن كان لم يرد في القرآن العظيم شيء عن مادة خلق الملائكة، فإن السنة قد بينته: روى مسلم في صحيحه وبسنده، قال: قال رسول الله ﷺ (خلقت الملائكة من نور وخلقت الجان من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم)[١].

وجعل الله سبحانه الملائكة في أحجام مختلفة، فمنها الهائل الحجم بحيث لا يمكن لإنسان ان يتخيله: عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ (اذن لي أن أُحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام)[٢].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ انه رأى جبريل في حلة خضراء قد ملأ ما بين السماء والأرض[٣].

وسبق روينا الحديث الأول لرسول الله ﷺ حين آتاه جبريل في غار حراء حيث قال بعد ان خرج منه (يا محمد انت رسول الله وأنا جبريل) فرأى الرسول الكريم وجه جبريل يملأ ما بين السماء والأرض.

ومع هذا الحجم المهول لجبريل عليه السلام، فقد قرر لنا العلي الحكيم في قرآنه العظيم حجماً آخر لجبريل عندما اتى مريم فتمثل لها بشراً سوياً اي مساوٍ للبشر في كل شيء؛ فقال تعالى ﴿ **واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً. فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً. قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً** ﴾ [مريم: ١٦ - ١٨].

وثابت في السيرة العطرة ان جبريل عليه السلام كان كثيراً ما يحضر إلى رسول الله ﷺ في صورة شخص أقرب ما يكون شبهاً بالصحابي الجليل دحية الكلبي.

---

(١) كتاب «أصول الإيمان» للإمام محمد بن عبد الوهاب / ٢١.

(٢) كتاب «أصول الإيمان» للإمام محمد بن عبد الوهاب / ٢٢ رواه ابو داود والبيهقي.

(٣) المرجع السابق / ٢٣ رواه مسلم.

وفي حديث رسول الله عن الإسراء والمعراج ذكر ﷺ أنه طلب إلى جبريل ان يظهر له في حقيقة خلقه، فظهر في حجم هائل له ستمائة جناح مرصعة بالدر. روى الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن مسعود قال: رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته وله ستمائة جناح كل جناح منها سد الأفق يسقط من جناحه من التهاويل والدر والياقوت ما الله به عليم(١).

ومن هذا يعلمنا العلي الحكيم، أن النور كما يكون في ذلك الحجم الهائل الذي يفوق أحجام كل الكواكب معًا، فإنه بقدرته سبحانه يجعله في حجم مساوٍ تمامًا لحجم الإنسان.

وثابت في العلوم المادية التجريبية أن القوة الموجودة في الذرة هي أعظم القوى، والذرة خلق من خلق الله وهي أصغر أجزاء العنصر ولم تكن ترى بالمناظير الإلكترونية لمنتهى صغر حجمها. ويشرف المسلمين أن استطاع واحد من علمائهم هو أ.د. أحمد زويل أن يبتكر جهازًا للتصوير بسرعة واحد من المليون من البليون من الثانية استطاع أن يصور حركة جزيئات الذرة وما يحدث من حركة عند اندماج ذرة مع أخرى(٢).

ومع ذلك فإن الله خالقها العظيم، جعل من شطرها أي تفجيرها، أعظم قوة يمكن للإنسان أن يتخيلها. وهذه القوة التي تخرج نارًا هائلة ونورًا هائلاً وضغوطًا رهيبة. حتى أن القنبلة الذرية التي ألقيت سنة ١٩٤٥ شمسية على نجازاكي وهيروشيما لم تكن في حجمها إلا كحجم البيضة لا أكثر، ومع ذلك دمرت كل منها مدينة بأكملها وأبادت الآلاف المؤلفة من البشر، وأضاء نورها إلى مدى آلاف الأميال، والله سبحانه وتعالى يقول عن الذرة: ﴿ .. عالم الغيب، لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ﴾ [سبأ: ٣].

---

(١) المرجع السابق/٢٣ ورواه البخاري بسنده أيضًا عن ابن مسعود، ورواه ابن هشام في سيرته.

(٢) أضيفت هذه الفقرة عند مراجعة طباعة هذا الكتاب في سنة ١٩٩٨ وهذا تحقيق لقوله تعالى ﴿ .. عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ﴾ [سبأ:٣].

فجعل الله الخالق العظيم أصغر مكونات العنصر له من القوة التي تذهل معها العقول بغير تفسير علمي عقلي منطقي إلا الإيمان واليقين بحكم الصنعة والقدرة الإلهية فيما يريد.

تلك المقدمة لا بد منها، ليعرف الذين يقيسون الأشياء بالمنطق المادي، أن هذا المنطق البشري لا يصلح وسيلة لقياس القدرة الإلهية. ذلك بأنه لا قياس للقدرة الإلهية، لأن الله جل جلاله ﴿ليس كمثله شيء﴾ [الشورى: ١١] وهو الغيب الأكبر إنما هو التفويض الكامل لله سبحانه.

﴿وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾ [البقرة: ٢٨٥] فالنور على النور.

أُنزلا من السماء وكأنهما «كوكب دري» إلى أم القرى، مكة المكرمة؛ قال ربنا تبارك وتعالى:

﴿قل جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾ [المائدة: ١٥ - ١٦].

فالنور هو رسول الله، والكتاب المبين هو القرآن الكريم لأن «الواو» تقتضي المغايرة. وكذلك قوله تبارك وتعالى:

﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيراً﴾ [الأحزاب: ٤٥ - ٤٦][1].

ظهر «النور» رسول الله ﷺ في جبين عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم. وعاش عبد الله بنور جبينه محبوباً من أهل مكة حتى لتبعث فاطمة الخثعمية إليه تريد أن تظفر به زوجًا، ويأبى الله إلا أن تكون آمنة بنت وهب هي حاملة هذا النور. وما أن يبني

(١) كتاب «سيدنا محمد» صدر من منبر الإسلام عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ربيع أول سنة ١٣٩٥ من مقال الشيخ محمد حافظ سليمان «مولد النور في أرض الصخور» / ٢٢١.

عبد الله بآمنة حتى يختفي النور من جبينه وتنتهي مهمة عبد الله في الحياة فيتوفاه الله العظيم ومحمد ﷺ ما زال جنينًا(١).

وتقول آمنة إنها ترى في بطنها نوراً يُضيء عليها حياتها، وتضع محمداً ﷺ وقد وضع الله سبحانه نوريه في قلبه: نور القرآن ونور الإيمان. ويقول رسول الله ﷺ مبينًا هذه اللحظة «... رأت نوراً يخرج منها تضيء له قصور الشام»(٢).

وتذهب به ﷺ حليمة السعدية إلى البادية، ترضعه عامين، وتحمله كارهة أن تعود به إلى أمه بعد أن ملأ بيتها خيراً وبركة، وتتمسك به فتتركه آمنة لحليمة التي تمضي به فرحة إلى البادية مرة ثانية، فيستقيم لسانه ﷺ على فصاحة الكلمة وبلاغة القول وقصد الحديث.

ويجيء جبريل ومعه ملك آخر فيشرحان له صدره ..

ويجري ابن حليمة يخبر أمه بما حدث للغلام محمد(٣).

فتعود حليمة خائفة مما حدث وجلة إلى أمه، وترده إليها خوفًا على الغلام. فتحمله أمه آمنة إلى المدينة، ليرى أخواله بني النجار، وما تدري أنها بتكليف خفي من عند الله جل شأنه، انما تريه مهجره، فإذا ما أتمت مهمتها، يتوفاها الله كما توفى من قبل أباه عبد الله، في نفس المنطقة حوالي المدينة، مهجر رسول الله ونواة الدولة الإسلامية العظمى ومستقر جسد رسول الله ﷺ إلى أن تقوم الساعة.

فيدفن الرسول بالمدينة وقد سبق دفن والديه بها ومن حولها في الإبواء.

وسبق أن تذكرنا ما قاله أبو بكر الصديق عندما رأى الرسول مسجى: بأبي أنت وأمي يا رسول الله لا يجمع الله عليك موتتين أما الموتة التي كتبت عليك فقد متها.

وهذه هي لحظة الحزن الهائل التي جعلت أبا بكر وقد انفلتت منه كلمة كشفت

---

(١) "على هامش السيرة" للدكتور طه حسين.

(٢) تفسير الإمام ابن كثير حـ١ / ١٧٤.

(٣) هذه الرواية ليس لها دليل في السنة. وإنما لها دليل في حديث عن أبي هريرة سيأتي بيانه في هذا الفصل.

عن حقيقة خلق رسول الله ﷺ وهو صاحبه بنص القرآن ﴿ **قال لصاحبه لا تحزن** ﴾ [التوبة: ٤٠]، ولا نشك في ان الرسول قد أخبر أبا بكر عن حقيقة خلقه وأنه نور أودع في خلق البشر ليولد بشراً، فخلق مثلما يخلق البشر، ومن ثم لم يكن الرسول ممن شملتهم الآية الكريمة ﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتًا فأحياكم ..** ﴾ [البقرة: ٢٨] وهم كل البشر.

فلم يكن الرسول حيًا ثم مات فأحياه رب العالمين في هذه الحياة الدنيا.

إنما خلق الله رسوله نوراً وظل حيًا حتى ولد في مكة مثل البشر.

فالله سبحانه تبارك وتعالى خلق رسوله وجعله نوراً عظيمًا وعلمه القرآن قبل أن يخلق الناس جميعًا، بدليل ترتيب الآيات الكريمة المباركة.

﴿ **الرحمن. علم القرآن. خلق الإنسان** ﴾، ذلك بأن التعليم يستلزم وجود من يتعلم طبقًا لقاعدة دلالة النص اقتضاءً. ثم أنزله رب العالمين ومعه القرآن.

« فالذين آمنوا به (محمد) وعزروه ونصروه واتبعوا النور (القرآن) الذي أُنزل معه أولئك هم المفلحون » فالهاءات في الأفعال كلها وفي كلمة « معه » تعود على سيدنا محمد ﷺ – طبقًا لقاعدة رجوع الضمير على أقرب مذكور – وكان ذلك في ليلة مباركة.

﴿ **إنا أنزلناه في ليلة مباركة** ﴾

هي ليلة القدر

﴿ **إنا أنزلناه في ليلة القدر** ﴾

رحمة للعالمين:

﴿ **رحمة من ربك** ﴾ [الدخان] كما في قوله تعالى ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] أنزل الله العظيم رسوله نوراً ومعه القرآن نوراً، فقال سبحانه وتعالى عنهما:

﴿ نور على نور ﴾ وكان هذا النور هائل الحجم حتى وصفه رب العالمين ﴿ كأنه كوكب دري ﴾ لذلك قال سبحانه وتعالى معقبًا ومبينًا الغرض والحكمة منهما ﴿ يهدي الله لنوره من يشاء ﴾ [النور: ٣٠].

وليست ثمة هداية للبشر إلا الرسول الكريم والقرآن العظيم.

وإذا كان خلق آدم وعيسى عليهما السلام قد تم بكمال القدرة الإلهية، وخلق الناس نسلاً من نسل يتم بكمال السنة الإلهية.

فإن خلق سيدنا رسول الله ﷺ قد تم أول مرة خلقًا نورانيًا بكمال القدرة الإلهية ثم كان خلقه بشرًا مثل البشر بكمال القدرة وكمال السنة معًا. فعن كمال القدرة فيه فذلك خلقه قبل الناس جميعًا.

وفي تعليمه القرآن الذي فرض عليه.

وفي تعليمه الصلاة والنسك قبل العالمين.

وفي أنه أول من أسلم لرب العالمين.

وفي إنزاله نورًا ومعه القرآن نورًا في ليلة القدر.

وفي ظهوره نورًا في جبين والده عبد الله وبطن أمه ولحظة ولادته.

وعن كمال السنة فيه فذلك في ولادته مثل البشر؛ أفضل ما خلق الخالق العظيم وأشرف ما صور: أفضل الخليقة الإنسانية وأشرف الصور الجسمانية(١).

قال الله تبارك وتعالى:

﴿ قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرًا رسولاً ﴾

فالرسول بشر مثل البشر، وجبريل عليه السلام تمثل بشرًا مساوٍ للبشر ومن ثم فالرسول والبشر طرفي خلاف.

---

(١) «السيد أحمد البدوي» الشيخ عبد الحليم محمود شيخ الأزهر الأسبق/١١٣.

قال تبارك وتعالى:

﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم ﴾ [الكهف: ١١٠] وفصلت ٦.

وأسلوب التشبيه هو أحد أساليب البلاغة العربية يحقق تماثلاً معيناً بين شيئين مختلفين. فيثبت وجهًا للشبه بين شيئين مختلفين. فرغم اختلاف المشبه والمشبه به كل منهما عن الآخر، فإن أسلوب التشبيه يثبت وجهًا للشبه بينهما.

ويستعمل العلي العظيم هذا الأسلوب فيقول جل شانه:

﴿ وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ﴾ ولأن المسلمين أمة فإنه سبحانه وتعالى يقول: **﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون ﴾** [الأنبياء: ٩٢].

ومن ثم فإن التماثل بين الدواب - كل ما يدب على الأرض ومنهم الناس - والطيور وبين المسلمين هو أن كل منها أمة، وبعد ذلك هناك اختلافات كثيرة سواء في الشكل أو الحجم أو الفهم أو المعيشة أو الإيمان ... إلخ.

ويقول العلي الحكيم:

﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾ [آل عمران: ٥٩] فرغم أن آدم يختلف عن عيسى عليهما السلام بأن الله جل شانه خلقه بيديه، **﴿ قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي استكبرت أم كنت من العالين ﴾** [ص][1].

ورغم أن آدم خلق من غير أب ولا أم، فإن الله سبحانه يقرر أن وجهين للشبه فيهما قائمان هما: أن كليهما خلق من تراب وبكن فيكون أي بكمال القدرة.

فآدم خلق من تراب **﴿ وإذا قال للملائكة إني خالق بشراً من طين ﴾** [ص] والطين تراب وماء.

وعيسى خلق من تراب مُخَلَّق هو مريم. قال تبارك وتعالى: **﴿ يا أيها الناس إن كنتم**

---

(١) بيديه أي بعظيم قدرته. فاللفظ يعني في اللغة القوة.

في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ﴾ [الحج: ٥]. وقال تعالى: ﴿ قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً ﴾ [الكهف: ٣٧].

وكلاً من آدم وعيسى، خلق بكن فيكون.

فكان خلق الاثنين من تراب وبكن فيكون وجهين للشبه بينهما، رغم اختلافهما في بقية أسباب وظروف الخلق. لذلك استعمل العلي العظيم أسلوب التشبيه بينهما.

ويقول العلي الحكيم مبيناً بأسلوب التشبيه «قل» أي قل يا محمد ﴿ إنما أنا بشر مثلكم ﴾.

و«أنا» مشبه و«بشر» وجه مشبه و«مثل» اداة التشبيه و«كم» مشبه به.

فالتشبيه في هذه الحال كما يقول شيخ النحاة والبلاغة عبد القاهر الجرجاني تشبيه حقيقي[1]. وهذا يعني أن الرسول ﷺ يشبه الناس في أنه بشر فقط.

وإذاً فثمة اختلافات بينهما بعد وقبل ذلك.

ولأنه ليس للناس وفي الناس إلا بشريتهم.

فإن معنى ذلك، ان الرسول ﷺ، قد جعل الله سبحانه وتعالى فيه من الأسرار والخصال والمزايا، ما جعله شبيهاً فقط للبشر في بشريتهم مختلفاً عنهم فيما يوجد في البشر من نفس وقلب ونور قلب وعين و أذن وصدر إلى آخر ما لا يعلمه إلا الله سبحانه.

فالرسول ﷺ ولد كما يولد الناس، ونما وكبر كما يحدث للناس، ويعمل كما يعمل الناس ويتزوج ويلد ويتكسب ويتعب ويستريح، شانه شان الناس، بل يضل ويغفل كما يتوه الناس وينسون.

والرسول جسداً مساو لجسد البشر، فهو وهم سواء.

فالرسول في هذا كله بشر، بل ومساوٍ للبشر.

والقرآن العظيم عندما يستعمل اداة البيان للمساواة، يقول العلي الحكيم عن جبريل

(١) التعبير البياني للدكتور شفيع السيد.

عليه السلام: ﴿ فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً ﴾ أي بشراً مساوٍ للبشر في كل شيء، حتى أن مريم قالت خائفة منه مستعيذة بالله ﴿ إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً ﴾ [مريم: ١٧].

أما عندما يكون الأمر غير مساوٍ أحدهما للآخر، ومختلف تماماً عنه، فإن الله سبحانه ينفي هذه المساواة فيقول العزيز العليم ﴿ ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ﴾ [فصلت: ٣٤].

فإذا ما اختلفا في أشياء وتساووا في أشياء استعمل العلي العظيم أسلوب التشبيه.

من هذا يتبين لنا أن الله جل جلاله خلق رسوله ﷺ بشراً وإن اختلف عن البشر فيما أودعه الله فيه من أسرار وما حباه به واختصه به دون غيره من العالمين.

فاختص الله العظيم رسوله في كيف الإنسان.

فأُذُن الرسول ﴿ قل أذن خير لكم ﴾ [التوبة: ٦١] فهي لا تنفعل إلا بالخير وللخير للناس، لأن الرسول الرحمة للعالمين، ومن ثم وجب أن يكون سماع للخير فقط، وكان الرسول ينهي أن يقول له أحد عن أحد شيئاً ويقول له (اتركوني أخرج للناس سليم الصدر).

وعين الرسول: ﴿ ما زاغ البصر وما طغى ﴾ [النجم: ١٧] فعينه ﷺ لا تزيغ عن الصراط المستقيم فلا تبصر سبيلاً من السبل التي يتفرق بها الناس، وإنما تبصر الحق، هدى ورحمة، فلا تميل عنه إلى غيره أبداً. وبصره كذلك لا يطغى فلا يتجاوز حدود الحق إلى الباطل أو الوهم، لأن تجاوز الحق يؤدي إما إلى الدخول في حقوق الآخرين ومن ثم يكون طاغياً، أو يؤدي إلى الوهم ومن ثم يكون ضالاً.

ولسان رسول الله وشفتيه: ﴿ وما ينطق عن الهوى ﴾ [النجم]، فإنه سبحانه جعل جهاز الإعلام في الرسول لا يقول إلا الحق، فلا ينطق إلا حقاً، لأنه لم يتلق في صدره وفي قلبه من أذنه وبصره، وجوارحه إلا حقاً. فلا يعتمل في نفسه إلا الحق ومن ثم يكون قوله ﷺ حقاً دائماً. ذلك بأن نفسه سليمة وقلبه سليم دائماً أبداً حتى تتحقق به الأسوة الحسنة والهداية والرحمة ﴿ حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾ [التوبة].

وهذا توجيه من رب العالمين إلى أحد البشر وإن كان رسولاً وملكًا ﴿ يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ﴾ [ص: ٢٦].

ولذات السبب في النبيين جميعًا، قال العلي الحكيم للنبيين جميعًا في اجتماع الميثاق: ﴿ .... وجاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ... ﴾ [آل عمران: ٨١].

لهذا، كان رسول الله أسوة حسنة للمؤمنين ورحمة ونذيراً للعالمين، فهم يشبهونه، ولكنهم لا يساوونه على الاطلاق.

وقلب الرسول: يتحمل ما لا يتحمله الجبل، فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعًا متصدعًا .. ﴾ [الحشر: ٢١].

مع أن الله سبحانه وتعالى أنزل القرآن على قلب رسول الله ﴿ نزل به الروح الأمين. على قلبك لتكون من المنذرين ﴾ [الشعراء: ١٩٣ - ١٩٤].

فقلب الرسول ﷺ مملوء إيمانًا ونوراً وحكمة مع نور كلمات الله العلي العظيم، فهو لا يقارن به كل قلوب البشر معًا.

وصدر رسول الله ﷺ ﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ﴾ [الزمر: ٢٢] قال ربنا عن صدور الذين يؤمنون : ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ﴾ [الأنعام: ١٣٥] وشرح الصدر للبشر هو شرح يدخل فيه نور الإيمان، لأن الشرح لغة معناه الفتح، فالناس الذين يؤمنون بالله العظيم رباً وبمحمد ﷺ رسولاً، يُدخل الله سبحانه وتعالى نور الإيمان في جلودهم كالصبغة ﴿ صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ﴾ حتى إذا ما وصلت قلوبهم انارتها ولهجوا بذكر الله فقال تبارك وتعالى: ﴿ اللهُ نزل أحسن الحديث كتابًا متشابهًا مثاني، تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله، ذلك هدى الله يهدي به من يشاء .. ﴾ [الزمر: ٢٣].

أما رسول الله ﷺ ..

فإنه يختلف عن البشر تماماً فيما جاء عن الصدر والقلب.

فالثابت في القرآن الكريم بحرف الله ولفظه، بكلمات الله التامات، بالحق الذي أنزله ربنا بعلمه على قلب رسوله، أن الله سبحانه وتعالى شرح صدر رسوله في قوله تعالى: ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ [الشرح]. و«لم» عندما تدخل على الفعل المضارع تفيد نفياً للماضي. وأداة الاستفهام قبلها تسأل عما إذا كان قد تم شرح الرسول من قبل الرسالة. وأسئلة القرآن يُجاب عليها إجابة تقريرية، لأن الله سبحانه وتعالى يعلم إجابة ما يسأل عنه. وإنما السؤال ليلفت نظر الناس إلى الموضوع فينتبهوا إلى ما يريد الله سبحانه لهم أن يعرفوه، فيقول جل شأنه: إني شرحت صدر الرسول من قبل أن يخاطبكم بالرسالة.

والرسول ﷺ يبين لنا في حديثه الشريف كيف شرح الله صدره: فيسأله أبو هريرة رضي الله عنه: يا رسول الله ما أول ما رأيت من أمر النبوة؟ فاستوى رسول الله ﷺ جالساً وقال: (لقد سألت يا أبا هريرة، إني في الصحراء ابن عشر سنين وأشهر، وإذا بكلام فوق رأسي وإذا رجل يقول لرجل أهو هو؟ فاستقبلاني بوجوه لم أرها قط وأرواح لم أجدها من خلق قط وثياب لم أرها على أحد قط فأقبلا إلي يمشيان حتى أخذ كل واحد منهما بعضدي لا أجد لأحدهما مَسّاً فقال أحدهما لصاحبه أضجعه فأضجعاني بلا قصر ولا هصر فقال أحدهما لصاحبه إفلق صدره فهوى أحدهما إلى صدري ففلقه فيما أرى بلا دم ولا وجع فقال له: أخرج الغل والحسد فأخرج شيئاً كهذه العلقة ثم نبذها فطرحها. فقال له أدخل الرأفة والرحمة فإذا مثل الذي أخرج شبه الفضة ثم هز إبهام رجلي اليمنى فقال أعد واسلم فرجعت بها أعدو رقة على الصغير ورحمة للكبير)(١).

ثم شرح صدر الرسول وقلبه مرة أخرى ليلة الإسراء والمعراج، فيروي أحمد بن

(١) تفسير ابن كثير حـ٤ / ٥٢٤ وكتاب «سورة الفرقان» للدكتور منيع عبد الحليم محمود / ٢٩٢ عن الإمام أحمد وابن حيان والحاكم وابن عساكر عن أبي بن كعب.

حنبل بسنده عن أنس بن مالك قال: كان أُبي بن كعب يُحدث أن رسول الله ﷺ قال: (فرج سقف بيتي وأنا بمكة فنزل جبريل، ففرج صدري ثم غسله من ماء زمزم ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيمانًا، فافرغهما في صدري ثم أطبقه)[١].

ويقول الإمام القشيري: إن جبريل عليه السلام حمله إلى زمزم وشق صدره وغسل قلبه. وقد شق قلب النبي ﷺ مرتين: مرة في حال صباه وهو بعد في حجر حليمة، والمرة الثانية ليلة المعراج. وفي تخصيص قلبه بالغسل دون غيره من البدن إشارات: منها أن القلب محل العرفان، وهي المضغة التي بصلاحها صلاح البدن، وهو محل المشاهدة. ولكي لا يكون لغير الحق نصيب في قلبه[٢].

ولأن القلب يحوي قوة العقل والفؤاد واللب، وبهذه المثابة كان محل العرفان ومحل المشاهدة.

ولأن الله سبحانه جل شانه خَصَّ قلب رسول الله ﷺ بالشرح المادي ولصدره كذلك، فنزع منه علقة الغل والحسد، وبذلك طهر ما لم يطهر منه البشر.

ولأنه ملأه إيمانًا وحكمة

فإنه بالتالي يكون نسيج وحده من دون العالمين

ولأن الله سبحانه وضع في قلب الرسول علقة الرأفة والرحمة، فهو بذلك رسول الرحمة المهداة للعالمين ﴿ حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾ [التوبة: ١٢٨].

فهو بهذه المثابة نسيج وحده وليس به مع قلوب العالمين شبه. وإذا اعترض أحد وقال: كان ذلك على الله يسير في خلقه للرسول من أول الأمر دون علقة الغل والحسد، قلنا تذكروا أن الرسول خلق بشرًا بكمال السنة التي يخلق بها البشر ثم جعل شرح الصدر خصوصية للرسول.

---

(١) الإسراء والمعراج لشيخ الأزهر الأسبق الشيخ عبد الحليم محمود/ ٥٩.

(٢) المرجع السابق/ ٦٢.

وإذا ظن بعض الذين يفكرون في غيب الرسول بتلك المقاييس المادية للبشر، فإنا نحيلهم إلى مثل ضربه الله، ولله المثل الأعلى، في ملك لليهود ﴿ وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكًا، قالوا أنّى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال، قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم، والله يؤتي ملكه من يشاء، والله واسع عليم ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

فهذا « طالوت » مجرد ملك فلا هو نبي ولا رسول. وزاده الله بسطة في العلم والجسم على قومه جميعًا، مع أنه لم يكن من علية القوم ولا من أغنيائهم، ولكن الله يؤتي ملكه من يشاء.

وهذا هو « الخضر » عليه السلام وقد نصبه الله العلي العظيم أستاذًا لرسول من الرسل أولي العزم: موسى عليه السلام. فيقول سبحانه وتعالى ﴿ فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علمًا ﴾ [الكهف: ٦٥].

واللفظ القرآني صريح واضح أن الله جل شانه آتى الخضر عليه السلام شيئين: رحمة وعلمًا، وكلاهما من عند الله جل شانه.

والأول ملك، والثاني والثالث رسولان، فهما من الرسل الذين أخذ عليهم الميثاق لرسول الله ﷺ؛ ومن ثم كان المنطقي أن يكون رسول الله ﷺ، قد آتاه الله رحمة أوسع وأكمل حتى تعم العالمين وعلماً أوسع وأعمق حتى يتفق مع نور كلمات رب العالمين الخالق العليم بالظاهر والباطن، لأنه الرسول للناس جميعًا إلى يوم الدين ولأنه الرحمة والنذير للعالمين.

لهذا دعا إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وهما يرفعان القواعد من البيت الحرام (الكعبة) تحقيقًا لرسالتيهما إيمانًا برسول الله ﷺ وعملاً على نصرته ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ [البقرة: ١٢٩].

وهذا موسى عليه السلام، تتنزل عليه التوراة، وفيها (الإصحاح الثامن من سفر التثنية) فيقول رب العالمين لموسى في طباله: ﴿وسوف اقيم لهم نبيًا مثلك من بين – إخوتهم اي أولاد إسماعيل أخو اسحق – واجعل كلامي في فمه، ويكلمهم بكل شيء آمره به، ومن لم يطع كلامه الذي يتكلم به فأنا الذي أنتقم منه﴾.

ويثبت هذا ربنا في القرآن العظيم في قوله تعالى: ﴿وما ينطق عن الهوى. إن هو إلا وحي يوحى﴾ [النجم]. وعن الطاعة التامة للرسول: ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ [النساء: ٨٠] وعن الانتقام من غير الطائعين: ﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدي ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً﴾ [النساء: ١١٥].

اما عن عيسى بن مريم عليه السلام. فيقول العلي الحكيم: ﴿وإذ قال عيسى بن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقًا لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾ [الصف: ٦].

وروري الإمام البخاري والإمام مسلم بطريق الاتفاق عن جبير بن مطعم رضي الله عنهم أجمعين انه قال: قال رسول الله ﷺ (لي خمسة أسماء أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي يوم القيامة، وأنا العاقب الذي ليس بعدي أحد).

وإذا كان التبشير بنبوة محمد ﷺ في الإنجيل بلفظ «الفار قليط» فهذا اللفظ يقرب معناه من معنى «محمد وأحمد».

روى الإمام ابو داود في سننه عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه انه قال: أمر رسول الله ﷺ أن يأتوا النجاشي. وذكر الحديث وفيه قال: سمعت النجاشي يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسوله، وأنه الذي بشر به عيسى، ولولا ما أنا فيه من الملك. وما تحملت من أمر الناس، لآتيته حتى أحمل نعليه. وقوله وذكر الحديث يريد حديث اجتماع المهاجرين مع النجاشي ملك الحبشة.

وروى الإمام علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي المعروف بالخازن في

(لباب التأويل في معنى التنزيل) في تفسير الآية السابقة عن كعب الأحبار أنه قال: إن الحواريين قالوا لعيسى عليه السلام، يا روح الله هل بعدنا من أمة؟ قال نعم أمة أحمد، حكماء علماء، أبرار أتقياء، كأنهم في الفقه أنبياء، يرضون من الله باليسير من الرزق، ويرضى الله منهم باليسير من العمل.

وقد وصف المسيح عيسى بن مريم هذا «الفار قليط» وصفًا لا ينطبق إلا على نبينا محمد ﷺ فقد قال: إنه يوبخ العالم على خطيئته، وأنه يعلم الناس جميع الحق، لأنه ليس ينطق من عنده، بل يتكلم بكل ما يسمع من عند الله.

هذا ينطبق على ما جاء في القرآن المجيد في وصفه ﷺ: ﴿وما ينطق عن الهوى. إن هو إلا وحي يوحى﴾.

هذا مع ما ورد في إنجيل برنابا اسم محمد الرسول ﷺ (وهو محفوظ بمتحف فيينا منذ أكثر من مائتي عام. وترجم إلى الإنجليزية ومنها إلى العربية بمطبعة المنار بالقاهرة سنة ١٩٠٧ شمسية).

وكان أمية بن الصلت كثيراً ما يقول: إني لأجد في الكتب صفة نبي يبعث في بلادنا. وكان أمية نصرانيًا عرف علم من الكتب السماوية.

وحدث سلمان الفارسي رضي الله عنه أنه صحب قسيسًا وكان يقول له: يا سلمان إن الله سوف يبعث رسولاً اسمه أحمد، يخرج من جبال تهامة، علامته أنه يأكل الهدية، ولا يأكل الصدقة.

ويقرب من هذا ما أخرجه أبو نعيم في «دلائل النبوة» عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: إن قيس بن ساعدة كان يخاطب قومه بسوق عكاظ، فقال في خطبته: سيجيئكم حق من هذا الوجه. وأشار بيده نحو مكة، قالوا له: ما هذ الحق؟ قال رجل من ولد لؤي بن غالب يدعوكم إلى كلمة الإخلاص؛ عيش الأبد ونعيم لا ينفد، فإن دعاكم فأجيبوه، ولو علمت أني أعيش إلى مبعثه لكنت أول من يسبقكم إليه(١).

---

(١) من مقال "محمد وأمته في الكتب السماوية" للشيخ عبد الفتاح نصير، في كتاب محمد عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، صفحة ١٩٣، ١٩٧، ١٩٨.

والنور في الطبيعة هو أخف المواد، ولا يُرى بالعين المجردة، ولكن الإنسان لا يمكنه الرؤية إلا بوجود النور ومن خلاله.

وأخبرنا الرسول ﷺ ان الملائكة خلقت من النور.

ولذلك .. فإننا لا نرى الملائكة.

ومن ثم فهي غيب ..

واختص الله تبارك وتعالى أكبر الملائكة وهو جبريل عليه السلام؛ سماه «الروح» في قوله تعالى: ﴿ تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر﴾ [القدر: ٤]، اختصه بنفخ النفس وما بها من أسرار إلهية في الجنين[١].

فإذا قلنا إن ملائكة الروح تنفخ «السر الإلهي» الذي به تكون الحياة..

وقلنا إن الإنسان ينفخ الهواء

لعرفنا عظمة وضخامة - الاثنين معًا - في الفارق بين النور والطين ..

فهل نعرف الفارق بين السر الإلهي والهواء؟

لن نستطيع، فالروح من أمر الله سبحانه .. والقرآن العظيم روح ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحًا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾ [الشورى: ٥٢].

وأخرج الصحاح بسندهم عن جابر بن عبد الله أنه سأل رسول الله ﷺ قال: ما أول ما خلق الله؟ قال رسول الله ﷺ: (نور نبيك يا جابر). وأخرج الإمام الطبري بسنده عن أبي هريرة في حديث الإسراء والمعراج قول العلي العظيم للرسول ﷺ: «وجعلتك أول النبيين خلقًا وآخرهم بعثًا»[٢].

---

(١) ملائكة الروح تنفخ السر الإلهي في الجنين وهذا السر الإلهي هو النفس وما بها من لطائف الفؤاد والسمع والبصر وغير ذلك مما لا علم لأحد به. وعند الوفاة فإن ملك الموت يقبض النفس بما فيها وذلك واضح في قوله تعالى في لحظة وفاة الكافر حيث يقول له ملك الموت ﴿ أخرجوا أنفسكم﴾.

(٢) تفسير ابن كثير جـ٣/ ٢٠.

الفصل الرابع
﴿ ورفعنا لك ذكـــرك ﴾ [الشرح: ٤]

بينا من قبل أن الرسول ، عبد الله وتلميذه، خلقه ربه من نطفة أمشاج لأبيه عبد الله وأمه آمنة بنت وهب، فلما اذن الله تبارك وتعالى لها بالخروج بشرا مثل البشر، وصف الرسول ذلك بقوله : (رأت أمي كانه خرج منها نور أضاء له قصور الشام)(١).

وأُرضع في البادية وشب حتى الخامسة من عمره فاستقام لسانه الشريف على فصاحة العرب وبلاغة قولهم وقصد تعبيرهم، فاستوى على ذلك.

وشرح الله سبحانه له صدره مرة في صغره، وإذا كانت إحدى الروايات تقول ان ذلك تم وهو في حجر حليمة السعدية، والحديث الشريف يقول وهو في سن العاشرة. فإن الصدق هو الحديث ﴿ فلا تستفت فيهم منهم أحداً ﴾.

والله العظيم يقول ﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ وإذاً فالشرح قد تم، وهذا هو الموضوع، ثم شرح الله له صدره مرة ثانية في بداية رحلة الإسراء بمكة.

وقال الرسول ﷺ عن نفسه (أوتيت جوامع الكلم)، ذلك بأن الله سبحانه وقد صنعه وأقام لسانه على الفصاحة والبلاغة وقصد الحديث، فإنه ﷺ كان أفصح الناس طرًا. وهذا أمر ثابت، يُقر به علماء البيان. كما أنه أمر قائم دليله الأحاديث النبوية الشريفة.

فلما أرسله الله سبحانه إلى الناس، فلأنه كما سبق ان بينا، عبد الله الذي أنزله نوراً على نور، ثم خلقه من نطفة أمشاج، وجعل النورين في قلبه الشريف، وزاده الله عليهما ما أراد وما كان الله به سبحانه عليم في عمليتي شرح الصدر في البادية وفي مكة، فإن الله سبحانه، والأمر هكذا من السمو المتفرد به رسول الله، قد عصمه من

---

(١) تفسير الإمام ابن كثير جـ١ / ١٧٤.

الناس ﴿والله يعصمك من الناس﴾ [المائدة: ٦٧] حتى لا يكون عبده ﷺ الفريد في خلقه، الرؤوف الرحيم، الرسول للناس جميعاً والنذير والرحمة للعالمين. محلاً للعدوان عليه من الناس، وهو ما لا يتفق مع كونه لهم كذلك. فعصمه الله سبحانه وتعالى منهم حتى يُتم لهم الرسالة ويكمل لهم الدين ويستقيم لهم وبهم الأمر، فيؤمنون بالله العلي العظيم لا إله إلا هو وحده لا شريك له وأنهم إليه راجعون فينصروه في الأرض كما أمرهم، وبذلك يتم نوره ولو كره المجرمون.

ومن ثم

كان لا بد وأن يجعل الله تبارك وتعالى رسوله معصوماً من الناس حتى يُتم بلاغ رسالة ربه كاملة، فإذا أتم ذلك وقرأ قوله تعالى ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ [المائدة: ٣] بكى أبو بكر الصديق وقيل عمر، وحزن الناس؛ فقد شعروا بأن مهمة الرسول قد انتهت وآذن شخصه بالمغيب عنهم، وهو حبهم كله وحياتهم كلها حتى كان قولهم المأثور: بأبي أنت وأمي يا رسول الله.

ولأن الإنسان ابن أبيه وبيئته، فهو على دين أهله وطباع قومه، جبلة فيه.

ولأن الله سبحانه أخرج رسوله ﷺ من قوم عرف عنهم الطبع الصلد والقول الجاف والمسلك الخشن. لحكمة هو سبحانه أعلم بها؛ فقد أخبر هؤلاء الطغاة بأن الله «نصره»؛ ونصره فعل ماض أي أن نصر الرسول عليهم أمر مقرر من قبل ومفروغٌ منه بالتالي؛ فهو منصور عليهم وأنفهم راغم مهما قالوا وفعلوا. ونتيجة - ذلك - إن فهموا - أنهم لا بد وأن يؤمنوا ولا بد أن يكونوا طوع إرادة الرسول الذي بعثه الله العظيم ليستقيم به الأمر في الناس وفي العالمين إلى أن تقوم الساعة. ولأنه كذلك. فلا بد أن ينتصر. ولأنه لا بد وأن ينتصر فقد نصره الله. قال الله تعالى لهم وللناس جميعاً من كل لسان وفي كل مكان وزمان: ﴿إلا تنصروه فقد نصره الله﴾ [التوبة: ٤٠].

وحتى يفهم الناس ذلك أبان لهم الرحمن ﴿ويأبى الله إلا أن يُتم نوره ولو كره

الكافرون. هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾ [التوبة: ٣٢ - ٣٣] و [الصف: ٩].

وتفصيلاً وتوضيحاً قال العلي الكبير إن هذا النبي الأمي بلسان عربي إنما أُنزل للعالمين وللناس كلهم جميعاً ليحكموا بما انزل الله على قلبه، الناس كل الناس، في كل مكان وفي كل زمن، فقال سبحانه وتعالى ﴿وكذلك أنزلناه حكماً عربياً ﴾ [الرعد: ٣٧] لأن الذي أُنزل به من عند الله العليم الحكيم الخبير الذي يعلم من خلق ولا يفرق بين من خلق، فهو من عند الله، فنزل من ثم بغير هوى لأحد من البشر. فليس بين الله سبحانه وتعالى والناس قرابة. لهذا يقرر العلي العظيم انه أحسن حكم لهم ﴿ .. ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ﴾ [المائدة: ٥٠].

وحتى يفهم الناس حق مكانة الرسول ﷺ، فقد بين العلي الكبير أن الطاعة إنما تكون لله وحده ورسوله فقط: ﴿ قل أطيعوا الله والرسول، فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين ﴾ [آل عمران: ٣٢].

والله سبحانه وتعالى فوض الرسول تفويضاً كاملاً في قوله تعالى ﴿ من يُطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ [النساء: ٨٠]. بيانًا كاملاً ودقيقًا من الله جل جلاله للعالمين بثقة الله سبحانه الكاملة في رسوله، فهو سبحانه الذي وصفه ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ [القلم: ٤] وهو سبحانه الذي وصفه ﴿ .. قد جاءكم من الله نور ﴾ [المائدة: ١٥]. وهو سبحانه الذي أخذ له ميثاق النبيين بالإيمان به وبنصرته ﴿ لتؤمنن به ولتنصرنه ﴾ [آل عمران: ٨١] وهو سبحانه الذي علمه القرآن فكان هو الرسول وحده التلميذ لله سبحانه في ملكوته . من قبل أن يخلق الناس ... في مقام ومكان ﴿ قاب قوسين أو أدنى ﴾ من رب العزة العلي الكبير.

وقرر الرحمن الرحيم هذا كله في رفع ذكر رسوله ﷺ وجعله مع القمة الإلهية في الذكر فقرنه باسمه في شهادة الإيمان وفي الآذان للصلاة. فشهادة الإيمان لا تكون إلا بقولك: لا إله إلا الله محمد رسول الله. والآذان للصلاة كذلك. وفي الصلاة ننهيها

بترديد التشهد وهو التحية المباركة التي قالها الرسول ﷺ لله العلي العظيم عندما أصبح في حضرة الله العلي الكبير في الأفق الأعلى المبين: [التحيات المباركات لله والصلوات والطيبات. فرد عليه الرحمن مُحيياً: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته. وعقبت الملائكة من حول العرش: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين](١).

وأخرج الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، بسنده عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال: (أتاني جبريل فقال إن ربي وربك يقول كيف رفعت ذكرك؟ قال: الله أعلم. قال: إذا ذكرتَ ذكرتَ معي). وأخرج الإمام الحافظ بن كثير بسنده عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ (لما فرغت مما أمرني به من أمر السماوات والأرض قلت يا رب إنه لم يكن نبي قبلي إلا وقد كرمته جعلت إبراهيم خليلاً وموسى كليماً وسخرت لداود الجبال ولسليمان الريح والشياطين وأحييت لعيسى الموتى فما جعلت لي قال: أو ليس قد أعطيتك أفضل من ذلك كله اني لا أذكر إلا ذكرت معي وجعلت صدور أمتك أناجيل يقرءون القرآن ظاهراً ولم أعطها أمة وأعطيتك كنزاً من كنوز عرشي: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم). وحكى البغوي عن ابن عباس ومجاهد أن المراد بذلك الآذان يعني ذكره فيه(٢).

ولأن الله جل شانه رفع ذكر الرسول في العالمين، فإنه سبحانه حيَّاه ولم يُحَيِّ أحداً غيره.

فيقول رب العزة لرسوله موسى عليه السلام لما آتاه إليه على قدر: ﴿فلما آتاها نودي يا موسى. إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طوى. وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى. إنني انا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري. إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى. فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى﴾ [طه: ١١ – ١٦].

(١) رواية عبد الله بن مسعود. كتاب «فقه الكتاب والسنة» للشيخ سيد سابق.

(٢) تفسير ابن كثير حـ٤/ ٥٢٤ – ٥٢٥.

فلم يوجه الرحمن العظيم إلى موسى عليه السلام أي تحية وإنما أمره بخلع نعليه وحذره من عدم الإيمان بالآخرة واتباع الهوى.

ويقول الرحمن الرحيم لرسوله عيسى بن مريم عليه السلام:

﴿إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إليَّ ومطهرك من الذين كفروا﴾ [آل عمران: ٥٥].

فلما توفاه ورفعه إليه كان ما قاله العلي الكبير له هو: ﴿ءأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله، قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق؟ إن كنت قلته فقد علمته، تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك. إنك أنت علام الغيوب. ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم، وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم، فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد. إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم. قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم ..﴾ [المائدة: ١١٦ – ١١٩].

لم يوجه الرحمن الرحيم تحية ولكن وجه اتهامًا واستجوابًا، وترافع عيسى دفاعًا عن نفسه!!

أما الرسول الرؤوف الرحيم ﷺ

فهو موضع الحدب والحب والتكريم من رب العالمين .. فلا يقول العلي العظيم له خطابًا إلا بقوله تعالى ﴿يا أيها النبي﴾ أو ﴿يا أيها الرسول﴾.

﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك﴾ [المائدة: ٦٧] ﴿يا أيها النبي إنا ارسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥ – ٤٦].

بل إن الله جل في علاه

يجعل مفتاح باب حبه في حب الرسول وطاعته، فإن الله سبحانه وتعالى لا يحب

أحداً من العالمين إلا إذا كان في طاعة رسوله ﷺ فقال سبحانه وتعالى ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم ﴾ [آل عمران : ٣١] ودمغ العلي العظيم الذين لا يطيعون الرسول بالكفر.

فقال تعالى ﴿ قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين ﴾ [آل عمران : ٣٢] ﴿ ومن يُشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين، نُوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً ﴾ [النساء: ١١٥].

نعم حَيَّ الله رسوله بتحية السلام والبركات وجعلها تحية مباركة باقية للمسلمين إلى أن تقوم الساعة.

ووصف الكفار بقوله ﴿ ... وإذا جاءوك حَيَّوْك بما لم يُحيِّكَ به الله، ويقولون في أنفسهم لولا يُعذبنا الله بما نقول؛ حسبهم جهنم يصلونها وبئس المصير ﴾ [المجادلة : ٨].

ولأن الله سبحانه يحيي رسوله ﷺ من دون العالمين والرسل اجمعين فإنه سبحانه يصلي عليه بالتخصيص، وكذلك الملائكة تصلي على رسول الله ﷺ بالتخصيص، ثم يأمر العلي الكبير المؤمنين بالصلاة عليه بالتخصيص من دون العالمين.

فيقول جل شانه ﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً ﴾ [الأحزاب].

اللهم صلي على سيدنا محمد الحبيب العالي القدر العظيم الجاه وسلم تسليماً كثيراً.

الفصل الخامس

وأنزلـــــه ببكـــة

قلنا إن الله جل جلاله انزل رسوله ﷺ نوراً على نور في قريش بمكة حيث ولد لعبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف.

فلماذا مكة بالذات من دون بلاد العالمين؟

ولماذا بجوار الكعبة البيت الحرام على وجه أدق وأكثر تحديداً ؟!

لكي نعرف الإجابة ..

يجب أن نعلم شيئًا عن البيت الحرام وعن مكة .. ومن ثم يتبين لنا سبب التنزيل في هذه البقعة من الأرض.

قال الإمام العلامة أبو جعفر محمد بن جرير الطبري بسنده عن ابن عباس: وضع الله البيت على أركان الماء عا . أربعة أركان قبل أن يخلق الدنيا بالفي عام، ثم دُحيت الأرض من تحت البيت.

وقال مجاهد: خلق الله موضع هذا البيت قبل ان يخلق شيئًا بالفي سنة وأركانه في الأرض السابعة.

أما القواعد التي تحمل جدران الكعبة فهي حجارة خضر كالأسنة آخذٌ بعضها بعضًا، كُشف عنها عندما قام الوليد بن المغيرة بهدم البيت لإعادة بنائه، فإن رجلاً من قريش ممن كان يشارك في هدم الجدران أدخل عقلة بين حجرين من القواعد ليقلع بها أحدهما، فلما تحرك الحجر انتفضت مكة باسرها، فانتهوا عن ذلك الأساس(١).

وعندما تقرأ قول الله تبارك شانه ﴿إن أول بيت وُضع للناس للذي ببكة مباركًا وهدىً للعالمين﴾ [آل عمران: ٩٦] وهو الحق من ربكم ﴿ومن حيث خرجت فول

---

(١) تفسير ابن كثير حـ١/ ١٧٩ - ١٨١.

وجهك شطر المسجد الحرام. وإنه للحق من ربك﴾ [البقرة: ١٤٨ - ١٤٩]؛ ونجد ان الله سبحانه وتعالى استعمل كلمة «وُضع» في ذكر بيان وجود الكعبة البيت الحرام. ونجد أن هذه الكلمة ذاتها هي التي استعملها الله جل جلاله في بيان وجود الأرض وأنها قارة ساكنة ثابتة ليس لها حركة في قوله تعالى ﴿والأرض وضعها للأنام﴾ [الرحمن: ١٠]، فكما أن البيت الحرام ثابت والناس تطوف حوله، فكذلك الأرض ثابتة والشمس والقمر والنجوم والليل والنهار تدور حولها(١).

والله سبحانه لم يقل إنه بنى البيت الحرام أو أقامه أو شيده، وإنما استعمل لبيان حقيقة الأمر كلمة «وُضع» ليدل على المعنى بحذافيره وهو أنه سبحانه ثبت البيت. والتثبيت غير الإقامة والتشييد اللذين هما من قدرة الناس. أما التثبيت فهو من قدرة الخالق العظيم؛ لذلك قال مجاهد: إن أركان البيت الحرام في الأرض السابعة، وذكر ابن جرير أن كينونة البيت الحرام إنما هي من قبل كينونة السماوات والأرض، أي وقت ﴿وكان عرشه على الماء﴾ [هود: ٧].

وإذًا فجعل الله سبحانه البيت الحرام «الكعبة» ثابتًا وقواعده من أحجار لا مثيل لها في الأرض، وكذلك الحجر الأسود الذي هو ياقوتة بيضاء، (أسودت من خطايا الناس)، نزل بها آدم من الجنة، وأحضرها جبريل عليه السلام إلى إبراهيم عليه السلام ليضعها في الركن، أما أول من بنى جدران الكعبة، فيقول أبو جعفر الباقر أنهم الملائكة(٢).

والجدران شيء، أما القواعد التي سبق ذكرها فشيء آخر.

هذا موجز عن غيب الكعبة البيت الحرام

أما القول عن أن الأرض دحيت من تحته، فقد ثبت حديثًا بالأجهزة الإلكترونية، أن مكة هي مركز الأرض، وهذا تفسير علمي لقوله تعالى عن مكة بأنها «أم القرى».

(١) «الله والكون» للمؤلف. الباب الخامس.

(٢) تفسير ابن كثير حـ١ / ١٧٢ - ١٧٩.

فماذا عن مكة ؟!

أهلها قبائل لها عرفها، لا تخضع لقانون كالذي تخضع له الناس في الدول، فينزلزا بها عن كثير من حريتهم مقابل تنظيم حياتهم وضمانها. لم يكن لدى القبائل شيء إلا حريتها، وعزتها حريتها، وقوتها وشرفها وهيبتها وكرامتها، كل أولئك حريتها. وكما أن ذلك للقبيلة فهو أيضاً للفرد منها وللأسرة فيها.

ومن ثم، كان أي شيء ينافي هذه الحرية، هو من الضيم. وهم لا يرضون بالضيم أبداً. وإن سالت الدماء تروي الصحراء.

وأهل البادية يعيشون هذه الحرية بالسليقة التي اندمجت في كل خلايا جسدهم وشعاع من أشعة فكرهم وجوهر ومظهر حياتهم.

إنهم نهاراً على طول الصحراء وعرضها لا يرون إلا رحابة الأرض في وهج الشمس وساطع الضياء، وإلا الجبل الأشم الرافع ذروته إلى السماء، علم على كبرياء الحرية وحرية الكبرياء .. وقوة الحق وثباته وشجاعة الثبات.

وفي ليلهم تبدو السماء حنت عليهم بعظمتها وغموضها معاً، بقبتها الزرقاء الضاربة في الزرقة يتناثر فيها لألاء النجوم وأهلة القمر. عطف بعظمة وحنان بشموخ، ولا شيء عن عمارة أو زيغ مدينة، يزيغ بصرهم أو يطغيه، أو يستر عنهم هذا الكون العميق العلو، العريض الواسع، برحابته، والقريب بجلاله وفيض جماله، فيسمو فيه الفكر ويغوص في اتساعه وشموله حتى يجذب مع الفكر النفس.

وليس لأحد أي أحد، ادعاء أي ادعاء، في كل ما يرون نهاراً وليلاً، من عظمة وجلال وجمال. وليس لأحد كلمة تعكر صفوه.

فجرى فيهم روح التفرد مع الخالق، والقرب منه ثم القرب له، فكان فيهم اليقين بالله.

كل أهل مكة وكل أرض العرب

فيقول عبد المطلب لأبرهة: للبيت رب يحميه

قالها بكل اليقين وجلال اليقين ..

ورغم أن البيت الحرام في قلب «وادي مكة». ورغم أن هذا الوادي تنهال عليه الأمطار فتكون سيولاً، حتى ان حجر إبراهيم كان لصيقًا بجدار الكعبة فأزاحته السيول بعيداً عنها في عهد الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، فوضعه في مكانه الذي هو فيه الآن.

فرغم هذه السيول، وعلى خلاف سنة الله في أرضه، فإن وادي مكة غير ذي زرع.؟!

ذلك بأن الله جل شأنه أراد لهذا الوادي أن يظل بغير زرع أي يظل قحلاً خاليًا من أي نبات أي يبقى الوادي وأرضه جرز رغم هطول الأمطار والسيول عليها.

وليس هذا فقط ..

بل ومن حوله آلاف الأميال من جميع الجهات، صحراء يبابًا ثم من بعدها أبحر وذلك حتى يظل أهلها بمنأى عن مطمع أصحاب الغزوات والنزوات الاستعمارية، فيبقوا على الفطرة السليمة التي لا ترتبط بنظام محتل يقع عليهم قهره وظلمه واستبداده، ومن ثم تضيع حريتهم وتفسد فطرتهم التي خلقهم الله عليها أسوياء.

جعل الله البيت الحرام في هذا الحصن الطبيعي في هذا القرار المكين حتى يبقى هو والناس من حوله آمنين مطمئنين في حرية سابغة كاملة.

روى الشيخان بسندهما ان رسول الله ﷺ قال: (ان الله تعالى حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض، فهي حرام إلى أن تقوم الساعة، لم تحل لأحد قبلي، ولن تحل لأحد بعدي، ولم تحل لي إلا ساعة من نهار) صفوة التفاسير حـ٣/ ٥٦١.

ذلك بأن الله سبحانه أراد «والله يفعل ما يريد» أن تكون مكة أمًا للقرى وأن يكون البيت الحرام قلبها، وأن ينزل الرسول إليها ويبعث منها فيدعوا فيها.

أراد الله العظيم أن يظل أهل مكة أحراراً وعلى فطرة الحرية الكاملة التي لا يقيدها شيء إلا الكرامة والشجاعة والنخوة والعزة، حتى يدعوا الرسول في موطن هذه الحرية فيدعوا أحراراً، والأحرار أقوياء في الحق، بدعوة الإسلام التي تنبني على الحرية الكاملة، والاستقلال الكامل لشخصية الإنسان عن أي إنسان وعدم الخضوع لأي إنسان، ولكن الطاعة لله والرسول فيما أمر الله به رسوله ﷺ والفرق بين العبودية لله والطاعة لله. ان العبودية إقرار بأن الله خالق ورب.

فلا عبودية لأحد من الناس

ولكن العبودية لله الواحد القهار.

عبودية لله في لباس الحرية الكاملة التي يمشي بها الإنسان في الأرض في عزة الله وبقوة الله وبمنهج الله.

ومن هنا تجيء الطاعة لله سبحانه فيما أمر به ونهى عنه.

فالطاعة هي تنفيذ ما أمر به الله سبحانه ورسوله ﷺ. فالطاعة تنفيذ لمعاني العبودية ومن ثم لا يمكن أن تكون الطاعة لغير المعبود، ومن منطلق الطاعة ومن منطقها وضع الله العظيم مشروعية الجزاء. ومن ثم كانت القاعدة: لا عدوان إلا على الظالمين. أي الذين لا ينفذون ما أمر به الله ورسوله أي لا يطيعون الله ورسوله باطلاق.

ومن هنا كان فتح مكة

حتى يطهر منزل النورين من كل رجس ودنس ومعصية لله سبحانه، فتشرق من مكة أنوار الهداية الربانية على العالمين.

لذلك قال ربنا العظيم لرسوله الكريم

﴿إذاجاء نصر الله والفتح – أي فتح مكة – ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا. فسبح بحمد ربك واستغفره. إنه كان توابا﴾.

ففتح مكة هو النصر كله، فهي أم القرى، لذلك دخل الناس في دين الله بعد

فتحها أفواجًا ... ثم فتح الله للمسلمين مشارق الأرض حتى الصين ومغارب الأرض حتى المحيط الأطلسي وشمالاً إلى جنوب فرنسا وشرق أوروبا وجنوبها ووسطها حتى ڤيينا عاصمة النمسا.

كل ذلك أساسه حرية الإنسان فرد الناس.

والعكس صحيح ..

فضياع الحرية من الإنسان، مضيعة للناس جميعًا.

ذلك بأن قهر الإنسان استعباد له، والاستعباد ضعف، والضعف في الإنسان هو أعمق الفساد والمباءة الطبيعية للرذيلة .. فسرعان ما تسود العبيد عادات النفاق لأصحاب القهر والمستبدين. والنفاق مبني على الكذب والبهتان والزور. فإذا ما ساد المجتمع سلوك النفاق والكذب والزور تفشت فيه كافة أنواع الجرائيم الخلقية والرذائل الاجتماعية، فيصير المجتمع مستنقعًا للخور تعج فيه الفواحش ما ظهر منها وما بطن. ومن ثم يكون الانهيار الخلقي والاجتماعي، ويتلو ذلك مباشرة انهيار الدولة ذاتها. لأنها أم هذا الفساد والانحلال كله.

أما الحرية

فهي التي تعطي للإنسان المعنى الصحيح للكرامة والقوة رمن ثم الفضائل المختلفة وأولها الصدق والشهامة والنخوة والمروءة والكرم، ومع ذلك كله القوة في الحق بالحق. ذلك بأن الإنسان الحر إنما يعلم في قرارة نفسه وبما هو مستقر في وجدانه، أنه سلطان نفسه، ولا سلطان عليه من أحد إلا الله، أي لا سلطان عليه إلا أحكام الدين، أحكام العزة والعدل والشرف والصدق والأمانة، ويعلم أن في السماء رزقه، ويعلم أن القوة والعزة لله جميعًا، ويعلم أن لكل أجل كتاب.

ومن ثم

فهو لا ينافق ولا يكذب ولا يغتاب ولا يغتصب حقًا لأحد، فكل هذه الرذائل

ليس لها من جذور في نفسه وليس ثمة سبب يدعوه إليها، فإن وجدت كانت شذابا تبتر، والكل عن ذلك راض تماماً، لأنها ليست الأصل فيما بينهم ..

ومن هنا تقدمت الشعوب الحرة .. وانهارت الشعوب المستعبدة.

ومن هنا ازدهرت الأفكار والعلوم بين الأحرار، وتفشي العدم .... بين العبيد وأمثالهم.

لذلك

كان الرسول ﷺ، هو رسول الحرية بين الأحرار ورسول الحرية لتحرير من ليس حراً من خلق الله المستعبدين في الأرض بغير الحق بالقتال في سبيل الله. وكما شرع الله سبحانه الأحكام لتحرير العبيد حتى يعود الناس أحراراً في أرض الله كما خلقهم ..

ولما كان ذلك

علمنا الحكمة من حفظ الكعبة البيت الحرام، ومكة المكرمة معها، من غزو أبرهة الأشرم، فإن الله جل جلاله أمطره بحجارة من سجيل أتت بها من عند ربها طيرٌ أبابيل فجعلت هذا الجيش كعصف مأكول(١).

وإذا كان الله تبارك وتعالى قد وضع أسباب عدم الطمع في مكة وما فيها وما حولها بأن جعلها وادٍ غير ذي زرع رغم هطول الأمطار عليه، فإن ذلك دون ريب هو قدر الله سبحانه فيه وأمره إنيه كما أمر النار أن تكون برداً وسلاماً على إبراهيم؛ فخرجت عن سنتها في إبراهيم نفسه وطبقت سنتها في كل ما حوله، وكما أمر البحر بأن يلقى موسى بالساحل ﴿ فليلقه اليم بالساحل ﴾ [طه] فأطاع أمر ربه سبحانه. رغم أن سنة الله فيه عكس ذلك.

ومن هنا، فإن الله سبحانه جل جلاله، كان لا بد وأن يقضي على أبرهة وجيشه لأنه حاول أن يعتدي وأراد أن يطغى على قدر الله وأمره.

---

(١) جاء بكتاب «حياة محمد» للدكتور محمد حسين هيكل أن الرياح أتت بجراثيم الطاعون فأصابت جيش أبرهة ولذلك هزم. وتعليقنا على ذلك سيأتي فيما بعد.

فحمى الله العظيم بيته الحرام ومن ثم حمى حرية أهل مكة، حتى يضمن البيئة الصالحة للدعوة الإسلامية، بيئة الصدق والكرامة والشجاعة والنخوة والمروءة والكرم والعزة التي لا بد لها من الفطرة السليمة النابعة من الحرية الحقة وذلك كله هو الحضارة الحقة.

بل وأكثر من ذلك

فإن الله سبحانه قال في محكم التنزيل عن بيته الحرام ﴿ فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنًا ﴾ [آل عمران: ٩٧].

وكلمة «آيات» أي معجزات إلهية ليس للإنسان دور فيها ولا يد. ومن ثم فهي أسرار علوية عظيمة. وكلمة «بينات» أي محققة أي ثابتات ثبوت الحق فلا تزول ولا تتغير.

ومن هذه الآيات .. قواعد البيت التي ليس لها مثيل في الأرض. ومنها أيضًا طريقة وضعها التي تحرك مكة كلها لو حرك حجر منها بعقلة. ومنها كذلك الحجر الأسود الذي كان لؤلؤة بيضاء وأحضرها آدم عليه السلام من الجنة. وليس له مثيل في الأرض. ومن هذه الآيات كذلك. ذات موقع البيت الحرام. فهو في مركز الأرض تمامًا كما أثبتت الدراسات العلمية أخيرًا. ومن ثم فهو مركز العالمين[١]. ومن ثم فإن الله الخالق العظيم دحى الأرض من تحته فصارت على ما هي عليه الآن من صلاحية للحياة.

ومن هذه الآيات. أي الأسرار العلوية العظيمة أن الله سبحانه فرض الحرام على هذا البيت وسمَّاه البيت الحرام، فهو وبدون قوة من أحد من الناس حرام على الكفرة فلا يستطيع أن يدخله كافر ولا مشرك منذ نزلت سورة التوبة، ذلك بأن القى الله جل شأنه فيه هذه الحرمة. آية عظيمة من آيات الله جل جلاله. فلا يدخله كافر ولو أراد ولن يدخله مهما كانت قوته. وكان من قبل - كما هو ثابت تاريخيًا - محجًا للهيود والنصارى وكافة الملل وعبدة الأصنام والأوثان. وبغير قوة من أحد من الناس فإن الله

(١) انظر الباب السادس من كتاب «الله والكون» للمؤلف.

جل جلاله ألقى حرمة دخول البيت على هؤلاء جميعًا وجعله « البيت الحرام » فامتنع الكفرة تلقائيا بقوة الله عن دخوله أو الاقتراب منه .. وإلى أن تقوم الساعة.

بل والأكثر من ذلك أن أحدًا لم يدع ولن يدع أحد أن هذا البيت مَحَجّهم. فلم ولن يطلب أحد الحج إليه رغم القوة المادية البادية لأهل الكفر.

وعلى العكس فنرى المسلمين يثبتون على المطالبة بالمسجد الأقصى - أولي القبلتين ومسرى ومعرج رسول الله ﷺ - وتحريره واعتبار هذا هدف مقدس من مقدساتنا الدينية.

ويقرر العلي العظيم أن هذا النصر آت لا ريب فيه مهما كانت ظواهر الأحوال، فيقول سبحانه لليهود وكل الناس: ﴿ .. فإذاجاء وعد الآخرة ليسئوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة - أي المؤمنون - وليتبروا ما علوا تتبيرًا ﴾ [الإسراء: ٧].

وهذا الفارق الكبير بين الموقفين يعطي لكل ذي قلب منيب وحس مرهف بالإيمان الدليل القوي العظيم الذي وضعه العلي الحكيم في الكعبة المشرفة فجعلها « حرامًا » على الكافرين.

وسر عظيم آخر هو أنه سبحانه وتعالى جعل من دخلها آمنًا، وهذا مناط الربوبية في الكعبة، أن من يلجأ إلى الله فيها إنما يكون في حصن حصين بل وإن دعاءه فيها يجعله على يقين الإجابة بإذن الله العلي العزيز الرحمن الرحيم.

أما مقام إبراهيم. فهو وإن كان حجرًا[١] إلا أنه موضع التكريم والتقديس. ليس في ذات حجريته. ولكن لما أودعه الله سبحانه وتعالى فيه من أسرار، فجعل من مكانه مسجداً على وجه التخصيص ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ [البقرة: ١٢٥].

---

(١) رأي جمهور العلماء. وهناك آراء أخرى تقول إن مقام إبراهيم هو المسجد الحرام كله، وآراء أخرى تقول مكة كلها هي مقام إبراهيم.

وأن يأمر العلي العظيم المؤمنين بأن يصلوا في مجال موضع هذا الحجرا لذي كان يقف عليه إبراهيم عليه السلام ليرفع جدران الكعبة فوق قواعدها، لإشارة إلى أن الصلاة في موضع هذا الحجر باب إلى العلا والرفعة في يقين الإيمان بالله وتقواه، ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾؛ وهذا أرفع مقام للإنسان.

ولما كانت علل بعض أحكام العبادات خافية، فإن الطاعة لله فيها تزيد المؤمنين قوة وثوابًا. وهذا مثل من أمثلة هذه العبادات.

وعلى بُعد أمتار من الكعبة البيت الحرام، كان مولد رسول الله ﷺ، ومن حوله درج ومشى، ومن جواره بعث رحمة ونذيراً للعالمين، وفي جواره ظل أربعًا وخمسين عامًا من حياته العظيمة حتى هاجر إلى المدينة المنورة.

ولما فتح الله له مكة، كان النصر المبين ومقدمة النصر على العالمين.

الفصل السادس

«النبي الأمي»

يقولون: الأمي هو الذي لا يعرف القراءة ولا الكتابة، أي لا يعرف كيف يقرأ ما هو مكتوب، ولا أن يكتب ما يُملى عليه.

ولأن الرسول ﷺ لا يعرف أن يكتب ما يقرأه الناس عليه ولا يعرف أن يقرأ ما هو مكتوب، فقد قالوا إن هذا هو معنى النبي الأمي.

وإن كان حق أن الرسول ﷺ لا يعرف أن يقرأ ما هو مكتوب ولا أن يكتب ما يقرأ عليه؛ إلا أن الرسول أعظم قارئ عرفته الإنسانية وخير قارئ للبشر جميعًا.

فكيف ذلك؟

لنبدأ من البداية .. من بيان معنى كلمة «أمي»

فهل هذه الكلمة نسبة إلى «أمَّة» بمعنى جماعة من الناس، أو أنها نسبة إلى «أمْ» بمعنى والدة فهو ابن من ولدته؟ ومن ثم من يولد لا يولد عالمًا بالقراءة ولا الكتابة، فحمل معنى الجهل بهما إليه ينسبه إلى الكلمة «أم». فيوصف بأنه «أمي»؟

ولبيان المعنى الصحيح

فإننا نلتزم برده إلى الله سبحانه وإلى الرسول لقوله تعالى ﴿ .. فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر؛ ذلك خير وأحسن تأويلاً﴾ [النساء: ٥٩].

والقرآن العظيم كلام الله للناس، وواقع الله في الأرض، كلاهما أعظم برهان على المعنى الصحيح.

البرهان الأول:

فالله العظيم يقول في محكم التنزيل ﴿فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن، وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين ءأسلمتم، فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ؛ والله بصير بالعباد﴾ [آل عمران: ٢٠].

وواضح من الآية الكريمة ان الله سبحانه يأمر رسوله بان يدعو فريقين هما كل الناس: الفريق الأول هو «أهل الكتاب» أي اليهود والنصارى الذين يعلمون الكتاب. والفريق الثاني هو «الأميين» أو كل أحد غير اليهود وغير النصارى.

وإذاً فمعنى كلمة «أميين» في الآية الكريمة أي كل الناس غير اليهود والنصارى.

لذلك، فالثابت في الصحيحين وعند اصحاب السنن، بالتواتر في الوقائع المتعددة، أنه ﷺ بعث كتبه يدعو إلى الله والإيمان به وحده لا شريك له وبمحمد رسولاً وبالقرآن كتاباً ومنهاجاً لله سبحانه إلى الملوك وطوائف كثيرة من عرب الناس وعجمهم. وقال ﷺ: (بُعثت إلى الأحمر والأسود) وقال: (كان النبي يُبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة)(١).

وواضح من هذا ومن شرح أئمة المفسرين ان كلمة «أميين» وهي جمع كلمة «أمي» إنما تعني كل المشركين - غير أهل الكتاب - وكل العرب وكل العجم وكل الأحمر والأسود؛ وإذا فهي تعني ام نسبة إلى أمة.

وقال العلي العظيم: ﴿ومن أهل الكتاب من إن تامنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً؛ ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾ [آل عمران: ٧٥].

وواضح أيضاً أن الله سبحانه ذكر تقسيم الناس في هذه الآية الكريمة أيضاً إلى فريقين: الفريق الأول «أهل الكتاب» والفريق الثاني «الأميين» وهو نفس التقسيم في الآية السابقة ٢٠ آل عمران.

ويقول الإمام ابن كثير على اتفاق مع من سبقه من أئمة المفسرين: «الأميين» هم العرب. واستدل بالآية ٢٠ آل عمران على تأييد هذا المعنى(٢).

---

(١) ابن كثير حـ١ / ٣٥٤.

(٢) ابن كثير حـ١ / ٣٧٤.

ولما كان قول الله تعالى: ﴿ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون﴾ [البقرة: ٧٨]. قد اعطت انطباعًا واهمًا بان المقصود من كلمة «أميون» هنا مُعرفة في الآية بانهم «لا يعلمون الكتاب» ومن ثم فمعنى «أميون» أي الذين لا يعرفون القراءة والكتابة.

فإن التمعن في معنى الكلمات ومناسبتها يبين المعنى الصحيح.

فالآية الكريمة تذكر «لا يعلمون الكتاب» ولم تقل لا يعرفون الكتاب. وفرق كبير بين العلم والمعرفة. فالعلم قد ينعدم مع وجود المعرفة، فمثلاً هو يعرف القراءة والكتابة ولكن لا يعلم شيئًا مما في الكتاب لانه لم يدرسه وهذا هو المعنى المقصود تمامًا في هذه الآية، والله سبحانه يبين لنا هذا في الآية التالية مباشرة ﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً ..﴾ [البقرة: ٧٩]، فكانت جماعات كثيرة من اليهود وإن كانت لهم معرفة بالقراءة والكتابة لا يعلمون حقيقة ما في الكتاب لأن أحبارهم كتبوا بأيديهم أشياء غير صحيحة وتحريفًا كثيرًا ثم قالوا هذا من عند الله ليشتروا بذلك مغانم الحياة الدنيا. يؤيد هذا أن معنى "تمني" الكتاب أي قرأه[1] ولكن القراءة لا تعني [illegible]م اطلاقًا.

وإذًا فهؤلاء الذين لم يكتبوا الكتاب بأيديهم، أي أم اليهود، لا يعلمون حقيقة ما في الكتاب إلا قراءة فقط، لذلك وصفهم العلي العظيم بأنهم «أميون» أي أقوامًا من أسباط اليهود لا يعلمون حقيقة ما في الكتاب لانه وصل إليهم محرفًا بأيدي الأحبار الذين أبوا إلا أن يحرفوه ليشتروا به الاستعلاء على الناس والسيطرة عليهم طلبًا لزخرف الحياة الدنيا.

يؤيد هذا المعنى ما رواه الضحاك عن ابن عباس من أن المقصود بالأميين هنا قوم لم يصدقوا رسولاً أرسله الله ولا كتابًا أنزله الله فكتبوا كتابًا بأيديهم ثم قالوا لقوم سفلة جهلة منهم هذا من عند الله.

---

(١) مختار الصحاح ويستشهد على المعنى بذات الآية.

وجاء منسوبًا إلى مجاهد من ان: الأميون جمع أمي وهو الرجل الذي لا يحسن الكتابة. كما فسروا أن لهذا جاء في صفات النبي ﷺ أنه الأمي كما قال تعالى ﴿ وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذًا لارتاب المبطلون ﴾ العنكبوت: ٤٨] وقال الإمام ابن جرير الطبري: نسبت العرب من لا يكتب ولا يخط من الرجال إلى أمه في جهله بالكتاب دون أبيه[١].

وواضح أن هذه الروايات غير منطقية كما أنها لا تتفق مع كلمات القرآن العظيم لأن قوله تعالى ﴿ وما كنت تتلوا من قبله من كتاب .. ﴾ إنما تعني من قبل نزول هذا القرآن عليه لم يكن الرسول يتلو كتابًا وهو في قومه ومعهم.

وإذًا فالآية ليست لها صلة بالأمية إطلاقًا لأنها تتكلم عن كتابة أو تلاوة قبل القرآن، فلم يرد بها لفظ أمي إطلاقًا، ومن ثم فحمل معنى عدم التلاوة والكتابة على كلمة أمي، إنما من قبيل التعسف أو عدم الدقة، ذلك بأنه إذا كانت هذه الآية الكريمة تتكلم عن التلاوة أى القراءة والكتابة فإنما تتكلم عن قراءة ما هو مكتوب وكتابة ما هو مقروء، فلا تتكلم عن الأمية إذًا من قريب أو بعيد، ومن ثم فالاستشهاد بها في هذا الموطن على غير واقع بل هو في غير موضعه. وبالتالي لا يعتد به.

ويقطع بهذا، ما سار عليه التفسير بعد ذلك لدى جميع المفسرين في آيات آل عمران من أن المقصود بالأميين هم العرب والأعاجم غير أهل الكتاب أي بمعنى نسبة الأميين إلى «أمة».

ويؤكد هذا على وجه الحسم ما ورد في سورة الجمعة حيث يقول رب العالمين: ﴿ هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلوا عليهم ءاياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين. وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم ﴾ [الجمعة: ٢ - ٣].

فهذه الآية تؤكد أن الرسول ﷺ بُعث في «الأميين»، وأنه واحد منهم، وأنه

(١) ابن كثير حـ١/ ١١٦.

« يتلوا عليهم ءاياته » أي يقرأ عليهم آيات الله العظيم أي يقرأ عليهم القرآن الكريم وكذلك على أهل الكتاب.

ومن ثم

فلا صلة اطلاقًا بين كلمة « أمي » وبين معرفة القراءة والكتابة .. وإنما هو أمي من الأميين أي ليس من أهل الكتاب ..

ويقول الإمام ابن كثير على غير خلاف مع أحد:

الأميون هم العرب كما في قوله تعالى ﴿ليس علينا في الأميين سبيل﴾ وتخصيص الأميين بالذكر - أي تخصيص العرب بالذكر - لا ينفي من عداهم، ولكن المنة عليهم أبلغ كقوله تعالى: ﴿وإنه لذكر لك ولقومك﴾ وقوله تعالى: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾. لذلك فسر قوله تعالى ﴿وآخرين منهم لما يلحقوا بهم﴾ بأنهم فارس والروم وغيرهم من الأمم. وقال مجاهد وغير واحد: هم الأعاجم وكل من صدّق النبي من غير العرب[1].

أما عن برهان: واقع الله في الأرض

فإن الكثيرين من العرب وأصحاب الرسول ﷺ كانوا يعرفون القراءة والكتابة أمثال عمر بن الخطاب الذي أسلم بعد أن قرأ بعضًا من سورة طه على بعض الروايات وعلي بن أبي طالب الذي كتب القرآن وعثمان بن عفان وزيد بن ثابت الذي كان يكتب الوحي ومثله معاوية بن أبي سفيان وغيرهم كثير، وكلهم من قريش والأنصار أي سنامة العرب، والرسول ﷺ هو منهم وأعظمهم نسبًا، ومن ثم فهو واحد منهم ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم﴾. وإذًا فهؤلاء الأميين لا يمكن أن يقال عنهم إنهم سُمُّوا كذلك لأنهم لا يعرفون القراءة والكتابة .!! ولكن الصحيح والمنطقي أن يقال إنهم سموا كذلك لأنهم من أمة غير اليهود أو غير أهل الكتاب الذين يعلمون الكتاب.

---

(١) ابن كثير حـ٤ / ٣٦٣ و ٣٦٤.

وإذا كانوا كلهم قد تلقوا القرآن قراءة من فم رسول الله ﷺ بالتواتر فإنه لا يمكن القول إذاً بأن الرسول ﷺ لا يعرف القراءة.

ولكنه ﷺ لا يعرف أن يقرأ ما هو مكتوب

وإذا كان الله سبحانه قد جعله كذلك، فإن هذا ليس له ثمة صلة ولو من بعيد بمعنى كلمة أمي من ناحية ولا بمعرفة القراءة كذلك من ناحية أخرى.

فالقراءة شيء آخر. وأعظم من يعلمها هو رسول الله ﷺ.

وقد أعطى لنا سبحانه الدليل في الشاعر الحكيم أبو العلاء المعري، وحديثًا في عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين.

ولا يستطيع مكابر أن يقول إن طه حسين «أمي» لأنه لا يعرف الكتابة ولا القراءة. والثابت أن طه حسين قارئ عظيم ولكنه لا يستطيع أن يقرأ ما هو مكتوب ولا أن يكتب ما يقرأ عليه.

وهذا هو واقع الله العظيم في الأرض ليعلم الذين آمنوا أن من معجزات الله في رسول الله ﷺ في شخصه أنه أعظم قارئ في تاريخ الإنسانية، كما أنه أعظم معلم للناس جميعًا. رغم أنه لا يقرأ ما هو مكتوب ولا يكتب ما يُتلى عليه.

﴿ كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴾ [البقرة: ١٥١].

فالرسول ﷺ «أمي» من «الأميين» أي من غير أهل الكتاب وهذه صفته في التوراة والإنجيل. قال تعالى: ﴿ الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف.. ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

هذا!

ويقول رب العالمين عن رسالة خاتم النبيين ﷺ ﴿ وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم ﴾ [الزخرف: ٤].

فالقرآن الكريم في «أم» الكتاب عند الله العزيز الحكيم الذي علم الرسول القرآن باسم «الرحمن» فالرحمن علم رسوله القرآن في أم الكتاب، فقرأ الرسول في أنوار الألوهية القرآن العظيم في أم الكتاب ﴿اقرأ وربك الأكرم﴾، فهو ﷺ تعلم علم "أم الكتاب" فنسب إلى ما تعلم فهو الأمي.

ومن ثم كانت صفته في القرآن أنه النبي الأمي نسبة إلى ما علمه الله، وإلى أن التعليم هو الذي يبني الإنسان ويحدد شخصيته، فإن الرسول ﷺ تعلم في أم الكتاب فكان النبي الأمي المكتوب كذلك في التوراة والإنجيل. فهو النبي الأمي من دون النبيين جميعًا.

ومن هنا نجد عظمة الصفة التي وصف الله العظيم بها رسوله ﷺ .. فهو وحده صاحب الذروة العلمية في العالمين، لذلك وصفه إمام الصوفية أحمد البدوي: أنه لمعة القبضة الرحمانية، شجرة الأصل النورانية. معدن الأسرار الربانية. خزائن العلوم الاصطفائية صاحب القبضة الأصلية والبهجة السنية والرتبة العلية..

الفصل السابع

﴿ النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته ﴾

[الأعراف: ١٥٨]

الكلام عند الناس هو حروف الهجاء ومكوناتها. فالحرف كلمة ومكونات الحروف كلمة وكلمات وكلم ..

وكل العلوم والمعارف لدى الناس من هذه الكلمات. يُعلَّمُ بها ويُعلِّمُ بها ويَعرف ويُعرف بها. ولكنها لا تزيد عن هذه المجالات أبداً. فهي وسيلة العلم والتعبير عن المعرفة من بعد التخاطب وليس ثمة شيء بعد ذلك.

أما « كلمات » الله العظيم، فشيء آخر تماماً، فهي « آيات » أي معجزات إلهية. ذلك بأنها نور الله وروح من أمره ومن ثم يكمن فيها سر القدرة والعظمة الإلهية والله سبحانه يضرب لنا الأمثال. ولله المثل الأعلى.

المثال الأول: قال تعالى:

﴿ إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين. ويكلم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين ﴾ [آل عمران: ٤٥ – ٤٦].

فعيسى بن مريم عليه السلام ﴿ رسول الله وكلمته القاها إلى مريم ﴾ [النساء: ١٧١] كلمة هي "عيسى"، بشرٌ سَوِيٌّ خُلق من تراب هو مريم. وحملته أمه وولدته كما تلد النساء على سنة الله في البشر. ثم يكون صبياً على غير سنة الله في الصبية فهو يكلم الناس في المهد. وما دام يكلمهم فهو يفهم بهذا القدر الكبير الذي يتيح له هذا الكلام فيبدأ القول مطمئناً والدته مخرجاً لها من حزنها على ما هي فيه من موقف شاذ في أعين الناس يوحي إليهم بالرذيلة والخطيئة وهي منهما براء فهي المصطفاة على نساء

العالمين: ﴿ فناداها من تحتها الا تحزني قد جعل ربك تحتك سريًا ﴾ ويرشدها إلى ماكلها ومشربها ﴿ وهُزّي إليك بجزع النخلة تساقط عليك رطبًا جنيًا. فكلي واشربي وقري عينًا ﴾؛ ثم يبين لها السلوك الذي عليها أن تسلكه مع الناس والقول الذي تواجههم به ﴿ ... فإما ترين من البشر أحدًا فقولي إني نذرت للرحمن صومًا فلن أكلم اليوم إنسيًا ﴾. فسلكت سبيلها .. ﴿ فاتت به قومها تحمله، قالوا يا مريم لقد جئت شيئًا فريًا .. ﴾ ويكيل الناس لها الاتهامات .. فيرد عليهم عيسى ﴿ قال إني عبد الله أتاني الكتاب وجعلني نبيًا وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيًا. وبرًا بوالدتي ولم يجعلني جبارًا شقيًا. والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيًا ﴾ [مريم: ٢٤ - ٣٣].

هذا عيسى بن مريم عليه السلام؛ كلمة من الله إلى الناس ورسولاً إلى بني إسرائيل. ينطق بكلمات الله وهو وليدًا لم يعلمه أحد، ذلك بأن الله يريد ان يكون ذلك النبي في مهده دليلاً للناس على قدرة الله في خلقه.

المثال الثاني: وثمة كلمة أكبر وأكثر وقعًا

وصفها العلي الكبير بأنها نبأ عظيم، قال تعالى:

﴿ قل هو نبؤٌا عظيم. أنتم عنه معرضون. ما كان لي من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون. إن يوحي إلي إلا إنما أنا نذير مبين. إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرًا من طين. فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين. فسجد الملائكة كلهم أجمعون ﴾ [ص: ٦٧ - ٧٣].

وبين سبحانه مما خلق آدم فقال تعالى:

﴿ .. كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾ [آل عمران: ٥٩]

وبين العلي الكبير قدر « كن » في خلق آدم، فقال تعالى:

﴿ قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي ... ﴾ [ص: ٧٥]. ومعنى

« يدي » أي عظمة القدرة الإلهية أي كمالها المتفرد في غير لبس بالسنة(١).

فهذه الكلمة خلقت أبا البشر كلهم أجمعين بغير أب ولا أم، أبا البشر وأول النبيين.

وعندما أُهبط آدم إلى الأرض كانت قدماه في الأرض ورأسه في جوف السماء يسمع الملأ الأعلى من الملائكة في البروج .. فاستاءت الملائكة واشتكت إلى الله، فجعل الله طول آدم ستين ذراعًا، وحتى يؤنسه وضع له البيت الحرام يطوف حوله ويصلي قبله وصلا من الله له وكما تطوف الملائكة حول العرش المجيد وتسبح بحمد الله الرحمن الرحيم(٢).

ومن هذه الكلمة الإلهية، كلمة "كن" لخلق آدم، خلق الله العظيم الناس جميعًا نسلاً من نسل وحتى تقوم الساعة.

المثال الثالث: وثمة كلمة ثالثة أكبر وأعظم كثيراً

يقول العلي الكبير:

﴿ بديع السماوات والأرض، وإذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون ﴾ [البقرة: ١١٧] فكان هذا الكون: الأرض ثم السماوات السبع بما فيهن من نجوم وكواكب وأقمار وما لا نعرف ..

و ﴿ لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ [غافر: ٥٧].

هذه أمثلة من عالم الشهادة فقط .. أنزلها الله العظيم إلينا لنعلم منها قدر عظمة كلمات الله سبحانه التي يؤمن بها الرسول ﷺ. وما دام يؤمن بها، فإنه يعرف أبعادها

(١) اليد من مادة « الأيد » أي القوة ويقول العلي الكبير ﴿ والسماء بنيناها بأييد وإنا لموسعون ﴾ اي بنينا السماء بقوة كبيرة فالياء الثانية تكثير للقوة. ومن هنا جاء جمع « يد » كلمة « أيدي » حيث تمثل اليد وسيلة القوة في الإنسان.

(٢) تفسير ابن كثير حـ١ / ١٧٩.

وحقائقها بحذافيرها وأقطارها، ذلك بأن المعرفة هي الباب الوحيد للعقل، ثم الفهم وهو سبيل التفكر والاقتناع، والاقتناع أول التصديق الذي يُدخل الإيمان في القلب.

لذلك، كان علم الرسول ﷺ واسع وفريد ولا يعلم إنسان مداه، فربه سبحانه هو وحده العليم بما علمه، فالرسول هو الوحيد في العالمين الذي علمه الرحمن القرآن وعلمه كلماته أم الكتاب حقيقة كل الحقائق.

وكلمات الله لا تنفد ..

﴿ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً ﴾ [الكهف: ١٠٩].

لذلك وصف علماء الصوفية الرسول ﷺ بقولهم: معدن الأسرار الربانية وخزائن العلوم الاصطفائية(١).

ووصف الرسول ﷺ علمه بقوله: (أنا مدينة العلم).

وإذا كان الرسول ولدته أمه كما تلد النساء. فإن هذه لم تكن بداية الرسول كما بينًا من قبل.

وإنما البداية كانت عند الله، فعلمه الرحمن القرآن وعلمه النسك وعلمه الصلاة وعلمه كلمات الله العظيم فآمن بها جميعًا وصلى وتنسك لرب العالمين، وأخبرنا سبحانه وتعالى بذلك في محكم التنزيل:

﴿ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ﴾ فذكر صلاته ونسكه من قبل حياته وموته في الأرض.

ويقول بعض الذين يخلدون إلى الأرض في تفكيرهم: كيف يقرأ الرسول في الغيب في الأسماء القدسية وأسماء الذات العلية .. مع أن الرسول ليس بقارئ؟!

وهو قول ساذج سذاجة الجنين برحم أمه، فمن منا يعلم الرحم الذي خلق فيه؟

---

(١) «السيد احمد البدوي» ١١٣/ لشيخ الأزهر السابق عبد الحليم محمود.

ألم نقرأ قوله تعالى ﴿ ما فرطنا في الكتاب من شيء ﴾ [الأنعام: ٣٨]. إن القارئ وغير القارئ في هذه الدنيا سيقرأ كتابه يوم الحساب ﴿ اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴾ [الإسراء: ١٤] وقوله تعالى ﴿ ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا احصاها، ووجدوا ما عملوا حاضرا ... ﴾ [الكهف: ٤٩].

ولا شك أن الكثير من المجرمين لا يعرفون القراءة والكتابة في هذه الدنيا، ومع ذلك فإنهم سيقرءون الكتاب كلمة كلمة ..

أليس هذا بدليل على قراءة الرسول ﷺ من قبل هذه الدنيا، وهو خير خلقه وصفوة خلقه وأشرف خلقه وأحب خلقه إليه وأدناهم منه.

ألم يقرأ هؤلاء الذين يقيسون فكرهم بما تمسك أيديهم وتمشي أرجلهم، أن الله سبحانه وتعالى يجعلهم في الآخرة في خلق جديد.

أيعجب هؤلاء من قدرة الله العظيم ؟!

يقول رب العالمين لرسوله عن هؤلاء:

﴿ وإن تعجب فعجب قولهم أءذا كنا تراباً أءنا لفي خلق جديد، أولئك الذين كفروا بربهم ... ﴾ [الرعدة: ٥].

ويعرفنا العلي الكبير بقدرة هذا الخلق الجديد فيقول تبارك وتعالى:

﴿ ... فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ﴾ [ق: ٢٢].

ثم يعرفنا العلي العظيم بأن حشرنا يوم القيامة سيكون بهذا الخلق الجديد وفي موقف مشابه للموقف الذي وقفه البشر عند أخذ الميثاق عليهم في الحياة الأولى.

﴿ وعُرضوا على ربك صفا، لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة ... ﴾ [الكهف: ٤٨] فهل بعد هذا نعجب من قول ربنا العظيم أنه علم رسوله القرآن وكلماته من قبل هذه الحياة الدنيا، وأن العلم يُلقى في قلب الرسول وأن الرسول قرأ في

أسماء ربه العظيم ثم قرأ في أسماء الذات العلية الربانية وأنه أشرق بنور ربه وتعلم من كلمات ربه ما أراد العليم الخبير أن يتعلم فوصفه لنا رب العالمين بأنه ﴿ النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته ... ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

ألم يقرأ هؤلاء الماديون الجامدون قول العلي الكبير:

﴿ وعلم آدم الأسماء كلها .. ﴾ [البقرة: ٣١] .. ؟!

لماذا لم يفسروا لنا كيف تعلم إلا بقولهم: إن الله ألقى العلم في قلب آدم. قال ابن عباس: علمه اسم كل شيء حتى القصعة والمغرفة(١). واختار ابن جرير أنه علمه أسماء الملائكة وأسماء الذرية. وقال الإمام ابن كثير أن الله علم آدم أسماء الأشياء كلها ذواتها وصفاتها وأفعالها كما قال ابن عباس حتى الفسوة والفسية يعني أسماء الذوات والأفعال المكبر والمصغر(٢).

فإذا كان الله العظيم علم آدم أسماء كل شيء، وهذا بصريح ووضوح النص القرآني، فلماذا لم يقولوا: إن آدم ليس بقارئ. أم يدعون غير هذا. فليقولوا لنا إذاً أين تعلم آدم عليه السلام القراءة؟ وقبل أن يجيبوا على هذا السؤال: فليذكروا أين كان آدم عليه السلام عندما تعلم الأسماء كلها ؟!

ولنذكرهم جميعاً

لنذكرهم بأن آدم عليه السلام كان في جنة عرضها السماوات والأرض وأنه تعلم الأسماء التي عجز الملائكة عن معرفتها وأنه بعد أن تعلم الأسماء أمره ربه العظيم ﴿ قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم، فلما أنبأهم بأسمائهم ... ﴾ [البقرة: ٣٣].

فإذا كان آدم عليه السلام، قد علمه ربنا العظيم كل الأسماء من قبل هذه الحياة، أفلا نعتبر بذلك، وبقدرة العلي الكبير، وبصريح قرآنه العظيم الذي يقول فيه

(١) صفوة التفاسير جـ١ /٤٨.

(٢) تفسير ابن كثير جـ١ /٧٣.

﴿الرحمن. علم القرآن﴾. وبعد ذلك يقول ﴿خلق الإنسان﴾ فنفهم أن العلي الكبير علم رسوله ﷺ وعلمه كلماته من قبل خلق الإنسان ومن قبل أن ينزله رحمة للعالمين، وأن من يُعلِّم لا بد له من تلميذ يتعلم عنه.

أفلا نعلم أن القرآن روح من أمر الله، وأن أسراره غيب مثل الأسرار الإلهية التي نفخت فينا بل وأعظم !!

نعم

نقول لكل العالمين: إن رسول الله ﷺ هو أعظم قارئ للقرآن ولكلمات الله وأعظم عالم في العالمين ومعلم للعالمين وفيض رحمة الله العظيم للعالمين وسيد البشر أجمعين في الدنيا وفي الآخرة.

وإذا كان لنا أن نتمعن في يقين علم الله، فيجب أن نعلم أن العلم الذي أعطانا الله، إنما هو من كمال سنته سبحانه، يحكم به الله كل شيء ظاهر فينا وفي هذه الحياة؛ فإذا ما تعدى الأمر الظواهر، كان الأمر لكمال قدرته سبحانه.

وكمال القدرة هو ما عبر عنه سبحانه بالملكوت ﴿بيده ملكوت كل شيء﴾ [يس: ٨٣]. ومن كمال القدرة الإلهية أسرار كلمات الله العظيم الذي يؤمن بها الرسول ﷺ. وانفردت دعوة رسول الله بين دعوات المرسلين جميعاً إلى الدعوة إلى الله بكلمات الله، بكلمات كمال قدرته في سنته مع كلمات كمال قدرته في قوته وعظمته ...

فهاهم الكفار يسألون الرسول: إنسب لنا ربك. يقول العلي الكبير ﴿قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد﴾ ليس له ولد وليس له أب ولا أم.

ثم يبين الله العظيم آثار أحديته فيقول جل جلاله بظاهر قدرته:

﴿وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم. إن في خلق السماوات والأرض

واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾ [البقرة: ١٦٣ - ١٦٤].

فذكر سبحانه الدليل والحجة البالغة القاطعة على تفرده بالإلهية بخلقه للسماوات والأرض وما فيهما وما بين ذلك ومما ابرأ وذرأ من المخلوقات، ومما سخره للناس.

وها هو الرسول - من وحي الله العظيم المنزل عليه - يبين للناس عظمة الله البالغة فيقرأ كلمات الله التي تبين كمال قدرته في كمال سنته ﴿ إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب. الذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار ﴾ [آل عمران: ١٩٠ - ١٩١].

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: بت عند خالتي ميمونة فتحدث رسول الله ﷺ مع أهله ساعة ثم رقد. فلما كان ثلث الليل الآخر جلس فنظر إلى السماء فقال: ﴿ إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب ... ﴾ الآية ثم قام فتوضأ واستنّ. ثم صلى إحدى عشر ركعة. ثم أذن بلال فصلى ركعتين ثم خرج فصلى بالناس الصبح (صلاة الفجر)[1].

ويبين الله العظيم كيف ومضمون - كلماته سبحانه: فيقول جل شانه: ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحًا من أمرنا؛ ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورًا نهدي به من نشاء من عبادنا؛ وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم. صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض؛ ألا إلى الله تصير الأمور ﴾ [الشورى: ٥٢ - ٥٣].

فكلمات الله العظيم التي أوحى بها سبحانه «روح» من أمره في نوره تعالى لقوله

(١) هكذا رواه البخاري ومسلم - تفسير ابن كثير حـ١/٤٣٩.

تبارك وتعالى: ﴿ يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ﴾ [التوبة: ٣٢].

ويبين الرسول ﷺ كيف وجُد ذلك فيقول ﷺ: (.. أول ما خلق الله القلم. قال: أكتُب فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة) فتعلم الرسول القرآن في ملك الله ﴿ الرحمن. علم القرآن ﴾ لأن القرآن في أم الكتاب ﴿ وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم ﴾ [الزخرف: ٣].

وإذا تكلم إنسان عن « الروح » فإنه يتكلم عن سر مغلق، لأن « الروح » غيب ولا يعلم الغيب إلا الله، ومن ثم كانت كلمات الله معجزات وآيات أي أسرار إلهية.

أما العلم الذي أعطاه الله العظيم لنا فهو علم قليل لا يتعدى الظاهر أبداً.

ولكننا نعلم الروح بأثرها أي بفعلها في الأشياء

فالطين ينفخ فيه « الروح » فيصير بشراً أو خلقاً حيًا

وإذاً

فكلام الله العظيم وهو روح من أمره في نوره هو سر ملكوت الأشياء كلها، سر حياتها وحركتها وقوتها من بعد سر وجودها.

لهذا يقول العلي الكبير ﴿ بيده ملكوت كل شيء ﴾، فإذا ما سحب سبحانه ملكوته من شيء، فإنه يعود نوراً إلى ما كان عليه قبل كينونته.

والملكوت هو الملك الخفي وهو عظمة الملك أيضاً وضخامته.

والملك هو التصرف في جميع المخلوقات بما يشاء - الملك - لا مُعقب لحكمه ولا يُسأل عما يفعل لقهره وحكمته وعدله(٢).

---

(١) رواه الوليد بن عبادة عن أبيه وأخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده. كتاب أصول الإيمان للإمام محمد بن عبد الوهاب / ٢٠.

(٢) تفسير ابن كثير حـ٤ / ٣٩٦ والمقصد الأسنى شرح أسماء الله الحسنى في بيان اسم « الملك » للإمام أبي حامد الغزالي.

ولهذا

فإن الله جل جلاله

﴿ يُحق الحق بكلماته ﴾ [الأنفال: ٧] أي يحقق ويبرئ ما يشاء بقوة الروح النورانية الإلهية أي الكلمات.

المثال الأول: ولأن كلام الله للناس هو مظهر للملكوت أي لغيب القدرة والعظمة والإرادة الإلهية.

ولأنه سبحانه له القوة كلها، ويقرر ذلك صراحة ﴿ أن القوة لله جميعًا ﴾ [البقرة: ١٦٥] ومن ثم ﴿ فإن العزة لله جميعًا ﴾ [النساء: ١٣٩].

فإنه سبحانه، برحمة منه جل شانه، يُظهر لنا بعض آثار قوته فيقول رب العالمين: ﴿ وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين. ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون ﴾ [الأنفال: ٧ - ٨].

ولكي نعرف المعنى بجلاء ووضوح، فإنما يجب أن نروي القصة (فعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أنه لما سمع رسول الله ﷺ بأبي سفيان مُقبلاً من الشام ندب المسلمين إليهم وقال هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها فانتدب الناس فخف بعضهم وثقل بعضهم وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقى حربًا، وكان أبو سفيان قد استنفر حين دنا من الحجاز يتجسس الأخبار؛ ويسأل من لقي من الركبان تخوفًا على أمر الناس حتى أصاب خبرًا من بعض الركبان أن محمداً قد استنفر أصحابه لك ولعيرك فحذر عند ذلك فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري فبعثه إلى أهل مكة وأمره أن يأتي قريشًا فيستنفرهم إلى أموالهم ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها في أصحابه، فخرج ضمضم إلى مكة وخرج رسول الله ﷺ في أصحابه حتى بلغ وادي ذفران حتى إذا كان ببعضه نزل وأتاه الخبر عن قريش ليمنعوا عيرهم، فاستشار رسول الله ﷺ الناس، فقام أبو بكر رضي الله عنه فأحسن، وقام عمر رضي الله

تعالى عنه فأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال يا رسول الله إمض لما أمرك الله به فنحن معك والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿إذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون﴾ ولكن إذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فو الذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد – يعني بلاد الحبشة – لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه؛ فقال له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له بخير. ولما كان رسول الله متخوف من أن لا يحارب معه أهل المدينة لأن العهد معهم على الذود عنه في دارهم، وإن الرسول ﷺ وكل من تكلم من قبل كانوا من المهاجرين، فقال أشيروا عليّ أيها الناس: فقال سعد بن معاذ رضي الله تعالى عنه: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال أجل. قال فقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة فامض يا رسول الله لما أمرك الله فو الذي بعثك بالحق إن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما يتخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقي بنا عدونا غداً، إنا لصبر عند الحرب صدق عند اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر على بركة الله.

فسر الرسول ﷺ بمقالة سعد ثم قال: سيروا على بركة الله وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن انظر إلى مصارع القوم)(١).

ونعرف جميعًا من أنوار السيرة النبوية الشريفة أن رسول الله ﷺ خرج في ثلاثمائة ونيف من أصحابه لأخذ قافلة أبي سفيان، فلم يكن ثمة عدة واستعداد لقتال.. وكانوا ولما يمض عليهم من الهجرة إلا ستة شهور وهم من بأساء هجرتهم ما زالوا يألمون، فقد تركوا ديارهم وأموالهم وخرجوا مهاجرين في سبيل الله، حتى اقتسم الأنصار معهم بيوتهم ونساءهم وأموالهم.

وجاءت قريش بخيلها وخيلائها وفرسانها وصناديدها في ألف ونيف تمنع عيرها وتؤدب أولئك الذين تركوا مكة في غير قوة ولا سلطان ..

---

(١) ابن كثير حـ٢ /٢٨٨ – ٢٨٩ وحياة محمد ، /٢٧١ – ٢٧٢.

والله سبحانه، عندما يقص القصص، يدعوا الناس إلى حكمة العمل حتى يكون لهم من عبرتها درساً، ولغدهم موعظة ورؤية ..

فرغم الفارق الهائل بين قلّ عدد المؤمنين وكثرة عدد كفار قريش، وفقر عدة المؤمنين ووفرة عدة قريش.

فإن الله جل شأنه الذي له القوة جميعًا قرر أن تكون «إحدى الطائفتين» التي وعد المؤمنين هي القتال في سبيل الله وهزيمة قريش ونصر المؤمنين وعلو شأنهم، لذلك قال الرسول ﷺ بنور نبوته (والله لكأني الآن انظر إلى مصارع القوم). ذلك بأن الله هو العزيز الحكيم، فحكمته فوق ثاقب نظر البشر، وعزته غيب القدرة والقوة التي لا نعلم عنها إلا أمثلة للظاهر كما في قوله سبحانه ﴿ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه﴾.

ويتقابل الفريقان ويهزم القليلُ الكثيرَ، ويهزم الفقيرُ الغنيَّ.

نعم .. فتلك ليست سنة الأشياء، ولكنها كمال قدرة خالق الأشياء الذي قرر أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ﴿فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾ [الأنفال: ١٧].

ويبصرنا العلي العظيم بواحدة من هذه الكلمات، فيقول ربنا جل جلاله ﴿إذ يوحي ربك إلى الملائكة أن ثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان﴾ [الأنفال: ١٢].

المثال الثاني: ويبصرنا العلي العظيم بكلمة أخرى من كلماته سبحانه، فها هو رسول الله ﷺ ببشريته يستغيث برب العالمين من فرط ما شاهد في عدد وعدة قريش، فيقول رب العالمين ﴿إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين﴾ [الأنفال: ٩].

ثم يبين العلي العظيم حقيقة سبب النصر ﴿وما جعله الله - أي المدد من الملائكة - إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم؛ وما النصر إلا من عند الله، إن الله عزيز حكيم﴾ [الأنفال: ١٠] ذلك بأن القوة والعزة لله جميعًا.

فليست الملائكة هي التي تغلب وتحرز النصر، ولكن النصر لا يكون إلا بقوة الله أي أنه من ملكوت الله أي بقوة الله التي لا نعلم منها إلا آثارها، والنصر أثر من آثار قوة الله جل جلاله ..

والله سبحانه وتعالى، يضع سرًا من أسرار قوته: الإيمان والصبر في قلوب المؤمنين، ويدلهم عليه فيقول تعالى شانه: ﴿ .. إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفًا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون ﴾ [الأنفال: ٦٥].

ولم يضع العلي العظيم أداة بيان السببية العقلية، فلم يقل «ذلك» بأنهم قوم لا يفقهون» فرفع «ذلك» لأن السببية هي القوة الإلهية وهي غيب ومن ثم فلا عقلانية في شأنها. بل إنه سبحانه يوضح لهم حقيقة الحادث فيقول جل شانه بكل الوضوح ﴿ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ [الأنفال: ١٧](١) مبينًا حقيقة قوله تعالى ﴿ أن القوة لله جميعًا ﴾ وأنه سبحانه يضعها في المؤمنين أي في قلب المؤمن، فلا عبرة بسلاح أو عتاد أو كثرة عدد. ﴿ وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ﴾ وتفسير السبب هو أن القوة لله جميعًا .. وليست لشيء أو بسبب من الناس إلا الإيمان بالله والصبر على نصرة الله، قال تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾ [محمد: ٧].

وسر من هذه القوة كلمات من الله العظيم توضع في قلب المؤمن فتجعله يعزف عن الدنيا ولا يرى إلا وجه الله الكريم ولا يطمع إلا في الجنة فيبيع نفسه وماله لله ويكون جاشه أقوى من جاش الأسد.

أما الكافرون والمنافقون فلا يرون إلا هذه الحياة الدنيا ويتمسكون ويعضون عليها بالنواجذ، ومن هنا يفرون من القتال إلى النجاة للأخذ بهذه الدنيا.

---

(١) وهذا القول «مجاز حقيقي» لأنه أسند الفعل إلى فاعله. والمجاز بأنواعه الثلاث أسلوبه مباشر أي أسلوب علمي أي يبين الحقيقة مباشرة أي بوضوح وجلاء بغير ما عائق.

لذلك

يقول سبحانه وتعالى للمؤمنين ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ... ﴾ [الأنفال: ٦٠].

فإذا ما ظن الناس أن القوة في العتاد والعدة والكثرة، فقد فهموا القرآن خطأ، فذلك مادة أو محسوسات وليس لها سوى المظهر لإرهاب الذين لا يرون إلا ما تراه عيونهم من مجسمات. فالعدة سبب للإرهاب، أما الإيمان والصبر فهما السبب في النصر. ذلك بأن الغلبة والقوة الحقيقية فهي من قوة الله بكلمات الله في قلوب المؤمنين وفي الوحي للملائكة وفي جنود الله ﴿ولله جنود السماوات والأرض ﴾ [الفتح: ٤]، وفي أسرار كلمات الله التي لم يخبرنا عنها لأنها من ذاته القدسية سبحانه وتعالى بعظمة غيبه لا يعلمها إلا هو جل جلاله؛

فهو سبحانه جل جلاله يخبرنا بكل الوضوح ﴿ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾.

وإذاً فقتل المؤمنون للمشركين هو من قبيل المجاز العقلي لأن الله سبحانه هو الفاعل في الآية، فهو الذي قتل المشركين وهو الذي رماهم بسهام المؤمنين، تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿ أن القوة لله جميعًا ﴾.

لهذا يضع العلي الكبير حكمًا قرآنيًا رحيمًا يخبرنا به بجلاء:

﴿ وكان حقًا علينا نصر المؤمنين ﴾ [الروم: ٤٧].

و ﴿ إن الله يدافع عن الذين آمنوا ﴾ [الحج: ٣٨] ﴿ ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ [فصلت: ١٨] وإذا كان هذا بالنسبة للمؤمنين.

فإن الله سبحانه قد نصر الرسول ﷺ من قبل وبغير معونة أو فعل من الناس فقال جل شأنه:

﴿ إلا تنصروه فقد نصره الله ﴾ [التوبة: ٤٠]

﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ [المائدة: ٦٧]

لذلك

فعندما أعجب الذين آمنوا كثرتهم يوم حنين فلم تغن عنهم شيئًا وضاقت بهم الأرض بما رحبت ثم ولوا مدبرين، ولكن الرسول ثبت ودعا ربه وصبر فقال سبحانه ﴿ ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودًا لم تروها وعذب الذين كفروا .. ﴾ [التوبة: ٢٦] ومن قبل، في هجرة رسول الله ﷺ ﴿ فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى، وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم ﴾ [التوبة: ٤٠].

سبحان الله وتعالى جل جلاله وتقدست أسماؤه

الفصل الثامن

﴿ لا مبدل لكلمـــاته ﴾

[الكهف : ٢٧]

خلق الله سبحانه البشر من طين وبعث فيه الحياة بنفخ السر الإلهي فيه من روحه. ولأن هيكل الإنسان « مادة » فإنه يقبل ما يعتري المادة من عوامل بقدر ما خلقه الله عليه، فهو يبرد ويسخن ويزيد وينقص ويتغير ويتلون، وفي النهاية يتحلل .

وجعل الله سبحانه وتعالى في بشرة ورؤوس وظهور وصدور وقلوب البشر أجهزة معرفة، كما جعل لهم حواسًا ﴿ .. وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون ﴾ [الملك والسجدة] وبكل هؤلاء يحصلون المعرفة والعلم ويتأثرون.

فإذا حصّلوا ما لا يُرضيهم ضاقوا به، وقد يخافوا منه، فإذا خافوا اضطرب القلب ففزع الفؤاد، وبذلك يطيش السهم ويتسم التصرف بالرعونة والخطأ ..

بل إن الخوف قد يزداد حتى يصل إلى حد الرعب، فلا يكون ثمة عقلانية ولا يكون إلا الفرار.

ذلك بأن الخوف يجعل العقل مضطربًا فلا يعمل .. ومن ثم الفؤاد: أداة الفهم والتفكير والتدبير، يفرغ، فلا يكون ثمة تدبير ولا تخطيط، فإذا ما زاد الخوف وصار رعبًا، لم يكن من الإنسان شيء إلا الفرار[١].

وقصّ علينا العزيز الحكيم أن الخوف ينال من أي إنسان حتى الأنبياء والرسل أولي العزم ...

فهذا موسى وهذا هارون عليهما السلام، يأمرهما رب العالمين: ﴿ إذهبا إلى فرعون

---

(١) "الله والكون" للمؤلف – الباب الأول « المعرفة ».

إنه طغى. فقولا له قولاً لينًا لعله يتذكر أو يخشى. قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى. قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى ﴾ [طه ٤٣ - ٤٦].

وإذا كان ثمة عذر لموسى وهارون في الخوف من فرعون لأنه طاغية مستبد؛ فإن موسى في موقف آخر استشعر الفشل فأحس بالخوف؛ فعندما ألقى سحرة فرعون حبالهم وعصيهم ﴿ فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى. فأوجس في نفسه خيفة موسى. قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى. وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا، إنما صنعوا كيد ساحر، ولا يفلح الساحر حيث أتى ﴾ [طه: ٦٦ - ٦٩].

إذًا، فالخوف خلق يدخل في صدور الناس ومن ثم قلوبهم عندما توجد أسبابه..

فهذه أم موسى

تخشى على طفلها الرضيع «موسى» من أن يقتله فرعون، فيأمرها ربنا سبحانه: ﴿ أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم فليلقه اليم بالساحل، يأخذه عدو لي وعدو له؛ وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني ﴾ [طه: ٣٩]؛ ويقول الخالق العظيم ﴿ وهو عليم بذات الصدور ﴾ [الحديد: ٦] شارحًا حال أم موسى في ذلك الموقف في تلك اللحظات الصعبة ﴿ وأصبح فؤاد أم موسى فارغًا، إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين ﴾ [القصص: ١٠].

فالخوف، قد أوقف قلب أم موسى عن عقل الأمور وإدراك قوة الله، فلم يرسل للفؤاد شيئًا، فأصبح الفؤاد فارغًا. فكادت - لعدم وجود فهم وفكر - أن تظهر الناس على موسى فيقتله فرعون وملأه وكانوا في تلك الأيام ﴿ يُذبحُّون أبناءكم ويستحيون نساءكم ﴾ [البقرة: ٤٩] من بني إسرائيل.

إلى هذا الحد، يبين لنا العلي العظيم ما يصنعه الخوف في الإنسان، حتى ولو كان نبيًا رسولاً من أولي العزم ...

لهذا، ولأن كل الرسالات قبل الإسلام إنما كانت للتمهيد له، فإن الله لم يأمر رسله

بقتال من أجل الدعوة ... لأن الله سبحانه لم يكن قد قدر نزع الخوف من الصدور بعد ..

وإذا ادعى إنسان بأن بني إسرائيل أمروا بالقتال مع طالوت، فإن الثابت أنه لم يكن ثمة قتال لدعوة، إنما كان القتال للأرض .. وهي من منازعات الحياة بين كل الناس .. مؤمن وكافر .. في كل الأزمان.

فإذا أمر الله سبحانه الأرض تتهيأ لنزول رسول رب العالمين، وأمر السماء تُغلق منافذها عليها وعلى الملأ الأعلى في البروج، وحرس السماء حراسة شديدة حتى قالت الجن ﴿وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسًا شديدًا وشهبًا﴾ [الجن: ٨].

فقد أذن الله سبحانه بتغيير حال المؤمنين، وحتى يُغير حالهم لزم أن يغيروا ما بأنفسهم ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ [الرعد: ١١].

وكان الناس على عهد النبيين والرسل يسمعون ويتبعون ويتحملون الأذى تضحية في سبيل الإيمان بالله، وزكاة عن أنفسهم وتطهيراً لها. فإذا ما زاد الأذى للرسول أو النبي ومن معه من المؤمنين، فإن العلي الكبير يرسل على الكفرة ريحًا صرصرًا عاتية أو صاعقة أو طوفانًا فيهلك الكفرة جميعًا. وتنتهي القصة الإيمانية لهذا النبي أو الرسول عند هذا الحد.

وعندما أنزلت الرسالة الخاتم مع رسول الله ﷺ فقد تغير الموقف ..

فهذه الرسالة هي الكاملة الشاملة بها التشريع اللازم للحياة على الأرض حتى المعاد إلى الله.

وهذه الرسالة هي التي ختم الله بها رسالاته للناس، فليس بعد الرسول نبي ولا رسول ﴿ما كان محمد أبًا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وهذه الرسالة هي وحدها الصالحة لكل مكان في الأرض ولكل زمان يأتي

﴿ وكذلك أنزلناه حكمًا عربيًا ﴾ [الرعد : ٣٧].

إذًا فهي الرسالة الباقية ..

وهذا الرسول هو الشهيد على كل النبيين والمرسلين يوم الحساب ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدًا ﴾ [النساء: ٤١].

إذًا، لا بد من أن يتم نزول الرسالة ولا بد من أن تكمل الهداية ولا بد من أن تبقى الرسالة خالدة أبدًا.

لذلك، حفظ الله سبحانه الرسالة وأن تبقى دون تبديل ولا تحريف ولا تغيير؛ بل إنه سبحانه أبلغ العالمين أنه جل جلاله بقوته وقدرته حافظ لها ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾

وما دامت هي الباقية

فيلزم أن تكون هي المهيمنة على كل ما أنزل من قبلها للناس .. ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقًا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنًا عليه، فاحكم بينهم بما أنزل الله .. ﴾ [المائدة : ٤٨] و ﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾ [التوبة : ٣٣].

ولذات السبب

فلا بد أن ينتصر الرسول ﷺ ولا بد أن يسود الإسلام الأرض جميعًا حكمًا بشريعة الله جل جلاله تحقيقًا لقوله تعالى ﴿ إن الحكم إلا لله ﴾ أي من الله وبغير هوى لأحد، وتحقيقًا لقوله تعالى ﴿ .. والله متم نوره ولو كره الكافرون ﴾ [الصف : ٨] وحتى ينتصر الرسول ﷺ ويسود حكم الله العالمين، فلا بد من القتال في سبيل الله حتى آخر الأرض ليحكم الناس بما أنزل الله.

أما الإيمان بالله والرسول والقرآن : فلا إكراه لأحد عليه؛ لأن القاعدة الأصيلة والجبلة الطاغية هي حرية الإنسان، لذلك قال رب العالمين :

﴿ لا إكراه في الدين ﴾ [البقرة]

﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ [الكهف] .

ولما كان الله العظيم

قد أوجد « الخوف » خلقًا يعتري نفوس الناس .

ولما كانت الرسالة الإسلامية، في شقها الخاص بالحكم، رسالة قتال في سبيل الله حتى يحكم الناس بما أنزل الله فتتحقق حريتهم ..

ولما كان القتال يستلزم الشجاعة والتضحية والفداء، وهذا لا يكون إلا بالإقدام وبذل النفس والمال .

ولأن الشجاعة ضد الخوف

فإنه لذلك وبالتالي يلزم « نزع » الخوف من قلوب المؤمنين ..

فما هو الخوف ؟

عندما خافت أم موسى أن يذبح فرعون وليدها موسى، أمرها رب العالمين أن تلقيه في البحر. !! ولأن الوسيلة غريبة فهي على غير السنة في الناس فقد خافت ... وعندما خاف أبو بكر الصديق على رسول الله ﷺ وعلى نفسه من كفار قريش وهما في غار ثور، قال له الرسول ﷺ : ﴿ لا تحزن إن الله معنا ﴾ (التوبة : ٤٠] وفي كلمة « تحزن » معنى نتائج الخوف .

فالناس « تحزن » من ذكر الموت ويقول عنه رب العالمين : « مُصيبة الموت »، فنخاف الموت ولأن ما بعده كالمجهول نخاف أكثر ..

فالحزن لا يكون إلا على فقد الحياة أو فقد شيء أو غير ذلك بحسب ظروف الحياة وما فيها، فإذا لابس ذلك مجهولاً كان الخوف أشد من مجرد الخوف على الفقد أو الضياع ..

فإذا ما كان الخوف على «الحياة» ذاتها كان الحزن عظيماً ومن ثم الخوف كله او أشده. ومن هذا نعرف معنى «الخوف» من القتال في سبيل الله. فالقتال يؤدي إلى أحد أمرين: **الأول**: النصر أو الهزيمة؛ **والثاني**: الحياة أو الموت.

والنصر مع الحياة شيء يفرح

والهزيمة أو الموت كلاهما يحزن.

ولأن القتال لا تعرف له نتيجة مسبقة، فإن خشية الهزيمة أو الموت تغشى افكار الناس ومن ثم يكون الخوف من القتال ثم يكون الحزن لتخيل وقوع الموت.

وذلك ما حدث لأبي بكر رضي الله تعالى عنه:

خاف فحزن، فذكره الرسول ﷺ بما يُضيِّع الخوف من قلبه «إن الله معنا» ومن ثم لا يحزن.

فعرف أبو بكر عظمة القوة التي تحمي الرسول من الكفار، فذهب الخوف ومن ثم تلاشى الحزن ..

لهذا

فإن الله سبحانه طمأن المسلمين أولا؛ فقال لهم عن القتال في سبيله القول الذي يُذهب الخوف ويفرحهم ويدعوهم إلى التضحية والصبر في القتال والحرص على الاستشهاد في سبيله سبحانه.

فاخبرهم أولا: ﴿ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أمواتًا بل أحياء ولكن لا تشعرون﴾ فعرفهم أنهم سيظلون أحياء رغم الموت المادي في الشهادة .. فاذهب بذلك الخوف من الموت ومن ثم الحزن عليه.

وثانياً: أشاع الفرح فيهم فعرفهم كيف حياتهم بعد الشهادة: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتًا، بل أحياء عند ربهم يرزقون. فرحين بما ءاتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم الا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين. الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح، للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم ﴾ [آل عمران: ١٦٩ - ١٧٢].

نزع الله سبحانه الخوف ومن ثم الحزن من صدور المؤمنين، وألقى فيها الطمع في جنته والفوز بفضله ورضوانه، ومن ثم صاروا رجالاً شجعانًا لا يهابون الموت بل يسعون إليه ويقبلون عليه مريدين ...

قال الصحابي الجليل أبو دجانة رضي الله تعالى عنه لرسول الله ﷺ يوم غزوة أحد: أليس بيني وبين الجنة إلا أن أقتل في سبيل الله؟! قال الرسول: نعم. فعصب أبو دجانة رأسه بعصابة حمراء - رمزًا لطلبه القتل - ونزل إلى المعركة وقتل سبعينًا من الكفار وامتلأ جسده بطعنات السيوف حتى قتل في سبيل الله وهو يتغنى بالفوز بالجنة.

ذلك بأن الذين آمنوا صابرون حين البأس، ليقينهم بوعد الله الحق بالجنة: ﴿ ومن أوفى بعهده من الله ﴾ [التوبة: ١١١].

فعندما يذهب الخوف وتحل الشجاعة تملأ القلوب، تكون ضربة المؤمنين من ضربة الله ﴿ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ [الأنفال: ١٧].

وعندئذ يتحقق حكم الله:

﴿ ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ﴾ [الأنفال: ٧].

بنصر الله

﴿ .. وكان حقًا علينا نصر المؤمنين ﴾ [الروم: ٤٧].

الفصل التاسع
الرسـول كلمـات الله

سبق وبينا أن:

السماوات والأرض كلمة من كلمات الله ﴿بديع السماوات والأرض، وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾ [البقرة: ١١٧].

وأن آدم عليه السلام ... كلمة من كلمات الله.

وأن عيسى بن مريم عليه السلام ... كلمة من كلمات الله.

وأن أي شيء .. كلمة من كلمات الله ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾ [يس: ٨٢].

وقال رب العالمين في وصف الرسول ﷺ:

﴿... النبي الأمي الذي يُؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون﴾ [الأعراف: ١٥٨].

أي أن سيدنا رسول الله ﷺ يؤمن بالله وكلمات الله التي لا تنفد ﴿ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله﴾ [لقمان: ٢٧].

فكلمات الله هي كل شيء في عالم الشهادة وفي عالم الغيب، فالله سبحانه جل جلاله هو ﴿الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾ [طه: ٥٠].

وإيمان الرسول ﷺ بكلمات الله كما سبق وبينا يستلزم أن يعرف هذه الكلمات فيفهمها ويقتنع بها فيؤمن بها، لأن الإيمان يجيء من بعد المعرفة ثم العلم ومن ثم يكون التيقن فالتصديق الذي معناه هنا "الإيمان"(١).

---

(١) معنى «الإيمان» في اللغة التصديق مطلقاً، وفي الدين التصديق بالغيب مع العلم بأن التصديق بالغيب يشمل التصديق بالشهادة لأن الغيب هو ملكوت الشهادة.

ولأن الله جل جلاله وصف رسوله بأنه برهان ربه .. فهو ﷺ عارف وفاهم وعالم ومؤمن بكلمات الله ..

وقد يظن البعض أن ذلك اقتضى درساً وشرحاً للرسول ..

فذلك ظن هذه الحياة الدنيا وأنماطها

وإنما معرفة الرسول وفهمه وعلمه وتصديقه، إنما نور من عند الله وضع على نور الرسول إلقاء وتثبيتاً. ﴿ وإنك لتلقي القرآن من لدن حكيم عليم ﴾ [النمل: ٦].

فهي نور في قلبه، شاملة له كله، متحرك بهذا النور، قائم بهذا النور، متكلم بهذا النور، فاعل بهذا النور .. حتى إذا ما سئلت السيدة عائشة عن خُلق رسول الله ﷺ قالت: كان خلقه القرآن.

والقرآن نور .... والقرآن روح

والخُلق هي الصفات التي استقرت في النفس فاصبحت تصدر عنها تلقائيًا بيسر وسهولة دون تفكير ولا تدبير ولا افتعال.

أي أن كلمات الله هي فطرة رسول الله ﷺ

ولما كان رسول الله برهان ربه

فهو إذاً الدليل على كل كلمات ربه، لأن البرهان هو الدليل القاطع الحاسم أو الأدلة المتساندة المؤدية إلى المطلوب النهائي أي الحقيقة اليقينية.

ولما كان البرهان هو الحقيقة اليقينية.

ولما كانت كلمات الله هي الحقيقة اليقينية

لذلك: فإن رسول الله هو كلمات الله؛ هو برهان ربه.

والقرآن العظيم يقرر لنا ذلك بمنتهى الوضوح، فيقول جل شأنه:

﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة. رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة ﴾ [البينة: ١ – ٢].

وعلماء التفسير يعربون كلمة «رسول» بأنها بدل لكلمة «البينة»[١]، والمعنى أن رسول الله ﷺ هو البينة أي الحجة الواضحة أي البرهان القاطع الساطع.

والبرهان القاطع الساطع الذي هو البينة هو كلمات الله جل شأنه

ومن ثم

فرسول الله ﷺ هو كلمات الله.

وإذ يصفه العلي العظيم بأنه برهان ربه ورسول ربه وأنه البينة أي كلمات الله، فذلك لأن الله خلقه خلقًا فريدًا وأعده على غير أحد من العالمين، فصنعه تعليمًا خاصًا به، وأدبه الأدب العظيم

فالله سبحانه وتعالى يقول أنه علمه القرآن ثم يذكر أنه بعد ذلك خلق الإنسان ﴿الرحمن. علم القرآن. خلق الإنسان﴾ [الرحمن: ١ - ٣].

ويقول الله العظيم ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ [القلم: ٤].

ويقول الرسول مبينًا من الذي أدبه أي علمه وهذبه فأحسن صنعه (أدبني ربي فأحسن تأديبي).

لهذا، فإن الله سبحانه اختصه بآيات كُبر ...

فيقول سبحانه أنه منع الرسول من الناس جميعًا:

﴿والله يعصمك من الناس﴾ [المائدة: ٦٧]

وأن الرسول قادر على الناس جميعًا:

﴿فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك﴾ [النساء: ٨٤]

وأن الرسول وحده منتصر على الناس جميعًا:

﴿إلا تنصروه فقد نصره الله﴾ [التوبة: ٤٠].

---

(١) تفسير الجلالين/ ٥٤٥ وتفسير ابن كثير حـ٤/ ٥٣٧: البينة يعني محمداً ﷺ وما يتلوه من القرآن العظيم.

وأن الرسول وحده الذي يستدعيه ربه من دون العالمين من هذه الحياة إلى أفقه الأعلى المبين ليوحي إليه ما يوحى وهو أدنى إليه من مسافة قوسين:

﴿ فكان قاب قوسين أو أدنى.فأوحى إلى عبده ما أوحى ﴾ [النجم: ٩ — ١٠]
وأن الرسول وحده الذي يكلم من كان قبله من المرسلين:

﴿ وسئل من أرسلنا من قبلك من رسلنا، أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾
﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن في مرية من لقائه ... ﴾ [السجدة: ٢٣].

وأن الرسول هو الوحيد بل الشيء الوحيد من العالمين الذي تجلى له ربه فلم يصعق أو يخر أو يدك، وإنما فاضت عليه بركات العلي الكبير حنانًا ورضوانًا، فتجلى العلي الكبير لرسول الله ﷺ فرأى الله سبحانه بفؤاده .

﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾ [النجم]

فيرى الرسول ربه بفؤاده ثم يراه مرة أخرى ببصره ..

﴿ ولقد رآه نزلة أخرى. عند سدرة المنتهى ﴾ [النجم]

ورسول الله من قبل ذلك ومن بعده هو كما وصفه ربه العظيم وما بعثه له وعليه من دون المرسلين والخلق أجمعين: رسولاً للناس كافة ورحمة ونذيراً للعالمين

ذلك بأن أي شيء هو كلمة من كلمات الله

وإذًا فكل الأشياء هي كلمات من كلمات الله

والسماوات والأرض شيء وما فيهن أشياء والرسل والنبيين أشياء، وكل العوالم غيبًا وشهادة أشياء .. والعلوم أشياء، وكل أولئك هم العالمين ..

ولما كان الرسول ﷺ هو كلمات الله

لذلك كان هو الرحمة المهداة للكلمات مجسدة في خلقها أي للعالمين ..

أي الرحمة المهداة للسماوات والأرض وما فيهن .. الناس والملائكة والجن والطير

والحيوان والبحر والشجر والحجر والمدر .. ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

لذلك أخذ الله ميثاق النبيين للإيمان برسوله ﷺ ونصرته بتهيئة الناس لاستقباله واستقبال رسالته ..

﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول - محمد - مصدق لما معكم، لتؤمنن به ولتنصرنه، قال ءأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري - عهدي - قالوا أقررنا، قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين. فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾ [آل عمران: ٨١ - ٨٢].

أي أن الذي يتفرق عن هذا يضل ويخرج من رحمة الله، لهذا عَقَّب العلي العظيم على أن الذي يتولى أي يترك هذا النهج إنما يخرج من رحمة الله فيكون من الفاسقين.

وبين ذلك في قوله تعالى ﴿ .. لا مبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحداً ﴾ أي لن تجد في غير كتاب الله وكلمات الله ورسول الله ملجأ وملاذاً وكلمات الله باقية.

لأنها صادرة من الحي الباقي جل جلاله.

ولهذا

فإن الله يصلي على رسوله منذ كان القرآن، والقرآن قديم من قبل خلق السماوات والأرض .. والصلاة تقتضي وجود المصلي عليه ...

وصلاة الله سبحانه على رسوله، مستمرة كذلك إلى أن تقوم الساعة وإلى أن يشاء الله رب العالمين. ولهذا أمر المؤمنين بأن يصلوا عليه ويسلموا تسليماً ..

وكلمات الله ثابتة

فهي لا تتغير، لأنها كلمات الحق سبحانه الذي لا يتغير ...

وهي أيضاً مكتوبة عند الله باللغة العربية، بألفاظها وحروفها ورسمها، فهي لذلك

لا يمكن ان تبدل بالفاظ اخرى او بحروف غير حروفها، ذلك بانه سبحانه جمعها ثم قراها كما هي.

ومن هنا نعلم

ان تبديل كلمة مكان كلمة، امر باطل، وتبديل حرف في كلمة أمر باطل أيضًا.

وإذا كان تبديل الكلمة حتى ولو كانت حرفًا أمرًا باطلاً شرعًا، فإن تبديل المعنى أعظم سوءًا وبطلانًا وجزاءه عند الله عظيم ..

ومن التبديل التغيير ...

فتبديل الحروف في الكلمات بحروف أخرى لاتينية مثلاً كما يعمهون، أمر لا يصدر عن رؤية فكرية صائبة ولا حقيقة قرآنية ثابتة .. ومن ثم فهو باطل وفاسد(١).

ذلك بأن اللغة العربية لها وزنها الصرفي الخاص بها من دون لغات العالمين، كما ان لحروف القرآن أسرارها. قال تعالى:

﴿ الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان ... ﴾ [الشورى: ١٧]

وإذا كان يشق على البعض تعلم اللغة العربية نحوها وصرفها وبلاغتها، فإن ذلك ليس عيبًا في اللغة العربية، وإنما هو قصور في الذي يشق عليه ان يتعلم اللغة أو يقف بإرادته عن تعلمها ..

ومعلوم أن الغباء هو الوقوف بالإرادة عن إدراك العلم.

ومن ثم، فهذا ليس من شأن أصحاب البلادة في الفهم .. وهم قلة في الناس.

ولما كان القرآن العظيم، قد وصلنا بالتواتر عن رسول الله ﷺ بحروفه المكتوب بها،

---

(١) ويقرر الإمام الشيخ عبد الحليم محمود شيخ الازهر رضي الله تعالى عنه ان اول من بدأ بهذا الانحراف هو كمال اتاتورك الذي الغى الإسلام من تركيا (كتابه عن العارف بالله ابو الانوار شمس الدين الحنفي شيخ الازهر)/ ١٤٥.

فإن ذلك يكون أمراً من الله على لسان الرسول بذلك:

و ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾.

والثابت علمياً، بالحاسبات الإلكترونية - أن للحروف العربية كما هي في مصحف «عثمان» أسرار .. كشف عن بعضها العدد ١٩[١] فإذا تغيرت الحروف العربية إلى حروف لاتينية بمقولة تسهيل الأمر على أصحاب البلادة أو الغباء، فإن ذلك يُخلي القرآن من أسرار حروفه ومن كثير من أسباب إعجازه للبشر.

ومن ثم: يكون تبديلاً للفظ وتبديلاً للمعنى ومحواً لأسرار القرآن. فإذا علمنا أن من هذه الأسرار ما هو إحدى الكبر وهو الإعجاز العددي في العدد ١٩، فإن ذلك تضييع لمعجزة عظمى من معجزات القرآن فضلاً عن أم معجزاته وهي نظمه.

وإذا كان يحلو للبعض من المتعالمين أن يقول: إن الحروف العربية إنما هي حروف جاءت بفعل أو بسنة التطور على لسان الأنباط ومن بعدهم، أي أنها تطور تاريخي لفعل إنساني.

فإن هؤلاء - في الحقيقة واهمون - ذلك بأن كل شيء في الوجود قد أوجده الواجد جل جلاله خالق وصاحب الوجود ﴿الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾ وحدد لوجوده وقتًا، وجعل وجوده على يد جند من جنوده ﴿وما يعلم جنود ربك إلا هو﴾ [المدثر: ٣١].

فإذا أخبرنا العلي العظيم بأنه جمع القرآن وقرأه لجبريل وأوحى به جبريل قراءة على قلب الرسول ﴿سنقرئك فلا تنسى﴾، والرسول قرأه على الناس .

فإن ذلك يعني أن الله جل جلاله عندما جمع القرآن وقرأه، إنما جمعه من اللوح المحفوظ وقرأه، والقراءة إنما تكون نطقًا لما هو مكتوب، نقرأه باللغة التي هو مكتوب بها أي العربية، ويوضح لنا العلي الكبير ذلك: ﴿إن علينا جمعه وقرآنه. فإذا قرأناه فاتبع

---

(١) كتاب «الله والكون» للمؤلف / الباب الثاني: البرهان.

قرآنه. ثم إن علينا بيانه ﴾ قال تعالى ﴿ إنا جعلناه قرآنًا عربيًا ﴾ [الزخرف: ٣] ﴿ كتاب فصلت آياته قرآنًا عربيًا لقوم يعلمون ﴾ [فصلت: ٣].

لذلك وبالتالي:

كان إنزال القرآن باللغة العربية: ﴿ إنا أنزلناه قرآنًا عربيًا ﴾ [يوسف: ٢].

ومعرفة كيفية نزول القرآن على سيدنا رسول الله ﷺ تفصل وتكمل الصورة الحقيقية في قلوب المؤمنين ..

فالله سبحانه وتعالى يقول لرسوله ﷺ في حديثه الشريف عن اللوح المحفوظ كما أخرجه الإمام محمد بن عبد الوهاب بسنده عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما:

(إنَّ الله خلق لوحًا محفوظًا من درة بيضاء دفتاه من ياقوتة حمراء قلمه نور وكتابه نور عرضه ما بين السماء والأرض ينظر فيه كل يوم ثلاثمائة وستين نظرة ففي كل نظرة منها يخلق ويرزق ويحيي ويميت ويعز ويذل ويفعل ما يشاء فذلك قوله تعالى: ﴿ كل يوم هو في شان ﴾). رواه عبد الرازق وابن المنذر والحاكم[١].

والقرآن العظيم

مكتوب في ذلك اللوح المحفوظ؛ لقوله جل جلاله: ﴿ بل هو قرآن مجيد. في لوح محفوظ ﴾ [البروج: ٢١ - ٢٢].

وأبان العلي الكبير عن مكان اللوح المحفوظ الذي فيه القرآن المجيد في قوله تعالى:

﴿ وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم ﴾ [الزخرف: ٤].

أي أن القرآن هو في اللوح المحفوظ هو في أم الكتاب لدى الله جل جلاله، ولذلك فإنه عليٌّ حكيم.

لهذا

يُبين رسول الله كيف يُنَزل عليه القرآن من لدن حكيم عليم ..

(١) كتاب «أصول الإيمان» للإمام محمد بن الوهاب/١٩.

فعن النواس بن سمعان – رضي الله تعالى عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا أراد الله أن يُوحي بالأمر تكلم بالوحي أخذت السماوات منه رجفة أو قال رعدة شديدة خوفًا من الله عز وجل فإذا سمع ذلك أهل السماوات صَعِقوا، أو قال خروا لله سجداً فيكون أول من يرفع رأسه جبريل عليه السلام، فيكلمه الله من وحيه بما أراد ثم يمر جبريل؟ فيقول: قال الحق وهو العلي الكبير، فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله عز وجل). رواه ابن جرير وابن خزيمة والطبراني وابن أبي حاتم واللفظ له(١).

ويقول الله جل جلاله:

﴿ ... حتى إذا فزّع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير﴾ [سبأ: ٢٣].

فالقرآن العظيم، قرأه رب العالمين لجبريل عليه السلام، وجبريل قرأه وحيًا في قلب رسول الله ﷺ، والرسول قرأه شفاهة للمؤمنين ..

والله عز وجل يذكر بأي لغة قرأه فيقول سبحانه ﴿إنا أنزلناه قرآنًا عربيًا﴾ [يوسف: ٢]، ومن ثم فقد قرأه جبريل بالعربية كما سمعه من رب العالمين ...

فإذا كان القرآن بلفظه بحرفه هو هكذا برسمه الذي رسم به في حضرة النبي ﷺ.

وإذا كان رسم الحروف العربية في القرآن قد حملت بعض أسراره التي يكشف لنا العلي العظيم يومًا بعد يوم عن بعض أسرارها ..

وإذا كان لا يمكن بيان وزن وتصريف كلمات القرآن وتصرفها ونطقها بجرسها وضبط نغمه الإلهي إلا بحروفه هذه ...

فإن الله عز وجل مقرراً لذلك، ينفي إمكان تبديل كلماته في قوله تعالى:

﴿لا مبدل لكلماته﴾ [الكهف: ٢٧].

---

(١) المرجع السابق/١٣.

أي لا يستطيع أحد أن يُبدل كلماته: سواء في اللغة أو في الرسم أو في المعنى فيؤكد العلي الكبير ذلك بقوله تعالى:

﴿لا تبديل لكلمات الله﴾ [يونس: ٦٤].

ولهذا

كان الهدي الإلهي صريحًا واضحًا وقاطعًا معًا: ﴿ولن تجد من دونه ملتحدًا﴾ أي ولن تجد من دون كلمات الله كما أنزلت من رب العالمين على قلب رسوله الأمين ملجأ آخر أو ملاذًا غيرها يهديك إلى صراطه المستقيم وأسرار قرآنه العظيم، وكذلك الرسول ﷺ، لن يجد العالمين من دونه ملتحداً.

لذلك

حفظ الله رسوله

وحفظ الله رسالته

الفصل العاشر

صفــوة خــلق الله

كان عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ينادي رسول الله ﷺ :

يا صفوة خلق الله .

وكان الولي الكامل السيد أحمد البدوي يصلي على رسول الله ﷺ : اللهم صلي وسلم وبارك على سيدنا محمد النبي الأمي لمعة القبضة الرحمانية، شجرة الأصل النورانية، أفضل الخليقة الإنسانية أشرف الصور الجسمانية ومعدن الأسرار الربانية وخزائن العلوم الاصطفائية، صاحب القبضة الأصلية والبهجة السنية والرتبة العلية، من اندرجت النبيون تحت لوائه فهم منه وإليه وصلي وسلم وبارك عليه عدد ما خلقت ورزقت وأمت وأحييت إلى يوم تبعث من أفنيت وسلم تسليماً كثيراً والحمد لله رب العالمين .

ولكي نفهم هذه المعاني يجب أن نبدأ من البداية ...

فالإنسانية منذ البداية، وحتى تنتهي قصتها على هذه الأرض، ترتفع في بعض عناصرها إلى مراقي عظيمة .

فهذا الإنسان عالم في الطبيعة يكتشف ما يُبهر الناس، أو يقتل الملايين بضربة واحدة،

وآخر صاحب فكر يظل بين الناس آلاف السنين، يسيطر على عقولهم ويتخذونه بديهية غير قابلة للتفكير ..

وهذا قائد عظيم يسلب الناس إرادتهم ويجعلهم طوع بنانه، فيخوض بالملايين منهم المعارك تلو المعارك ويبلغ شأواً عظيماً وينتصر وينهزم، ويظل علماً مرفوعاً دليلاً على استمرار التقدير والحب له .

ومع ذلك فإن التأثير الإنساني في مجريات التاريخ البشري على مستوى الوجدان العالمي، وإلى الحد الذي يجعل من الكتل البشرية الهائلة طوع إرادة فرد واحد منهم قد حدث في بعض فترات التاريخ على بعض أركان هذه الأرض .. ولكنه دائماً وأبداً ولو بعد مئات أو آلاف السنين قد انتهى إلى خواء فلم يترك خلفه من أثر إلا رواية تروى وإلا أشلاء.

ولذلك، فإنه ليس من أدعاء - مهما كان منبع الادعاء وقيمته - ينفي قدرة أشخاص معدودين استطاعوا أن يسيروا بالألوف والملايين من البشر في هذا الطريق أو ذاك مهما كلفهم النفس والنفيس دون رؤية صائبة ودون سعي إلى حق ..

وبالمقابل ...

فإنه ليس من ادعاء قد رسخ في وجدان قوم أو أقوام يستطيع أن ينفي أن بعضاً من الناس، استطاعوا أن يقودوا أمماً بأسرها في طريق الحق فيخرجون بهم من ظلمات ورجس الحياة ودنسها إلى نور الحق وشرفه، بغير باعث ولا سبب من إرهاصات الأزمات الاقتصادية، أو تطلع إلى مغانم وتوسعات في الأرض أو شهوة لشهرة حربية أو فرض لرئاسة أو زعامة دنيوية ...

فليس صحيحاً ما ورد في التفسير المادي للتاريخ، لأولئك الذين اتخذوا المادية الجدلية[1] بداية ونهاية للوجود الكوني بما فيه الإنسان، وجعلوا تفاعل المادة في أجسادهم سبباً للفكر والفهم والحياة، واتخذوا من ثم العوامل المادية محركاً لكل شيء فقالوا إن الأزمات الاقتصادية هي السبب في كل الوقائع التاريخية التي مرت بالبشر والتي ستمر بهم، وأن الرسالات المزعوم أنها سماوية - باعتبارها واقعات تاريخية مهمة - ما هي إلا توابع لهذه الأزمات الاقتصادية وأنها لذلك ليست إلا - في واقع الأمر - أفيون للشعوب أي مخدر للناس تُسكّن نفوسهم فيرضوا بالضنك من الحياة والبأساء ..

---

(١) المادية الجدلية أي أن المادة متناقضة فهي مادة ثم طاقة. وقد ثبت علمياً خطأ هذا الفكر فالمادة طاقة والطاقة مادة.

فالحقيقة الواقعية أنه ليس في هذا التفسير المادي للتاريخ من قاعدة واقعية صحيحة إلا عند أصحاب الكفر فقط، فإذا ما خرجنا إلى دائرة النور الإيماني، وجدنا أن هذا التفسير المادي لا أثر له على الاطلاق بل ولا وجود له ولا لشيء منه.

وإن في التاريخ لعبرة لأولي الألباب.

فالواقع المادي - برغم مادية هؤلاء - يكذب دعواهم .. ويقول إن في التاريخ تحولات أساسية هائلة وعظيمة وعميقة ما زالت جارفة مستعظمة لم يكن للاقتصاد وأزماته بها من صلة، كما لم يكن لها بالدعوات الشخصية والأطماع الفردية أو القومية من سبب يربطها بها من قريب أو بعيد.

وتاريخ الإيمان بالله بين الناس في الأرض خير شاهد وأثبت دليل ... فلما كانت «عاد» في أقوى أحوالها وأعظم بنائها وأضخم مصانعها .. فقد بعث الله فيهم أخاهم هوداً عليه السلام فقال لهم: ما قاله لنا رب العالمين: ﴿إني لكم رسول أمين. فاتقوا الله وأطيعون. وما أسالكم عليه من أجر، إنْ أجري إلا على رب العالمين. أتبنون بكل ريع آية تعبثون. وتتخذون مصانع لكم لعلكم تخلدون. وإذا بطشتم بطشتم جبارين. فاتقوا الله وأطيعون. واتقوا الذي أمدكم بما تعملون. أمدكم بانعام وبنين وجنات وعيون﴾ [الشعراء: ١٢٥ - ١٣٤] .. ﴿فكذبوه فاهلكناهم ...﴾ [الشعراء: ١٣٩].

وهذا تاريخ قوم ثمود. وهم في أعظم مستوى من التقدم المادي وأوفر مالا وأعلى بناءً، فإن الله العظيم بعث فيهم أخاهم صالحًا عليه السلام يهديهم إلى عبادة الله الواحد الأحد فقال الله تعالى حاكيًا لنا دعواه: ﴿إني لكم رسول أمين. فاتقوا الله وأطيعون. وما أسالكم عليه من أجر، إن أجري إلا على رب العالمين. أتتركون ما ها هنا آمنين. في جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم. وتنحتون من الجبال بيوتًا فارهين. فاتقوا الله وأطيعون﴾ [الشعراء: ١٤٣ - ١٥٠] ولكن ﴿كذبت ثمود بطغواها. إذا انبعث أشقاها. فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها .فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم

بذنبهم فسواها. ولا يخاف عقباها﴾ [الشمس: ١١ - ١٥].

وهذا موسى عليه السلام يأمره رب العالمين: ﴿إذهب إلى فرعون إنه طغى﴾، وكان فرعون جباراً قوياً وصفه رب العالمين بأنه ذو الأوتاد كناية عن القوة والسيطرة والتسلط على قومه وهذه مصر يصفها رب العالمين في ذلك الأوان ﴿جنات وعيون. وكنوز ومقام كريم﴾ فلم تكن ثمة أزمة اقتصادية تمر بمصر بل الوفرة في الإنتاج والغني والعيش الرغيد. ولكن كان فرعون والمصريون معه يسومون اليهود أشد العذاب ﴿يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم﴾.

فارسل الله سبحانه إليهم موسى عليه السلام ليخرج بني إسرائيل من هذا العذاب ﴿فاتياه فقولا إنا رسولا ربك فارسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم، قد جئناك بآية من ربك، والسلام على من اتبع الهدى﴾ [طه: ٤٧].

ويرفض فرعون بداية ثم يسمح ثم يعود عدواً خلفهم حتى إذا ما إدّاركا، شق الله طريقاً يبساً في البحر نفذ منه موسى عليه السلام وقومه فإذا ما اتبعهم فرعون وجنده أطبق الله البحر عليهم فكانوا جميعاً من المغرقين ..

وهذه كلها أمثلة تاريخية مادية .. ولله المثل الأعلى.

ولكن الذي جعل الملاحدة وكثير من الضالين يقولون قولتهم المادية الكاذبة، إنما هو فساد الرؤية ومن ثم الفهم الباطل لتاريخ الإنسانية؛ فاتخذوا من نزوات الملوك والقواد، وبشاعة حكمهم وبغيهم على الناس وطغيان بعض الدول على بعض علامات لطريق فكرهم المظلم .. كما اتخذوا من استبداد الملوك وتضييع حريات الناس أدلة على الفكر الذي كتبوه؛ ذلك بأن التاريخ الإنساني عندهم هو تاريخ الملوك والقواد وبطانتهم ومحسوساتهم المادية .. لهذا فسدت الرؤية واظلمت صفحاتها وسطروا للناس بؤراً من الفساد والطغيان والقتل والسلب والسرقة وحرق المدائن والمكتبات وإهدار العلماء ... فجاء التاريخ كعلم من هذه المفاهيم لديهم، مؤدياً إلى الفكر الخاطئ والنظرة البور ..

ذلك بأن التاريخ، أساساً؛ وقائع؛ فإذا ما ربطت وقائع خاطئة مع بعضها البعض، أدت قطعاً إلى مفاهيم خاطئة، ومن ثم جاءت من هنا الاعتقادات التي تأخذ الناس في إرهاصات فكرية بينها وبين الحق حواجز كثيرة. الأمر الذي يؤدي بالناس إلى الخلاف ثم الاختلاف أي صراع الفكر ثم صراع القوة وما ينتج عن ذلك من دمار وهلاك للجميع.

وهذا هو السائد حتى الآن بين شعوب الأرض جميعاً .. ونظرة واحدة إلى خريطة العالم، فإننا لا نجد قوماً يعيشون مطمئنين هانئين في سكينة وهدوء .. ولكن الكل في أزمات واختلافات وصراع فكري وعقائدي وحربي ومكائد ومؤامرات وقتل واغتيال واحتلال وثورات بالحق وبالباطل، حتى وكأن الأرض تضج بمن عليها من هول ما عليها من فساد وحريق متأجج دائم الاشتعال..

والتاريخ الحقيقي الصحيح (هو الذي يبين الوقائع وأسبابها وتأثيرها اجتماعياً واقتصادياً في الحياة والمجتمعات) والذي يهدي الناس ويخرجهم من ظلمات الماضي إلى نور المستقبل إنما هو تاريخ الإنسانية في صلتها بالله الذي خلقها، في صلتها بالملك الحق ﴿هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر﴾ [الحشر: ٢٣] هو صلتها بالذي خلقهم وصورهم وهداهم ﴿هو الله الخالق البارئ المصور﴾ [الحشر: ٢٤] هو صلتها بالله الذي جعل الناس خلفاء في الأرض، ولم يكونوا فيها من قبل .. هو صلتها بالله الذي علمهم الأسماء كلها، فهو صلتها بالله الذي أسجد الملائكة لأبيهم آدم عليه السلام، هو صلتها بالذي سخر لهم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً ﴿وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه﴾ [الجاثية: ١٣] .. هو صلتها بالذي كرم الإنسان وحمله في البر والبحر وخلق لهم من الوسائل ما لم يكونوا يعلمون.

ومن ثم لا يكون تاريخ إلا تاريخ الإيمان بالله، كما حكاه لنا رب العالمين في القصص القرآني الكريم .. فضرب لنا العلي العظيم المثل الأعلى في الهداية الإنسانية برواية الواقعات التاريخية للناس مع الإيمان بالعلي الكبير، وبين لنا أحوال المؤمنين ومآل

الكاذبين وجنبات الظلم والفساد في الملوك والقواد، ومراتع القهر والاستبداد واستعباد خلق الله في الحياة، وإهدار الحرية التي هي مضمون الإنسان الخليفة في الأرض وما ترتب على ذلك من ضياع للحق ونشر للفساد ..

فالتاريخ الحق عند رب العالمين؛

هو تاريخ الأفعال والأقوال من منطلق الطاعة لله جل شأنه أو العصيان له والكفر به. عندئذ نرى الواقع التاريخي للأحداث أساسه الحق وليس الباطل وسياجه النوايا الطيبة الصالحة وليس الزيغ والانحراف، فنرى النور الإلهي الذي أرسل الله به رسله مع الناس يهدي للتي هي أقوم .. فيكون الناس في قراءتهم للتاريخ ودراستهم لوافدات ماضيهم مع دعوات الله سبحانه على نور في تقدمهم إلى مستقبل الأيام، وبقوة الحق يكون اندفاعهم دائماً إلى الهداية والوفاق فيعم الناس السكينة والطمأنينة ومن ثم تكون الحرية وحكم الحق ومن ثم السلام بين الشعوب.

والتاريخ أيضاً من رؤية ثانية، هو مرآة للفضيلة الاجتماعية، فإذا ما كان سرداً لوقائع حياة الناس مع خالق الناس، فإنه لا بد وأن يؤدي إلى المستقبل الأفضل والحياة الأطهر، وضرب الله العظيم لنا مثلاً في سورة يوسف.

أما إذا كان سرداً للفجر والرذيلة بغير نور الهداية الربانية، فلا بد وأن ينحدر بالناس من درك إلى درك ليؤدي في النهاية إلى الهلاك والتتبير والتدمير ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً ﴾ [الإسراء: ١٦].

يقول رب العالمين لرسوله ﷺ وللناس جميعاً:

﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين ﴾ [يوسف: ٣].

والقصص جمع قصة وهو قول الحق من قص يقص أي السير على الآثار الثابتة، ثم يقص الله العظيم تاريخ نبي الله يوسف الصديق وإخوته وأباه وأمه مع عزيز مصر وملك مصر وقوم مصر جميعاً والشعوب الأخرى من حولها، تاريخ الإيمان بالله الواحد الأحد

واستعانة الملك بيوسف عليه السلام لغوث المصريين والناس من حولهم حتى يتفادوا القحط والجدب الذي ستتعرض له مصر بعد سنوات سبع مقبلة كلها خير وبركة.

وإذًا فلم تكن نبوة يوسف قد ولدتها الأزمة الاقتصادية، ولكن النبوة استعينت في الرخاء لتدبير الأمر لمدة سبع سنين يزرعون فيها الأرض دأبًا لمدة سبع سنين أخر جدبًا. وهذا على عكس ما يقول الماديون في تفسير التاريخ على طول الخط، وعلى نقيض تصورهم تمامًا. وكذلك يؤكد الدرس في التاريخ، فبالهداية الربانية كانت واقعات التاريخ كلها رحمة ورأفة وغوث وتجاوز لكل الأزمات، وإنقاذ للناس من الجوع ومن الانحدار في متاهات الضعف وما ينتج عنه من جرائم ومفاسد ومباذل.

ولنا في تاريخ أوروبا الحديث جداً والقريب جداً الدرس الحي الذي أخبرنا بما كان من فساد اجتماعي بلغ قاع الرذيلة حينما مرت أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية بمجاعة طاحنة أضحت معها النساء فتيات وسيدات يبعن أجسادهن مقابل قطعة حلوى أو لقمة عيش، وما نتج عن ذلك من آلاف الأبناء غير الشرعيين، الأمر الذي أصبح فيه ذلك طبيعيًا بين الأوربيين حتى كان من هؤلاء الأبناء الغير الشرعيين من يتبوأ رئاسة دولة ألمانيا.

وإذا كان ذلك، فإنه لا يخفى ما ترتب على ذلك من اختلاط الأنساب وجهل صلات القرابة بين الناس وما يحدث في هذه الظروف من احتمال زواج الأخ من أخته بل والابن من أمه أو خالته أو عمته !! وما يترتب على ذلك من أمراض جسدية خطيرة ونفسية أخطر !!

هذه الوقائع الحية، تبين لنا بوضوح قوي مبين الفارق الكبير بين نوعين من علم التاريخ، تاريخ الناس مع الإيمان بالله، وتاريخ الناس مع القهر والبغي والطغيان !!

ذلك بأن حقيقة «علم التاريخ» أن يكون مؤسسًا على الحق مبينًا الباطل موضحًا للطريق المستقيم.

وفي واقعات تاريخ الدعوة الإسلامية، والهدي والسلوك المحمدي، الرد الحاسم

على مذاهب التفسير المادي أو تفسير التاريخ بحكم الملوك والرؤساء والقواد وابتزازهم لأموال الشعوب . .

فقد كان رسول الله ﷺ هو وحده في تاريخ الإنســانية كلها الذي بدأ رسالته من لا شيء اطلاقًا ..... إلى تمام كل شيء له ولأمته وللعالمين .. فظلت دعوته في الناس وظلوا بها، ونمت بهم ونموا بها فصاروا مشاعل للحق على مر الزمن ودائمًا في زيادة وفي اطراد وفي قوة. وإن حدث واعتورها خور فسرعان ما يلم الله شملها لتأخذ طريق رسوخها وبقائها وشمولها للناس جميعًا تحقيقًا لقوله جل شأنه ﴿ والله متم نوره ولوكره الكافرون ﴾ [الصف: ٨] ﴿ ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولوكره الكافرون ﴾ [التوبة: ٣٢].

وإذا كانت الدعوة وأركانها تقوم حقيقة بصاحبها ورائدها؛ لأن الرائد لا يكذب أهله، فإن أسباب عظمة الرسالة الإسلامية تبدو في جنبات شخصية الرسول ﷺ واضحة جلية؛ انفرد بها في شخصه وشخصيته وتميز بها على غيره ممن خلقهم الله ولو كانوا أنبياء مرسلين.

فآدم وزوجه أذلهما الشيطان ﴿ فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كان فيه، وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو، ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ [البقرة: ٣٦].

والذل هو الحاجة للغير، وكل مخلوق ذليل لأنه في حاجة إلى غيره، وحتى يحفظ الله للمؤمنين كرامتهم، فقد جعل المؤمن ذليل للمؤمن فقط، فوصف العلي الكبير المؤمنين الصادقين بقوله تعالى:

﴿ أذلة على المؤمنين ﴾ ووصفهم كذلك بأنهم ﴿ أعزة على الكافرين ﴾ [المائدة: ٥٤] فلا يجوز للمؤمن أن يحتاج لغير المؤمن ومن هنا كان الاقتراض من الكفرة باطل شرعًا؛ ومن ثم حرم على المؤمنين أن يتخذوا من الكفرة أولياء، وحتى يبين العلي الكبير عظمته المتفرد بها عن العالمين أخبرنا سبحانه بقوله تعالى ﴿ الحمد لله الذي لم يتخذ

ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيراً ﴾ [الإسراء: ١١١].

وتزكية لرسول ﷺ فقد أخبرنا سبحانه وتعالى بأنه نصر عبده بغض النظر عن عون المؤمنين له: ﴿ إلا تنصروه فقد نصره الله ﴾ ﴿ وقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك ﴾ و ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾. فلم يتركه العلي الكبير في حاجة إلى غيره وإن بُعث فيهم ولهم وللناس جميعًا ...

وكانت واقعات سيرة الرسول الماثلة في الأذهان والثابتة في أمهات الكتب القيمة تحكي لنا بكل الفخر أدلة تزكية الرسول وتطهره من ذل البشر للبشر ...

﴿ وعصى آدم ربه فغوى ﴾ [طه: ١٢١]

والرسول ﷺ كان أول من أسلم من العالمين ووصفه رب العالمين في ثاني ما أنزل من الوحي ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ [القلم].

وعهد الله العظيم إلى آدم فنسى وضعف ﴿ ولقد عهدنا إلى آدم فنسي ولم نجد له عزمًا ﴾ [طه: ١١٥].

أما الرسول ﷺ فقد زكاه ربه فلم ينس أبداً ولو حرفًا واحداً من حروف القرآن وأخبرنا سبحانه بذلك في قوله تعالى ﴿ سنقرئك فلا تنسى ﴾ [الأعلى: ٦] وكان عزمًا خالصًا حتى دخل الناس في دين الله أفواجًا وأخبره رب العالمين:

﴿ .. اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينًا ﴾ [المائدة: ٣].

وأخبرنا العلي الكبير ﴿ ولقد أرسلنا نوحًا إلى قومه إني لكم نذير مبين ﴾ [هود: ٢٥] أما رسول الله فإلى الناس كافة بل ورحمة ونذيراً للعالمين ...

وظل نوح في قومه يدعوهم تسعمائة وخمسين عامًا فما آمن له إلا قليل، قيل ثمانية وقيل اثنى عشر.

والرسول ﷺ دعا قومه والناس أجمعين في ثلاث وعشرين عاماً دخلت فيها شبه الجزيرة العربية كلها في دين الله ثم من مشرق الأرض إلى مغربها ومن شمالها إلى جنوبها.

وقال إبراهيم عليه السلام ﴿إلا الذي فطرني فإنه سيهدين﴾ [الزخرف: ٢٧] أي أن هداية إبراهيم كانت بعد خلقه.

أما الرسول ﷺ فقد كانت هدايته قبل خلقه ﴿قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين﴾ فصلاته لله كانت قبل حياته في الأرض وبعثه فيها رسولاً.

ودعا إبراهيم وإسماعيل ربهما من فوق جدران الكعبة ﴿ربنا واجعلنا مسلمين لك﴾ أما الرسول ﷺ فكان أول من أسلم من العالمين ﴿لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين﴾ و ﴿قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم﴾ [الأنعام: ١٩].

وأوحى لإبراهيم عليه السلام ببعض الكتاب ﴿صحف إبراهيم وموسى﴾ [الأعلى: ١٩] وأوحى للرسول بالكتاب كله وبالحكمة وكان فضل الله عليه عظيماً ﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾ ﴿.. وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً﴾ [النساء: ١١٣] حتى قال الرسول ﷺ (أنا مدينة العلم).

وكلم الله موسى تكليماً ...

و«تكليماً» مصدر مؤكد لقوله تعالى «كلّم» ولرفع احتمال المجاز(١).

وقد بين القرآن الكريم نوعية كلام رب العالمين لموسى عليه السلام فقال تعالى: ﴿وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى. إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري﴾ [طه]، إذاً كان وحياً كلاماً تسمعه أذن موسى لقوله تعالى ﴿فاستمع﴾، ومن ثم فالكلام كان وحياً أي بخفاء فلا يسمعه إلا موسى وحده عليه السلام، لأن كلمة «فاستمع لما يوحى» تحدد صفة الكلام بأنه كان بخفاء وليس جهراً ومن خلف حجاب هي النار. ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب..﴾ [الشورى: ٥١].

(١) التفسير الوسيط/ ٩٧٩ وصفوة التفاسير حـ١/ ٣٢٠.

أما الرسول ﷺ، فقد علمه ربه الكريم القرآن وأوحى إليه ما أوحى في الأفق الأعلى المبين، بغير وساطة جبريل، فكان كلامًا وحيًا مباشرًا من الله سبحانه إلى الرسول ﷺ(١) وهو يرى رب العزة عز وجل قبيلاً أي عيانًا.

وقال موسى عليه السلام ﴿عجلت إليك ربي لترضى﴾ [طه: ٨٤].

وقال الحق تبارك وتعالى مخاطبًا الرسول ﷺ

﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ [الضحى].

فموسى عليه السلام يسعى لرضاء الله الكريم، والله العلي الكبير يخبر رسوله ﷺ بأنه سيعطيه فيرضى، وفارق كبير بين من يطلب الرضا، وبين من يعطي بغير طلب ..

وموسى عليه السلام يقول داعيًا ربه ﴿رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري﴾ [طه: ٢٩ - ٣٠].

ورسول الله ﷺ، قد شرح الله سبحانه له صدره مرتين ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ هذا من قبل البعثة، والثانية عند الإسراء ﴿ورفعنا لك ذكرك﴾.

ويدعو موسى عليه السلام ربه ﴿واحلل عقدة من لسان يفقهوا قولي﴾ [طه].

أما الرسول ﷺ فقد آتاه الله الكريم جوامع الكلم فهو أفصح العرب.

وموسى عليه السلام يخاف أن يقتله فرعون وملاه فيقول ربنا حاكيًا ذلك: ﴿ولهم عليَّ ذنب وأخاف أن يقتلوني﴾ [الشعراء: ١٤].

والله سبحانه وتعالى يأمر الرسول ﷺ ﴿فقاتل في سبيل الله لا تكلفُ إلا نفسك﴾ ويقاتل الكفار في مواقع كثيرة ... لا يخاف أحداً بل يستتر به الصحابة عند الشدة !!

ولم ير موسى عليه السلام ربه، فلما رغب في ذلك صعقه قال الله تعالى حاكيًا طلب موسى ﴿رب أرني أنظر إليك﴾ [الأعراف: ١٤٣] فأجاب عليه العزيز الحكيم معرفًا له قدره ومنزلته ﴿لن تراني﴾ ثم يبين له قوة تجليه سبحانه وأثرها على الجبل

---

(١) التفسير الوسيط/٩٧٩.

﴿ولكن أنظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني؛ فلما تجلى ربه للجبل جعله دكًا وخر موسى صعقًا؛ فلما افاق قال سبحانك تُبت إليك وأنا أول المؤمنين﴾ [الأعراف: ١٤٣].

أما الحبيب العالي القدر ﷺ

فإن قلبه أقوى من الجبل: ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعًا متصدعًا من خشية الله ...﴾ [الحشر] وأنزل الله تعالى القرآن على قلب رسوله ﷺ فلم يزده إلا نورًا ﴿نزل به الروح الأمين. على قلبك لتكون من المنذرين﴾ [الشعراء: ١٩٣].

كما تجلى الرحمن تبارك وتعالى لحبيبه صفوة خلقه فرأى ربه بفؤاده ثم ببصره، بفؤاده في الأفق الأعلى ﴿ما كذب الفؤاد ما رأى﴾ ثم ببصره عند سدرة المنتهى ﴿ولقد رآه نزلة أخرى. عند سدرة المنتهى﴾ [النجم].

وقال رب العالمين لموسى

﴿قال يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين﴾ [الأعراف: ١٤٤] ﴿وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء﴾ [الأعراف: ١٤٥] رسولاً لبني إسرائيل.

وأنزل الله تبارك وتعالى صفوة خلقه ﷺ ومعه الكتاب كله رحمة ونذيرًا للعالمين: ﴿فلذلك فادع﴾ [الشورى: ١٥] ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ [الانبياء: ١٠٧].

وكان بنو إسرائيل، كثيرًا ما يعصون موسى عليه السلام

أما المؤمنون فكانوا يجلون الرسول من تجلي رب العالمين عليه بالحب والمهابة له ﴿ذي قوة عند ذي العرش مكين. مطاع ثم أمين﴾ [التكوير: ٢٠ - ٢١].

وأرسل الله العظيم

رسوله عيسى بن مريم عليه السلام لبني إسرائيل يبشر الناس بالرسول الخاتم ﴿وإذ قال عيسى بن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقًا لما بين يدي من التوراة ومبشرًا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾ [الصف: ٦].

ومثل عيسى في هذا مثل من قبله من الرسل، كل قد أرسل إلى قومه يدعوهم إلى صراط العزيز الحميد، مؤمنًا بالرسول ﷺ وعاملاً على نصرته وتهيئة الناس لرسالته وهي القرآن العظيم.

والذي يبشر الناس بأحمد ﷺ، ليس مثله ...

وأمضى عيسى عليه السلام مع حوارييه أربعين يومًا في الصحراء، فجاعوا وتعبوا فشكُّوا في نبوته وفي إلهه، فطلبوا إليه – قطعًا للشك باليقين – أن ينزل عليه ربه – فلم يقولوا ربنا – إن استطاع مائدة من السماء، وقال العلي الكبير يحكي مقولتهم: ﴿ وإذ قال الحواريون يا عيسى بن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء، قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين. قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أنه قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين ﴾ [المائدة].

أما رسول الله ﷺ فيمكث بأصحابه في شعب مكة قرابة الثلاثين شهرًا أكلوا فيها حشاش الأرض، فلم يزدهم هذا إلا إيمانًا وتثبيتًا ...

وخاض الرسول بأصحابه المعارك وقتل منهم العشرات والمئات، فلم يسأله أحد إلا إحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة في سبيل الله.

ودعا عيسى عليه السلام قومه وغيرهم قرابة ثلاث سنوات لتنفيذ التوراة بالصدق والحق، والتزام المحبة بين بني الإنسان، فما آمن له إلا الحواريون الثلاثة عشر .. وعُذب عيسى من بني إسرائيل وحوكم وأُهين فتوفاه الله وطهره من الذين كفروا ورفعه إليه شأنه في ذلك شأن إدريس عليه السلام الذي رفعه الله مكانًا عليا هي السماء الرابعة، وقد أخبرنا الرسول ﷺ في أحاديث المعراج أن عيسى عليه السلام مع يحيى عليه السلام في السماء الثانية ..

أما الرسول ﷺ

فقد دعاه رب العالمين إلى الأفق الأعلى المبين وتجلى له مرتين، وصلى الله عليه هو وملائكته منذ خلقه ويصلي عليه إلى أن يشاء الله رب العالمين، بالتخصيص من دون النبيين والمرسلين والعالمين.

صلى الله على صفوة خلقه وسلم تسليمًا كثيرًا

الفصل الحادي عشر
صاحب القبضة الأصلية

بعث الله الرحمن الرحيم، رسوله في أم القرى منذراً:

﴿وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولاً يتلوا عليهم آياتنا، وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون﴾ [القصص: ٥٩].

وهذا إخبار من الله جل جلاله للناس بصيغة الوعيد منذراً أنه جل جلاله لم يكن ليهلك جميع أنحاء العالم، إلا بعد أن يبعث في «الأم» التي كانت منها جميع القرى أي المدن، رسولاً يتلوا عليهم آياته.

وأم القرى هي مكة المكرمة، وهي التي فيها نشأت جميع القرى أي أهل جميع مدن العالم؛

وقد أثبتت المعلومات العلمية الحديثة بالأجهزة الحاسبة الإلكترونية ان مكة هي مركز الكرة الأرضية ..

كما أثبت علم الجغرافيا البشرية والحفريات الچيولوچية الباحثة عن أصل الإنسان، ان الإنسان الأول كان إنساناً واحداً منه نشأ الناس جميعاً .. وأن هذا الإنسان كان في جنوب آسيا أي بدأ في جنوب آسيا.

وتقول لنا كتب الاثر ان آدم عليه السلام هبط في الهند وأن حواء هبطت في المكان حيث مدينة جدة الآن. ثم التقى آدم وحواء عند الكعبة بيت الله الحرام في مكة، فكان منهما الناس جميعاً ..

ويقول رب العالمين:

﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء ..﴾ [النساء: ١].

ثم يخبرنا العلي الكبير بأنه سبحانه الذي فرقنا في الأرض:

﴿ قل هو الذي ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون ﴾ [الملك: ٢٤] وذرأكم يعني نشركم أى جعلكم تستعمرون كل مكان في الأرض بحثًا عن الرزق يقول تعالى: ﴿ هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه .. ﴾ [الملك: ١٥].

فعند البيت الحرام في مكة المكرمة كانت البداية الإنسانية، فمكة أم الناس جميعًا. ولذلك

بعث الله رسوله الخاتم في أم القرى، ليكون منها النور الكامل والشرع الكامل والهدي الكامل وحقائق علوم خلق وسنن السماوات والأرض والإنسان، فتنتشر بسنة الله وقوته في كافة أرجاء الأرض كما انتشر الإنسان منها في كافة أنحاء الأرض ...

وهذا ما يتحقق اليوم

فنرى الإسلام قد ذهب من مكة والمدينة إلى أقصى الشرق حتى دخل استراليا وإلى أقصى الغرب حتى انتشر في الأمريكتين رغم منع هجرة المسلمين كلما أمكن ورغم الحرب الضروس التي يشنها كل الكفرة على اختلاف أشكالهم ضد الإسلام والمسلمين.

فالرسول صاحب القبضة الأصلية(١) التي منها للعالمين الرحمة الربانية رحمة بالهدى إلى الحقائق العلمية في كل ما خلق الخالق العظيم والتي تؤدي إليها البراهين الصحيحة، ورحمة بالخُلق العظيم وكان الرسول في ذلك الأسوة لمن آمن بالله ورسوله الذي وصفه ربه ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ ورحمة بالشريعة الإلهية حتى يستريح الإنسان من هوى الإنسان وظلمه وبغيه ونزواته.

والرسول ﷺ

---

(١) يقول الإمام العيدروس: صاحب القبضة الأصلية إشارة إلى المقام المحمدي الخاص به ﷺ وهو المقام المسمى بمقام (أو أدنى) وهو ولايته الخاصة. أما المقام المحمدي الثاني يسمى بمقام « قاب قوسين » وهو ولايته العامة. أخرجه الإمام الشيخ عبد الحليم محمود شيخ الأزهر في كتاب (السيد احمد البدوي) / ١١٤.

رسول للناس يهديهم إلى نور رب العالمين، بالخلاص بالنفوس من زيغ الغرائز وثورات الجسد، فيهديهم إلى صبر النفوس ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطًا﴾ [الكهف: ٢٨]

ذلك بأن الرسول بعث رحمة و ﴿عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ [التوبة: ١٢٨].

ويهديهم إلى نور الله في ذكر الله في بيوت الله: ﴿في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه، يسبح له فيها بالغدو والآصال. رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، يخافون يومًا تتقلب فيه القلوب والأبصار. ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله؛ والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ [النور: ٣٦ - ٣٨].

ولأن الرسول ﷺ هو صاحب القبضة الأصلية، فهو ينذر الناس بوحي ربه جل وعلا بمنتهى الحزم والحسم والرحمة جميعًا، فيقرر وضع الذين لا يؤمنون بالله ورسوله، ويبين لهم منزلهم في صفتهم فيقول جل جلاله:

﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين﴾ [القلم: ٣٥].

ثم يبين منزل المجرمين في قوله تعالى:

﴿أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنًا. ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هزوًا﴾ [الكهف: ١٠٥ - ١٠٦].

﴿وأما إن كان من المكذبين الضالين. فنزل من حميم. وتصليه جحيم﴾ [الواقعة].

والرتبة العلية للرسول ﷺ

فقد أقسم الخالق العظيم بعمر رسوله ﷺ، ولم يقسم بعمر أحد غيره؛ ذلك بأن

عمر الرسول سر من أسرار رب العالمين فلا يعلمه إلا الله سبحانه، فقال جل شانه: ﴿لَعَمْرُكَ إنهم لفي سكرتهم يَعْمَهون ...﴾ [الحجر: ٧٢].

والله العظيم يصلي هو وملائكته على الرسول بالتخصيص، ويصلي هو وملائكته على المؤمنين ومن بينهم جميع الرسل والنبيين بعامة، ثم يسلم على المرسلين دون صلاة[١].

والله العلي الكبير يمجد رسوله ويعظم شانه فلا يناديه إلا بلقبه ﴿يا أيها الرسول﴾ أو ﴿يا أيها النبي ..﴾ على خلاف كل الأنبياء والمرسلين الذين يناديهم بأسمائهم مجردة، وفي هذا إعلام من الله سبحانه للكافة عن قدر الرسول ﷺ في العالمين. فمن قبل أخذ له ميثاق النبيين ومن بعد فالرسول شهيد عليهم أجمعين.

ولرفعة درجة الرسول ﷺ، فقد خصه الله سبحانه بما لم يخص به أحداً من العالمين، فجعل أزواجه أمهاتاً للمؤمنين، وحرم نكاحهم - بالتالي - من بعده أبداً، فقال جل شانه: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم﴾ [الأحزاب: ٦] وقال تعالى: ﴿.. ولا تنكحوا أزواجه من بعده أبداً، إن ذلكم كان عند الله عظيماً﴾ [الأحزاب: ٥٣].

ولما عرج به ربه إليه في الأفق الأعلى المبين ﴿ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى﴾ حيّاه ربه العظيم بما لم يُحي به أحداً أبداً فقال له العلي الكبير ﴿السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته﴾.

واستقبله ربه العظيم بالأفق الأعلى، وذلك هو الشأو البعيد الرفعة السامق السمو، لم يتح إلا له ﷺ، فهو عبده الأول، وأول من أسلم، وتلميذ رحمته ومبعوث رحمته، ودارس قرآنه ومعلم قرآنه للعالمين، وهو كلمات الله ونور على نور، وهو الكوكب الدري، ورحمة ربه للعالمين والمبعوث بالتتميم والشهيد على كل الأنبياء والمرسلين، وقائد القتال في سبيل الله ثم هو الذي بين للناس مناسك الحج؛

---

(١) يسلم على يحيى الآية ١٥مريم وعلى عيسى الآية ٣٣ مريم وعلى نوح وإبراهيم وموسى وهارون وال ياسين والمرسلين عامة في سورة الصافات الآيات ٧٩، ١٠٩، ١٢٠، ١٣٠، ١٨١ على التوالي دون صلاة .

لذلك رفع الله له ذكره:

﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾ [الشرح].

وتحقيقًا لرفعة ذكر الرسول ﷺ، فقد نعته ربه ببعض أسمائه الحسنى فوصفه بأنه ﴿ رؤوف رحيم ﴾ وطلب من أصحابه أن يحيوه بتحية طيبة من الله مباركة، ووصف تحية المنافقين له بأنها ليست على ذلك، فيقول سبحانه: ﴿ .. وإذا جاءوك حيُّوك بما لم يحيك به الله ﴾ [المجادلة: ٨].

وأمر الله المؤمنين أن يحترموا النبي احترامًا خاصًا لرفعة قدره، فأمرهم بأن لا يرفعوا أصواتهم فوق صوته أي يكونوا خافضي الصوت للرسول وليس كصوت بعضهم لبعض توقيرًا واحترامًا لمقام الرسول. فيقول جل شانه: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ﴾ ثم يبين لهم العلي الكبير أن نداداتهم على الرسول يجب أن تتسم بالأدب في القول وأن تتفق مع منزلته بين العالمين فيقول لهم سبحانه وتعالى ﴿ ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ﴾ [الحجرات] فلا ينادى على الرسول باسمه كما ينادي بعضهم بعضًا ولكن يقولون: يا نبي الله أو يا رسول الله(١).

ولعل في هذا لفتًا لكثير من المؤمنين الآن الذين يتشدقون في كثير من مجالسهم أو المحافل العامة بقولهم اسم رسول الله ﷺ مجردًا وإن صلوا عليه، وهذا ينافي مفهوم الآية فلا يذكر باسمه ولكن يذكر بصفته ﷺ، ذلك بأن القول: رسول الله ﷺ لا يذهب إلا إليه من دون الرسل والنبيين والعالمين. فذلك مقام الرسول عند الله جل جلاله .. وقد ضرب لنا سبحانه الأسوة العليا الإلهية في كل نداءاته في القرآن بكلمتي «يا أيها النبي» أو «يا أيها الرسول» ولم يذكر اسمه مجردًا إلا في آيات الإخبار عنه ﷺ.

والله العلي الكبير طهر أهل بيت النبي من رجس الشيطان تكريمًا وإعزازًا لرسوله وإعلاء لشان أهل بيته لعلو شانه؛ فإذا كانت مريم قد اصطفاها الله وطهرها وبذلك

(١) صفوة التفاسير حـ٣/ ٢٣٢ ونفس المعنى بتفسير ابن كثير والجلالين والوسيط.

صارت مصطفاة أي مختارة على نساء العالمين في عصرها؛ ﴿ وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين ﴾ [آل عمران: ٤٢] فإنه سبحانه بنص الآية الكريمة لم يطهر مريم تطهيراً وإنما طهرها فقط، وفرق كبير بين الاثنين؛ فكلمة «تطهيراً» مصدر مؤكد وترفع احتمال المجاز ..

لذلك، فإن الآية الكريمة التي قيلت في أهل بيت النبي وهي قوله تعالى: ﴿ .. إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً ﴾ [الأحزاب: ٣٣] فإن التطهير هنا تطهير مؤكد وشامل للظاهر والباطن لا يترك أثراً للرجس ولا يسمح باحتمال تواجده ولا الاقتراب من أهل البيت، فاستحقوا بذلك أن يكونوا أعلى رتبة ونساءهم أعلى رتبة من نساء العالمين، ولذلك يخبرنا سبحانه مقرراً هذه الحقيقة ﴿ يا نساء النبي لستن كأحد من النساء ﴾ [الأحزاب: ٣٢] وكلمة «النساء» مطلقة.

ولأن أهل البيت في جامعة رسول الرحمن ونور الرسول ونور القرآن، فهم على علم من الرسول وعلى نور من نوره وهدي من هديه، فيقول الرسول ﷺ عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه وأرضاه وكرم وجهه (أنا مدينة العلم وعلي بابها) فهم في علم الرسول ونوره وفي حب الرسول وحب الله، هم أول من اتبع الرسول والله تعالى وتبارك يقول ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾ فهم حب الله وحب الرسول؛ فعلو منزلتهم أمرٌ لا يدانيه شيء ...

وتلاميذ الرسول، في مصاف الأنبياء ..، فإن الله جل شأنه علم الأنبياء وهم في الأرض الكتاب والحكمة، وأمرهم أن يدعوا إلى الله بهذا العلم ولم يأمرهم بأن يعلموا أحداً لا الكتاب ولا الحكمة وإنما من كل شيء موعظة ...

أما الرسول ﷺ، فقد علمه ربه القرآن وقرأ في أسماء الله وأنوار الذات العلية فصار برهان ربه وكلماته للناس ورحمة للعالمين، وأمره ربه العظيم أن يعلم المؤمنين الكتاب والحكمة وأن يطهرهم والطهر تزكية ونماء وأن يعلمهم ما لم يكونوا يعلمون فقال تعالى: ﴿ كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلوا عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴾ [البقرة: ١٥١].

فكان صحابة رسول الله ﷺ على علم وطهر حتى نمت أفئدتهم وسمت أحاسيسهم وعمقت مفاهيمهم، فرفعهم نور النبوة الذي انبثق في صدورهم مع علم النبوة الذي تلقوه وأدب النبوة الذي تأسوا به وحكمة النبوة التي اشربت بها نفوسهم وقوة الإيمان التي صبغت أجسادهم حتى ملأت قلوبهم، فصاروا في مرتبة وصفها العليم الخبير في قوله تعالى ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً؛ ذلك الفوز العظيم﴾ [التوبة: ١٠٠].

وأخبر سبحانه بأن لهم هذه البشرى في الحياة الدنيا كما لهم البشرى في الآخرة فقال جل شأنه ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. الذين آمنوا وكانوا يتقون. لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة. لا تبديل لكلمات الله؛ ذلك الفوز العظيم﴾ [يونس: ٦٣ - ٦٤].

وتقريراً لهذا وبياناً بمنزلتهم في الآخرة يقول جل شأنه:

﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين؛ وحسن أولئك رفيقاً﴾ [النساء: ٦٩].

وقال الرسول ﷺ مبيناً درجة علماء أمته

(علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل).

لذلك، أعطى الله سبحانه لرسوله الكريم «الكوثر»: ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ فلا سؤال للرسول ولا حساب، كبقية النبيين ﴿وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون﴾ [الزمر: ٦٩].

وإنما الرسول شهيد عليهم، وشفيع للمؤمنين، ووعده رب العالمين ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ وأعطاه الله الكوثر ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ أي الأكثر خيراً وجمالاً وشرفاً ورفعة وبهاء وقرباً من الله جل وتعالى، والأكثر قدراً ومجداً إلى ما شاء الله، وقيل «الكوثر» حوض عظيم جميل عليه أواني من نور بعدد النجوم يرد إليه أهل البيت مع القرآن وصالح المؤمنين.

وحتى يُحصِّن الله العظيم رسوله الكريم من شرور الجن والإنس، وكل من يتبعه بإحسان، أعطاه الله العظيم المعوذتين: الأولى بالاسم الذي فلق به الماء من تحت عرشه فكان النور النبوي العظيم أول من أسلم فقال للرسول: ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾.

والثانية بالاسم الذي ربى الله به الناس وملك الناس ويعبده به الناس، لأنه إله الناس لا شريك له. ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾.

والرسول نور العزة الأبدية

فقد نسبه رب العالمين إليه فقال جل شانه ﴿ الله نور السماوات والأرض ﴾ [النور: ٣٥] تشريفاً لقدره في العالمين وإخباراً بحقيقة خلقه وعلو قدره، فالرسول هو نور الله في السماوات وفي الأرض، لذلك اتبعه به جل شانه في الآذان والتشهد والشهادة التي جعلها الله العظيم الركن الأول والركين في الإسلام.

وحتى يبقى النور فياضاً سرمدياً، فإن الله جل جلاله وملائكته والمؤمنين يصلون على النبي الكريم صلاة وتسليماً كما يحب ربنا ويرضى منذ كان رسول الله من قبل القرآن وإلى أن يشاء رب العالمين.

وهو نور المولد

فتأكيداً لحرمة بيت الله الحرام، وقدسيته ومنعته، هزم الله جيش أبرهة وأباده، بياناً للعالمين قبل مولد الرسول بشهرين، لأنه رسول الرحمة للعالمين، ولا رحمة في ظل الطغيان أو القهر، وإنما الرحمة من الله فالله رحيم بعباده خلقهم أحراراً وأكد لهم الحرية بلا إكراه وأرسل رسوله على متن الحرية والطاعة لله بمنهج الله العظيم.

وسماه جده عبد المطلب اسماً ألهمه به الله، فالله سبحانه يعلم أن أمة المؤمنين ستحمد الرسول في حمدها لله، فالهم الله جده بان يسميه «محمد» على غير ما يسمي العرب أبناءهم، حتى كان ذلك في نظر الناس حدثاً في الأسماء.

والرسول نور النشأة

فقد نشأ الرسول ﷺ طاهراً زاكياً لم يعرف عنه زيغ، فلم يلم بالأصنام أبداً، ولم يكذب أبداً، ولم يخن الأمانة أبداً.

وكان الرسول دائمًا – فيما ترويه كتب السيرة النبوية الشريفة – شاخصًا ببصره إلى السماء، متفكرًا متعبدًا.

قال الله تعالى: ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء، فلنولينك قبلة ترضاها، فول وجهك شطر المسجد الحرام﴾ [البقرة: ١٤٤].

وهو نور السابق

فواحده الله جل شأنه به على وجه التخصيص. فالرحمن علمه القرآن ثم يذكر سبحانه بعد ذلك «خلق الإنسان».

وأخذ له الميثاق، ميثاق النبيين جميعًا، أن يؤمنوا به وينصروه وجعله الله شهيدًا على كل الأنبياء والمرسلين منذ آدم حتى عيسى بن مريم عليهم السلام: فيقول سبحانه ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد، وجئنا بك على هؤلاء شهيدًا﴾ [النساء: ٤١].

والشهادة تقرير للواقع بحق سمعه لما سمع والرؤية بعين بصره وبصيرته والفهم والقول بالفهم والإدراك والإحاطة، وتقرير ذلك كله على ما وقع قبل بعثته في الناس، إثباتًا وإعلامًا من الله للناس جميعًا بنور رسوله السابق.

لهذا،

نجد القرآن العظيم يخبرنا في إشارات لا تخفى على القلوب المؤمنة المملوءة بنور ربها عن هذا الأمر العظيم، فيقول جل شأنه لنا وللرسول ﷺ:

﴿وما كنت بجانب الغربي إذا قضينا إلى موسى الأمر﴾ [القصص: ٤٤].

﴿وما كنت بجانب الطور إذا نادينا ولكن رحمة من ربك﴾ [القصص: ٤٦].

﴿وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم﴾ [آل عمران: ٤٤].

﴿.. وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون﴾ [يوسف: ١٠٢].

وهذه الآيات الكريمة جميعها تنفي وجود الرسول ﷺ في المواقف المذكور فيها،

وهذا النفي لو أنه جاء في حياة موسى عليه السلام وحياة مريم وحياة يوسف عليه السلام في ذات الوقت الذي تكون فيه حياة الرسول مع هؤلاء الرسل ومريم بين الناس، لكان مفهومًا.

ولكن أن ينفي الله العظيم وجود رسوله ﷺ في زمن يسبق حياته على الأرض بأكثر من ألف عام، فهو الأمر الذي يجعل منه قولاً سطحيًا وتفنيداً وحاشا لله أن يفند.

وإذًا فهذه الآيات كلمة «ما» فيها ليست نافية.

وإنما «ما» فيها خافية.

أخفت وجود رسول الله وهو «نور» عن تلك العقول المادية التي فسرت الإسراء والمعراج بأنه حلم ورؤيا منامية أو بالروح .. إلخ.

لذلك، أخرج الإمام أحمد بن حنبل بسنده عن أبي سعيد، قال: قال رسول الله ﷺ (يدعى نوح يوم القيامة فيقال له هل بلغت؟ فيقول نعم، فيدعى قومه فيقال لهم هل بلغكم؟ فيقولون ما أتانا من نذير وما أتانا من أحد، فيقال لنوح من يشهد لك. فيقول: محمد وأمته، قال: فذلك قوله ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطًا﴾ قال والوسط العدل فتدعون فتشهدون له بالبلاغ ثم أشهد عليكم). رواه البخاري والترمذي والنسائي وابن ماجة. وقال الإمام أحمد أيضًا بسنده عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: (يجيء النبي يوم القيامة ومعه الرجلان وأكثر من ذلك فيدعى قومه فيقال هل بلغكم هذا؟ فيقولون: لا. فيقال له هل بلغت قومك؟ فيقول: نعم. فيقال: من يشهد لك؟ فيقول محمد وأمته. فيقال لهم هل بلغ هذا قومه؟ فيقولون: نعم. فيقال: وما علمكم؟ فيقولون جاءنا نبينا فأخبرنا أن الرسل قد بلغوا فذلك قوله عز وجل ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطًا﴾ قال عدلاً ﴿لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾).

وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه وابن أبي حاتم بسندهما عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ قال: (أنا وأمتي يوم القيامة على كوم مشرفين على الخلائق ما من الناس أحد

إلا ود أنه منا وما من نبي كذبه قومه إلا ونحن نشهد أنه قد بلغ رسالة ربه عز وجل)[١].

والرسول نور اللواحق

فما فتح الله به على مَنْ بعده هو من نوره ﷺ ﴿نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء﴾ [النور: ٣٥].

وقوله تعالى ﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه﴾ [الزمر: ٢٢] كقوله تعالى في حمزة رضي الله تعالى عنه ﴿أو من كان ميتًا فأحييناه وجعلنا له نورًا يمشي به في الناس﴾ [الانعام: ١٢٢].

وقال جل شانه ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم؛ والله غفور رحيم﴾ [الحديد: ٢٨].

وصلاة الله وملائكته على المؤمنين نور يملأ قلوب المؤمنين وآفاق العالمين ومسالك المهتدين حتى يبعث الله الناس جميعًا قال تعالى:

﴿هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

والرسول نور الاتباع

فمن يتبع الرسول، يتبع الله جل شانه، فهو الرحمة للعالمين، الناس وكل ما خلق الله جل جلاله لا يغادر شيئًا الغيب والشهادة.

وهو الرسول المفوض من الله للناس كافة ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ [النساء: ٨٠] فنور الاتباع في التفويض الكامل الصريح ..

لذلك يقول رب العالمين:

﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور

(١) أخرج هذه الأحاديث تفسير ابن كثير حـ١ / ١٩٠ - ١٩١.

رحيم. قل أطيعوا الله والرسول، فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين ﴾ [آل عمران: ٣١ - ٣٢].

وهو نور البصر والفؤاد

قال الله سبحانه عن نفسه ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

والقرآن - كلام الله العظيم - يقرر أن الرسول ﷺ رأى ربه مرتين: الأولى في الأفق الأعلى المبين ﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾ والثانية: ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى ﴾ [النجم].

ورأى ﷺ جنة المأوى وسدرة المنتهى والأفق الأعلى وآيات ربه الكبرى ﴿ ما زاغ البصر وما طغى ﴾ [النجم].

والرسول نور الغاية الإنسانية

فإن الله تبارك وتعالى خلق الإنسان ليعبده بالخلافة الصحيحة والإحسان في أدائها.

وقاعدة الخلافة: حرية الإنسان والحكم بما أنزل الله، والهداية بنور الإيمان كي تسير الأمور على هدي صراط الله المستقيم أي بالمنهاج الإلهي في كل حركات الحياة.

وإذا كان ذلك كله أصله من الله ومرده إليه سبحانه؛ فإن الله جل شانه أحق بأن يهدي العالمين سُبل الرشاد، لأنه أدرى بهم من أنفسهم ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ [الملك].

وسبيل الله واحد هو رحمته في قرآنه وسنة رسوله ﷺ؛ فيقول جل شانه ﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين ﴾ [النحل: ٨٩] ويقول سبحانه ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم، ولعلهم يتفكرون ﴾ [النحل: ٤٤].

وهو نور الإثبات

فالرسول ﷺ برهان ربه وكلماته، وسبق بيان ذلك.

والرسول نور التكميل والتتميم والتحديد

فلأنه ﷺ النور المربوب لخالق النور، ولأنه برهان ربه، فهو محصلة الإثبات؛ لذلك فهو الخاتم ﴿ ولكن رسول الله وخاتم النبيين ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

ولقد بعثه الله لهداية الناس ولم يبعثه لعّانًا ولا صخّابًا، ولكن البشير النذير، فيدعوا الله لنصرته ﴿ حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله، الا إن نصر الله قريب ﴾ [البقرة: ٢١٤].

فجاهد الرسول في سبيل الله حق جهاده وبلّغ الرسالة وأدّى الأمانة ونصح الأمة، وعلمهم مناسك الحج، فنزل عليه قوله تعالى:

﴿ .. اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينًا ﴾ فحدد الله طاعة خلقه بالإسلام له، وأن منارة هذا الإسلام هو رسوله وقرآنه.

فكان الإكمال للقرآن إكمال للدين، وكان الإكمال للمناسك إكمال للشعائر، وكان حج الرسول بيانًا للإكمال. وكان كل ذلك تتميمًا لنعمة الله على المؤمنين، وكان رضا الله بالإسلام دينًا، رضا بعد تمام التوضيح، بعد تمام النور.

(صلى الله وسلم على نور الأنوار وسر الأسرار وترياق الأغيار ومفتاح باب اليسار سيدنا محمد المختار وآله الأطهار وأصحابه الأخيار عدد نعم الله وأفضاله) (١).

مرتبة الحب الإلهي (في اتباع الرسول)

﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم ﴾ [آل عمران: ٣٢] والاتباع في العمل بقوله تعالى ﴿ ولكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرًا ﴾ [الأحزاب: ٣١].

---

(١) الصلاة الخامسة والثلاثون للسيد احمد البدوي على رسول الله. من كتاب السيد احمد البدوي/ ١١٥.

مرتبة الرضا الإلهي (في اتباع قمم الصحابة)

﴿ السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم ﴾ [التوبة: ١٠٠].

مرتبة الطاعة الإلهية (في الطاعة لله والرسول)

﴿ من يطع الله ورسوله فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً ﴾ [النساء: ٦٩].

الفصل الثاني عشر

نذيـر ورحـــمة للعـــالمين

المبحث الأول: الأسماء

قال الله تبارك وتعالى:

﴿ تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ﴾ [الفرقان: ١].

﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

والرحمة في اللغة: رقة القلب وانعطافه بالشفقة. وهذا المعنى ينطبق على المخلوقات فإطلاقه على الله تعالى إنما يكون باعتبار لازمه الذي يليق به تعالى وهو التفضل والإحسان(١). وقال بعض العلماء: الرحمة هي إرادة الخير لأهله(٢).

ولأن الرسول ﷺ بشر مثل البشر، فهو إذاً يتحلى برقة القلب الفائق النور والشفقة الغامرة لكل العالمين.

فيقول ربنا العظيم: ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم ﴾.

ويبين الرسول ذلك: فعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال (إنما أنا رحمة مهداة).
وعن ابن عمر أنه ﷺ قال: (إن الله بعثني رحمة مهداة بعثت برفع قوم وخفض آخرين)(٣).

ونذيراً

أي منذراً لمن كفروا بما يحزنهم من العقاب(٤).

---

(١) الوسيط، الحزب الأول/ ١٨.

(٢) الجلالين/ ٥٥٥.

(٣) تفسير ابن كثير حـ٣/ ٢٠١ واخرج الحديث الأول الحافظ بن عساكر (صفوة التفاسير حـ٢/ [illegible]).

(٤) الوسيط، الحزب الثاني/ ١٨٣.

ويقول تفسير الجلالين: نذيراً أي مخوفاً من عذاب الله(١).

والنذير من مادة الإنذار أي التوعد والوعيد من مغبة العمل السيئ. لذلك ذكر الإنذار في قوله تعالى عن رسول الله ﷺ أنه أنزل بالفرقان، أي الذي يفرق بين الحق والباطل، أي يبين الحق ويبين الباطل، ومن ثم كان نذيراً للذين يميلون عن الحق إلى الباطل: قال تبارك وتعالى:

﴿قل إنما أنا منذر وما من إله إلا الله الواحد القهار. رب السماوات والأرض وما بينهما العزيز الغفار﴾ [ص: ٦٥ - ٦٦].

ولأن الرسول ﷺ رحمة ونذير للعالمين؛ فقد لزم أن نعلم معنى العالمين، حتى نعلم كيف يكون رحيماً بهم ورحمة لهم، وكيف يكون محذراً لهم منذراً من الميل عن الحق كما قال سبحانه جل شأنه محذراً موسى عليه السلام: ﴿إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى. فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى﴾ [طه: ١٥ - ١٦].

و"العالمين" لغة: جمع عَالَم فتشمل الإنسان وغيره من الأجناس، فهي كل ما خَلَقَ الله سبحانه من شيء. لقوله تبارك وتعالى: ﴿قال ربنا الذي أعطى كل شيء خَلْقه ثم هدى﴾ [طه: ٥٠].

والعالم: اسم مشتق من العلامة، لأن العالم علامة على وجود الخالق(٢). فالملابس علامة على الذي نسجها وخاطها، والطعام علامة على من أحضره وطهاه، والكرسي والمكتب علامة على من صنعه وهكذا ..

ولأن «الأسماء» في قوله تبارك وتعالى ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾ هي خلق من مخلوقات الله سبحانه، فهي بذلك تدخل في محيط العالمين..

فقد لزم أن نبين معنى «الأسماء» أولاً.

---

(١) الجلالين/٣١٩.

(٢) صفوة التفاسير حـ١/٢٤.

ونرى أن الأسماء بصفة عامة هي الألفاظ الدالة على المسميات، أو هي المسميات كما يدخل السيف في مفهوم الصارم. وعلى الجملة فإن الأسماء ليست هي الحروف ومخارج أصواتها ولكنها مفهوماتها ومعانيها.

ويقول الإمام الغزالي: إن الاسم هو ما يدل على معنى في نفسه بغير أن يدل على زمن كقولك سماء وأرض. فأولاً وضعت الألفاظ دلالات على الأعيان ثم وضع الاسم والفعل والحرف دلالات على أقسام الألفاظ. ثم يقول الإمام الغزالي: فإذا قيل لنا ما حد الاسم؟ قلنا إن الاسم اللفظ الموضوع للدلالة(١).

وقال الإمامان النووي والقسطلاني: إن الذات هي المسمى والزائد عليها هو الاسم(٢).

وقال الإمام الألوسي: الاسم يطلق على نفس الذات والحقيقة والوجود والعين. وهي عندهم أسماء مترادفة، كما قال الإمام ابن فورك في كتابه الكبير في الأسماء والصفات، وأبو القاسم السهيلي في شرح الإرشاد؛ ثم قال: ومنه ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾، إذاً التسبيح إنما يتوجه إلى الذات الأقدس(٣).

وقال الإمام ابن كثير: فيها للناس ثلاثة أقوال: أحدها أن الاسم هو المسمى وهو قول أبي عبيدة وسيبويه واختاره الباقلاني وابن فورك. وقالت الحشوية والكرامية والأشعرية: الاسم نفس المسمى وغير نفس التسمية. وقالت المعتزلة: الاسم غير المسمى ونفس التسمية، والمختار لدى الإمام ابن كثير أن الاسم غير المسمى وغير التسمية. وقال الإمام الرازي: وأما التسمية فإنها جعل الاسم معيناً لهذه الذات فهي غير الاسم أيضاً(٤).

ونخلص من هذا، إلى أن "الاسم" هو الذي يعين الذات ويحددها ويعرفها عن

---

(١) «المقصد الاسنى شرح أسماء الله الحسنى» للإمام أبي حامد الغزالي/٦ وما بعدها.

(٢) «شروح البخاري» للإمامين النووي والقسطلاني/١٨.

(٣) التفسير الوسيط، الحزب الاول/١٧.

(٤) تفسير الإمام ابن كثير حـ١/١٨ و١٩ و٧٣ و٧٥.

غيرها من الذوات. وليس ثمة داع من العلم يقتضي الدخول في مناقشة التسمية والاسم والمسمى بعد ذلك؛ لأنه فيما يبدو وكما قال بحق الإمام الحافظ بن كثير أنه من باب العبث.

ومن ثم، فإن "الأسماء" هي التي تعرف ذواتها وتدل عليها. لهذا فعندما قال سبحانه وتعالى للملائكة أن يبينوا الذوات الموجودة أمامهم قال سبحانه وتعالى لهم ﴿ ثم عرضهم – أي الذوات – على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ﴾ [البقرة: ٣١]. فذوات الأسماء موجودة أمام الملائكة والمطلوب منهم أن يقولوا أسماءها التي بها تعرف هذه الذوات: ﴿ قالوا سبحانك لا علم لنا ﴾ [البقرة: ٣٢]. وإجابة الملائكة هذه تكشف أنهم وإن رأوا ذوات الأسماء بأعينهم إلا أنهم لم يعرفوا أسماءها لأنهم لم يتعلموها من قبل. كما يوضع أمام أي إنسان شيء مثل آلة أو غيرها لا يكون رآها من قبل فإذا طلب إليه أن يقول اسمها فلا يعرف.

وإذًا فالأسماء هي التي تعرف الذوات وتدل عليها.

لذلك ﴿ فلما أنبأهم بأسمائهم ﴾ قال رب العالمين للملائكة وقد عرفوا هذه الذوات من أسمائها ﴿ ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض ﴾ [البقرة: ٣٥].

من هذا، يتبين لنا أن "الاسم" هو الذي يدل على الذوات ويعرفها لمن يراها؛ فالاسم يبين مضمون المسمى أو عين المسمى حتى أن الذي يسمعه يعرف الذات التي لها هذا الاسم.

ومن ثم وبالتالي،

فإنه يحق لنا أن نقول أن الاسم هو ما يدل على الذات بحدودها الثلاث: الحقيقي والعلمي واللفظي.

ومنه يتبين لنا أن "الأسماء" ليست إشارة أو رمزًا كما قال بعض المفسرين ذلك بأن القرآن الكريم واضح في أن الله جل شانه يستعمل اسم الإشارة «هؤلاء» في الإشارة

إليها؛ ولو كانت «الأسماء» إشارة أو رموزًا، ما أشار إليها الخالق العظيم باسم الإشارة. لأن اسم الإشارة إنما يستعمل - طبقًا لقواعد اللغة العربية - لبيان اسم المعين الذي يشير إليه.

وإذًا فالأسماء التي علمها الله جل شانه لآدم عليه السلام هي كل ما خلقه الله سبحانه في غيب السماوات والأرض، وخلق في آدم استعدادًا - أي علمًا ضروريًا وتفصيليًا - يمكنه من اكتشاف جميع الأشياء وأحوالها وخواصها اللائقة بكل منها حال حياته وخلافته في الأرض. ويقول ابن عباس وغيره رضي الله تعالى عنهم: علمه أسماء جميع الأشياء حتى القصعة والقصيعة والجفنة والمحلب(١).

وإذًا فهذه «الأسماء» هي ما جعل الله في آدم العلوم التي بها مكنة صنعها ومن ثم إيجاد خلقها. وكلمة العلوم هنا لا تعني أن الله ألقى القواعد العلمية إلى آدم جاهزة ولكن تعني أن الله جعل في آدم الجهاز بل الأجهزة التي تمكنه من اكتشاف هذه العلوم وتقعيدها ومن ثم استخدامها، ومن هنا، وبقدر المعرفة وبناء معرفة فوق معرفة، جاء التطور بسنته في التقدم.

﴿ولله المثل الأعلى﴾

فالله تعالى يقول لنوح ﴿واصنع الفلك بأعيننا ووحينا﴾ [هود: ٣٧]. ثم يبين الخالق العظيم أن عمل نوح كان الصناعة أما الخلق فلله جل شانه، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون. وخلقنا لهم من مثله ما يركبون﴾ [يس: ٤١ - ٤٢]. ومن هذا البيان الإلهي نعلم أن السفن سواء كانت للركاب والبضائع والحرب، سواء فوق الماء وتحته، هي من خلق الله جل جلاله ومن صنع الإنسان بعلم الله فيه ووحيه سبحانه وتعالى إليه.

وعلم الأسماء علمٌ علمه الله لآدم، ومن ثم لكل ذرية آدم مؤمن وكافر، فصنع الأسماء إذًا ليس وقفًا على أحد من الناس، ولكن قدرة إلهية في كل الناس، ومن المواد الموجودة في الأرض وببعض سنن الكون.

---

(١) التفسير الوسيط/ ٧٤ وصفوة التفاسير حـ١/ ٤٨.

ولأن الأسماء مصنوعة فهي «كل» أي أن «الاسم» مكون من أجزاء مركبة فأصبح بعد تركيبها «كُلاًّ».

وكذلك فإن الاسم «كلّي» لأنه يمكن صناعة الكثير من أمثاله، ومن ثم فهو متعدد.

وكلمة «كلها» في قوله تعالى ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾؛ تدل عل أن الله لم يغادر اسمًا في غيب السماوات والأرض إلا وعلمه لآدم، أي قرينة على الشمول.

وقال العلي الكبير عن وسائل الركوب ﴿والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون. وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين﴾ [النحل: ٨ - ٩].

والمعنى - والله تعالى أعلم - أن الله سبحانه يخلق من وسائل الركوب غير ما ذكر صراحة، وهي الخيل والبغال والحمير، فها نحن نرى العجلات والسيارات والقطارات والطائرات والصواريخ ومراكب الفضاء، وإن اختلفت سرعة كل منها، فنجد أن سنة التطور فيها إلى التقدم بزيادة السرعة، حتى تجاوزت سرعة الصوت عدة مرات (٣١٧ مترًا في الثانية)، وها هم العلماء يعكفون على محاولة صنع محركات تسير بتأيين الضوء حتى تبلغ سرعة الضوء (٣٠٠,٠٠٠ كم في الثانية) ثم تزيد عليه، أي يتجاوزوا سرعة الثابت الكوني المطلق الذي لا يتغير مقداره في أي طرف من أرجاء عالم الشهادة !! ومن هنا جاء قوله تعالى مشيرًا إلى ذلك ﴿ومنها جائر﴾ أي زيادة عن الحق المحدد للشيء في الكون .. ويقول علماء الطبيعة وأينشتين أن سرعة الضوء تمثل حدود معرفتنا والسقف الذي تقف عنده معادلاتنا وحساباتنا الرياضية(١).

وإذًا "فالأسماء" هكذا تترى اسم بعد اسم كلما تقدم اكتشاف الإنسان للعلم الذي وضعه الله في الكون.

ولما كانت الملائكة تعلم «الأرض» بدليل قوله تعالى لهم: ﴿إني جاعل في الأرض

---

(١) طبقًا لقاعدة رجوع الضمير على أقرب مذكور قالها في كلمة «منها» تعود على الضمير في «تعلمون».

خليفة ﴾ فأجابوا العلي الكبير بقولهم ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ﴾؛ ومن ثم فهي تعرف الأرض وبالتالي تعلم ما فيها من زرع وضرع وحيوان وإنسان.

ولما كانت الملائكة تعرف السماوات بحكم سكنها فيها، وبالتالي تعرف الشمس والقمر والنجوم.

ولأن الملائكة لم تعرف اسم الذوات التي عرضها الله سبحانه وتعالى عليهم حتى أنبأهم آدم بها؛

فإن ذلك يعني أن الأرض وما فيها من زرع وضرع وحيوان وطير وشجر ومدر وأبحر وأنهار وجبال ووديان. والسماوات وما ملئت به من نجوم وسدم وكواكب وغيرها، ليست من «الأسماء» التي عرضها الله سبحانه وتعالى على الملائكة. ومن ثم ليست من الأسماء التي علمها الله سبحانه وتعالى لآدم عليه السلام.

ومعنى ذلك أيضًا - وهذا أمر مهم جداً - أن آدم عليه السلام كان أيضًا يعلمها! وقد عبر القرآن العظيم عن هذه المخلوقات (الأرض والسماوات وما فيها) بالأعلام. فقال سبحانه وتعالى: ﴿ وله الجواري المنشآت في البحر كالأعلام ﴾ [الرحمن] فشبه الله العظيم الفلك في البحر كالجبال في الأرض التي عرفها بأنها الأعلام، و إذًا فهي معلومة وليست غيبًا، وكانت كذلك وقت تعلم آدم الأسماء ومن باب أولى وقت عرض الأسماء على الملائكة الذين قالوا لرب العزة: ﴿ سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا... ﴾.

ونخلص من هذا جميعًا

إلى أن كل ما هو من خلق الله سبحانه وصنعه سبحانه معًا فهو «عَلَم» وكل ما هو من خلق الله سبحانه وصنع الإنسان فهو «اسم».

ومن ثم؛

فكل الموجودات: أعلام وأسماء هي جميعًا العالمين.

ولأن «الأسماء» عاقلة، فقد جاءت بضمير جمع العقلاء «هم» في قوله تعالى

﴿ ثم عرضهم ﴾. وأشار إليها باسم الإشارة لجمع العقلاء «هؤلاء»، ذلك بأن الأسماء جميعًا ترى وتسمع وتعقل وتفكر - كما سنبين بعد - ولكنها مسخرة بأمر الله للإنسان. قال تبارك وتعالى:

﴿ وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعًا منه؛ إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ [الجاثية: ١٣].

ولأن الله سبحانه، أعطى آدم العلم الذي به يصنع الأسماء وهو ما ليس للملائكة به علم ولا لهم عليه قدرة؛ فقد سجدوا لآدم سجود طاعة لأمر الله سبحانه في تقدير وتعظيم لخلق الله سبحانه فيه، وليس سجود عبادة، لأن سجود العبادة لله تعالى المعبود وحده.

وغني عن الذكر أن الأوثان والأنصاب والأصنام، ليست من الأسماء التي علمها الله لآدم لقوله تعالى ﴿ إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان .. ﴾ [النجم: ٢٣]؛ أي ليس بها من قوة فلا هي لها في ذاتها قدرة كما أنها ليس لها على غيرها قدرة.

ومن ثم، فإنها تكون بغير نفع إطلاقًا، ويقتصر ما يكون منها على الوهم وحده.

وهذا يكون مقياسًا لمعرفة «الاسم» الذي علمه الله لآدم دون غيره، لأن الأسماء التي علمها الله تعالى لآدم لا بد وأن تكون قد اشتملت على نفع محقق وإن أمكن وقوع الضرر منها في بعض الأحوال.

ذلك بأن الثابت في القرآن العظيم أن الله سبحانه وتعالى قد ذكر أنه علم آدم كل الأسماء، وأنه علم الرسول ﷺ القرآن. ولكن، ولأن في الأسماء نفع وضرر، فقد أخفى اسمه سبحانه من الآية فقال تعالى ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ﴾ فالطائرة نافعة ولكنها ليست كذلك مطلقًا فقد تقع بمن فيها أو تستخدم في الدمار. وهكذا بقية الأسماء.

أما تعليم القرآن العظيم، فلأنه خير محض وكله بركات ورحمات وإشراقات ربانية

في الدنيا والآخرة؛ فإن الله سبحانه وتعالى أظهر اسمه في الآية وأخفى من تعلم، لأن الله جل وتعالى وتقدست اسماءه هو الخير المحض ومصدر البركات والفيوضات كلها فيقول تعالى: ﴿الرحمن. علم القرآن﴾. أما من تعلم القرآن فهو مبعوث للناس، يتلوه ويبين لهم ومن ثم يكون هو كذلك رحمة مهداة من الله سبحانه للناس وكذلك قال الرسول ﷺ عن نفسه (أنا رحمة مهداة). وحدد العلي الكبير ذلك فقال سبحانه: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾. أسلوب القصر الذي ينفي أي شيء ثم يثبت ما يريد. وهو أن الرسول ﷺ رحمة للعالمين.

المبحث الثاني : العالمين

﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]

﴿ تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ﴾ [الفرقان: ١]

قلنا إن «الأعلام» و «الأسماء» هما معًا العالمين.

فما معنى العالمين؟

هي كما سبق أن بينا: كل شيء خلقه الله سبحانه، فالملائكة في السماوات والأرض والناس والجن والدواب والحيوان والطير والهوام والشجر والحجر والمدر والجبال والأبحر والأنهار والماء والهواء وكل الغازات والسوائل والمعادن والفلزات والسماوات السبع بما فيها ما نعلم ولا نعلم، وما في البحار من أسماك وحيتان ومخلوقات. كل هؤلاء أعلام من العالمين.

قال الامام القرطبي - وهو الصحيح عند الإمام ابن كثير - عن الزجاج أن: العالم هو كل ما خلق الله في الدنيا والآخرة، وهو شامل لكل العالمين كقوله تعالى: ﴿ قال فرعون وما رب العالمين؟. قال رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين ﴾ [الشعراء: ٢٤][(١)] وهو تعريف جامع مانع فالأرض والسماوات وما بينهما وما فيهما وما عليهما، كل أولئك هم العالمين. فتشمل كل ما خلق الله وما صنع الإنسان.

فكيف يكون الرسول البشر رحمة لهؤلاء ونذيراً؟

أي كيف يكون الرسول، رسولاً للناس، ولغير الناس رسولاً بالرحمة والإنذار؟

والإجابة على هذا السؤال تحتاج إلى تقسيمه إلى جزئين:

الجزء الأول:

كيف يكون الرسول ﷺ، رسولاً للناس أجمعين مع اختلاف ألسنتهم عن لسانه،

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ / ٢٤.

واختلاف أمكنتهم وبعدها عن مكانه، حتى ليستحيل - في عصر الرسول - على الناس، أغلب الناس، أن يعلموا كل أمكنة البشر في مناكب الأرض ...

ذلك بأن قليل من الناس الذين رأوا الرسول ﷺ، أما من عداهم سواء في شبه الجزيرة العربية وفي أرجاء هذه الأرض، فلم يروا الرسول، ومن ثم فهو ﷺ بالنسبة لهم غيب من غيب الإيمان.

وكذلك، فإن القليل بل والقليل جداً الذين سمعوا الرسول، أما بقية الناس فقد سمعوا ما قاله الرسول ولكن بالتواتر أو بغيره.

ولهذا، فإن الله جل شانه - وهو أعلم بمن خلق - يقول على لسان الرسول الكريم ﴿ وأوحى إليّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ﴾ [الأنعام: ١٩]؛ أي لأنذركم أنتم أهلي وعشيرتي وقومي وكل من اتصل بي واتصلت به وسمع مني، أما غيرهم فإن تبليغ القرآن إليه بأي وسيلة من الوسائل هو إنذار له من الرحمن به، سواء كان التبليغ بلسان القرآن، العربي المبين، أم بترجمته لمعانيه وشرحًا لهديه توصيلاً للإنذار إلى الناس جميعًا.

وإذا كان بعض المنكرين قد وقع في ضلال وبهتان المستشرقين ليدعي أن الرسول ﷺ إنما بُعث لقومه فقط، كما بُعث الذين سبقوه كل لقومه بلسانهم. ومن ثم لم يبعث للناس كافة[١].

وإذا كان هؤلاء قد دللوا على قولهم بمحاولة غير موفقة، وذلك بتطويع معاني كلمة «الناس» وصرفها إلى غير ما وردت بشانه، سواء في قوله تعالى: ﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، فادعوا أن الناس الذين قالوا غير الناس الذين قيل لهم غير الناس الذين جمعوا. وفي حديث الرسول ﷺ (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ...) الحديث فيقولون إن المقصود بالناس هم العرب في شبه الجزيرة العربية وليس غيرهم وأن «ال» في كلمة «الناس»

---

(١) كتاب «أبو الحسن الأشعري» للدكتور حمودة غرابة/ ١٧ - ٢٠.

للعهد وليست للجنس أي ليست للاستغراق، وبالتالي فليس في دين الله عدوان على العالمين، بل القتال مقصور على أهل شبه الجزيرة العربية فقط باعتبار أن هذا الحكم الإسلامي مثل أى حكم لا بد وأن يخضع له «الناس» الموجودين في «الدولة» وهي شبه الجزيرة العربية(١).

ولما كان هذا مجرد تأول، لمخالفة صريح ألفاظ القرآن وقواعد التفسير والبراهين الثابتة في الكتاب والوقائع الثابتة في السيرة النبوية بشمول دعوة الرسول العالمين؛ والناس كل الناس في جميع أرجاء الأرض هم جزء من العالمين ..

فإنه لذلك وبالتالي يكون الرسول رسولاً مبعوثًا للناس كافة في كل أنحاء الأرض منذ خلق الله آدم وإلى أن تقوم الساعة .. فكل النبيين تؤمن به وتعمل لنصرته وتدعوا لرسالته ..

وبيان مراحل الدعوة الإسلامية تجعل قول المستشرقين وتابعيهم بغير سند، ذلك بأن الرسول إنما أمر في أولى مراحل الدعوة بقول الله تعالى:

﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

ولما تمكن الإسلام من عشيرته الأقربين أمره رب العالمين بالانتقال إلى المرحلة الثانية فقال تعالى للرسول:

﴿ ولتنذر أم القرى ومن حولها ﴾ [الأنعام: ٩٢].

حتى إذا ما تم ذلك، فقد انتقل العلي الحكيم برسوله إلى المرحلة الثالثة فقال تعالى لرسوله أن ينذر أهل الكتاب في المدينة وخيبر وهم ليسوا من قومه ويبعدون عن مكة بأكثر من ٥٠٠ كم. فقال رب العزة:

---

(١) كتاب تاريخ النظم القانونية والاجتماعية للدكتور محمد بدر الأستاذ بحقوق جامعة عين شمس/٥٩٨ - ٦٠٢. وقد خلط بين «القتل» في أول سورة التوبة ٤ و٥ وهو قاصر على أهل شبه الجزيرة العربية وبين «القتال» في سبيل الله - التوبة/١٢٣ -» الذي هو حتى آخر الأرض. وهو قد أخذ ذلك فيما يبدو عن الأستاذ عباس محمود العقاد الوارد بكتابه (حقائق الإسلام وأباطيل خصومه).

﴿ يا أهـل الكتاب قد جـاءكم رسولنا يبين لكـم على فترة من الرسـل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير، فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير﴾ [المائدة: ١٩].

وقوله تعالى:

﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفوا عن كثير، قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ﴾ [المائدة: ١٥].

ثم انتقل العلي العظيم - بعد تبليغ أهل الكتاب الدعوة - بالرسول إلى المرحلة الرابعة. وهي أن يبلغ الناس كافة، فقال العلي الكبير لرسوله الكريم:

﴿ قل يا أيـها الناس إني رسـول الله إليكم جميعًا الذي له ملك السـماوات والأرض ... ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وكلمة « جميعًا » مع كلمة « الناس » في الآية الكريمة قرينة على استغراق كل الناس على وجه الأرض، ومن ثم فإن الادعاء بعدم الاستغراق أي القول بأن « ال » للعهد، إنما لا بد وأن يتطلب عدم وجود هذه القرينة، بل ووجود قرينة أخرى تفيد أن « ال » للعهد، هو الأمر الذي لا وجود له.

لهذا

فإن الله سبحانه يؤكد الاستغراق بتقرير آخر في قوله تعالى:

﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ﴾ [سبأ: ٢٨]. وكما هو واضح فالآية الكريمة التي هي باسلوب القصر تشمل نفيًا وتحديداً؛ نفيًا تقصر الرسالة على أي قوم وتحديداً وبيانًا لمجالها في كافة الناس، مثل قوله تعالى: ﴿ لا إله إلا الله ﴾ فقد نفى سبحانه الإلوهية عن أى أحد وحددها وأثبتها له وحده سبحانه. وهذا هو معنى أسلوب القصر في اللغة العربية.

أما الاستشهاد بقوله تعالى ﴿ الذين قال لهم الناس .... ﴾ الآية فهو قول الله تعالى في جزئية ليست خاصة بمن هم الذين أرسل إليهم الرسول ومن ثم فالاستشهاد بها في غير موضعه.

لهذا كله، فإن الرسول ﷺ، كما هو ثابت في القرآن العظيم ورسالات رسول الله ﷺ إلى النجاشي ملك الحبشة والمقوقس حاكم مصر في إفريقيا، وكسرى في آسيا وقيصر في أوروبا، بل وغزوة تبوك في جهاد في سبيل الله ضد الرومان، وكذلك تفسير السلف الصالح وعلى رأسهم الخلفاء الراشدين ونشر الدعوة في ربوع الأرض حتى الصين شرقًا والمحيط الأطلسي غربًا وجنوب أوروبا وشرقها والصعود إلى آسيا، لتبليغ الدعوة الإسلامية والحكم بشريعة الإسلام؛ كل ذلك ادلة حاسمة وقاطعة لا تترك مجالاً لقول آخر.

لهذا فإن الله سبحانه

أفهم الناس جميعًا، ان الرسول وإن كان بشراً فيهم، فإنه مع ذلك رحمة ونذير للعالمين، وكانت هذه هي المرحلة الخامسة من الدعوة، لتقطع على كل احد أن يقصر دعوة الإسلام على أرض محددة أو في ناس بأعينهم.

فقال سبحانه وتعالى ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] وقال تعالى ﴿ تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ﴾ [الفرقان: ١].

وبهذا نصل إلى:

الجزء الثاني: من السؤال وهو: كيف يكون الرسول رحمة ونذيراً للعالمين: الناس وغير الناس ؟!

ونبدأ الإجابة ببيان وضعه رب العالمين ليتفكروا فيه. بيان مذهل ضربه الله للناس مثلاً .. فقال سبحانه العلي الحكيم:

﴿ لو انزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعًا من خشية الله، وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ﴾ [الحشر: ٢١].

وفي هذا المثل أمران:

الأول: ان الجبل يخشع من كلمات الله، وانه من فرط خشيته اي خوفه الكامل فإن اركانه تقوض وتماسك أحجاره تنفك فيتصدع، فكلمات الله من قوة الله فهي نوره وروح من أمره.

والثاني: أن الله جل جلاله - بعد أن بين لنا هذه الحقيقة - طلب منا أن نفكر فيها بتأمل وعمق وشمول.

عندئذ يجب أن نستوحي إلهام ربنا العظيم من كتابه، لأننا لا نعلم علمًا حقيقيًا إلا من كتابه سبحانه لقوله تعالى: ﴿ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء﴾، فنقرأ في الكتاب العظيم قوله تعالى: ﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة، وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء، وإن منها لما يهبط من خشية الله؛ وما الله بغافل عما تعملون﴾ [البقرة: ٧٤].

فالله سبحانه وتعالى يقرر أن من القلوب ما هو أشد قسوة من الحجارة !! ولو كان الأمر اقتصر على هذا وحده لقال البعض إن هذا من باب التصوير البلاغي المجازي لبيان مدى قسوة قلوب اليهود؛ ولكن عندما نقرأ قوله تعالى ﴿وإن منها لما يهبط من خشية الله﴾ فإننا ندرك مباشرة أن الحجارة تخشى الله سبحانه، والخشية هي أشد الخوف، والخوف يجيء من الحصول على حقائق غير مطمئنة فتعقلها فتؤدي بها إلى الخوف ثم يزداد ومن ثم تحدث الخشية فيكون قرار هذه الأحجار هو الهروب، والهروب في هذه الحال هو الهبوط من فوق الجبل إلى سفحه: فأبان الله العظيم أن لدى الحجر موجدة الخوف مثل ما لدى الإنسان من هذه المواجيد.

وإذًا فالحجر يرى أمورًا أو يحصل على أمور أو يسمع أمورًا لا يرتاح إليها فيخاف ثم يخشى أن يبقى مكانه فيهبط من علٍ.

وقد بين العلي الكبير هذا الأمر الذي يخافه الحجر فيجعله يهبط بأنه خشية الله سبحانه.

وخشية الله العظيم واضحة كل الوضوح في آيات الوعيد والإنذار ووصف جهنم ومن يصلاها خالدًا فيها أبدًا في الفرقان الذي هو القرآن العظيم.

فإذا كان ربنا العظيم قد أوحى إلينا في قرآنه أن الأحجار تهبط من خشية الله، والجبل وهو كتلة أحجار، يتصدع من نزول القرآن عليه لما فيه من وعد ووعيد فيخشى الله فيتصدع.

وإذاً فالحجر يعلم ويشعر ويعقل ويفكر ويقرر ويتصرف بل وينهار.

وقال علماء الأزهر الشريف المحدثين عن الإمامين الرازي والقرطبي، أنهما يحملان الآية على الحقيقة - وليس على المجاز كما فعل البعض - بقولهما: لا مانع من أن يخلق الله في الحجارة إدراكًا وخشية من الله تعالى(١). ودليل هذا الرأي حديث شريف صحيح، قال ﷺ: (إني لأعراف حجراً كان يسلم عليَّ قبل أن أبعث)(٢)، وما صح من أنه ﷺ، ما مر بحجر ولا مدر إلا سلم عليه(٣) كما استشهدوا بقوله تعالى: ﴿إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها واشفقن منها ... ﴾ [الأحزاب](٤).

ونضيف إلى ذلك قول الله تبارك وتعالى:

﴿فما بكت عليهم السماء والأرض ...﴾ [الدخان: ٢٩].

وقول العلي العظيم معناه: إن للأرض والسماء إحساساً وشعوراً وعواطف وفهماً تجعلها تحزن وتبكي .. مواجيد ومشاعر مثل مواجيد ومشاعر الإنسان الرقيق العاطفة والذي يعرف الحزن، فإنه قطعاً يعرف الفرح، لأن العواطف لا تتجزأ فهي من خلق الله العظيم: ﴿وأنه هو أضحك وأبكى﴾ [النجم: ٤٣].

ويبين لنا العلي الكبير رب العالمين شاملاً كل شيء خلقه ﴿تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن؛ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم، إنه كان حليماً غفوراً﴾ [الإسراء: ٤٤] وهذه الآية الكريمة واضحة الدلالة بلفظها بينة محكمة، حيث تقرر بوضوح وجلاء من ذات كلماتها بغير حاجة إلى ما هو خارج عنها، أن السموات السبع والأرض وكل من في السماوات السبع وكل من في الأرض، يسبح بحمد الله، ثم تؤكد هذا المعنى فتشمل كل شيء سواء ما ذكر وما لم يذكر من

(١) التفسير الوسيط/ ١٣٧.

(٢) مختصر صحيح مسلم رقم ١٥٢٨.

(٣) مجمع الزوائد: ٨/ ٢٦٠ الطبراني في الأوسط عن علي.

(٤) تفسير ابن كثير حـ١/ ١١٣.

قبل فتقـرر بكل الشمول أن مـا من شيء إلا يسـبح بحمـد الله، ولكـن بلـغة ومنطـق لا نستطيع نحن البشر أن نفهمه.

فعدم فهمنا لا ينفي تسبيح كل شيء لله. إنما يجب أن تحمل على قوله تعالى فنصدقه ونؤمن به إيمانًا قاطعًا ويقينًا حقيقيًا بأن كل شيء في الوجود يسبح بحمد الله.

والدليل المحسوس موجود أمامنا، فأنت تجلس في أي مكان ولا تسمع إلا ما يصل إلى أذنيك ولا ترى إلا ما تراه عينيك، ولكن إذا أحضرت جهازًا لالتقاط الأصوات (راديو) أو جهازًا لالتقاط الصوت والصورة (تليفزيون) وشغلته، فإنك ستسمع وترى ما لا تراه عينيك ولا تسمعه أذنيك من قبل في نفس المكان والزمان

ووجود هذه الأشياء إذًا معك رغم عدم رؤيتك وسماعك لها من قبل. دليل محسوس على أن الإنسان لا يعرف ولا يدرك إلا بالقدر الذي يمكنه الله سبحانه وتعالى له في هذه الأشياء. وما بعد هذه الأشياء مثل الملائكة والجان موجود ولكننا لا ولن نعرفه.

ولما كان التسبيح بالحمد لله هو أعلى ذكر لله سبحانه، لأن حمد الله هو أعلى مراتب الإيمان، وكما يقول الإمام محمد بن عبد الوهاب: الشكر هو رأس الإيمان، لأنه بني على ثلاثة أركان: اعتراف القلب بنعم الله كلها عليه وعلى غيره والتحدث بها والثناء على الله بها والاستعانة بها على طاعة المنعم وعبادته(١).

ومنه يتبين أن الذي يسبح بحمد الله إنما عن علم بنعم الله وإقرار قلبه بها، والتحدث عنها والثناء على الخالق العظيم والاستعانة به؛ وهذا لا يكون إلا من الذي يعلم ويفهم ويقدر ويشعر ويؤمن بالعلي العظيم حق الإيمان.

وإذا كان ذلك

فإن الله الخالق العظيم يقص علينا كيف أنه قال للسموات والأرض أن يطيعاه فأطاعاه .. وأنهما تكلمتا بقولهما ﴿أتينا طائعين﴾، وعندما يقول ربنا العظيم إن

---

(١) كتاب «التوحيد» / ١٣٨ للإمام محمد بن عبد الوهاب.

السماء والأرض ﴿ قالتا ﴾ فمعنى ذلك على الحقيقة أنهما تكلمتا كلامًا ذكره الله سبحانه هو قولهما ﴿ أتينا طائعين ﴾ [فصلت: ١٠].

وإذا كنا لا نفهم منطق أي كلام الأرض أو كلام السماء، فإن ذلك ليس بغريب علينا. ذلك بأن دليله قائم بيننا، فمن منا يفهم لغة الطيور أو لغة الحيوان أو لغة الحشرات. مع أننا نسمع بعضها يتكلم أمامنا بأصوات .. ولكن أنَّى لنا أن نعلم منطقها.

وها نحن البشر، بعضنا مع البعض، فالذي لا يعلم لغة قوم لا يعلم شيئًا من قولهم وهو يجلس بينهم وكأنه لا يسمع شيئًا. فهل معنى ذلك أنهم لا يتكلمون؟ كلا ولكن لأنه لا يعرف منطقهم ..

وبالمثل؛ فإننا لا نعرف منطق الحجر ولا الشجر ولا الأرض ولا السماء ولا ما خلق الله غير البشر.

ويقص علينا الخالق العظيم بيانًا عظيمًا في ذلك:

فقد علم الله سبحانه سليمان عليه السلام منطق الطير، فكلم الهدهد النبي سليمان: ﴿ أحطت بما لم تحط به ﴾ [النمل: ٢٢] ثم أخبر سليمان بما لا يعلمه عن ملكة سبأ وقومها: فيقول الهدهد: ﴿ وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ﴾ [النمل: ٢٤] فيبين الهدهد أنه يؤمن بالله لا شريك له ويعرف معنى الكفر الذي وقعت فيه ملكة سبأ وقومها وأنهم أصبحوا نهبًا للشيطان؛ فيقول الهدهد: ﴿ وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ﴾ [النمل].

ومعنى ذلك أن الهدهد يسمع الإنسان فيفهم ما يقول أي أن الهدهد يعرف منطق الناس.

أما سليمان عليه السلام، فإنه يسمع الهدهد ويفهم منه لأن الله علمه منطق الطير، فهو وحده دون قومه الذي يعرف منطق الطير، فالكل يسمع الهدهد ولا يعرف منطقه أحد إلا سيلمان، والهدهد يسمع الناس ويعلم ما ينطقون. ويقول سليمان للناس ﴿ وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير ﴾ [النمل: ١٦].

والمنطق لغة: الكلام، وفكراً: هو طريقة عقل الأمور والتفكر فيها للوصول إلى النتائج. واستعمال المنطق هو السبيل إلى معرفة الحق عند المناطقة، أما في الإسلام فإن الحق في كتاب الله العظيم ﴿وقل الحق من ربكم﴾ وقوله تعالى ﴿قل ربي يقذف بالحق علام الغيوب﴾ وسبيل معرفته عقله والتفكر فيه.

ويقص علينا العلي الكبير

أن النملة تتكلم ﴿وقالت النملة﴾ [النمل: ١٨]؛ وذلك بعدما رأت وسمعت وقدرت الأمور واستخلصت النتائج واتخذت على ضوء ذلك قراراً ﴿يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون﴾ [النمل: ١٨] فسمعها سليمان عليه السلام ﴿فتبسم ضاحكاً من قولها﴾ [النمل:١٩]

ثم يخبرنا العلي العظيم بوجه الشبه بيننا ونحن البشر وبين الطير وكل ما يدب على الأرض، فيقول سبحانه وتعالى، ﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء؛ ثم إلى ربهم يحشرون﴾ [الأنعام: ٣٨].

قال السُّدِّي: «أمم أمثالكم» أي خلق أمثالكم(١).

وقال علماء الأزهر الشريف: إن حيوانات الأرض والبحر وطيور الجو إنما هي جماعات وطوائف لها مثل ما لنا من الخصائص في الجملة، لذلك استعمل الله الخالق العظيم عندما تكلم عن حشرهم ضمير جمع العقلاء في كلمتي «ربهم» و «يحشرون» إجراء لها مجرى العقلاء بعد بيان أنها أمثال الناس في نظم حياتها(٢).

فإذا كان كل شيء يسمع ويرى ويعقل ويفهم ويشعر ويفرح ويحزن ويخاف ويتصرف، أدركنا أسرار ومعاني قول الرحمن تبارك وتعالى:

﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً﴾ فكل العالمين رأت وسمعت رسول الله وسمعت القرآن العظيم وفهمت ما فيه وعلمت بإنذاره وأيقنت رحمته فسبحت بحمد الله وما تزال ولكننا لا نفقه تسبيحهم.

---

(١) تفسير ابن كثير حـ٢/ ١٣١.

(٢) التفسير الوسيط/ ١٢٣٤ و ١٢٣٦.

وإلا كثير من الناس لا تؤمن بهذا

﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ [يوسف: ١٠٣].

وإذا كان الله العليم الخبير، نفي علم الإنسان بفقه تسبيح الأشياء بحمد الله، فإنه سبحانه لم ينف علم الأشياء بفقه تسبيح الإنسان بحمد الله.

وبمفهوم المخالفة – وهي إحدى القواعد الأصولية لاستنباط الأحكام – نعلم أن كل شيء إنما يرى الإنسان ويسمعه ويعلم ما يفعله.

ومن ثم؛ فإن هذه الخاصية في "الأشياء" من مناط تسخيرها للإنسان بقدرة الله.

فيخبرنا سبحانه عن الملائكة التي ترى الإنسان ولا يراها وتحفظه دون علمه بها ﴿ له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ﴾ [الرعد: ١١] أي يحفظونه بأمر الله من الجن وغيرهم(١).

كما أن لكل إنسان ملكان ﴿ إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ﴾ [ق: ١٧] يكتبان حسناته وسيئاته.

وإذاً فالملائكة ترى الناس وتسمعهم وتفهم قولهم وفعلهم وتسجل لهم وعليهم كل شيء. والإنسان لا يرى منهم أحداً ولا يسمع لهم صوتاً.

والجن يرون الناس ويسمعونهم ويوسوسون لهم ويغوينهم ﴿ يعدهم ويمنّيهم، وما يعدهم الشيطان إلا غروراً ﴾ [النساء: ١٢٠] و ﴿ إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ﴾ [الأعراف: ٢٧].

فمن هذا الاستقراء القرآني؛ نعلم أن الحجر يفهم ويخشى رب العالمين، والطير ترى وتسمع وتفهم وتؤمن بالعلي الكبير وتتكلم وتكلم الناس ويكلمونها والنملة مثلها، والملائكة والجن.

وكل ذلك مسخر للإنسان، ما عدا الجن ﴿ وهم لكم عدو ﴾ [الكهف: ٥٠]، ومن ثم محجوب عن الإنسان، حتى يظل الإنسان هو السيد لأنه هو الحر وحده في

---

(١) الجلالين/ ٢١٩.

هذا الوجود وتحقيقًا لحمله الأمانة، أمانة حمله الحرية حتى تكون له مكنة الاختيار بالصدق.

فالإنسان لا يرى أو لا يسمع "الأشياء" لأنها في خدمته فعلاً دون حاجة للرؤية أو للقول منه.

أما "الأشياء" فترى وتسمع الإنسان لأنها يجب أن تسمعه وتراه وتفهمه حتى تخدمه بالسمع والطاعة لله فيه. فتظل مسخرة له، في خدمته دائمًا ليلاً ونهاراً في يقظته ونومه، في حركته وسكونه في البر والبحر والجو وآفاق السماوات.

فهي كما أخبرنا العلي الكبير ﴿وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعًا منه، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ [الجاثية: ١٣].

وعندما نعلم أن "المواد"! مركبة من عناصر، وكذلك جسد الإنسان مركب من ستة عشر عنصراً مثل عناصر التراب تمامًا وبنفس نسب تكوينه !! ﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب﴾ [الحج: ٥].

ولما كانت العناصر مكونة من ذرات، والذرة عبارة عن نواة والكترونات تدور حولها، وأنها في الحقيقة عبارة عن طاقة متموجة جعل الله الخالق العظيم لها حيز بأسراره في خلقه، وأنها في هذا الحيز عبارة عن دائرة كهربائية: موجب وسالب، ومن ثم فهي في حركة مستمرة بخلق الله فيها وهداه.

فمن ذلك نعلم أن كل الأشياء عبارة عن محسوسات محيزة في حركة دائبة منتظمة ومستمرة، وأن سمة الحركة فيها مقدرة بسنة الله خالقها العظيم. ولأن القرآن العظيم روح من أمر الله سبحانه فهو يسري في كل شيء يعطيه قوة الحياة ويجعله على الفطرة.

لذلك نجد ان لكل شيء حركة متسقة ومنسجمة تمامًا مع حركة بقية الأشياء التي في الكون كله، الغيب منه والشهادة، لأنها جميعًا خلق الله وفيها روح من أمره وفي هدى الله المحدد لكل منها ﴿قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾ [طه].

وإذا كان كل شيء يتحرك في ملك الله بقدر الله

قال العلي الكبير:

﴿ألم تر أن الله يسجد له من في السماوات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس ...﴾ [الحج: ١٨].

وإذاً

فكل شيء قد سمع رسول الله ﷺ وسمع القرآن وسرى فيه .. والصوت طاقة باقية أبداً، فاهتدت بهديه واتبعت صراط الله المستقيم، وظلت في تسخيرها عاملة، وفهمت ما في القرآن من نذر وعرفت عواقب التخلف عن طاعة الله والرسول، فكان الرسول ﷺ وهو حق كما أخبرنا العلي الرحمن الرحيم ﴿رحمة للعالمين﴾ و ﴿للعالمين نذيراً﴾.

المبحث الثالث: القرآن والعلم

﴿أنزلـــه بعلـــمه﴾ [النساء: ١٦٦]

القرآن العظيم

هو كتاب الله العظيم، أحصى الإمام ابن كثير آياته فعدها ٦٢٣٦ آية كريمة(١).

وأحصى علماء أصول الفقه آيات الأحكام: أحكام العبادات وأحكام المعاملات أي جميع القوانين، وأحكام القتال في سبيل الله، فعدوها جميعًا ٣٦٨ آية كريمة(٢).

وإذًا؛

فيبقى ٥٨٦٨ آية ... منها مئات عن أصول الدين والأخلاق والهداية أي هذه العلوم التي تحكم النفس وتهذبها وتوجهها إلى الخير. أما الباقي فكله علم ﴿لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً﴾ [النساء: ١٦٦].

فالعلم في القرآن جاء في خمسة آلاف آية كريمة ويزيد. وبأسلوب أصح فهو كله علوم.

فهو من عند الله سبحانه، ذلك بأنه الخالق لكل شيء، ﴿ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء﴾ وكان أول ما أنزل، أنزل بعضًا من علم الخلق.

وقد دلنا العلي العظيم على ما أعطانا من العلم من قبل الحياة الدنيا أي قبل نزول القرآن فقال سبحانه: ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾ فهو قد أُعطي للإنسان في صدر أبيه آدم فلا شأن للقرآن به.

ولا نضيف على ماسبق بيانه؛ إلا أن القرآن العظيم نزل وفيه جزئية عن «لحام» الحديد في سورة الكهف ٩٦ قال سبحانه ﴿ءاتوني زبر - أي قطع - الحديد، حتى

(١) تفسير ابن كثير حـ١/٧.

(٢) «علم أصول الفقه» للشيخ عبد الوهاب خلاف/ ٣٠ - ٣١.

إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا؛ حتى إذا جعله ناراً قال ءاتوني أفرغ عليه قطراً - أي النحاس المذاب ﴾ فدل على أن الحديد يلحم وهو محمي عليه بالنار حتى إذا كان في لونها صب عليه النحاس المذاب فيكون صلداً متيناً.

وقد بيَّن العلي العظيم ذلك حتى يستخدم المؤمنون الحديد في نصرة الله في الأرض فقال سبحانه ﴿ وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب، إن الله لقوي عزيز ﴾ [الحديد : ٢٥].

فعلم الأسماء أي الصناعة ألقاه رب العالمين في صدر آدم ومنه لبنيه.

علم السنن الكونية :

بيَّن الخالق العظيم في الكون سنن ظاهرة يجب علينا أن نعلمها ﴿ ويعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا ﴾ [الروم : ٧].

وكشف عن بعض هذه السنن الكونية الظاهرة، علماء كثيرون، فكشف الشيخ الرئيس ابن سينا عن سرعة الصوت، كما كشف الحسن بن الهيثم عن سرعة الضوء، وكشف العلامة المسلم الخوارزمي عن علم الحساب وعلم الجبر ومعادلاته وكافة الجداول الرياضية التي تقوم عليها الصناعة، وقسم الشريف الإدريسي العالم الجغرافي الفذ الكرة الأرضية إلى خطوط طول وعرض تبعاً لزوايا النجم القطبي مع كروية جرمها، وهذه هي أساس الملاحة البحرية والبرية والجوية وعلم الأرصاد الجوية، وكشف ابن سينا في كتابه القانون وكذلك ابن النفيس الدورة الدموية وظل هذا عمدة الطب قروناً أربعة، كما قعد عبد الرحمن بن خلدون علوم الاجتماع وعلم تطور خلق الإنسان، وعلم الفلك علم عربي قديم فهم أول من رصد الأهلة ورصد النجوم، وعرفوا كروية الأرض وعدم صدق استدارتها وغير ذلك من السنن الكونية كعلم الكيمياء والصيدلة وغيرها، فمن يتعلم ويفكر يصل إلى علم من علوم السنن الكونية.

ولما قَعدَ المسلمون عن اتباع منهج الله بقوة؛ وجف لسانهم عن ذكر الله، وتخلف عنهم الفتح العلمي .. فقد صاروا من القاعدين وصاروا من الخوالف ..

ونقلت أوروبا العلوم الإسلامية فقامت فيها ثورات الحرية وبدأت بها النهضة

الصناعية وبالتالي نهضت من ظلمات حياتها التي كانت نائمة فيها في القرون الوسطى، وأخذت عن المسلمين سنن الكون، وأساليب التفكير المنهجي عن عبد الرحمن بن خلدون والإمام أبي حامد الغزالي، وترجمت القرآن العظيم إلى اللاتينية سنة ٥٤٢، ثم إلى اللغات الأخرى سنة ١٧٣٦ شمسية .. وعرفوا الحرية وصارت لهم شخصية قادرة على الفكر، فكشفوا عن المسك للأرض وقاسها نيوتن[1] وكشفوا عن الطاقة في البخار والبترول والكهرباء والذرة .. وفلقوا الذرة وعرفوا أن المادة ما هي إلا أشعة محيزة .. وأن الألوان أطوال موجية للأشعة وانكسارات ضوئية ...

كل هذا، وما قد يكشف عنه؛ هو من السنن الكونية التي جعلها الله سبحانه في ظاهر الحياة على هذه الأرض وما بينها وبين السماء من غلاف جوي وأول ما في السماء الدنيا.

وعلم هذه السنن مفتوح أبواب معرفته لكل إنسان، لأنه علم الظاهر.

وعلم الخلق

هذا العلم أنزله الخالق العظيم في القرآن العظيم، فبين فيه البداية وأصل المادة التي منها الخلق كله كيف خلق الله السماوات والأرض والمدة التي استغرقها الخلق وترتيب الخلق، ولماذا خلقه؟ ثم حركة كل ما خلق، وما ثبته وما جعله يجري. وكيف خلق الإنسان من البداية حتى جماع الذكر والأنثى، وكيف خلق كل شيء، ولماذاخلقه؟

ولأن علم الخلق هو الأعظم بين العلوم

فقد حَرَّض العلي العظيم المؤمنين على طلب هذا العلم بهدي القرآن العظيم حتى يتبين لهم أن الله هو الحق وأنه الأحد الذي أوجد الوجود، لا شريك له وبيده ملكوت ومقاليد كل شيء، ثم إليه يُرجعون.

فقال العلي الكبير:

﴿إن الله فالق الحب والنوى....﴾ [الأنعام: ٩٥].

(١) المسك للأرض هو ما يطلق عليه العلميون كلمة الجاذبية.

والنوى جمع نواة وهي كما تفهم على أنها نواة البلح فهي أيضًا نواة الذرة وفلقها هو شطرها أي التفجير النووي.

﴿إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار - أي دوران الشمس والقمر والليل والنهار كل في فلك يسبحون حول الأرض - لآيات لأولي الألباب. الذين يذكرون الله قيامًا وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ...﴾ [آل عمران: ١٩٠ - ١٩١].

﴿والأرض وضعها - أي جامدة - للأنام﴾ [الرحمن: ١٠].

﴿والشمس تجري﴾ [يس: ٣٨].

﴿لا الشمس ينبغي لها أن تدرك - أي تلحق - القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون﴾ [يس: ٤٠].

﴿فالق الإصباح وجعل الليل سكنًا والشمس والقمر حسبانًا﴾ [الأنعام: ٩٦].

﴿وهو الذي جعل الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون﴾ [الأنبياء: ٣٣].

﴿وجعلنا السماء سقفًا محفوظًا وعم عن آياتها معرضون﴾ [الأنبياء: ٣٢].

﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق﴾ [العنكبوت: ٢٠].

﴿الذي أحسن كل شيء خلقه، وبدأ خلق الإنسان من طين﴾ [السجدة: ٧].

وغير ذلك كثير من الآيات الكريمة التي تبين كيف الخلق ونظام حركة الأجرام في السماء وثبات الأرض عن أي حركة فجعلها قراراً جامدة. وكذلك الحديث الشريف الذي فيه أن الملائكة حملة العرش أرجلهم مرتكزة في الأرض ومن ثم يفيد أن الأرض مركز الكون وجامدة لا تتحرك.

هذا العلم، علم الخلق ونظام المخلوقات، نعرفه بعلوم كثيرة ...

هي علوم الخلق أي ما يسمى الطبيعة - والفيزيقا والفلك والجيولوجيا والتاريخ الطبيعي والجغرافيا والكيمياء والهندسة والرياضة والحساب والجبر، والزراعة والأحياء

والآثار والمنطق العقلي المادي والمنطق الصوري الرياضي، وعلوم الإنسان وعلم الكلام والاجتماع والتاريخ الإيماني والأحكام وغيرها من علوم السنن الكونية.

بهذه العلوم نعرف حقائق الخلق العلمية في القرآن العظيم. كيف الخلق ولماذا الخلق؟

ومن هذا يتبين لنا أموراً مهمة:

أولهـــا: أن القرآن العظيم لا صلة له بالصناعة ... فليس في القرآن كيف تصنع أي اسم من الأسماء، لأن الله العظيم ألقى علم الأسماء في قلب آدم وبنيه.

وثانيها: أن علم السنن الكونية وعلم الخلق هما علما خلق الأرض وما عليها من مخلوقات وما حولها من غلاف جوي وما يسقفها من سماء ثم سماوات ست بعد ذلك، وما يحكم ذلك من سنن. فإنها لا بد وأن تكون في كتاب الله العظيم لأنه الكتاب الخاتم الكامل.

وثالثها: أن آلاف الآيات القرآنية الكريمة تبين علم السنن الكونية وعلم الخلق، وآية ذلك أمران:

الأول: أنها آيات علمية يكشفها من هو علي علم، وقد سار في هذا الطريق العظيم رجال سموا بفكرهم إلى الآفاق أمثال كتاب (سرائر القرآن في تكوين وفناء وإعادة الأكوان) للصدر الأعظم أحمد مختار باشا فيه تسعين آية كريمة مطبقة على العلم، وكتاب (إعجاز القرآن) للمرحوم مصطفى صادق الرافعي الذي قدمه سعد زغلول باشا بمقدمة وصفه فيها بقوله: كأنه تنزيل من التنزيل أو قبس من نور الذكر الحكيم، والكتب التي ألفها المرحوم الأستاذ عبد الرزاق نوفل في سلسلة عن الإعجاز العلمي في القرآن الكريم.

والثاني: أن الله إذ أمرنا بالتفكر في خلق السماوات والأرض وكل ما خلق، فقد هدانا إلى القول الذي نتفكر فيه في قوله تعالى ﴿وقل الحق من ربكم﴾ [الكهف]، فهو القول الذي قاله الخالق العظيم ونفكر فيه ونقوله ولا نقول غيره ولا يقول غيره إلا الضالون.

وأكد العلي العظيم أن قوله هو الحق والحقيقة التي لا شك فيها إلا من جاهل أو ضال، فقال سبحانه وتعالى ﴿الحق من ربك فلا تكونن من الممترين﴾ [البقرة: ١٤٧] وكرر تأكيداً وتقريراً ﴿الحق من ربك فلا تكن من الممترين﴾ [آل عمران: ٦٠] وأن ذلك يكون مع النظر إلى الكون ﴿قل انظروا ماذا في السماوات والأرض ..﴾ [يونس: ١٠١].

فدل ذلك على أن حقائق الخلق العلمية موجودة في القرآن العظيم. بيانًا لما في الكون،وأن الهداية للوصول إليها موجودة في القرآن العظيم وبالإلهام من الله سبحانه. وبالتالي فليس على المؤمن إلا أن يسعى ويجاهد في سبيل الوصول إلى هذه الحقائق العلمية للخلق، بعلم السنن الكونية وباستخدام الأسماء كعامل مساعد ييسر طريق الهدي الإلهي على نور الحقائق القرآنية كاستعمال المناظير الكبيرة بل وسفن الفضاء.

ووضع العلي العظيم قاعدة السعي للكلام ...

فقال سبحانه وتعالى:

﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير﴾ [الحج: ٨] و [لقمان: ٢٠] والعلم هو علم الأسماء وعلم السنن الكونية وعلوم الخلق والهدي هو يقين الإيمان. والكتاب المنير هو القرآن ينير إلى حقائق علم الخلق. فحدد هذه الحقائق باستخدام هذه القاعدة للكلام في سبيل الحق من الله العلي العظيم.

وإذاً

فإننا إذا ضربنا في الأرض بالفأس للكشف عن الحفريات لاستخراج الآثار التي تدلنا على كيف بدأ الخلق، أو للكشف عن بقايا متحجرة للإنسان أو ما خلق الله من دابة لقياس الزمن الذي مضى على بداية الخلق وغير ذلك مما يرومه المتخصصون، أو للكشف عن علم من سبقونا في الخلافة في الأرض تحقيقاً لقوله تعالى ﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم، كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثاراً في الأرض﴾ [غافر: ٨٢].

وإذا ركبنا الصواريخ ومراكب الفضاء انطلاقًا إلى السماء فنجوس خلال الكواكب ﴿ولو فتحنا عليهم بابًا من السماء فظلوا فيه يعرجون ..﴾ [الحجر: ١٤]، اكتشافًا للآفاق، لنعلم كيف خلق الله السماوات ونعلم أنه الحق فنؤمن فنعبد الله بيقين ونتقيه..

وإذا نظرنا من المراصد نرصد حركة أجرام السماء والمجرات لنعلم أن الله سبحانه حقًا وصدقًا يوسع في خلق السماء ما يريد ... فنعلم أنه الخالق، وليس ثمة بداية نقولها صدقًا إلا ما قاله العلي العظيم فنؤمن بقوله سبحانه ونكفر بما يقوله الطاغوت .. فنكون من المؤمنين ونتقيه فتصلح حياتنا وآخرتنا ونكون من المصلحين ونطمع أن نحشر مع الصالحين أو نكون من الموقنين فنطمع أن نحشر مع الصديقين ..

فإذا استخدمنا هذه الآلات، هذه الأسماء، فإنما هو استعمال لمعرفة الحقائق كما تستعمل آلة لقياس مسافة، فالمسافة موجودة فعلاً ولكن كل ما في الأمر هو أنك ستكشف عن بعدها. ذلك بأن الفأس والصاروخ ومركبة الفضاء والمراصد وأجهزة القياس ما هي إلا «أسماء» تساعد على وصول الإنسان للمشاهدة بالعين والسمع بالأذن فتجمع ما تستطيع أن تحصل عليها بحقهما، نتفكر فيها، وتستخلص النتائج فتعرف الحقائق؛ كل ذلك طبقًا للسنن الكونية فهي الأساس التي تعمل به هذه الأسماء وعليه يكون توجيهها وعملها.

فإذا كنا نعرف «الأسماء» ونعلمها

وإذا كنا نكتشف الظواهر أي السنن الكونية أي القوانين التي تحكم الكون.

فما هو علم الخلق؟

إننا نشاهد الأرض ونشاهد النجم القطبي وبهذه المشاهدة استطاع الشريف الأدريسي وضع خطوط الطول للكرة الأرضية، وكذلك شاهد نيوتن التفاحة تسقط من الشجرة على الأرض ففكر لماذا لم تذهب إلى أعلى فوضع قانون قياس قوة الجاذبية. أي كشف قياس هذه الظاهرة .. وهكذا جميع علوم السنن الكونية الظاهرة جلية في تجارب الكيمياء بفروعها والفيزياء وما انطلقت إليه .. فهي جميعًا واقع ثابت موجود ووضع له قياس ونسب بينه وبين غيره وأطلق العلميون على ذلك اسم «العلم». فهو

معرفة كميات وقياس لعلاقات.

ولكنها في الحقيقة ليست علوماً بمعنى العلم، ولكنها واقع يكشف عنه وله قياس وعلاقة نسب. وهي ثابتة لا تتغير ولا تزول فهي سنن الله في التسخير، وإذا قلنا إنها علم جاز ذلك لغة ذلك بأن السنن الكونية هي ذات الواقع فقط. وهي قدرة من قدرة الله كشف الله العظيم لنا عن ظاهرها فقط.

وإذاً فما هو علم الخلق؟

علم الخلق هو الحق من عند الله الذي له واقع يشهد له.

والحق شكلاً هو الأمر الثابت الذي لا يزول ولا يتغير ولا يتعارض وموضوعاً له علة وحكمة .

وإذاً فعلم الخلق هو الحقيقة القرآنية في الوجود الكوني وإن اختلفت صوره. فالأرض هي مكان الخلافة والابتلاء والسماء سقفها وكل ما فيهما يسخر للإنسان الذي يؤدي الاختبار ومن ثم يكون السبب والعلة من خلق الكون هو ابتلاء الإنسان لتحقيق حكمة هي البعث والحساب.

ولنضرب مثلاً، ولله المثل الأعلى

فعن الحقيقة العلمية القرآنية الخطيرة والأساسية لبيان ترتيب خلق السماوات والأرض ..

أخبرنا العلي الكبير في سورة فصلت، أن من يريد السؤال عن ترتيب خلق السماوات والأرض فليعرف ذلك من قوله تعالى:

﴿ قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً، ذلك رب العالمين. وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين.

ثم استوى إلى السماء وهي دخان وقال لها وللأرض إئتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين. فقضاهن سبع سماوات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا

السماء الدنيا بمصابيح وحفظًا، ذلك تقدير العزيز العليم.

فإن أعرضوا، فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عادٍ وثمود ﴾ [٩ - ١٣].

وحرف العطف (ثم) و (الفاء) جعلتا ترتيب الخلق واضح محكم، وذلك في قوله تعالى ﴿ ثم استوى ﴾ و ﴿ فقضاهن ﴾.

كما أن بيان حالة السماء وقت الاستواء بأنها كانت دخانًا، بين أنها أي السماء كانت لم تزل دخانًا بعد تمام خلق الأرض وتقدير أقواتها.

ذلك بأن حرفي الفاء وثم من حروف عطف النسق أي التنظيم. والفاء تعني الترتيب والتعقيب أي باتصال و« ثم » تعني الترتيب والمهلة أي التراخي.

كما أن الله سبحانه وتعالى ذكر في سورة النازعات أنه بعد تمام خلق السماء ورفعها؛ دحا الأرض في قوله تعالى ﴿ والأرض بعد ذلك - أي بعد بناء السماء ورفعها - دحاها ﴾ فدل على أنه دحو للأرض - وليس خلقها وإعدادها - كان بعد تمام خلق السماوات السبع ورفعها وتسويتها أي جعلها دون عيوب.

وعلى هذا الأساس من صحيح قواعد اللغة ودلالة ألفاظها وأصول التفسير جاء تفسير الأئمة الأعلام جميعًا.

وقد بين الرسول ﷺ في حديث صحيح أخرجه الإمام محمد بن جرير الطبري بسنده عن ابن عباس، وحديث صحيح آخر رواه مسلم وكذا النسائي عن ابن جريج بسنده عن أبي هريرة، وعلله الإمام البخاري في التاريخ فقال رواه بعضهم عن أبي هريرة عن كعب الأحبار، وعقب الإمام ابن كثير بقوله: هو الأصح.

وفي الحديثين الشريفين أن الله سبحانه خلق الأرض في يومين: الأحد والاثنين ثم جعل فيها الجبال وبارك فيها وقدر أقواتها في يومين: الثلاثاء والأربعاء وخلق يوم الخميس السماء ويوم الجمعة النجوم والشمس والقمر والملائكة، وفي آخر يوم الجمعة خلق آدم(١).

---

(١) تفسير ابن كثير حـ٤/ ٩٣ - ٩٤.

وهذا الحديث يوافق سفر التكوين أول التوراة؛ ولكنه لا يتفق مع حقائق القرآن إلا في مجرد ترتيب خلق الأرض والسماوات وحدهما دون خلق آدم.

وروى الإمام ابن كثير بيانًا لتفسير ابن عباس لآيات سورتي فصلت والنازعات قال: خلق الله الأرض أولاً لأنها كالأساس، والأصل أن يبدأ بالأساس ثم بعده السقف كما قال عز وجل ﴿وهو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعًا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات﴾ [البقرة: ٢٩] - فأما قوله تعالى ﴿أأنتم أشد خلقًا أم السماء بناها. رفع سمكها فسواها. وأغطش ليلها وأخرج ضحاها. والأرض بعد ذلك دحاها. أخرج منها ماءها ومرعاها. والجبال أرساها. متاعًا لكم ولأنعامكم﴾ [النازعات: ٢٧ - ٣٣] ففي هذه الآيات أن دحو الأرض - وليس خلق الأرض وإعدادها - كان بعد خلق السماء. فالدحو مفسر بقوله تعالى: ﴿أخرج منها ماءها ومرعاها﴾ وكان هذا بعد خلق السماء؛ فأما خلق الأرض فقبل خلق السماء بالنص(١).

وعلى هذا كل الصحابة والتابعين والشراح والمفسرين وعلى مدى أكثر من ألف عام.

إلا أن عوامل تغريب المجتمع الإسلامي وغزوه فكريًا التي جاءت نتيجة علمنة الحكم - أي الحكم بقوانين الكنيسة والبشر - وعلمنة التعليم والإعلام وتفتيت الأمة الإسلامية وإضعافها ثم تعرية المرأة وعلمنة العادات والسلوكيات.

ومع جمود علماء المسلمين عن إبراز المعاني القرآنية في ضوء ما كشف عنه من علوم السنن الكونية كالطبيعة ومجالات الذرة والإشعاعات والكيمياء بضروبها والطب وفروعه والنبات والحيوان والجغرافيا والجيولوجيا وبعض العلوم الرياضية، فقد أدت جميعًا معًا، مع ما صُنع من آلات وأجهزة معقدة ورائعة بهرت الناس، إلى اعتناق المسلمون مفاهيم تتعارض مع الحقائق العلمية في القرآن العظيم، فتبدلت القيم وانهارت وضاع ناصع الإيمان وصار الكثير من المؤمنين في شتات بين باطل المشركين وحقائق القرآن؛ بل هجروا القرآن ونظروا إليه على أنه كتاب عبادة، حتى أصبحوا به جاهلين ..

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٤ / ٩٢.

وإذ سار المشركون الملاحدة شوطًا كبيرًا في صناعة الأسماء، وجاسوا بها في الغلاف الجوي ثم نفذوا إلى السماء ونزلوا على القمر، ثم زادوا سبحًا في السماء، فانبهر الناس إعجابًا وعجبًا، وزاد كلاهما عند الكثيرين حتى صار قهرًا، ثم ران التقهقر على قلوبهم، فاضطربت المفاهيم لديهم، وأرهفوا السمع للمشركين فسمعوا لهم، وأخذوا من أفواههم كل ما ادعوه عن الخلق: كيفه وترتيبه. وأنساهم زيف الشيطان قول الرحمن: ﴿الحق من ربك فلا تكونن من الممترين﴾ [البقرة: ١٤٧].

فإذا بنا نرى – مع عظيم الأسف والأسى – نخبة ممتازة من علماء الأزهر الشريف تقول في التفسير الوسيط بالنص: [وظاهر قوله تعالى ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعًا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات﴾ أن خلقه – سبحانه – للسماوات خالية من العيب، متأخر عن خلقه ما في الأرض جميعًا لنا، لأنه عطف عليه بلفظ (ثم) وهي للترتيب والتراخي.

ولكن هذا الظاهر مخالف لنص آخر يقتضي تقدم خلق السماوات على دحو الأرض فقد قال تعالى في سورة النازعات: ﴿أأنتم أشد خلقًا أم السماء بناها. رفع سمكها فسواها. وأغطش ليلها وأخرج ضحاها والأرض بعد ذلك دحاها. أخرج منها ماءها ومرعاها. والجبال أرساها. متاعًا لكم ولأنعامكم﴾.

فهذا النص يدل على أن الله بنى السماء وأنشأها مرفوعة مسواة، وجعل ليلها مظلمًا، وأخرج منها شمسها المضيئة، وبعد ذلك دحا الأرض، ورتب فيها منافعها، فأخرج منها ماءها ومرعاها، وأرساها بالجبال حتى لا تميد بنا، وجعل ذلك متاعًا لنا ولأنعامنا.

وهذا الذي قررته سورة النازعات هو الذي يقول به أصحاب النظريات العلمية الحديثة..

وبما أن القرآن الكريم عودنا على أنه لا تضارب بين نصوصه، فلذا يجب تأويل آية البقرة (٢٩) التي يفيد ظاهرها تأخر خلق السماوات عن خلق ما في الأرض، ليتفق مع الواقع الذي يفيده نص سورة النازعات، وهو تأخر دحو الأرض وخلق ما عليها، عن

خلق السماوات، وذلك بجعل (ثم) في قوله تعالى ﴿ ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات ﴾ للعطف والترقي في الرتبة، لا للتراخي الزمني؛ وكثيراً ما يستعمل لفظ (ثم) لذلك؛ نقول: الناس طبقات، العامة ثم الخاصة، ونقول: الوزراء ثم رئيسهم ثم السلطان مترقيًا في ذلك من أدنى إلى أعلى.

ولا شك أن القصد والاتجاه بالإرادة إلى خلق السماوات وتسويتها، أعلى مرتبة من ترتيب منافع الأرض، فكأنه قال: ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعًا﴾ وكان قبل ذلك ما هو أعظم منه وهو أنه قصد إلى السماوات السبع فسواهن، أي خلقهم سويات خاليات من العيوب]. انتهى التفسير الوسيط صفحة ٦٨ و ٦٩.

ونعقب على ذلك:

أولاً: نسرد بيان موجز لقواعد النحو لنبين مدى عمق الهوة التي وقع فيها التفسير الوسيط، وإلى أي مدى ذهب التغريب وعلمنة المجتمع بعلماء المسلمين ..

جاء بشرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك – الجزء الثالث صفحة ٢٢٧: الواو لمطلق الجمع، والفاء للترتيب باتصال وثم للترتيب بانفصال، أي تدل الفاء على تأخر المعطوف عن المعطوف عليه متصلاً به وثم على تأخره عنه منفصلاً، أي متراخيًا عنه؛ وقوله تعالى: ﴿والله خلقكم من تراب ثم من نطفة﴾.

وجاء في شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب صفحة ٤٤٥ و٤٤٦. ثم قلت: الخامس: عطف النسق، وهو بالواو لمطلق الجمع، وبالفاء للجمع والترتيب والتعقيب، وبثم للجمع والترتيب والمهملة. وأقول: معنى كون الواو لمطلق الجمع أنها لا تقتضي ترتيباً ولا عكسه ولا معية، بل هي صالحة بوضعها لذلك كله. ومثال إفادة الفاء للترتيب والتعقيب وثم للترتيب والمهملة قوله تعالى: ﴿أماته فاقبره. ثم إذا شاء أنشره﴾ فعطف الإقبار على الإماتة بالفاء، والإنشار على الإقبار بثم، لأن الإقبار يعقب الإماتة، والإنشار يتراخى عن ذلك.

وجاء في كتاب: النحو والصرف، للدكتور رمضان عبد التواب صفحة ٩٨ و٩٩

أستاذ اللغة العربية وعميد آداب عين شمس بالقاهرة: حروف عطف النسق .. (ثم): للترتيب والتراخي كقوله تعالى: ﴿إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ..﴾ وقد اجتمعت الفاء وثم بمعنيهما في قوله تعالى ﴿أماته فاقبره. ثم إذا شاء أنشره﴾ [عبس: ٢١ - ٢٢]. وقال: وعطف النسق هو تابع يتوسط بينه وبين متبوعه أحد حروف العطف.

ونضيف إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وانظر إلى العظام كيف ننشزها - أي نركبها - ثم نكسوها لحماً﴾ [البقرة: ٢٥٩] فجاء تركيب العظام أولاً وبعد ذلك يكسوها اللحم.

وتطبيقًا لصحيح هذه القواعد، فإن خلق الأرض وجبالها وتقدير أقواتها أي خلق الأرض وإعداداها قد تم فعلاً أولاً، وبعد ذلك أي ثانيًا قصد الله إلى خلق السماء وكانت دخانًا فسواهن سبع سماوات وخلق ما فيهن من نجوم، لأن القاعدة النحوية الصحيحة تقول إن ما جاء قبل ثم أي المعطوف قد تم أولاً وما جاء بعد ثم أي المعطوف عليه قد تم متأخراً بعده.

كما أن صحيح قواعد النحو تقول إن الفاء في ﴿فقضاهن﴾ تفيد الترتيب والتعقيب، فجاء خلق السماوات سبعًا وما فيها من نجوم ترتيبًا سماء بعد سماء تعقيبًا أي باتصال دون مهملة بين سماء وسماء وخلق النجوم بلا ترتيب ولا معية.

وثانيًا: فإنه لأمر غريب حقًا أن يعرض علماء الأزهر الشريف عن قواعد اللغة العربية التي أخرجها علماء النحو وأجمعوا عليها منذ قرون وقرون. نحواً وصرفًا وبلاغة مستخرجة من ذلك الكتاب الذي حفظه رب العالمين من أي تحريف.

ذلك بأن قولهم: الناس طبقات، العامة ثم الخاصة.

هذا القول يتنافى مع قواعد النحو، ذلك بأن لفظ (ثم) حرف عطف نسق للجمع والترتيب والتراخي، ومن ثم فهو ينظم واقعتين: واحدة وقعت أولاً والثانية وقعت بعدها. فلا يجيء حرف العطف (ثم) بين اسمين وإنما يجيء لبيان حدثين تراخى أحدهما أي الثاني بعد الحدث الأول.

وكذلك فإنه لا يوجد في القرآن العظيم ما يماثل ما ذهب إليه علماء الأزهر. فهو بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار.

وتصويباً لمقولة الأزهر أن يقال: الناس طبقات العامة فالخاصة إذا أردنا ترتيباً وتعقيباً من أدنى إلى أعلى أو الناس طبقات العامة والخاصة، إذا أردنا مطلق الجمع. وكذلك مقولتهم الثانية: الوزراء .. إلخ

وإذا كان ذلك في التفسير الوسيط الذي يدبجه علماء أفاضل من علماء الأزهر الشريف فإن أحد أساتذة كلية العلوم بجامعة الأزهر (وهو الدكتور زين الشعراوي) قد انبرى يقول في برنامج (حديث الروح) بالتليفزيون أن قوله تعالى ﴿والنجم إذا هوى﴾ تعني أن الشمس هوت أي سقطت من السديم الكبير الذي كانت به، وأن الأرض بالتالي سقطت من الشمس.

وقواعد اللغة العربية تقول: إن جاءت «إذا» مع الفعل الماضي دل المعنى على المستقبل كقوله تعالى ﴿إذا وقعت الواقعة﴾ و ﴿فإذا جاءت الطامة﴾ و ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ أي يجيء في المستقبل.

وإذاً فالمعنى الصحيح لقوله تعالى ﴿والنجم إذا هوى﴾ هو قسم بالنجم عندما يهوي، أي يسقط في قابل الأيام. ومن ثم فالنجم في هذه الآية لم يهو بعد كما ذكر "الأستاذ الدكتور".

ومن ثم

كان تفسيره للآية قد أسس على جهل كامل بقواعد اللغة فضلاً عن جهله بترتيب الخلق الواضح الجلي في آية البقرة ٢٩ وآيات سورة فصلت من ٩ — ١٣.

وإذا كان ذلك

فإن الصورة الواضحة تقول إن القهر الذي اعتور نفوسنا؛ قد أخمد فيها كل أنوار الحق فضلاً عن حوافز محاولة التطلع إليه.

ولما كان ذلك

عند علماء الأزهر وعلماء جامعة الأزهر زعماء الدين !!

فما هو مصير الشبيبة؟

وما هو مصير المجتمع؟

ونحن نقوم ونقعد في دنس التخلف والخمول وأجهزة الإعلام العلمانية المقهورة.

والقاعدة التي يعلمها كل من تعلم علوم القرآن: اننا لا نعلم إلا ما علمنا الله سبحانه في كتابه العظيم وسنة رسوله الكريم وغيرها باطل. عفا الله عنهم إنه غفور رحيم.

وثالثًا: أن القاعدة فيمن يعرض للكلام في علم ما، ان يكون عالمًا - كحد أدنى - بأصوله الكلية، والعلمانيون أي الكفرة يقولون عن خلق الأرض والدحو شيئًا آخر غير ما قاله التفسير الوسيط، فالعلمانيون يقولون كما سيجيء بعد باختصار أن البداية كانت بروتونًا انفجر انفجارًا عظيمًا فسديمًا هائلاً يدور في فلك رهيب بسرعة رهيبة فتناثر منه بعضه كانت نجومًا دارت حول نفسها من سرعة دوران السديم التي انبثقت منه وكذلك تناثر من النجوم بعضها دارت كدورانها حول نفسها، وبعضهم يقول الأرض جزء من الشمس وبعضهم قال هي من نجم فوق البراق، وأنه بسبب دوران الأرض بسرعة حول نفسها انبعجت من وسطها وتفلطحت عند قطبيها وهو معنى دحو الأرض عند العلمانيين !!

ومعنى هذا - عند العلمانيين وتابعيهم بلا فهم ولا علم - أن الأرض خلقت من نجم أي بعد خلق السماء وبعد خلق النجوم !! ومعنى هذا أن دحو الأرض هو انبعاج وسطها وتفلطح قطبيها وليس إخراج ماءها ومرعاها !! كما يقول التفسير الوسيط.

ومعنى هذا أن الأرض والنجوم معًا في مجرة واحدة أو ما يسمى بالمجموعة النجمية أي ليست السماء سقفًا للأرض !!؟

وإذًا فلم يتكلم علماء المشركين عن خلق «ما في» الأرض، وإنما تكلموا عن خلق الأرض ذاتها؛ كيف خلقت وترتيب خلقها سلالة من سلالة، والتفسير الوسيط لم يبين لنا ترتيب «خلق الأرض» واختفى وراء «ما في» الأرض، أو لعله ضاع بينهما !!

ثم إن ما جاء في سورة النازعات قد تكلم عن واقعتين أي حدثين:

الأولى: بناء السماء ورفع سمكها وتسويتها.

والثانية: دحو الأرض فاخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها. وآيات سورة النازعات تقطع بصريح النص أن بناء السماء تم أولاً، وبعد ذلك جاء دحو الأرض.

وجميع التفاسير القرآنية من بعد صريح نص القرآن العظيم تقطع كذلك بأن دحو الأرض قد تم بعد خلق السماوات السبع.

وإذاً فلا خلاف على هذا.

وإنما الخلاف هو في معنى «دحو الأرض» الذي يريد التفسير الوسيط أن يجعله هو وخلق الأرض سواء حتى يطابق النظريات العلمية الحديثة.

ولكن فات التفسير الوسيط أن القرآن العظيم فصل كل شيء تفصيلاً،

فدحو الأرض ليس هو خلق الأرض بنص آيات النازعات.

ودحو الأرض ليس هو خلق ما أعده الله فيها وبركة فيها

وإنما الدحو هو إخراج ما أعده الله سبحانه فيها إلى حيز الوجود الظاهر بصريح نص النازعات: قال العلي الكبير:

﴿والأرض بعد ذلك دحاها. أخرج منها ماءها ومرعاها. والجبال أرساها﴾.

أي أن الدحو كان لإخراج الماء من الأرض ومن ثم إنبات المرعى. ولإرساء الجبال فوق الأرض فلا تميد ولا تضطرب بالناس لأن قلب الأرض وهو معظم حجمها عبارة عن معادن سائلة منصهرة في فوران دائم منذ خلقها الله وحتى الآن.

وهذا، يختلف تماماً مع مقولات النظريات العلمية الحديثة بل ويتناقض معها. فاين ذلك من دحو الأرض التي لها معنى مختلف تماماً في القرآن العظيم عن مقولات المشركين!!

هذا قول الخالق العظيم وهو الحق

﴿فإن أعرضوا، فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود﴾ [فصلت: ١٣].

هذه الحقيقة العلمية القرآنية، حقيقة ترتيب الخلق، حقيقة علمية عميقة ومن ثم لا يمكن إدراكها إلا من القرآن العظيم. فالحقيقة هي العلم، والسنن الكونية أى علوم الظواهر الطبيعية هي الواقع الذي يشهد لها(١).

ويبين الخالق العظيم حقيقة أخرى خطيرة وأساسية وجوهرية من حقائق خلق السماوات والأرض وما بينهما. فقرر سبحانه أن الأرض ليست "داخل" السماء، وإنما السماء «سقف» يتكور فوق الأرض من حولها. يحفظها ويحفظ من عليها. وأن بين الأرض وسقفها أي السماء يوجد مكان هو الذي عبر عنه الخالق العظيم بقوله تعالى ﴿وما بينهما﴾ فيه رياح وسحب أي الغلاف الجوي. وهو "جو السماء" كنص الآية الكريمة ﴿الم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن إلا الله﴾ [النحل: ٧٩].

ومن هذا نجد أن القرآن العظيم

يقرر حقيقتين علميتين في منتهى الخطورة هما:

أولاً: أن الله سبحانه خلق الأرض أول شيء وبعد أن انتهى من خلقها خلق الجبال الرواسي وبارك فيها وقدر فيها أقواتها، وبعد تمام ذلك كله؛ قصد إلى السماء وهي ما زالت دخانًا فخلق السماوات السبع وزين السماء الدنيا بنجوم.

ثانياً: أن الأرض ليست داخل السماء، وإنما بينها وبين السماء يوجد مكان فيه الغلاف الجوي أي فاصل بين الأرض والسماء.

أي أن الأرض ليست جرمًا من أجرام المجموعة النجمية (سكة التبانة)، وإنما هي مركز السماوات السبع.

وهاتان الحقيقتان العلميتان في القرآن العظيم

تنسفان كل علوم الفيزياء الموجودة حتى الآن نسفًا؛ فلا تبقى منها شيئًا ولا تذر إلا طرحته عصفًا مأكولاً.

---

(١) «الله والكون» الباب الرابع - خلق السماوات والأرض. للمؤلف و «رحلة في أعماق الكون» للمؤلف أيضًا.

ودليل ذلك كله دليل مادي مشهود ومع ذلك لم يره العلمانيون لقوله تعالى عنهم ﴿ لهم قلوب لا يفقهون بها .. ﴾ [الأعراف: ١٧٩](١).

فإذا انبهر الناس وبعض علماء الدعوة الإسلامية والتفسير القرآني المحدثين بتكنولوچيا الصناعة الحديثة، وأذهلهم صعود الإنسان إلى القمر وجرى مراكب الفضاء بين الكواكب !!، ومن ثم سمعوا وأرهفوا السمع لأصحاب هذه «الأسماء» ولما يقولونه عن علم خلق السماوات والأرض ونظام وحركة الأجرام في السماء والأرض؛ فقالوا عدوا بغير علم هذا هو العلم الحديث وحقائقه المستقرة؛ وخشوا الناس ونسوا ربهم رب العالمين؛ فإن مقولتهم أساسها الانبهار الكاذب والذهول الذي أعمى القلوب. وإذا أضفنا إليه خلطهم بين الأفكار العلمية ومضامينها وأضفنا إلى ذلك خروجهم عن الحق، عرفنا أنه قول لا يساوي مداداً يكتبه.

ذلك بأن مراكب الفضاء إن رأت شيئاً، فإنما يرى من فيها ما وصلوا إليه من خلق الله، ولكنهم لا يرون الله ولا يرون قدرته ولا كيف خلق ولا كيف يسخر ما خلق.

ومن ثم فلم يروا إلا أشياء لها أشكال وصور، فالانبهار ليس له بالتالي محلاً، لأن الصورة والمضمون إنما مواضيع دروس وفحص وتمحيص وتجارب تستغرق سنوات وتتطلب العودة مرة ومرات - وهو ما يحدث فعلاً - وقد تتطلب عمليات واختبارات متعددة ومتفاوتة .. حتى يصلوا أو لا يصلوا إلى شيء !!

﴿ يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران ﴾ [الرحمن: ٣٥] فأين العلم الحديث وأين الحقائق المستقرة .. وأين موضوعها ..؟!

إذاً هو قول من الشطط والتجاوز!

فالعلم هو الحق من عند الله وله واقع يشهد له.

فأين الحق في الثابت الكوني الذي صعدوا إليه وصرفوا في سبيله المليارات ؟!!

---

(١) «رحلة في أعماق الكون» للمؤلف يثبت فيه أن «الأرض» أكبر كتلة من كل السماوات وما فيها من أجرام مليارات المرات.

بل إن الأمر يستدعي حتماً أن نسأل هؤلاء العلمانيين: هل اكتشفتم سنن هذه الأجرام التي نزلتم فوقها أو حمتم حولها؟ أي هل عرفتم أمورها الظاهرة التي تحكمها في نفسها وتحكمها مع غيرها؟!

وسنجد الإجابة حتماً هباء وخواء !!

وأول وأعظم دليل على ذلك أنهم حتى هذه اللحظة لم يعرفوا حقيقة القمر ولا كيف تولد الأهلة رغم سيرهم على ترابه وبين فوهاته ..

ومن هنا نجد أن اختلاط الفهم لعدم التيقن من معرفة أقسام العلم ومضمون كل منها، قد جعل من الانبهار بتكنولوجيا الأسماء المتقدمة مربداً فسيحاً عربدت فيه وساوس النفس وطاغوت البهتان، فانست بعض علماء الدعوة والتفسير المحدثين أن للقرآن العظيم جلاله، وأن العلم منه مشروط بقواعد اجتمع عليها العلماء أصحاب الفضل.

إن العلم الحديث الذي يدعونه، يبدأ بالخيال فينتهي بالضلال، وهو ما زال مؤسساً – في المثل الذي ضربناه – على أن خلق السماوات والأرض بدأ بالانفجار العظيم ثم بسديم هائل الحجم يدور بسرعة رهيبة – ذلك خيال البداية – فتناثرت منه أجزاء فدارت كما يدور وتكورت وصارت نجوماً تدور، وأن هذه أيضاً تناثر من إحداها بعض أجزائها فكانت الأرض وأخواتها فدارت كما تدور أمها بفعل القوة الطاردة المركزية وتصلبت قشرتها أي سطحها، وأن هذا بداية الخلق وكيف الخلق أي العلم الحديث والحقائق المستقرة !! ..[1] ثم من بعد ذلك يتبين أن الفرقعة الكبرى لا دليل عليها بعد أن كان لهم يقيناً سنة ١٩٦٤ حتى أن المدللين عليه بالأشعة الموجية الدقيقة قد منحوا جائزة نوبل ١٩٧٨[2] وهذا هو ضلال النهاية.

ولا نشك لحظة واحدة أن أي إنسان عاقل رشيد، لتفرض عليه السخرية نفسها

---

(١) « الله والكون » للمؤلف يبين في الباب الخامس منه لماذا تظهر الأرض في السينما والتليفزيون تدور حول نفسها مع أنها جامدة ثابتة لا تدور اطلاقاً.

(٢) رسالة اليونسكو سبتمبر ١٩٨٤.

رضاً مضحكاً وعنيفاً معاً على هذا الهذر السخيف في مقولات لا سند لها إلا الخيال؛ أي أقصى دركات الظن ابتداءاً، والظن أكذب الحديث، وإلا الضلال والفساد انتهاءاً؛

حتى لقد احترم العلامة إينشتين نفسه، فأبى أن ينساق وراء هذه الظنون فلم يقل الكلام رهواً عن حركة الأرض؛ وحاول أن يثبت دورانها حول نفسها - كما يقول العلميون الخياليون - بالمعادلات الرياضية، وهو أستاذها الفذ والقمة فوق جميع العلميين بلا منازع، فلم يثبت لها بالمعادلات الرياضية دوران حول نفسها، فرأى أنه لا يمكن التثبت والتحقق من دوران الأرض المزعوم حول نفسها إلا بالوقوف على رصيف ثابت بعيداً عنها في الفضاء ثم النظر إلى الأرض ليرى بعينيه: هل الأرض تدور حقاً ؟!(١).

أي أن زعيم علماء الفيزياء، طلب أمرين:

الأول: الوقوف في مكان ثابت في الفضاء بعيد عن كوكب الأرض.

الثاني: أن ينظر ببصره، وهو في ذلك المكان الثابت، إلى الأرض.

الأمرين معاً: حتى يرى هل الأرض تدور حول نفسها حقاً !!

فإذا جاء أحد من الدعاة أو غيرهم، وقال إن العلم الحديث وحقائقه المستقرة تثبت أن الأرض تدور حول نفسها وحول الشمس، وسب وشتم فكر الذين يقولون أن الأرض جامدة تفسيراً لكلمات الله التامات من واقع تفاسير أئمة التفسير علماء المسلمين وأساتذتهم والمشاهد العلمية المادية وأوردوا الأحاديث النبوية الشريفة التي تتحدث عن دوران الشمس حول الأرض من صحيح البخاري.. فضلاً عن الأدلة العلمية الكثيرة.. فإننا لا نقول له ولغيره إلا أن يفعل أمراً من أمرين:

الأول: إما إنك عالم في الفيزياء وغيرها من السنن الكونية ولديك براهينك العلمية اليقينية التي تقطع بدوران الأرض حول نفسها؛ ومن ثم فإن التزامات وفضل العلماء أن يبصروا الناس بعلمهم، ارتقاء بالإنسانية، وإذاً فعليك البيان والحجة القاطعة.

---

(١) "اينشتين والنسبية" للدكتور مصطفى محمود/ ٣٥ - ٤٢ بتصرف.

الثاني: وإما أن ما قرأت من آيات قرآنية تربو على الأربعين يفسرها البعض وأنا منهم بأن الأرض جامدة وكذلك علماء التفسير الجهابذة ..

فتثبت فساد هذا التفسير الذي اتفق عليه العلماء منذ الطبري وحتى ابن كثير بحق التفسير، وتبرز كيف أخطأ هؤلاء في قواعد التفسير حتى يتحرز الناس ولا يقعوا في فساد هذه التفاسير، كما تثبت للناس جميعًا أن الأحاديث الشريفة التي رواها البخاري غير صحيحة بقواعد علم الحديث، حتى تكون بريئًا أمام الله ورسوله والناس أجمعين. وتبين للناس بحق البيان وقوة الحجة وبلاغتها الحقائق المستقرة للعلم الحديث !! وأين هو هذا العلم الحديث ؟!!

وزيادة في طلب العلم من السادة المهرولين بتطويع معاني القرآن وهجر السنة النبوية الشريفة، نسألهم بحقنا عليهم وحق الناس كذلك أن يقولوا لنا قولهم في هذا السؤال: هل علمتم أو علم أصحاب العلم الحديث لماذا كوكب المشتري ما زال سائلاً جوفه وسطحه حتى الآن مع أنه من أخوات الأرض وعطارد والزهرة والمريخ في قولهم؟!

ولأن حضراتهم وطاغوتهم لم يعلموا ولن يعلموا

فاتساءل:

لماذا نكون ذيولاً لغيرنا ؟!

لماذا نكون أصحاب مقولات عبيطة وغبية ؟!

ولماذا القول بجهل فنصبح كاذبين وقد أمرنا العلي الكبير ﴿ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾ ؟!

لماذا لا نكون الرواد وعندنا كتاب العلم الحق والتقدم الحضاري الصحيح ؟!

أما السب والشتم، فليسا علمًا ولا خُلُقًا ﴿ ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب ﴾ [الأنفال: ١٣].

وقال العلي الكبير للكفرة :

﴿ قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا، إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون - أي تكذبون. قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين ﴾ [الأنعام: ١٤٨ - ١٤٩].

إن الله العظيم أول ما نَزَّل هو قوله العظيم

﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾

ولم يقل اقرأ بسم الله الرحمن الرحيم

فدل على أن كتابه العظيم كتاب علم الخلق، وأن معرفة هذا العلم تتطلب القراءة وأول القراءة قراءة كتاب علم الخلق كتاب الله العظيم القرآن المجيد، لأن القراءة باسم الذي خلق وليس قراءة باسم واحد أو آحاد الناس.

وأكد الخالق العظيم ذلك بأنه أعقب هذه الآية بقول سبحانه

﴿ خلق الإنسان من علق ﴾

فبين الحقيقة العلمية القرآنية لخلق الإنسان

وهي أهم حقائق الخلق من بعد خلق السماوات والأرض، لأن الله سبحانه سخر كل شيء للإنسان.

فإذا كان الله سبحانه وتعالى قد أنزل كتابه العظيم وفيه حوالي خمسة آلاف آية لبيان علوم الخلق وظواهره وسننه.

أفنترك كتابه كله ونمسك في آيات العبادات لا نعدوها، وما أنزلها الله إلا لطهر الإنسان وتذكيره بالله سبحانه في كتابه قراءة وتعلماً وتفكراً ويقيناً بأنه سبحانه الذي أوجد كل شيء وأنه الأحد لا شريك له. قال سبحانه وتعالى ﴿ فاعبدني وأقم الصلاة لذكري ﴾ [طه] هذه هي العبادات: الصلة بالله وذكر منهجه وعلمه. أما القرآن وعلم الخلق فيه الذي هو ٨٠٪ منه تقريباً فإن الله سبحانه أمرنا كما بينا آنفاً بالتعلم والتفكر حتى يرسخ يقين الحق الإلهي في قلوبنا.

[علم لا ينفع وجهل لا يضر

سأل عجل أباه الطور: لماذا يا أبي الطور جعل الله الجبل على مسافة ضيقة من النهر. فلو كان بعيداً لكانت متسعة ولزاد العشب والبرسيم وأكلنا كثيراً ..

أجاب الوالد الطور: يا بني العجل إننا نأكل طوال السنة ونشبع ويفيض البرسيم عن حاجتنا فيجف وتعصف به الريح، إننا لسنا في حاجة إلى مزيد من الأكل يا بني العجل ..

وسأل التلميذ أستاذه، قال: ألم يكن من الأفضل ان يكون الجبل على بعد أكبر من النهر حتى يتسع الوادي فيزداد الزرع والثمر؟! لماذا هو هكذا يكاد ينكفيء على النهر ؟!

أجاب الأستاذ:

ألم تسمع يا بني التلميذ قول الخالق العظيم: ﴿ وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ﴾ [فصلت: ١٠] وقوله سبحانه وتعالى ﴿ والقى في الأرض رواسي ان تميد بكم - أي تضطرب - وانهاراً ﴾ [النحل: ١٥].

يا بني التلميذ

إن الله خلق كل شيء وقدره تقديراً، وله نفع عظيم وبركة للناس، والحكمة بالغة؛ ورأس الحكمة مخافة الله.

يا بني التلميذ

إنك لن تعرف الحكمة إلا إذا عرفت "الخلق" فلا تأس على القوم الجاهلين](١).

---

(١) من كتابنا «رحلة في أعماق الكون».

المبحث الرابع
صفة القرآن العظيم

لكل شيء صفة وصفات

والقرآن العظيم هو أعظم شيء في هذا الكون وما لا نعلم.

والذي وصف القرآن هو سبحانه وتعالى الذي جمعه وقرأه ..

القرآن نور الله وروح من أمره

يقول العلي الكبير ﴿ يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ﴾ [التوبة: ٣٢].

فوصف العلي الكبير القرآن بأنه ﴿ نور الله ﴾ و ﴿ نوره ﴾ والهاء ضمير متصل يعود على الله سبحانه.

وقال تبارك وتعالى: ﴿ ... فالذين آمنوا به وعزّروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وقال جميع المفسرين في معنى كلمة «النور» أنه القرآن.

وبين العلي الكبير أن الذي يسمع القرآن بحق سمعه ويؤمن بآيات الله يدخل الإسلام في قوله تعالى: ﴿ إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون ﴾ [الروم: ٥٣]. ثم بين العلي العظيم سبب ذلك في قوله تعالى: ﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ﴾ [الزمر: ٢٢].

فنفهم من ذلك أن القرآن نور الله يدخل في صدور المسلمين ثم في قلوب المؤمنين. ومن ثم فلا بد أن يكون لهذا النور قوة وحركة ذاتية تتفق مع عظمة الله الكبير المتعال.

فيقول العلي الكبير مبينًا هذا ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحًا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم ﴾ [الشورى: ٥٢].

فبين العلي الكبير أن نور الله هو روح من أمر الله. ومن هنا نعلم سر القوة في كلمة «كن» الإلهية وكل كلمة قرآنية ...

القرآن صبغة الله

ونعلم جميعاً أن «الصبغة» تتخلل خلايا الشيء الذي توضع عليه، وبين ربنا رب العالمين أن القرآن صبغة يتخلل خلايا جسد ونفس المسلم في قوله تعالى عن القرآن: ﴿صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون﴾ [البقرة: ١٣٨].

ثم بين رب العالمين أثر هذا التخلل في موضعين:

الأول فيمن شرح الله صدره للإسلام، وشرح أي شق، فالروح النور من أمر الله يشق صدر المؤمن به فيدخل في صدره ثم يدخل في قلبه على نور قلبه فيكون نوراً على نور.

والثاني في قوله تعالى: ﴿الله نزّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ..﴾ [الزمر: ٢٣].

وهذا توضيح تفصيلي لتخلل نور الله روحه من أمره في خلايا جلد الإنسان حيث توجد جذور جميع الخلايا العصبية التي تكون المخ الذي هو الجهاز العصبي كله للإنسان ويتوالى دخول النور حتى يصل إلى القلب فإذا كل جسد الإنسان من جلده إلى قلبه في ذكر الله سبحانه.

القرآن أحسن الحديث

وكلمة «أحسن» دلت على الانفراد بالتفضيل على أي حديث في الوجود.

وصفة «الحديث» دلت على «الرأفة» الإلهية في تبليغ الناس بالقرآن فلم يصفه بأنه إنذار أو ما شابه ذلك .. كما دلت صفة «كتاباً» على أنه مكتوب في اللوح المحفوظ؛ وليس حديثاً لوقته، وإنما مكتوب مسجل عند الله تعالى منذ القدم ..

و«متشابهاً» دلت على العظمة في بيان ما في القرآن العظيم من علوم. فالتشبيه في البلاغة لا يستعمل إلا في بيان وجه شبه بين شيئين مختلفين تماماً. فاستعمال أسلوب

التشبيه في آيات الكتاب إنما لبيان أوجه «الشبه» وجَمْع أوجه الشبه في كل الآيات المتشابهات في فرع واحد من فروع المعاني يؤدي إلى استنباط كل حقائق ذلك الفرع فإذا بنا أمام علم الله في هذا الفرع، سيماً وأن أسلوب التشبيه أسلوب مباشر فمثلاً إذا جمعت آيات الرياح والسحاب والأمطار في القرآن العظيم واستخرجت منها «أوجه الشبه» لوجدت علم الأرصاد الجوية على أدق وأوضح ما يكون .. وكذلك يدعم أيضاً باقي الأساليب البلاغية .. وكلمة «مثاني» قال الطبري أنها تعني التكرار لغة ... ووصف رب العالمين سورة الفاتحة بأنها «سبعاً من المثاني» [الحجر: ٨٧] وقال العلماء (الفاتحة أم الكتاب)؛ فالمثاني إذاً هي أصل وتكرار للآيات المتشابهة في القرآن لبيان وتوكيد أوجه الشبه في كل الكتاب؛ ذلك بأن تكرار ذات الآيات بلفظها وحرفها إنما للتأكيد على شيء معين أساسي مثل قوله تعالى: ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾. فالله العظيم يريد بالتركيز في التكرار التأكيد على حقيقة «البعث» و «الحساب» ويصف المؤمنين عدة مرات بأنهم ﴿وهم بالآخرة هم يوقنون﴾ فالتكرار هنا يفيد التقرير والتأكيد لرسوخ المعنى في قلب المسلم حتى يصير يقيناً. ومن ثم تقشعر الجلود ثم تلين هي والقلوب لذكر الله في كل عمل.

والقرآن كتاب عزيز

﴿وإنه لكتاب عزيز﴾ [فصلت: ٤١] أي لا وجود لكتاب آخر مثله فهو كتاب واحد لا ثاني له وتشتد حاجة الناس إليه وإن لم يؤمنوا به. كما لا يمكن كتابة كتاب آخر يساويه أو يدانيه ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾ [الإسراء: ٨٨] ثم تحداهم بسورة واحدة ﴿قل إن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين. فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة، أعدت للكافرين﴾ [البقرة: ٢٣ - ٢٤] ولأن القرآن عزيز أي لا يُغلب، فكذلك من يعمل به ويتمسك به، فإنه يهزم كل أحد ضده ولا يغلبه أحد أبداً لأنه في عزة العزيز سبحانه.

القرآن لا يأتيه الباطل

ولأن القـرآن نور الله روح من أمـره؛ فحاشا أن يكـون فيه خطأ؛ ومن ثم فهو ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾ [فصلت: ٤٢].

فليس في القرآن تعارضاً أو تناقضاً أو تضارباً أو خطأ. ومن ثم لا يترتب على العمل به الآن ومن بعد في قابل الأيام أي شيء من ذلك لأنه هو نور الله، كما لا يتأتى من العمل به إلا تحقيق رحمة الله بعباده والعالمين.

والقرآن قديم

بمعنى أن الإنسان لا يعرف له بداية إلا أنه من قبل كل الكتب والصحف الإلهية ﴿ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك﴾ [فصلت: ٤٣]. فيقول العلي الكبير: ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ..﴾ [الأنبياء: ١٠٥] والزبور هو كتاب داود عليه السلام، والذكر هو القرآن أي أن الله كتب في القرآن قبل أن يكتب في الزبور ﴿أنَّ الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾..

ويقول رب العالمين ﴿وإنه لفي زبر الأولين﴾ [الشعراء: ١٩٦] و ﴿إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى﴾ [الأعلى: ١٨ - ١٩].

ومعنى أن القرآن قديم؛ أنه مسطور فيه كل ما شاء الله العظيم أن يخلقه ثم يبرؤه ثم يصوره؛ فهو من قبل الخلق، واليقين بهذا أصل من أصول الدين، ومن ثم وجدنا مقولة ... القرآن مُحدث؛ التي قالتها فرقة المعتزلة وأيدهم فيها الخليفة المأمون؛ قد باءت بالفشل على أيدي أهل السنة بزعامة الإمام أحمد بن حنبل.

والقرآن حكيم

لقوله تعالى ﴿تلك آيات الكتاب الحكيم﴾ [لقمان: ٢] ولأن معنى الحكيم أنه ذو الحكمة فقد وجب بيان معنى الحكمة. فالحكمة هي أن تعرف حقيقة الشيء بأفضل العلوم .. وأفضل العلوم هي العلوم التي خلق الله بها الكون وما فيه وأبرءها وصورها

ويسيرها بها؛ فإذا عرفت حقيقة هذا؛ وصلت إلى الحق الأعلى فخفت مقامه ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ [الرحمن] وقال رسول الله ﷺ (رأس الحكمة مخافة الله).

ومن ثم فالقرآن حكيم لأنه يدلك على العلوم التي تبين لك حقيقة كل شيء فقال سبحانه موجهاً الإنسان إلى هذا ﴿ أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأي حديث بعده يؤمنون ﴾ [الأعراف: ١٨٥] ولأن القرآن هو الحديث الأساسي والباقي فقد أقسم به الله سبحانه بقوله تبارك وتعالى ﴿ والقرآن الحكيم ﴾ [يس: ٢].

فإذا هداك الله تبارك وتعالى إلى حقائق الأشياء فقد وصلت - بعد البصر والسمع - ببصيرتك وبالهداية الإلهية وبالفقه والفهم البشري إلى الحقيقة الكبرى التي هي أن كل شيء إنما أوجده الخالق البارئ المصور بكن فيكون ويسيطر عليه بقوته ومن ثم ﴿ لله الأمر من قبل ومن بعد ﴾ [الروم: ٤]، فإذا بك تخشى الله فيخبرك الحكيم العليم ﴿ إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ ﴾ [فاطر: ٢٨] ... كما يخبرك بما يسعدك في الحياة الدنيا بقوله تعالى: ﴿ يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

والقرآن كريم

﴿ إنه لقرآن كريم. في كتاب مكنون. لا يمسه إلا المطهرون. تنزيل من رب العالمين ﴾ [الواقعة].

والكريم هو الذي يُعطي أكثر من الرجا .. فالقرآن على مدى الزمن يعطي لكل من يجاهد فيه فلا ينفد أبداً ﴿ ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ﴾ [لقمان: ٢٧] فإذا أعطاك العلوم الأزلية أعطاك الأحكام العملية التي توافق حاجات الناس في حياتهم؛ وإذا أعطاك العلوم التفصيلية بين غاية الأرب منها؛ وهو اليقين بالله واليوم الآخر وهداية لك إلى القيم التالدة في الأخلاق السامية الرفيعة؛ حتى ليقول الرسول الكريم «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق». وكان هو في ذاته كما وصفته زوجه عائشة: كان خلقه القرآن.

والقرآن الكريم؛ كريم بإطلاق؛ فلا شيء كريم بذاته مما خلق الله، ولكنه كريم بما يُعطى له؛ أما القرآن نور الله وروح من أمره فقد جعله الله كريمًا بذاته، فمنه تكون العلوم ومنه يكون البيان لكل شيء ﴿ تبيانًا لكل شيء ﴾ [النحل: ٨٩]. لذلك كان أول أمر في القرآن هو الأمر بالقراءة للعلم بالخلق وبكل شيء؛ وكان هذا الأمر مُوَجهًا إلى الكرم الإلهي الذي هو كتابه؛ فقال سبحانه وتعالى ﴿ إقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. إقرأ وربك الأكرم ﴾ [العلق]؛ فكتاب الله العظيم هو الكرم الإلهي في الهداية والعلم والرحمة للعالمين ..

ذلك بأن القرآن الكريم قَبَسٌ من نور الله سبحانه ..

والقرآن عظيم

﴿ ولقد آتيناك سبعًا من المثاني والقرآن العظيم ﴾ [الحجر: ٨٧].

والعظيم هو أنه كتاب لا يدرك فهو كما قال ربنا ﴿ وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم ﴾ [الزخرف: ٤]؛ فلا يُدرك كمًا ولا كيفًا ولا مكانًا .. ولا خيالاً ..!! إنه عند الله؛ فهو عليٌّ؛ وهو بما فيه حكيم أي عظيم الحكمة ..

ومن عظمة القرآن أنه متفرد بما فيه بعدم الإدراك؛ سواء بالبصر والبصيرة والتصور الذي لا يصل إليه؛ قال تعالى ﴿ ... وما يعلم تأويله إلا الله ﴾ [آل عمران: ٧].

ولعظمة «القرآن» بالذات فقد أُنزل به «جبريل» الروح الأمين القدس ورئيس ملائكة الروح، أما غير القرآن من الكتب فقد نزلت بها ملائكة فيقول ربنا سبحانه وتعالى ﴿ يُنزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا ﴾[النحل:٢] كما أن القرآن لم يُلقَ إلى الرسول وإنما نزل على قلبه ﴿ نزل به الروح الأمين. على قلبك لتكون من المنذرين ﴾ ونزل أي حَلَّ في قلب الرسول ﷺ.

والقرآن المسطور عندنا منقول مكتوب؛ ليس نوراً ولا روحًا وإنما ألفاظٌ مركبة؛ والعظمة تبين من المجاهدة فيه بحق نور الله والروح فيه؛ فإذا فعلت اقتربت من دائرة العظمة القرآنية.

والقرآن مجيد

﴿ ق والقرآن المجيد ﴾ [ق] و ﴿ بل هو قرآن مجيد . في لوح محفوظ ﴾ [البروج : ٢١ - ٢٢].

ومجيد يعني الشريف بإطلاق في ذاته وجميع ما فيه، ومن ثم أقسم الله به و ﴿ لا يمسه إلا المطهرون ﴾ [الواقعة : ٧٩].

ومن هنا أخبرنا العلي الكبير عن كيف الوحي بالقرآن؛ فأبان سبحانه أنه يجمعه من اللوح المحفوظ ويقرأه فينزل به جبريل في قوله تعالى ﴿ إن علينا جمعه وقرآنه . فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ﴾ [القيامة : ١٧ - ١٨]. ثم يكمل الله تبارك وتعالى البيان في قوله سبحانه ﴿ وإنه لتنزيل من رب العالمين. نزل به الروح الأمين. على قلبك لتكون من المنذرين ﴾ [الشعراء : ١٩٢ - ١٩٤].

ويحكي لنا الرسول الأمين ﷺ [إذا أراد الله أن يوحي بالأمر تكلم بالوحي أخذت السماوات منه رجفة أو قال رعدة شديدة خوفًا من الله عز وجل فإذا سمع ذلك أهل السماوات صعقوا، أو قال خروا لله سُجَّداً. فيكون أول من يرفع رأسه جبريل عليه السلام، فيكلمه الله من وحيه بما أراد. ثم يمر جبريل على الملائكة كلما مر بسماء سأله ملائكتها ماذا قال ربنا يا جبريل؟ فيقول: ﴿ قالوا الحق وهو العلي الكبير ﴾ [سبأ : ٢٣] فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله عز وجل] سنده النواس بن سمعان ورواه ابن جرير وابن خزيمة والطبراني وابن أبي حاتم واللفظ له[1] قال تعالى ﴿ وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم ﴾ [النمل : ٦] فهذا هو شرف التنزيل فكم يكون شرف المُنزِّل؟ ...

والقرآن عربي اللسان عالمي البيان

ومعنى عربي أنه باللغة العربية. وأصل هذه اللغة لسان جُرْهُم وغيرهم من قبائل جنوب شبه الجزيرة العربية وهم العرب العاربة (اليمن). فلما أبادهم الله لكفرهم؛

---

(١) عن كتاب «أصول الإيمان» للإمام محمد بن عبد الوهاب/ ١٣ و ١٤.

وسكن تلك البلاد سام بن نوح ومن حوله، وأخذوا اللغة العربية لسانًا لهم قيل إنهم تعربوا فصاروا عربًا متعربة؛ فلما إنهار سد مأرب ورحل أهل هذه البلاد إلى الشمال قيل إن العرب استعربوا فصاروا عربًا مستعربة.

وهكذا كان إسماعيل عليه السلام ابنًا لإبراهيم – عليه السلام – العبراني وهاجر الأميرة المصرية وزوجًا لبنت من بنات جُرْهُم وأول أهل مكة؛ فكان عربيًا مستعربًا ... ثم كان رسول الله من أشرف بطن من بطون مكة نسلاً لسبط إسماعيل ... وإذًا فليست اللغة العربية لسان الأنباط كما يقول علم اللغة العلماني[1].

ونزل القرآن العظيم بلسان عربي مبين ...

فكان أوضح ما سمع العرب طرًا وأوجز ما قيل وأقصد ما صيغ وأجمل لفظًا وأحكم أمرًا وأعمق وأدق وألطف معنى وأبلغ وأحسن صورة وأشمل وأكمل إحاطة.

فلما كان الكلام نور الله وروح من أمره ومُكْتمل لكل صفات النور والروح معًا، كانت القدرة الإلهية فيه، فيه يقوم الأمر كله على صراط الله المستقيم؛ فتقوم السماء والأرض بأمره؛ ويسخر الشمس والقمر دائبين والليل والنهار وما في الأرض والسماء جميعًا. والناس كافة ﴿ وكذلك أنزلناه حكمًا عربيًا ﴾ [الرعد: ٣٧] حكمًا للكون كله ...

واللغة العربية تنفرد وتتميز عن باقي الألسنة بأنها لا عوج فيها ومن ثم تخاطب العقل باستقامة وبيان وأنها بصفات كلماتها تبين المعاني بتفصيل دقيق ومحيط؛ فيقول رب العالمين ﴿ إنا جعلناه قرآنًا عربيًا لعلكم تعقلون ﴾ [الزخرف: ٣]؛ أي خلقه رب العالمين عربيًا وليس بأي لسان آخر. ثم أكد ذلك في أنه أنزله بذات اللغة فقال تعالى:

---

(١) يقول «علم اللغة» أن الإنسان لم يكن له لغة يتكلم بها فكان يفعل أصواتًا تعارف عليها وإشارات يتفاهم بها (كالصم البكم) ثم تدرج إلى أن صارت له أصوات ذات معاني ثم كلمات فلقد ظلت ترتقي حتى صارت كما هي الآن ولما كان هذا يتناقض مع قوله تعالى ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ﴾ و ﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات ﴾ وآدم أول البشر في هذه الحياة الدنيا. وإذًا فإن علم اللغة يكون علمانيًا بمثابة أنه يناقض القرآن الكريم.

﴿إنا أنزلناه قرآنًا عربيًا لعلكم تعقلون﴾ [يوسف: ٢] وقوله تعالى ﴿وكذلك أنزلناه قرآنًا عربيًا وصرفنا فيه من الوعيد﴾ [طه: ١١٣]. ثم بين أنه كان بهذه اللغة وفي منتهى الوضوح في قوله تعالى: ﴿نزل به الروح الأمين. على قلبك لتكون من المنذرين. بلسان عربي مبين﴾ [الشعراء: ١٩٣ – ١٩٥].

وبيَّن سبحانه وتعالى أنه باللغة العربية حتى لا يكون به عوج ﴿قرآنًا عربيًا غير ذي عوج لعلهم يتقون﴾ [الزمر: ٢٨].

والقرآن العظيم مكتوب في اللوح المحفوظ باللغة العربية يقول ربنا العزيز ﴿الله نزل أحسن الحديث كتابًا متشابهًا ..﴾ [الزمر: ٢٣] ومعنى «كتابًا» أي مكتوبًا. لذلك قال ربنا العظيم أنه قرأه من اللوح المحفوظ في قوله تعالى ﴿إن علينا جمعه وقرآنه. فإذا قرأناه فاتبع قرآنه﴾ [القيامة]. والقراءة تكون لكلام مكتوب. ومن هنا تثبت عظمة اللغة العربية بإطلاق ومقام عظمتها أنها في أم الكتاب عند الله ﴿وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم﴾ [الزخرف: ٤].

وإذًا فالقرآن باللغة العربية لأمرين أولهما أن يكون واضحًا وثانيهما أن يكون مستقيمًا في نطقه ومعناه فيؤدي هذا وذاك إلى أن يكون قابلاً لأن يدركه العقل الإنساني فيعقله ثم يبعث به إلى الفؤاد فيفقه معناه باستقامة القصد والمعنى.

ولهذا قال العلي الكبير ﴿ولو جعلناه قرآنًا أعجميًا لقالوا لولا فصلت آياته﴾ [فصلت: ٤٤].

فالقران باللغة العربية شديد الوضوح لإحاطة كلماته بالمعنى إلى أعماقه وإلى كل ما فيه بمضمون صوره وبإحاطة شاملة وباستقامة كاملة وعلى أساس صحيح للوصول بالإدراك الإنساني إلى الحقيقة. فيقول سبحانه وتعالى ﴿كتاب فصلت أياته قرآنًا عربيًا لقوم يعلمون﴾ [فصلت: ٣]؛ فهو يضع منهاج التفكير على أساس الحق وبيانه للحقيقة؛ بالإجمال تارة والتفصيل تارة أخرى؛ فإذا جمعت كل ما قاله العلي الكبير عن موضوع معين وجدت أمامك أبلغ المقال وأكمل البيان وأدق المعنى وأشمل الإحاطة. كل أولئك متدرجًا بك من مقدمات الحقيقة إلى منعطفاتها ثم إلى كمالها؛ فإذا بك في

نور الحق للعلم الصحيح فاللغة العربية بثرائها المذهل فصلت الآيات أي بسطتها وشرحتها.

ومن ثم نفهم أن القرآن لا يأخذك إلى ظنون أو شكوك أو احتمالات أو اعتقادات أو نظريات .. ثم يوحي إليك بتجربة أو اختبار فتسقط في مجالات الريب والظنون. ولهذا؛ نجده سبحانه يبدأ كتابه العظيم بحقيقة موضوعية أصيلة فيه ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه ﴾ [البقرة]، أي لا ظن فيه؛ ويبين في سورة يونس ٣٦ ﴿ إن الظن لا يغني من الحق شيئًا ﴾ وأنه ليس بعد الحق إلا الضلال في قوله تعالى ﴿ فماذا بعد الحق إلا الضلال ﴾ [يونس: ٣٢].

ولما كان هذا هو أسلوب الفكر في القرآن، أسلوب اتباع الحق في المقدمة وفي العقل والفهم والاستنباط، فإنه سبحانه يرمي المشركين بالكذب والتخبط لان أسلوبهم في التفكير يؤسس على الظن دائمًا في قوله تعالى ﴿ ... وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء؛ إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون ﴾ [يونس: ٦٦] يكذبون ويترددون.

وهكذا وجدنا ساحة الفكر العلماني الفلسفي تقوم على تاليه العقل البشري، ولا تتبع إلا معقولاته في هذه الحياة. فلا يُعمل الناس في استكشاف الكون وما خلق الله من شيء إلا عقولهم؛ فإذا هم من فكر ونظرية إلى افكار أخريات ونظريات متغايرات. حتى صاروا بهذا في ضلال وحتى خرجوا كثيراً من فطرة الله إلى ظلمات الكفر. وما يتبع ذلك إلا النكبات والمصائب والأزمات والعنت والضيق والطغيان والفساد في كل شيء والتاريخ البشري حافل ببيان ما تمرغ فيه البشر، ثم ضياع البشر بسبب هذا السلوك المعوج المنحرف عن جادة الحق؛ فانظر إلى آثار رحمة الله مع الناس حين يهديهم صراطه المستقيم بكتابه الصراط المستقيم بلغته المستقيمة الواضحة المؤسسة على الحق وحده في نور الله وروح من أمره. مُفصلاً لقوم يعلمون أي يستكشفون العلم الإلهي الأزلي في كتابه بكلمات كتابه المجيد، فإذا هم على بصيرة من الأمر وإذاهم يتقون. قال تعالى: ﴿ عربيًا غير ذي عوج لعلهم يتقون ﴾ [الزمر: ٢٨].

ومن هنا تأخذنا الدهشة والعجب إلى قاع الجنون من هؤلاء الذين يُعلمّون الصبيان

والأطفال الألسنة المعوجة مع اللسان العربي المبين أو بدونه ويدعون ان ذلك هو رفعة التعليم والتقدم إلى آفاق المدنية .. وهم في جهل من أنهم خلطوا الطيب العظيم بالباطل الغث فلا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى !! ونتاج ذلك موجود أعوج العود مع عوج اللسان وضياع البيان باهت الشخصية ضعيفها؛ ينظر بكلل وزهق إلى أمثلة وقمم ما درس في المشركين؛ وينظر بعجب ودهشة إلى قمم الحق في القرآن المبين .. فإذا نفسه المفطورة على الحق والدين من رب العالمين تلعن في أعماقها هؤلاء الذين ضيعوه وجعلوه من أصحاب لسان الضالين!!

لذلك بدأ ربنا العلي الكبير آية الكهف الأولى بالحمد لله لعدم وجود عوج في كتابه، فقال تعالى: ﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً﴾.

ويدافع أنصار تعليم اللغة الأجنبية الفرنسية والإنجليزية بأمرين **الأول** ان الرسول قال (من تعلم لغة قوم آمن مكرهم - وقيل شرهم)؟!! **والثاني** أنه كيف يتعلم مثلاً علوم الطب وفيها من المصطلحات ما فيها باللغة الإنجليزية وأن ذلك - كما قال أحدهم - سيجعل من يتعلم الطب بالعربية كالأطرش في «الزفة» في أي مؤتمر طبي. والحقيقة ان هؤلاء «الأنصار اللغوي» أصحاب مركبات نقص وعقد نفسية بسبب القهر الأجنبي الذي صغرهم فهم في دوامته مغشياً عليهم، ذلك بان أعداء المسلمين أولاً وقبل أي أعداء هم اليهود الذين يتكلمون العبرية ولم يطلب هؤلاء الأنصار تعليم اللغة العبرية تنفيذاً للحديث الشريف، كما أنهم لم يبينوا كيف يكون الياباني والألماني والإيطالي والفرنسي والروسي - وكل منهم قد تعلم الطب بلغته - سميعاً بصيراً في المؤتمرات الطبية الإنجليزية؟!!

ولغة القرآن هي اللغة الوحيدة التي لها وزن، فهي ذات تصريف في المفرد والمثنى والجمع وذات تصرف في أفعالها. ومن ثم جاءت مُعبرة عن ذات الحال بدقة وإحكام.

واللغة العربية هي الوحيدة التي تمتاز مفردات كلماتها بمعاني جمة، فقد حاول العلماء ترجمة معاني القرآن فلم يستطيعوا وأقروا بعجزهم(١).

---

(١) The Religion of Islam. By M. Aly.

واللغة العربية هي الوحيدة التي تنتهي كلماتها طبقًا لحركة إعرابها، كما أن هذه الحركة تدل على جزء من المعنى الذي تحمله الكلمة، كما أنها تدل على كثرة أو قلة؛ فالتنوين مثلاً في نهاية بعض الأسماء قد يدل على الكثرة، كما في قوله تعالى في وصف الجنة ﴿ فيها عينٌ جارية ﴾ [الغاشية: ١٢] يدل التنوين في كلمة «عينٌ» على أنها عيون كثيرة[١].

وتصريف اللغة العربية وتصرفها يجعل لها جَرَسًا ولحنًا موسيقيًا ضبطهما العلي الخبير، فإذا رتَّلت القرآن ﴿ ورتل القرآن ترتيلاً ﴾ [المزمل: ٤] وجدت أنك تنطق أعظم سيمفونية في الوجود، ووجدت أن الوزن الإيقاعي الموسيقي ينضبط ويضبط ذات الكلمات، فإذا نطق مُرتل القران بكلمة غير كلمة القرآن علمت أذنك أنه أخطأ كما علم القارئ ذلك فيتوقف رغمًا عنه أو بفطرة الله فيه؛ لأن الإنسان مفطور على القرآن ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفًا فطرة الله التي فطر الناس عليها ﴾ وترتيل القرآن عامل مهم في بيان تفصيل كلمات الله التامات.

واللغة التي يتكلم بها الإنسان هي «لسان» يدل - في أغلب الأحيان - على هوية (جنسية) صاحبه؛ فقال تعالى ﴿ لسان الذي يُلحدن إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين ﴾ [النحل: ١٠٣] وكان الذي يلحدون إليه أي يميلون ويشيرون إليه هو صهيب الرومي.

وليس معنى ذلك أنك إذا تكلمت باللغة الألمانية مثلاً صرت ألمانيًا كلاً ..، ولكن إذا أنت تخليت عن لغتك فقد تنازلت عن هويتك ولو في داخل وجدانك ونفسك وأشعرت الناس بذلك دون أن تدري أو وأنت تعني ما تقول.

واختلاف الألسنة معجزة إلهية ﴿ ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين ﴾ [الروم: ٢٢] واختيار رب العالمين اللغة العربية لغة لكتابه العظيم المبلغ لكل العالمين يدل فيما يدل على أن هذه اللغة هي أحسن لغة وأبين لسان وأعمق معنى ﴿ الله نزَّل أحسن الحديث ... ﴾ [الزمر: ٢٣].

---

(١) صفوة التفاسير جـ٣/ ٥٥٢.

والخروج من اللغة العربية إلى غيرها خروج من الأحسن إلى ما دونه حتى وإن كان أصحاب هذا "الدون» أجمل منظراً وأقوى صناعة وأكثر مالاً وأعظم رئياً.

ذلك بأن «المدنية» دوّارة بين من يأخذ بأسبابها؛ وليست اللغة سبباً من أسبابها. والادعاء بغير ذلك يكذبه تاريخ البشر ويدمغ صاحبه بالانحراف عن الجادة(١).

وخروج الإنسان من لسانه إلى لسان غيره خروج من هويته رغبة في الدخول إلى هوية أخرى .. وشرْك اللسان يؤدي إلى إعوجاجه ومن ثم عجزه عن نطق القران بالاستقامة الواجبة ومن ثم عدم الفهم الحقيقي المنور لمعاينته وعدم الانفعال بها بالتالي. وبتوالي الأجيال يبعد الناس عن القران إلا أن يتخذه بعضهم تميمة ... فيحقق بنفسه في نفسه ما أراده المشركون له، ثم يضيع منهم الدين .. وتصبح هويتهم بغير مضمون ولا شكل ...

والنور الروح من أمر الله الذي هو كلمات الله سبحانه جعل لهذه الكلمات سلطاناً أي قوة إلهية لها سرها الإلهي، ولهذا يذكرنا رب العالمين بأن كل ما أنزله له سلطان وأن كل اسم علمه لآدم له أيضاً سلطان، وأما ما فعله البشر فليس له سلطان؛ فيقول سبحانه عن الأصنام وغيرها ﴿إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان﴾ [النجم: ٢٣]، ويقول سبحانه ﴿ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان﴾ [يوسف: ٤٠].

وسلطان الكلمة (التي هي أسم أو فعل أو حرف) أن تكون لها فاعلية في ذاتها، سواء بالدلالة على شيء أو تعليق شيء بشيء أو على شيء أو تكون تسمية لمسمى فيكون فيه نفع أو منه ضرر، فإذا كانت الأولى كانت كلمة لغوية، وإذا كانت الثانية كانت اسماً على عين. ومن هنا كانت أسماء البشر للأصنام لا هي دالة على شيء أي ليست كلمة لغوية ولا هي اسماً على عين لأنه لا نفع فيه ولا منه ضرر؛ لا في ذاتها ولا لغيرها؛ ومن ثم ليس لها سلطان.

(١) المدنية هي التقدم الصناعي والإنشائي. ولم يُسجد الله ملائكته لآدم إلا بعد أن تعلم الأسماء (المصنوعات) كلها، إشارة إلى ضرورة العمل الصناعي والتقدم فيه لأنها أساس عمارة الأرض وقوة البشر.

ومن هنا يستطيع الإنسان أن يتبين الاسم الحقيقي من الزائف والكلم الحق من الباطل.

والقرآن العظيم بلغته متفرد بالكمال متوحد بالجلال متعالي بالعظمة وبالجمال وشرح ذلك يتطلب كتابًا ضخمًا؛ فهو مثلاً قد حوى كل قواعد اللغة من نحو وصرف وبلاغة وبيان وهي على كثرتها وتشعبها فإنها تقوم على مبدأ واحد هو بيان المعنى بالحق وبوضوح شديد حتى يصف الله سبحانه القران بقوله تعالى ﴿كتاب مبين﴾ في آيات كثيرة بالنظم الملحون أُمّ إعجاز القرآن.

ومن هنا كانت حكمة (فلسفة) قواعد اللغة العربية في مبدئها العام الأصيل هو أن تكون مُبَيِّنة أي حقيقية شديدة الوضوح؛ ومن ثم تخاطب العقول مباشرة بهذا النور الذي يخرجهم من الظلمات إلى نور الحق. ومن ثم سماه رب العالمين سبحانه «الفرقان» وجعلها كلمة علمًا على سورة باكملها.

ولأن القرآن العظيم ليس مسطوراً تاريخيًا بالمعنى السطحي لكلمة التاريخ، وإنما هو كتاب علم سواء كانت علوم الأزل الكونية في خلق الكون وفي أفلاكه وفي كل ما خلق فيه، وعلوم إنسانية واجتماعية تحكم الخلق بما خلق وغير ذلك من العلوم ومن هذا المنطلق كان القران فطرة فطر عليها كل الكون وما فيه ﴿فاقم وجهك للدين حنيفًا فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾ فانت تقرأ الكون في كتاب الله سبحانه وتقرأ القرآن في كون الله سبحانه ﴿أو لم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم، فبأي حديث بعده يؤمنون﴾ [الأعراف: ١٨٥] فالنظر في ملكوت الكون والخلق هو حديث وكذلك القرآن العظيم ﴿الله نزل أحسن الحديث ..﴾ وكلاهما - ولأنهما واحد - يؤدي إلى الإيمان بالله العلي الكبير...

ذلك بأن نور وروح كلمات الله المكتوبة في المصحف يكشف عن سلطانها ملكوت الله في الكون؛ فعندما يقول رب العالمين سبحانه بعد خلق الأرض ثم خلق

السماوات ثم إبراء ذلك كله بكلمة ﴿إئتيا طوعاً أو كرهاً﴾ [فصلت: ١١]؛ في لحظة واحدة؛... وعندما يأمر العلي الكبير فيبرئ ما يمني الرجل .. فيأمر فيبرئ النطفة فالعلقة فالمضغة ثم يجعل المضغة عظاماً ثم يكسوها لحماً ثم يجعلها خلقاً آخر .. عندئذ يحدثنا الله عما يقوله الكون كله .. ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾ [المؤمنون: ١٤].

والقرآن العظيم هو الكتاب كله

وبين العلي الكبير ذلك في قوله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يُدْعَوْن إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون﴾ [آل عمران: ٢٣].

والآية فيها أمران **الأول**: أن كل ما أرسل للناس من قبل القرآن كان جزءاً من الكتاب **والثاني**: أن القرآن هو الكتاب كله. ذلك بأن القاعدة في النحو أن المضاف إليه يبين ويجلي المضاف. فالكتاب مضاف والله مضاف إليه. والله سبحانه هو الله ومن ثم فالكتاب هو كل الكتاب.

ولأنه الكتاب كله، فقد أنزله بلفظه بحرفه برسمه كما هو في اللوح المحفوظ وتعهد حفظه فلا يتغير ولا يتبدل ولا يزول. بل وحفظه الكفار والله من فوق العالمين حافظ له ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾.

ولما كان القرآن العظيم هو الكتاب كله، فقد جاء بالدين كله الذي هو فطرة الله التي فطر الله الناس وكل ما خلق.

فالقرآن تسجيل وتعبير صادق عن الكون وتعبير صادق عن علومه وأسراره وتعبير صادق عن الإنسان والناس جميعاً، وكل التعبير واحد لأن الخالق واحد. وهذا التعبير هو «الروح» من أمر الله. فذلك هو سر القرآن وسر الكون وسر الخلق، ومن ثم فهو تعبيره الباطن الحق القوي المتين، الظاهر الحركة، المذهل السرمدي النظام، العظيم البينة، اليقين البرهان.

ولأن القرآن هو «الروح» من أمر الله ونور الله، وهو «الفطرة» ظاهراً في خلقها، وباطناً في روحها، فهو مهيمن على كل شيء، مهيمن على الكون وكل ما في الكون، فمن اتبعه فقد سار مع الفطرة في ظاهرها وباطنها؛ ومن خالفه خرج منها. ولا يزيغ عنها إلا هالك، هالك في الدنيا وفي الآخرة.

يقول رب العالمين ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقًا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنًا عليه؛ فاحكم بينهم بما أنزل الله، ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق .. ﴾ [المائدة: ٤٨].

وكلمة «الحكم» تعني الدين، فأمر الله سبحانه بأن يكون الحكم هو القرآن فهو الذي يُمسك بكل شيء فيحقق خيري الدنيا والآخرة.

ولأن «العمل» بالقرآن هو الوسيلة والسبيل الوحيد للأخذ بالفطرة؛ فإن الله سبحانه أمر الرسول ﷺ ومن بعده كل المؤمنين بأمرين:

الأول في قوله تعالى: ﴿ ادعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن؛ إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾ [النحل: ١٢٥].

والدعوة بالحكمة تكون مع العلماء، وبالموعظة الحسنة مع العامة من الناس؛ أما الجدال بالتي هي أحسن فهي مع الكفار. فلكل كلمة "ومقام" .. وهنا تجب الإشارة إلى أن المؤسسات القائمة على الدعوة يجب أن تتخذ من الوسائل الفعالة لتبليغ الدين إلى كل مكان في العالم وبالسنته المختلفة؛ وإرسال الدعاة إليهم كلما أمكن. وباتخاذ البيان العلمي القرآني وسيلة فعالة في جدال الماديين الكفرة.. فإن لم يستجب هؤلاء الكفار للدعوة، فإن الله العظيم يأمر بالسبيل الثاني ألا وهو القتال في قوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ [التوبة: ١٢٣] وهذا السبيل للحكم بما أنزل الله كرهًا لهؤلاء الناس، حتى إذا ساد حكم الله فيهم علموا ما به من عدالة سابغة ورحمة فياضة وتحرروا من حكم البشر للبشر وطغيان البشر واستبداد البشر، فباءوا بنعمة الله إلى رحمة الله أحراراً يتفكرون بحرية ويؤمنون بآيات الله فإذا هم مسلمون. وهذا القتال أول شروطه أن

يكون من دولة مسلمة للدولة الكافرة المجاورة كما فعل سيدنا رسول الله في غزوة تبوك؛ فليس هناك قتال داخل الدولة الإسلامية ولا مجال إذاً للاغتيال وغيره وهو ما ليس له سند ولا دليل في القرآن والسنة، ولقد قامت مصر بهذا القتال في أربع حروب مع إسرائيل الدولة الكافرة المجاورة .. ومصر دائماً في رباط إلى يوم القيامة كما ورد بالسنة المطهرة.

والسند الشرعي للقتال في سبيل الله فضلاً عن آية القتال سالفة البيان، هو قوله تعالى ﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الناس كله ولو كره المشركون ﴾ [التوبة: ٣٣] و [الصف: ٩] بذات الكلمات.

ومن ثم تحقيق الحكم بما أنزل الله على المشركين وأنوفهم راغمة .. وهذا لا يعني إدخالهم في الدين، ذلك بأن اعتناق الدين هو أولاً وأخيراً بتمام حرية الإنسان...

وبالقرآن العظيم يكون النصر

بتلك الصفات كلها، فالقرآن العظيم: هو الرحمة المهداة للبشرية كلها وللعالمين؛ ومن ثم كان الرسول ﴿ نورٌ ﴾ [المائدة: ١٥] و ﴿ رحمةً للعالمين ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وهو «الشفاء» ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ﴾ [الإسراء: ٨٢].

والشفاء ليس لعلل الجسد والنفس فقط، وإنما هو أيضاً لعلل المجتمع كافة لا نغادر منها شيئاً ..

وبالشفاء تتحقق الرحمة الإلهية وتأتي الهداية والتقوى ... ويتحقق النصر وتثبت الأقدام ..

الفصل الثالث عشر
نــور في غطـــاء

أول من خلق الله - في هذه الحياة الدنيا - كان آدم.

ولم يكن آدم عند خلقه في غطاء؛ قال تبارك وتعالى: ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم. قال يا آدم انبئهم بأسمائهم، فلما انباهم بأسمائهم قال ألم اقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ﴾ [البقرة: ٣١ - ٣٣].

وإذاً فكان آدم يرى فيعرف ويعلم «الأسماء» التي هي غيب السماوات والأرض، ويرى الملائكة عياناً وينبئهم - اي يخبرهم بما لا يعرفونه - بهذه الغيبيات.

وقال رسول الله ﷺ عندما سئل: أرايت آدم نبياً كان؟ قال: (نعم نبياً رسولاً يكلمه الله قبيلاً). أي يكلمه الله عياناً[1].

إذاً لم يكن آدم في غطاء ...

ورغم ذلك؛

فقد عصى ربه وغوى، قال العلي الكبير: ﴿ وعصى آدم ربه وغوى ﴾ [طه: ١٢١] فعل آدم ذلك، وهو ما زال في الجنة، يرى الله عز وجل ويرى الملائكة وغيب الأسماء !! ويحكي لنا العلي العظيم واقعة عصيان آدم وغوايته فيقول رب العالمين[2]:

﴿ وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما، ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين. فازلهما الشيطان عنها .... ﴾ [البقرة: ٣٥ -

---

(١) تفسير ابن كثير حـ١ /٧٨، رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه بسنده عن أبي ذر.

(٢) عن ابن عباس: قال له قبيلا ﴿ يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ... ﴾ المرجع السابق/ ٧٩.

٣٦]. ﴿ فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما، وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا ان تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ﴾.

وحتى يُدخل الشيطان ذلك في نفسيهما فقد أقسم لهما ﴿ وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين. فدلاهما بغرور، فلما ذاقا الشجرة ودت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة، وناداهما ربهما، ألم أنهكما عن تلكما الشجرة، وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين. قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين. قال إهبطوا بعضكم لبعض عدو، ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ [الأعراف: ٢٠ – ٢٤].

وأُهبط آدم وزوجه وإبليس إلى الأرض ...

ولأن آدم وزوجه اعترفا بخطئهما واستغفرا ربهما.

﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه، إنه هو التواب الرحيم ﴾ [البقرة: ٣٧].

وصار آدم في غطاء ...

فلم يعد يرى الملائكة

ولم يعد يرى الغيب

وأصبح محصوراً في الأرض ﴿ قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون ﴾ [الأعراف: ٢٥].

وصار آدم عليه السلام لا يرى السماء إلا ليلاً ...(١)

---

(١) روى الإمام القرطبي ان المعتزلة والقدرية قالا إن آدم عليه السلام كان في جنة في الأرض وليس في السماء (تفسير ابن كثير حـ٢ / ٢٠٦) ويدحض هذا النظر واقعتين: الأولى واقعة اللباس، فقد كان آدم وحواء بغير لباس مما يلبسه أهل الأرض بل كان لباسهما النور كما ورد بالسنة والثانية: ان الله سبحانه أباح لهما الأكل ﴿ رغداً من حيث شئتما ﴾ ومنعهما من ﴿ تلكما الشجرة ﴾ فقط، وهذا الأكل هو الذي يتناسب وحياة الجنة ولباس النور، فلما أكلا من الشجرة ذهب النور وبدت لهما سوءاتهما ومن ثم صارا غير لائقين للحياة بالجنة فاهبطا إلى الأرض. ومن ثم فلم يكن آدم في الأرض وإنما كان في جنة في السماء هو وحواء.

فما هو الغطاء؟!

تروي كتب التفاسير القرآنية رواية تنسبها بسند !! إلى ابن عباس رضي الله تعالى عنهما؛ موجزها أن الملائكة استنكرت ما يفعله الناس من المعاصي على الأرض. واشتكت إلى الله عز وجل، فامرهم سبحانه ان يختاروا افضلهم فاختاروا ثلاثة اعتذر أحدهم وبقي هاروت وماروت؛ فاخذ الله سبحانه عليهما الميثاق الا يعبدا إلا الله وحده لا يشركان به شيئًا، ونهاهما عن القتل والزنا والسرقة وشرب الخمر، وأنزلهما إلى الأرض، فصارا في غطاء أهل الأرض، مثلهم مثل الناس. وأن ذلك كان في عصر إدريس عليه السلام ..

ومكث الملكان زمنًا يحكمان بين الناس بالحق ..

ثم مشت إليهما امرأة مُلأحة لها سحر وحسن باهر، فراوداها عن نفسها؛ فَتَأَبَّت إلا أن يعبدا صنمًا تحمله تتخذه إلهًا لها؛ فرفضا ...

وبعد فترة

عادت المرأة البارعة الجمال إلى الملكين، فأعادا مراودتها وتأبت إلا أن يطيعاها فيما تقول من عبادة الصنم .. فرفضا ..

وتكرر المشهد للمرة الثالثة

فعادت إليهما وقد أتت معها بغلام وقنينة خمر وذات الصنم وعرضت عرضًا آخر حتى يبلغا منها ما يريدان .. أن يعبدا الصنم أو يقتلا الغلام أو يشربا الخمر .. فتداول الملكان هاروت وماروت .. وقالا أهون هذه الأشياء أن يشربا الخمر فهي آخر ما نهاهما الله عنه .. فشربا الخمر فأخذ غولها منهما فواقعا المراة، فخشيا أن يُخبر الغلام عنهما فقتلاه .. فلما ذهب عنهما غول الخمر، وعلما ما وقعا فيه من كبائر .. أرادا أن يصعدا إلى السماء فلم يستطيعا لها طلبًا.

ورأى الملائكة ما وقع من هاروت وماروت فعجبوا وعرفوا أن من كان في غطاء

فهو أقل خشية .. فاستغفروا لمن في الأرض. وأن هذا هو سبب قوله تعالى: ﴿ تكاد السماوات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض، ألا إن الله هو الغفور الرحيم ﴾ [الشورى: ٥].

رواه الحاكم في مستدركه بسنده عن ابن جعفر الرازي وقال صحيح الإسناد والله أعلم[١].

وقال الإمام محمد بن جرير الطبري عن هذه القصة وغيرها قوله: وحاصلها راجع في تفصيلها إلى أخبار بني إسرائيل إذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصل الإسناد إلى الصادق المصدوق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى، وظاهر سياق القران إجمال القصة من غير بسط ولا إطناب فنحن نؤمن بما ورد في القرآن على ما أراده الله تعالى والله أعلم بحقيقة الحال.

والتفسير الوسيط - علماء الأزهر الشريف - لم يأخذ بهذه الرواية وقال بأن "الملكين" إنما هما رجلان صالحان ولذلك شبها بالملائكة لأن سنة الله أن يجعل رسله من البشر ولقوله تعالى: ﴿ ولو أنزلنا ملكًا لقضي الأمر ثم لا ينظرون ﴾ [الأنعام: ٨][٢].

وتعقيبًا على ذلك، فإن "هاروت وماروت" لم يكونا مرسلين إلى الناس، ولكن كان إنزالهما إلى الأرض قد جاء ليعلم الملائكة مدى ضعف قدرة الناس وهم في غطاء، ثم إن القرآن الكريم صريح واضح في قوله تعالى ﴿ وما أُنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت؛ وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر ﴾ [البقرة: ١٠٢] فقد عرَّف الله سبحانه الناس أن هاروت وماروت ملكين بصريح اللفظ ومن ثم لا يمكن تأويله؛ ثم بين أنهما ليسا مرسلين بل أوضح بجلاء أنهما «فتنة» !؟.. والرسل هداية.

ويقول العلي الكبير عن الغطاء ..

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ / ١٤٠ وما بعدها.

(٢) التفسير الوسيط / ١٥٧.

﴿ ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد . وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد . لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ﴾ [ق : ٢٠ - ٢٢].

يقول تفسير الجلالين: أن معنى غطاءك غفلتك بما تشاهده اليوم(١).

ويتفق الإمام ابن كثير مع الجلالين مع الإمام الطبري في تفسيره : إنك أيها الإنسان لقد كنت في غفلة من هذا الذي عانيت من الأهوال والشدائد فاظهرناه لعينك حتى رأيته فزالت الغفلة عنك، فانت اليوم نافذ البصر بما كنت عنه غافلاً . ويدلل ابن كثير على رأيه هذا الذي سيكون لكل مؤمن وكافر بقوله تعالى:

﴿ أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا ﴾ [مريم: ٣٨].

و﴿ ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رءوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحًا إنا موقنون ﴾ [السجدة: ١٢](٢).

والذي أراه، والله تعالى أعلم ..

ان كل هذه الآراء لم تبين معنى كلمة « غطاء » بالقدر المتيقن للعقل، أو بالنظر الذي يريح الوجدان الإيماني، فضلاً عن منافاتها للمعنى الذي يدل عليه اللفظ في ذات الآية والآيات التي قبلها ومن بعدها.

ذلك بأننا إن قلنا « غطاء » يعني « غفلة »

لكان ذلك شيئًا غير مستساغ مع طلب الله سبحانه للناس ان يُعملوا العقل فيما أنزل الله من قرآن وفي التفكر في خلق السماوات والأرض والنظر إلى ما فيهما من آيات الله العظيم بالباصرة التي خلقها سبحانه وتعالى فيهم وإعمال عقولهم فيما يرون .. ذلك بانه سبحانه يُهدر قدر الذين لا يعقلون ﴿ ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون ﴾ [يونس: ١٠٠].

---

(١) الجلالين/٤٥٨.

(٢) تفسير ابن كثير حـ٤/٢٢٥.

لهذا؛

فإنه لا بد وأن يكون لهذه الكلمة «غطاء» معنى آخر، معنى يتفق تمامًا مع كلمتي «فكشفنا عنك».

فهذه الكلمة «فكشفنا» لا بد وأن تعني أن نوعًا من المساتير التي يعلمها العلي العظيم موضوعة على لطائف الله في الإنسان فتجعل البصر والسمع قاصرين على هذا القدر المحدود للسمع والرؤية المادية المتيقنة في هذه الحياة الدنيا.

فإذا ما كشف الغطاء «عنك» أي رفعت هذه المساتير عن لطائف الله في الإنسان، فإن السمع والبصر يصيران بغير حدود أي حديد.

وعن هذه الحقيقة يتكلم ربنا سبحانه وتعالى:

﴿ ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله، قالوا إن الله حرمهما على الكافرين ﴾ [الأعراف: ٥٠].

﴿ كل نفس بما كسبت رهينة. إلا أصحاب اليمين. في جنات يتساءلون. عن المجرمين. ما سلككم في سقر. قالوا لم نك من المصلين. ولم نك نطعم المسكين .. ﴾ [المدثر: ٣٨ - ٤٤].

وفي هذه الآيات الكريمة يخبرنا العلي الكبير أن أصحاب الجنة يرون ويسمعون من في النار وكذلك أصحاب النار، وأنهم يتبادلون الأحاديث ويرى كل منهم الآخر رغم المسافات الكونية الهائلة بين الفريقين وبين الجنة والنار !!.

ولا ريب أن هذا هو معنى «فبصرك اليوم حديد» بعد «فكشفنا عنك غطاءك».

وإذًا، فالغطاء - كما هو ظاهر من تلك الوقائع الكونية - أنه ستار أو مساتير ملقاة على كونية الإنسان الحقيقية، فيحجب عنه الرؤية والسمع إلا بقدر. غطاء يمنعه من رؤية الغيب وسمع الغيب ... وتجعل السمع والبصر في الدنيا على قدر عالم الشهادة لا يزيد.

فليس إذًا ثمة غفلة ..

لأن الغفلة نوع من النسيان أو عدم الانتباه، أو تفريط في يقظة أو نوع من الهزيمة العقلية أو الغشاوة التي تجعل الإنسان خاملاً ...

والدليل المحسوس على هذا قائم ... فها هي المناظير المكبرة والتلسكوبات الإلكترونية التي ترى أبعادًا شاسعة في السماء الدنيا .. وهذه المناظير التي استطاعت أن ترى الفيروسات البالغة الضآلة بعد أن كبرتها ملايين المرات.

فالإنسان إذًا ليس في غفلة

بل هو في عمل دائب ومحاولات مستمرة إلى أبعد والمعرفة لأكثر.

وكذلك في عمل دائب للسمع أكثر وأبعد

والأجهزة الحديثة الصغيرة الحجم مثل الكف وأقل وتأتي إليك وأنت في عقر دارك بما يقال في أبعد أنحاء الأرض، وهذه التي تسمعك من يتكلمون في غير وسائل الإذاعة من أجهزة التجسس المعروفة والتي في حجم علبة الكبريت وأصغر ..

إذًا، فالإنسان ليس في غفلة

ولكن في منتهى اليقظة والانتباه والعمل الدءوب ...

من هذا نعلم

أن الإنسان لا يرى ولا يسمع إلا بقدر، وأن هذا القدر، حدده رب العالمين في عالم الشهادة فقط وهو السماوات والأرض.

فلا يستطيع، ولن يستطيع إنسان أن يرى غيبًا أو يسمع غيبًا ..

وإلا ما ذكر العلي الكبير في كتابه العظيم عالم الغيب، وأنه لا يعلم الغيب إلا الله. قال سبحانه وتعالى:

﴿ وما كان الله ليطلعكم على الغيب ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

﴿عالـم الغيب فلا يظهـر على غيبه أحـداً﴾ [الجن: ٢٦]. بل إن مفاتح الغيب لا يعلمها إلا الله؛ قال العلي الكبير:

﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو﴾ [الأنعام: ٥٩].

أما بعد البعث، فإن الأمر يختلف، فسيكشف الله سبحانه هذا الغطاء الذي علينا في هذه الحياة الدنيا؛ فإذا بنا نرى الآفاق البعيدة .. حتى يرى من في الجنة من في النار ويسمعه ويكلمه، وحتى يقول الكافرون ﴿ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحًا إنا موقنون﴾ [السجدة].

ولما كان ذلك.

فإن الإنسان - في غطائه - لا يرى ولا يسمع سوى عالم الشهادة، وبفكره يعلم ويؤمن: قال سبحانه وتعالى ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون﴾ .

وإذًا فيجب علينا أن نفكر ونفكر كثيراً بالمقدمات الحقيقية التي تؤدي بنا إلى الأدلة والبراهين القاطعة .. التي تثبت وتبين بوضوح وجلاء معنى «الغطاء».

فما هو «الغطاء»؟

ضرب الله لنا مثلاً في واقعة الإسراء والمعراج تبين لنا معنى «الغطاء» ذلك بأن الله سبحانه وتعالى وقد أسرى بعبده ليلاً

فإنه لم يبدأ هذه الرحلة المقدسة بعبده كما هو في الأرض بشراً مثل البشر ولكنه بأمر إلى جبريل شق صدره من أسفل ذقنه إلى عانته وغسل جـوفه كله وقلبه، فأخـرج ما في جوف الرسول كل جوفه من ماء ودماء وأكل ونفايات، أي جعله جوفًا خاويًا من كل ما يملأ جوف الإنسان من شيء .. ثم ملأه نوراً وإيمانًا ..

وأسرى بعبده هكذا

فرأى عبده الغيب

ثم رأى مالك الملك صانع الغيب والشهادة وسجد أمامه وسبح بحمده وأثنى عليه ..

إذًا فقد رأى الرسول ما بعد السماوات السبع ..

فقد رأى الأفق الأعلى المبين ... ثم تقدم حتى كان "قاب قوسين" فرأى الله جل جلاله .. فخر ساجدًا .. فكان "أدنى"

إذًا فلم يكن الرسول ﷺ في هذه الرحلة الغيبية المقدسة في "غطاء" وقد تم كشف هذا الغطاء بإخلاء الجوف البشري من كل ما هو فيه، وملئه نورًا – الله أعلم بسره – وملئه إيمانًا – الله أعلم بسر نوره أيضًا.

وإذا تمعنا كتاب الله سبحانه وتعالى

لوجدنا في الآية الكريمة ﴿وإذا النفوس زوجت﴾ – وفيها فعل الشرط – أن جواب الشرط هو ﴿علمت نفس ما أحضرت﴾ [التكوير: ٧ و١٤].

والنفوس جمع «نفس»

وكلمة «النفس» من مادة «التنفس» فهي نور، لقوله تعالى ﴿والصبح إذا تنفس﴾ أي أضاء وانتشر نوره(١).

فالنفوس وضَّاءة، تزوج بالأبدان يوم البعث(٢).

وإنها لفي خلق جديد. قال الخالق العظيم:

﴿وقالوا أءِ ذا كنا عظامًا ورفاتًا أءنا لمبعوثون خلقًا جديدًا﴾ [الإسراء: ٤٩] ويجيب الخالق العظيم:

﴿أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد﴾ [ق: ١٥].

---

(١) صفوة التفاسير حـ٣/ ٥٢٥.

(٢) تفسير ابن كثير حـ٤ /٤٧٧ في رواية عن ابن عباس، وما قاله أبو العالية وعكرمة وسعيد بن جبير والشعبي والحسن البصري ﴿وإذا النفوس زوجت﴾ أي زوجت بالأبدان.

ومن هذا نعلم – بعلم الله سبحانه – ان البعث يكون بالجسد فيكون شفافًا في حجم هائل يتناسب مع قوله تعالى ﴿عين﴾ وفيه النفس تنوره بنورها وضيائها .. ذلك بأن الجسد حين البعث خالٍ من أي شيء مما فيه في الحياة ..

وعندئذ يكون قد كشف عنها غطاءها؛ ويقول للكافر فقط:

﴿لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾، أي أنك أيها الكافر كنت في غفلة أي غير مصدق وضال فلم تؤمن لذلك وصف الله حال الكفرة فقط في هذا الموقف بقوله تعالى: ﴿ولو ترى إذ المجرمون ...﴾ الآية. فليس في جسم الإنسان ماء ولا دماء ولا أكل ولا نفايات، بل عظام يكسوها لحم في حجم هائل شفاف يملؤ الجميع نفس وضّاءة منورة ...[1]. ذلك عند البعث ..

وإذًا فالغطاء الذي على البشر هو السمك الغليظ للجسم وكل شيء داخل جسم البشر من محسوسات ... وهذه المحسوسات هي التي تتفاعل في الجسم الغليظ المعتم وتجعل من قدراته قدرات محدودة وتقهر نفسه حتى لا تفيق من حربها معه أبدًا، الأمر الذي جعل كل جهاد الإنسان في حياته جهاداً مع الجسد وغرائزه حتى يخلص بالنفس من كل ما تلاقيه في حربها مع هذا الغطاء . حتى أسمته السنة المطهرة بالجهاد الأكبر.

﴿قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دساها﴾ الشمس دساها أي غطاها وأخفاها.

وإذا كان الرسول ﷺ دليلاً على كشف الغطاء عنه في ليلة الإسراء والمعراج، ومن ثم وإن كان دليل غيبي؛

فإن الأدلة المادية القائمة تعيننا قطعًا على فهم المعنى والتأكد من يقينه.

فهذا هو الحجر والجبل والأجرام عامة.

---

(١) أما القول بأن النفس هي الروح، فهذا خلط فالملك الذي اسمه «الروح» نسبة إلى جبريل الروح القدس هو الذي ينفخ «النفس» في الجنين، والنفس وصفها بأنها منورة في ذاتها، وأنها أمارة بالسوء أو لوامة أو مطمئنة وذلك من حيث جهادها مع «الغطاء».

وقد ضربه الله لنا مثلاً، ولله المثل الأعلى ...

فكل الأجرام ليست في غطاء ..

فليس فيها إلاّ خلقها الذري وتحييزها بقدرته سبحانه في هيئة عناصر ومواد ..

فليس فيها تفاعلات كيماوية أو هضمية أو غيرها متصارعة مع نفس ولكنها ذرات تسبح بحمد الله ...

فالحجر يهبط من خشية الله.

والجبل يتصدع من خشية الله.

لأنهم يرون ويسمعون بغير حدود أي أن سمعهم وبصرهم حديد

فيعلمون حقيقة علم الله في قرآنه فلو أنزل الله قرآنه على جبل لتصدع، لأن الجبل يرى ما لا يراه الإنسان ويسمع ما لا يسمعه الإنسان ومن ثم يعلم ما لا يعلمه الإنسان.

فآيات صدر سورة «المؤمنون» العشرة تأخذ في قراءتها دقيقة أو دقيقتين، ولكن الثابت في كتب التفسير والسيرة النبوية أنها أنزلت على رسول الله ﷺ في ساعة ونيف وقام بعدها مبللاً بالعرق ... ﴿ ... فإلم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله .. ﴾ [هود: ١٤] على قلب الرسول ﴿نزل به الروح الأمين. على قلبك لتكون من المنذرين﴾ [الشعراء] ﴿لكن الله يشهد بما أنزل إليك، أنزله بعلمه، والملائكة يشهدون؛ وكفى بالله شهيداً﴾ [النساء: ١٦٦].

فقلب الرسول ﷺ تحمل نزول القرآن عليه لسببين: الأول النور العظيم الذي يملأه والثاني أنه في غطاء.

ولكن الجبل لا يتحمل نزول القرآن عليه لأن الجبل ليس في غطاء. وليس فيه النور الذي في قلب الرسول ولا يعلم سره إلا الخالق العظيم ..

ولأن كل الأجرام وكذلك الملائكة ليست في غطاء، فهي تخاف الله وتخشاه وترهبه ﴿ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته﴾ [الرعد: ١٣] ﴿ يخافون ربهم

من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ [النحل: ٥٠][(١)] ﴿ وقال لها وللأرض إئتيا طوعًا أو كرهًا قالتا أتينا طائعين ﴾ [فصلت: ١٢] السماوات السبع وما فيهن من أجرام والأرض خافتا الله فأجابتا في التو واللحظة « أتينا طائعين ».

وكذلك الناس كل الناس

فعندما دعا الله عز وجل الناس في الخلق الأول أو النشأة الأولى التي يقول عنها البعض خطأ « حياة الذر »؛ وكانوا في حالة كشف.

فقال لهم رب العالمين: ﴿ الست بربكم ﴾ أجابوا ﴿ بلى ﴾ أي نعم أنت ربنا

أما في هذه الحياة الدنيا

فلأن الناس في غطاء، فكثير منهم لا يؤمنون ...

لهذا شرع العلي الكبير العليم الحكيم فريضة الصيام

فيكون الصائم وقد خلَّى جوفه تقريبًا من تفاعلات الطعام وأشرف أن يكون جسده مرتاحًا من صراع الطعام مع النفس، فيرنو بنفسه إلى نور ربه عسى أن يكون من السالكين إلى الرحمن سبيلاً، ويسبح بحمد الله ويقشعر جلده ثم يلين جلده وقلبه لذكر الله ويخشى رب العزة ويصدع لأمره سبحانه ..

ومن هذه الخشية كانت الحكمة من الصيام ﴿ لعلكم تتقون ﴾ [البقرة: ١٨٣] و ﴿ تتقون ﴾ أي تخافون.

ويقول الرسول ﷺ

(رأس الحكمة مخافة الله).

ومن هنا كان التبليغ للذين يخشون ربهم بالغيب

﴿ إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب ... ﴾ [يس: ١١].

وتأكيداً لهذا المعنى فإن الله سبحانه نهى عن الإسراف في الأكل فقال سبحانه

---

(١) من الخطأ الفاحش الاستشهاد بقوله تعالى ﴿ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ لأنه خاص بالملائكة الغلاظ الـ ١٩ حفظة جهنم، وذلك في الآخرة أي لم يحدث بعد !!

وتعالى: ﴿ يا بني ءادم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا؛ إنه لا يحب المسرفين ﴾ [الأعراف: ٣١].

ولزيادة البيان من الرحمن

قال للناس أجمعين في بني إسرائيل:

﴿ وكلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي، ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى ﴾ [طه: ٨١]. ومعنى «تطغوا» أى تجاوز الحد، أي أكثر مما ينبغي، بسبب كثرة المال وقوة البدن، أو الشره ... إلخ.

ومعنى «هوى» صار إلى الهاوية وهي قعر النار من هوى يهوي إذا سقط من علو إلى سفل[١].

والمعنى واضح بيِّن

فكثرة الأكل تعود على الجسد؛ إما بزيادة النزوات الجسدية، وإما بكثرة أوجاعه وأمراضه، فتكون عبئًا على النفس، فتكون مساتير الجسد طاغية باغية فتحجب نور النفس عن ربها وتكون تحت أثقل غطاء أسيرة وعدم. لذلك قال سبحانه وتعالى يبين هذا المعنى:

﴿ ونفس وما سواها ﴾ أي عدل أعضاءها وقواها الظاهرة والباطنة فجعلها مستعدة لكمالها.

﴿ فألهمها فجورها وتقواها ﴾ أي بين لها الخير والشر والطاعة والمعصية.

﴿ قد أفلح من زكاها ﴾ من طَهر بطاعة الله عز وجل.

﴿ وقد خاب من داسها ﴾ أي قد خاب من أخفى نفسه. و﴿ دساها ﴾ أي أخفاها لغة[٢]. وهي هنا تكون مختفية خلف مساتير الجسد نتيجة كثرة الطعام. والذي تختفي نفسه، يصير نهب غرائزه وشيطانه، فيهوي. أي يكون مآله قعر النار من كثرة وفداحة معاصيه نتيجة عظمة سمك الغطاء الذي أخفى نفسه فيه.

---

(١) صفوة التفاسير حـ٢/ ٢٤٢.

(٢) صفوة التفاسير حـ٣/ ٥٦٥، ٥٦٦.

الفصل الرابع عشر

الإيمـــــان

المبحث الأول: قول السلف والخلف والمحدثين

لأنه ﷺ صفوة خلق الله العظيم وررحمة للعالمين، فهو الإيمان كله.

فما الإيمان؟

قال الإمامان التفتزاني والقسطلاني: الإيمان لغة هو التصديق، وشرعًا تصديق الرسول فيما جاء به عن ربه عز وجل.

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه: اليقين هو الإيمان كله.

وقال عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما: الإيمان شرعة ومنهاجًا، سبيلاً وسنة دعاؤكم إيمانكم لقوله تعالى: ﴿قل ما يعبأ بكم ربكم لولا دعاؤكم﴾ ومعنى الدعاء في اللغة الإيمان.

وعند ابن عُيَيْنَة والثوري وابن جريج ومجاهد ومالك بن أنس وغيرهم من سلف الأمة؛ الإيمان هو قول باللسان - وهو النطق بالشهادتين - وفعل.

ويرى أبو ذر الغفاري رضي الله تعالى عنه: الإيمان قول باللسان وعمل بعد فعل، وهو أعم من عمل القلب والجوارح لتدخل الاعتقادات والعبادات.

ويرى القسطلاني أن الإيمان تصديق يقع في القلب وإذعان وقبول بمعنى التسليم[1].

ويقول حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالي: معنى الإسلام هو الإذعان والتسليم ومعنى الإيمان هو قبول القلب. وأن الله تعالى ذكرهما في القرآن فأراد بهما شيئًا واحدًا

(١) كتاب «شروح البخاري» للإمامين النووي والقسطلاني/١٠٦.

في قوله تعالى: ﴿ فاخرجنا من كان فيها من المؤمنين. فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ﴾ [الذاريات: ٣٥ - ٣٦]. وذكرهما مرة بمعنيين مختلفين في قوله تعالى: ﴿ قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم ﴾ يعني أذعنتم ولم تنشرح به صدوركم(١).

ويرى الإمام الحسن البصري: إن الإيمان يستتبع العمل الصالح قطعًا، فليس من المعقول أن نؤمن بالصلاة ثم نتركها ونؤمن بتحريم الخمر ثم نشربها ونؤمن بتحريم الزنا والقتل ثم نرتكبه(٢).

ويرى المعتزلة: ان الإيمان هو الإسلام لقوله تعالى: ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه ﴾ وإذًا ففعل الواجبات إقرارًا كانت أو عملاً هو الإيمان.

ويرى الإمام أبو الحسن الأشعري: ان الإيمان هو التصديق فقط وأنه يمكن الجمع بين صفتي الإيمان والفسوق في شخص واحد(٣).

وقد استدل بعض العلماء من قوله تعالى:

﴿ وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين ﴾ [يوسف: ١٧].

بأن معنى الإيمان هو التصديق.

أي أن الإيمان مطلقًا هو التصديق؛ وأن الإيمان في مورد الدين أي شرعًا هو التصديق بأحدية الله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وقضائه وقدره.

وقد زاد الإمام أبو حنيفة على التصديق الإقرار باللسان أى ان الإيمان لديه هو التصديق بذلك وإقرار اللسان به.

ولأن الإيمان - لديه - هو التصديق، فهو إذًا لا يزيد ولا ينقص؛ فإيمان الأنبياء كإيمان العامة؛

---

(١) «مختصر إحياء علوم الدين» للإمام الغزالي/٤٤.

(٢) «أبو الحسن الأشعري» للدكتور فاروق حمودة/٣٩.

(٣) المرجع السابق/١٢٣.

ويؤيد أبو حنيفة رأيه بقول الله تعالى: ﴿ وإذا سمعوا ما أُنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق، ويقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين. وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين. فأثابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، وذلك جزاء المحسنين ﴾ [المائدة: ٨٣ – ٨٥] فأوصلهم إلى الجنة بالمعرفة (التصديق) والقول (الإقرار باللسان) وجعلهم مؤمنين بالجارحتين: بالقلب واللسان. أما المعرفة فقط فهي ليست إيمانًا لقوله تعالى: ﴿ يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ﴾ [البقرة: ١٤٦] فلم تنفعهم المعرفة مع كتمانها.

ويرى أبو حنيفة، ترتيبًا على ذلك، أن العمل ليس جزءاً من الإيمان(١).

ومن استقراء معنى « الإيمان » لدى السلف

نرى أنهم – وعلى رأسهم حبر الأمة ترجمان القرآن عبد الله بن عباس – يقولون بأن الإيمان هو تصديق بالقلب وإقرار باللسان وفعل. ويضيف أبو ذر وعمل.

والمعتزلة أوضح السلف موقفًا فيرون بمنتهى الوضوح والتحديد أن الإيمان قول وفعل ويستشهدون بقول الله تعالى: ﴿ وما أُمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة ﴾ [البينة: ٥].

وذلك فيما عدا الإمام أبي حنيفة من السلف، وأبو الحسن الأشعري المنشق على المعتزلة.

ولما كان ذلك الخلاف أساسيًا؛ حيث أنه أثير كثيراً بين الناس؛ ويترتب عليه نتائج لا شك أنها خطيرة بل رهيبة .. فإن بيان أسانيد كل رأي أمر ينير الطريق للمؤمنين ..

فما هو الخلاف؟

وبدء ذي بدء، فإن الخلاف بين الأطراف كلها إنما ينحصر في حقيقة الأمر في

---

(١) « أبو حنيفة » للشيخ محمد أبو زهرة/ ١٧٠ وما بعدها.

نقطة واحدة هي مفترق الطرق بين صراط الله المستقيم وبين السبل .. وهذه النقطة هي: هل الإيمان تصديق بالقلب ونطق بالشهادتين؟ أم أن الإيمان هو التصديق والشهادة والعمل؟

أي هل الإيمان قول؟ أم: قول وعمل؟

فالذين يقولون بأن الإيمان قول يستندون إلى الآية الكريمة: ﴿ وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين ﴾ فيقولون بأن الإيمان تصديق فقط وهو الشهادة أي قول فقط. ولما كان ذلك، فإن كلمة «بمؤمن» التي معناها بمصدق تكون قد أخذت بمعناها اللغوي في مجرى الشرع مع أن للكلمة القرآنية أعماق أخرى تتفق وتتوافق مع دلالات الدين ومن ثم يجب أن تشمل هذه الدلالات كما تشمل الصور البلاغية للكلمة تعميقًا للبيان والمعنى.

ومن هنا، نرى قصور الرأي القائل بأن معنى الإيمان هو التصديق والنطق بالشهادتين، أي أنه قول فقط.

ولما كان الإمام أبي الحسن الأشعري هو أكثر هؤلاء تدليلاً على قوله ولا يختلف كثيراً عن الإمام أبي حنيفة.

فإننا – في بيان رأيه بالتفصيل – نكون قد أبرزنا ذلك الرأي بجميع أقطاره.

فيقول الأشعري: إن الله تعالى يقول ﴿ لا يصلاها إلا الأشقى. الذي كذب وتولى ﴾ ويقول سبحانه: ﴿ وهل نجازي إلا الكفور ﴾ سبأ ونضيف للأشعري آية كريمة أخرى ﴿ إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى ﴾ طه.

ويشرح الأشعري هذه الأدلة بقوله: إن العقل والشرع قد فرقا بين من أقر وصدق وبين من جحد وكذب. فوصف الأول بأنه مؤمن مع تقصيره وسمى الثاني كافراً مهما جرى من العمل الصالح على يديه. فليس من شك في أن قتال المؤمن للمؤمن كبيرة في نظر الشرع ومع ذلك فقد سمى الشرع من فعلها مؤمنًا فقال تعالى: ﴿ وإن طائفتان من

المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداها على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله ﴾ [الحجرات: ٩].

ولم يُسوِّ الشرع في الحكم بين الكبيرة والإشراك فقال تعالى: ﴿ إن الله لا يغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ وليس المقصود هو الصغائر قطعًا لأنها مغفورة إن لم ترتكب الكبائر؛ قال تعالى ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم ﴾ [النساء: ٣١].

ثم يعطف الأشعري بعد ذلك على بيان معنى الإيمان فيقول: الإيمان هو الاعتقاد الجازم بكل ما ثبت مجيئه بالضرورة من عند الله تعالى على لسان رسوله مع الرضا بهذه العقيدة والارتياح لها، أما الإقرار باللسان فليس جزءاً من الإيمان وإن كان ضروريًا من العبد لإجراء أحكام المؤمنين عليه.

ثم يقول الأشعري: أما العمل فمن أدى الفرائض واجتنب الكبائر والصغائر فهو من السابقين الأولين.

ومن أدى الفرائض واجتنب الكبائر وفعل الصغائر فهو من الناجين.

ومن أدى الفرائض وارتكب كبيرة ثم تاب عنها كان من أولئك الذين يتمتعون بعفو من الله عنهم.

أما من لم يؤد الفرائض أو ارتكب الكبائر ولم يتب، فهو إلى الله إن شاء عذبه.

والأشعري في ذلك خلاف الكرامية والمرجئة الذين يقولون: •

وإن شاء عفا عنه.

والأشعري في ذلك خلاف المعتزلة والخوارج.

ويقول الأشعري: إنه بذلك يمكن الجمع بين آيات الوعد والوعيد التي يبدو تضاربها، وتصلح حال النفوس المؤمنة. فلا تفريط في الواجبات يجرئ على المعصية؛ ولا إفراط في الشدة يحرم الناس أمل العفو إذا وقعت منهم بعض الزلات عند هزيمة

عقولهم أمام شهواتهم(١).

ومن هذا نرى أن الأشعري، لديه أن الإيمان هو التصديق فقط. وأن العمل أثر للتصديق وليس جزء من الإيمان.

وإذا كان الإمام أبو حنيفة قد أبان أن الإيمان تصديق وإقرار باللسان، فإن الخلاف بين الإمامين ليس إلا خلاف شكلي لا يتعداه. لأن من الناس من خلقهم الله سبحانه بغير قدرة على الكلام، فهل نقول إن إيمانهم بقلوبهم غير قائم لأنهم لم ينطقوا به !!

أما قول أبي حنيفة بأن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، فهو يتعارض مع ظاهر النصوص القرآنية ذلك بأن القرآن العظيم به من الآيات ما يدحضه مثل قوله تعالى: ﴿ هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم ﴾ [الفتح: ٤] وقوله تعالى ﴿ الذي قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانًا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ [آل عمران: ١٧٣]. وغير ذلك كثيرًا، ومن ثم فإن القول بأن إيمان الأنبياء مساوٍ لإيمان العامة يكون قولاً فاسدًا.

والقول بأن الإيمان هو التصديق فقط، قصور، فكما يقول الإمام النووي: نفس التصديق يقبل الزيادة. لأنه يزيد بكثرة النظر، وتظاهر الأدلة، حتى كان الصديقين أقوى بحيث لا تعتريهم الشبهة، ولا يُزَلْزَل إيمانهم بعارض. بل لا تزال قلوبهم منشرحة وإن اختلفت عليهم الأحوال. وأما غيرهم من المؤلفة قلوبهم ومن داناهم ونحوهم فليسوا كذلك، وهذا مما لا يمكن إنكاره، ولا يشك عاقل في أن تصديق الصديق رضي الله تعالى عنه لا يساويه تصديق كل أحد. ولذلك أورد البخاري: قال ابن مليكة: أدركت ثلاثين من الصحابة، كلهم يخاف النفاق على نفسه، ما منهم أحد يقول إنه على إيمان جبريل وميكائيل عليهما السلام(٢).

ومن هذا يتبين أن "التصديق" مطلقًا، يزيد وينقص، وبزيادته يزيد الإيمان. قال

---

(١) «أبو حسن الاشعري» للدكتور حمودة غرابة/١٧٦ - ١٧٩

(٢) «أبو حنيفة» الشيخ محمد أبو زهرة/١٧٣.

تعالى ﴿ .... وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون ﴾ [الأنفال: ٢].

فما هو رأي "الخلف" في معنى الإيمان؟

وأهم الخلف وأظهرهم هو الإمام الحافظ بن كثير فيقول مستعرضاً كافة المعاني: قال أبو جعفر الرازي بسنده عن عبد الله قال: الإيمان التصديق، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما يؤمنون يصدقون وقال معمر عن الزهري الإيمان العمل وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس يؤمنون يخشون. وقال الإمام ابن جرير: والأولى أن يكونوا موصوفين بالإيمان بالغيب قولاً واعتقاداً وعملاً وتدخل الخشية لله في معنى الإيمان الذي هو تصديق القول بالعمل؛ والإيمان كلمة "جامعة" للإيمان بالله وكتبه ورسله وتصديق الإقرار بالفعل.

ويعقب الإمام ابن كثير على ذلك مبيناً رأيه فيقول: أما الإيمان في اللغة فيطلق على التصديق المحض وقد يستعمل في القرآن والمراد به ذلك كما قال تعالى ﴿ يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ﴾ وكما قال إخوة يوسف لأبيهم ﴿ وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين ﴾ وكذلك إذا استعمل مقروناً مع الأعمال كقوله تعالى ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾. فأما إذا استعمل مطلقاً فالإيمان الشرعي المطلوب لا يكون إلا اعتقاداً وقولاً وفعلاً. هكذا ذهب إليه أكثر الأئمة بل قد حكاه الشافعي وأحمد بن حنبل وأبو عبيدة وغير واحد إجماعاً أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص .. ومنهم من فسره بالخشية كقوله تعالى: ﴿ إن الذين يخشون ربهم بالغيب ﴾ و ﴿ من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب ﴾. والخشية هي خلاصة الإيمان والعلم كما قال الله تعالى: ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾(١).

قال تعالى: ﴿ إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم ﴾ [يس: ١١].

---

(١) تفسير ابن كثير حـ١ / ٤٠ - ٤١.

أما المحدثون

فيرون للإيمان معنى، بسطه التفسير الوسيط - علماء الأزهر الشريف - في قولهم: الإيمان بالغيب هو التصديق والإذعان القلبي به، وتقسم التكاليف الشرعية إلى ترك وفعل. وما يطلب تركه يدخل تحت عنوان المتقين؟ والفعل: إما قلبي .. ويدخل تحت قوله تعالى: ﴿ الذي يؤمنون بالغيب ﴾. وإما من عمل الجوارح .. وهي الأعمال البدنية وأشار إليها ﴿ ويقيمون الصلاة ﴾. وأعمال مالية أشار إليها سبحانه ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾. وأن الترك من قبيل التخلية وأن الأفعال من قبيل التحلية، لهذا أسبق الله وصف المتقين على غيره لأن التخلية أشبه بإزالة الأدران والأوساخ قبل التحلية باللباس النظيف من الأعمال؛ ويليّ هذا مباشرة عمل القلوب، وهو الإيمان بالغيب لأنه أساس قبول العمل الصالح، لأن العمل مهما كان صالحًا وعلى غير إيمان صحيح لا يقبل لقوله تعالى: ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً ﴾ [الفرقان: ٢٣](١).

ويرى الشيخ محمد أبو زهرة: التصديق تتفاوت قوته ومظهر ذلك العمل، فهناك تصديق تبلغ قوته درجة لا يستطيع الشخص أن يخالف حكمه، وهناك تصديق يؤثر في ظاهر العقل ويخضع له منطق الفكر، ويذعن لحكمة القلب، ولكن لا يستغرق التصديق المشاعر والأهواء ويسيرها، بل يكون الشعور والإحساس والعمل في جانب والعقل والفكر والمنطق في جانب آخر(٢).

وواضح من هذا أن الإيمان لدى المحدثين هو قول وعمل، وأنه يختلف قوة وضعفًا بمدى الطاعة لله سبحانه في القيام بالتكاليف الشرعية.

---

(١) التفسير الوسيط / ٣٠ بتصرف.

(٢) «أبو حنيفة» للشيخ محمد أبو زهرة.

المبحث الثاني : حقيقة الدين

الثابت أن الإيمان لغة : هو التصديق مطلقًا. وإذا زاد التصديق صار يقينًا.

والإيمان شرعًا : هو التصديق اليقين بالله والملائكة والكتاب والنبيين وقضائه وقدره واليوم الآخر.

أما العمل فهو تنفيذ منهاج الله أي القران العظيم بالاتباع عملاً وسلوكًا وهو العبادة مطلقًا، والاثنان معًا هما الدين هما الإسلام.

ولأن الفرق بين المعنيين كبير، ويؤدي إلى نتائج خطيرة جداً وأساسية سواء في السلوك الشخصي أو الجماعي أو على مستوى الحكم، فإن بذل الجهد في العلم هو أمر لازم شرعًا.

ولأن الله سبحانه أمرنا ﴿وإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمون بالله واليوم الآخر﴾ وبين سبب ذلك فقال تعالى ﴿ ذلك خير وأحسن تأويلاً ﴾ أي خير لكم وأحسن تفسيراً للقرآن.

لذلك

وحتى يكون المعنى واضحًا، فقد قص علينا سبحانه ما حدث من إبليس الرجيم. فقد أمره رب العالمين مع من أمر من الملائكة: ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين﴾ البقرة.

وسأله رب العالمين ﴿قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي؛ استكبرت أم كنت من العالين﴾ [ص: ٧٥].

فأجاب إبليس: ﴿قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾ [ص: ٧٦] قال رب العالمين ﴿قال فاخرج منها فإنك رجيم. وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين﴾ [ص: ٧٧ - ٧٨].

قال إبليس: ﴿ رب فانظرني إلى يوم يبعثون ﴾ [ص: ٧٩].

أجاب رب العالمين ﴿ قال فإنك من المنظرين. إلى يوم الوقت المعلوم ﴾ [ص: ٨٠ - ٨١].

وواضح من هذا الحوار الحقائق الآتية

أولاً: ان إبليس الرجيم يؤمن بالله سبحانه ويؤمن بأن الله خالقه.

ثانياً: يؤمن إبليس بالبعث واليوم الآخر والحساب والجزاء.

أي ان إبليس حسب تعاريف الذين يقولون بأن الإيمان هو التصديق بالغيب يكون مؤمناً لأنه مصدق بالغيب.

ومعنى ذلك أيضاً أن التصديق وحده هو دليل الإيمان وبه يكون الإنسان مؤمناً. ومن ثم فمهما فعل الإنسان من معاصي فهو مؤمن طالما أنه مصدق.

وإذاً فلنرجع إلى كتاب الله، ونرى ماذا وصف الله به إبليس رغم تصديقه.

قال سبحانه ﴿ قال فاخرج منها - أي من الجنة - فإنك رجيم - أي مرجوم مطرود من الخير ﴾[1].

وأخبرنا سبحانه عنه بعد أن طرده من الجنة بأن ذلك لأنه كفر بالله فقال جل من قائل ﴿ ... إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ﴾ [البقرة: ٣٤].

وأبى أي رفض واستكبر أي غمط آدم حقه وأشرك رأيه بالله فعصاه، لذلك فقد كفر. لأن كلمة "كان" تعني: عدم قبله وجود.

فإبليس كان مؤمناً عندما أمره الله مع من أمر بالسجود لآدم، فلما امتنع عن تنفيذ أمر ربه سبحانه بالسجود لآدم عليه السلام، صاركافراً. ويبين العلي الكبير ذلك في قوله تعالى: ﴿ إلا إبليس كان من الجن ففسق - خرج - عن أمر ربه ﴾ [الكهف: ٥٠].

---

(١) تفسير ابن كثير حـ١/ ١٦.

والجن سبق أن عاثوا فساداً كبيراً، والله سبحانه يبين أن سبب فسوق إبليس هو لأنه كان أصلاً من هذا الجنس. فالأصل غلاّب.

وإذاً فإبليس مؤمن بمعنى مصدق تماماً بأن الله ربه وخالقه وباعثه ومجازيه يوم القيامة والحساب.

ولكن لأنه لم «يعمل» بما أمره الله به، وعصاه، فإن الله سبحانه قد دمغه جزاء هذا العصيان بالكفر. فقال تعالى: ﴿إن الشيطان - أي إبليس - كان للرحمن عصيًّا﴾.

ومن هذا الهدي القرآني العظيم، نعلم علم اليقين أن التصديق بالله واليوم الاخر والنطق بذلك لا يخلع على قائله صفة المؤمن، فالتصديق وإن كان إيمانًا، إلا أنه لا بد وأن تصحبه الطاعة ومن ثم فالدين هو التصديق مطلقًا بالله مع الطاعة لله وهي عبادته.

قال العلي الكبير ﴿فاصدع بما تُؤمر﴾ [الحجرك ٩٤].

ومعنى هذا أن الشهادة بأنه "لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله" لا تدل بذاتها على الإيمان إن لم يعقبها العبادة أي اتباع ما أنزل الله واتباع الرسول.

﴿.... فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم﴾ التوبة.

وتأييداً لهذا؛ يقول رب العالمين:

﴿إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون، اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله ...﴾ [المنافقون: ١-٢].

وقال العلي الكبير:

﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزءون﴾ [البقرة: ١٤].

ومعنى هذا أن الشهادة لا تكفي بذاتها للدلالة على الإيمان وإن كانت مدخلاً له، ذلك بأن معنى "الكفر" لغة هو ستر الشيء، أي تغطيته عن أن يكون ظاهراً، وإذاً فالإيمان يكون بظهور الشيء بعدم وجود المساتير عليه. ولما كان الإيمان هنا هو الإيمان بالله، ولما كان الله غيباً، فإن ظهور الإيمان يكون بالطاعة لله، فأعمال الطاعة هي بذاتها الظهور بالإيمان؛

"والإيمان" واحد لا يتجزأ مثله مثل القرآن العظيم: واحد لا يتجزأ.

قال تعالى: ﴿أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض؛ فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا، ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب؛ وما الله بغافل عما تعملون.أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة، فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون﴾ [البقرة: ٨٥ – ٨٦].

فعندما خلف أبو بكر رسول الله ﷺ، امتنع بعض القوم عن دفع الزكاة وقالوا إنا نشهد بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ونقيم الصلاة ونصوم رمضان ونحج البيت الحرام، فأبى أبو بكر عليهم ذلك وقال إنهم كفروا بالله ورسوله، وتحاج القوم، فقال عمر بن الخطاب: إنهم يشهدون ورسول الله ﷺ قال: (من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله فقد عصم مني دمه وماله) فأجابه أبو بكر مكملاً الحديث الشريف: (إلا بحقها). والزكاة من حقها يا عمر. واقتنع كل المسلمون واعتبروا الذين امتنعوا عن دفع الزكاة مرتدين عن الإسلام ومن ثم كفرة وقامت حروب الردة حتي فاء القوم إلى الرشد وآمنوا بالله ودفعوا الزكاة.

أي أن الإيمان يقين بالله وطاعة لأحكامه عملاً.

وأخرج الإمام ابن كثير بسنده عن أبي ذر أنه سأل رسول الله ﷺ ما الإيمان؟ فتلا عليه قوله تعالى: ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وءاتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وءاتي الزكاة والموفون

بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس، أولئك الذين صدقوا، وأولئك هم المتقون ﴾ [البقرة: ١٧٧]، ثم سأله فقال: (إذا عملت حسنة أحبها قلبك وإذا عملت سيئة أبغضها قلبك) وعن أبي ذر أن رسول الله ﷺ أشار بيده وقال (المؤمن إذا عمل حسنة سرته ورجا ثوابها وإذا عمل سيئة أحزنته وخاف عذابها)(١) والمؤمن هنا بمعنى المسلم الذي آمن بالله والغيب كله وأطاع الله واتبع الرسول ﷺ.

وقال تعالى معرفًا المؤمنين: ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، أولئك هم الصادقون ﴾ [الحجرات: ١٥].

نخلص من ذلك إلى:

أن الدين واحد لا يتجزأ فهو شهادة كبداية ومدخل يؤدي إلى أركان الدين، فإذا سقط ركن سقطت بقية الأركان وصارت الشهادة بغير مضمون وعنوانًا على لا شيء.

وهذا هو المنطقي، وإلا كان لكل إنسان أن يختار فيأخذ ما يحب ويدع ما يكره أو يثقل عليه، ولذهب بذلك الإيمان إلى طرق كثيرة نهايتها مسدود على الخير وعلى الإقرار بالدين حقًا وصدقًا.

وغني عن الذكر أن ذلك من شأنه تضارب مصالح الناس، فهذا يدفع الزكاة وهذا لا يدفعها، وهذا يصلي وذاك لا يصلي، وهذا يجاهد في سبيل الله، وذاك قاعد عن الجهاد، وهذا يحسن وذاك يسيء، وهذا يترك المحرمات وذاك يأتيها. وهذا يحكم بما أنزل الله وذاك يحكم بهواه أو بهوى الشيطان أو بهوى المشركين، فيختلط الحابل بالنابل وتضيع المصالح الشرعية وتتقطع الأرحام ويعم الفساد وتنتشر الرذيلة ويصبح الفجور ذا مكان وسطوة ويصبح الصالح والطالح كلاهما في صف واحد، وحاشا لله أن يكون ذلك هديه ﴿ أفمن كان مؤمنًا كمن كان فاسقًا، لا يستوون ﴾ [السجدة: ١٨].

إذًا الحقيقة القرآنية أن الدين قسم لا قسيم

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ /٢٠٧.

وما دامت كذلك فلا بد أن يكون لها بيان في سنة الرسول ﷺ بعد بيان القرآن العظيم لها ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نُزِّل إليهم ﴾.

والبيان الأول:

يجليه الحديث الشريف المشهور (بُني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً).

وهذا الحديث - بادئ ذي بدء - حديث مرحلي قيل قبل نزول فريضة القتال في سبيل الله، فلما نزلت سئل الرسول ﷺ أي الأعمال أفضل؟ قال الرسول ﷺ: الصلاة في ميقاتها. قيل ثم أي؟ قال: القتال في سبيل الله. قيل ثم أي؟ قال: حج مبرور[١].
وقال: (رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه القتال في سبيل الله).

وقد بينا أن غياب أحد الأركان يهدر باقيها، ومن ثم فإن وجود ركن وغياب بقية الأركان يعتبر أظهر في بيان الكفر والارتداد عن الإسلام.

والبيان الثاني:

هو حديث الرسول (ليس الإيمان بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصَدَّقه العمل).

والعمل هو أداء الطاعات من فعل وترك وليس النطق بالشهادة كما يدعي أولئك الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمناً قليلاً هي زينة هذه الحياة الدنيا.

وكلمة «وقر» يعني استقر في القلب وتمكن منه، ومن ثم ينفعل به الإنسان فيظهر ذلك عليه تلقائيًا بالطاعة لله مطلقًا حتى ذروة سنام الدين وهو الجهاد في سبيل الله ببيع النفس والمال طلبًا للجنة، وهذا هو التصديق بالعمل. فالعمل بالطاعات هو الأمر الظاهر وتصديق ما وقر في داخل القلب ولا يعلم به إلا الله وصاحبه.

---

(١) تفسير ابن كثير حـ١.

لهذا يذكر ربنا العظيم دائمًا الإيمان مقرونًا بالعمل الصالح، وكما بين الإمام ابن كثير أن الإيمان في هذه الآيات يعني التصديق ولذلك يذكر العلي العظيم مظهر هذا التصديق وهو الأعمال الصالحة ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا﴾ [الكهف].

وإذًا وطبقًا للمفهوم العلمي للدليل، فإن الإيمان سبب العمل الصالح، والكفر سبب علة الأعمال غير الصالحة.

فمناط العمل الصالح هو ان يكون نابعًا من الإيمان بالله والطاعة له وللرسول، فإن زاغ عن منهج الله في كتابه الكريم وهدي رسوله، صار صادرًا من منطلق الكفر.

وعن سعيد بن جبير أن للعمل المتقبل شرطين أحدهما أن يكون خالصًا لله وحده والآخر ان يكون صوابًا اي موافقًا للشريعة(١) أو كان مصلحة مرسله(٢).

وأخرج مسلم من حديث السيدة عائشة أن الرسول ﷺ قال: (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد). واستشهد الإمام ابن كثير في سبيل بيان ذلك وتأييدًا قول الله تبارك وتعالى: ﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا﴾(٣).

والبيان الثالث:

﴿... وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين. إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانًا وعلى ربهم يتوكلون. الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون﴾ [الأنفال: ١ - ٣] ثم فصل العلي الكبير هذا البيان بقوله جل شأنه:

﴿قد أفلح المؤمنون. الذين هم في صلاتهم خاشعون. والذين هم عن اللغو

---

(١) تفسير ابن كثير حـ١/ ١٥٤.

(٢) المصلحة المرسلة هي التي لا تتعارض مع احكام الدين ولم يرد لها ذكر في القرآن والسنة المطهرة.

(٣) تفسير ابن كثير حـ١/ ١٥٤.

معرضون. والذين هم للزكاة فاعلون. والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين. فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون. والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون. والذين هم على صلواتهم يحافظون. أولئك هم الوارثون. الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾ [المؤمنون: ١ — ١١].

ولما ملك الإيمان قلوب المؤمنين، فإن الله جل شانه، العليم بذات الصدور، أنزل القبس النوراني الخاتم، والدليل الآكد على الإيمان الحق، فقال تبارك وتعالى:

﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة؛ يقاتلون في سبيل الله فيَقتلون ويُقتلون .. ﴾ [التوبة: ١١١].

وتحقيقًا لهذا كله وترسيخًا له في الناس وبين الناس، أمر العلي العظيم الذين يؤتيهم ولاية الحكم بين الناس بأن يقيموا العمل لوجه الله ﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ﴾ وبين هذا العمل بكل الوضوح والاحكام في قوله تعالى:

﴿ الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر؛ (أي العمل بكل منهج الله شريعة وهداية وعلمًا) ولله عاقبة الأمور ﴾ [الحج: ٤١].

والبيان الرابع:

وترتيبًا على هذه الحقيقة القرآنية؛ حقيقة أن الإيمان سبب العمل الصالح فإن الله جل جلاله جعل "الحساب والجزاء" يوم القيامة بميزان "العمل الخالص لوجه الله"

فقال جل جلاله:

﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره. ومن يعمل مثقال ذرة شرًا يره ﴾ سورة الزلزلة التي تبين أحداث يوم القيامة ..

وكذلك في سورة الحجر يقسم الله بذاته فيقول سبحانه: ﴿ فوربك لنسألنهم أجمعين. عما كانوا يعملون ﴾ ﴿ الحجر: ٩٢ — ٩٣].

وقال تعالى مؤكداً ذلك :

﴿ وَلَتُسْئَلُنَّ عما كنتم تعملون ﴾ [النحل : ٩٣] .

وقال جل جلاله في سورة « يس » قلب القرآن العظيم :

﴿ إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون . فاليوم لا تظلم نفس شيئًا ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾ [يس : ٥٣ - ٥٤] .

وقال سبحانه في سورة الواقعة التي تصف يوم القيامة وتقسم الناس إلى منازلهم في الجنة والنار وتصف جنات المؤمنين ونار الكافرين؛ فيقرر ربنا العظيم أن المؤمنين دخلوا الجنة :

﴿ جزاء بما كانوا يعملون ﴾ [الواقعة : ٢٤] .

ويجب أن نعلم أنّ « العمل » هو الفعل والقول معًا . والشهادة الإيمانية هي من القول فقط .

والدليل الحاسم على أن الإيمان والعمل بمنهج الله كاملاً لا ينقص منه شيء ولا يتجزأ، ولا يرجأ منه شيء إلى حين لأن أمر الله حال ..

هو ما يحكيه الله جل جلاله لنا عما سيحدث للذين لا ينفذون منهج الله كاملاً حتى ولو كانوا مغلوبين على أمرهم .

يقول سبحانه في سورة النساء

﴿ إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ﴾ .

ويبين لنا الجبار المنتقم جزاء عدم قيامهم بترك المتجبرين في الأرض والهجرة إلى أرض الله الواسعة للعمل بمنهج الله كاملاً، فيقول جل جلاله :

﴿ فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً . إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً ﴾ [النساء : ٩٧ - ٩٨] .

فأولئك كانوا يكتفون بعبادة الله بالصلوات والنوافل والصيام والحج والصدقات والزكاة بقدر ما يتيسر لهم .. ولكنهم لم يُحكموا بما أنزل الله وسكتوا!! ذلك بأن "الحكم بما أنزل الله" هو لب الدين وجوهره وبناءه الشامخ السامق الذي يرتكز على فرائض العبادات بمعناها الضيق التي هي قواعد وأساس بناء الدين الذي هو الحكم بما أنزل الله ذلك بأن دليل الإيمان الكامل هو الحكم بما أنزل الله جل جلاله فقال سبحانه وتعالى:

﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يُحَكِّموك فيما شَجَرَ بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجًا مما قضيت ويسلموا تسليمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

وتفسير هذا بجلاء ووضوح، أن الذي لا يحكم بما أنزل الله، ويحكم بغيره، إنما يرتكب ذنبين عظيمين:

الذنب الأول: أنه أشرك رأيه بالله فادعى ضمنًا بأن ما يحكم به خير مما أنزل الله، ففعل ما فعله إبليس حين قال: ﴿ أنا خير منه ﴾، فهو قد أشرك رأيه مع الله.

والذنب الثاني: أنه كفر بما أنزل الله، والكفر هو ستر الشيء، فنحىّ ما أنزل الله جانبًا، فكفر به، وحكم بما صنعت يداه، وعندئذ فهو كافر ظالم فاسق. قال تعالى: ﴿ ومن لم يحكم بما أزل الله فأولئك هم الكافرون ... الظالمون ... الفاسقون ﴾ [المائدة: ٤٤، ٤٥، ٤٧].

ومن هذا، يتبين لنا؛ أن من يحكم بغير ما أُنزل، قد استغرق نفسه كفرًا وشركًا حتى النهاية، من قدميه إلى رأسه، فيصف العلي العظيم، لهذا السبب، أخذهم يوم القيامة؛ فيقول المنتقم الجبار:

﴿ .. فيؤخذ بالنواصي والأقدام ﴾ [الرحمن: ٤١].

والنواصي جمع ناصية التي هي مقدم الرأس ... فيجمع زبانية جهنم رأسه وقدميه في صمام واحد.

لهذا،

يبين لنا العلي الكبير أن الريادة تكون بالعمل وليست بالقول فقط.

فالذي يدعو إلى الله يجب أن يكون قدوة بالعمل تصديقًا لقوله، حتى يكون نبراسًا للناس كاملاً وصحيحًا الاثنين معًا. لأن الرائد لا يكذب أهله ..

فيقول سبحانه جل شأنه

﴿ ومن أحسن قولاً مما دعا إلى الله – وهذا هو القول – وعمل صالحًا وقال إنني من المسلمين ﴾ [فصلت: ٣٣].

فلم يفصل بين الدعوة إلى الله والعمل الصالح وإنما ربط بينهما لأنهما شيء واحد، ووجهان لعملة واحدة هي الإسلام أي الدين كله.

ويحسن في هذا المقام أن نذكر ما يزيد الإيمان نوراً، وما ينقصه توهجًا في قلب المؤمن، حتى تكون الفائدة عامة بإذن الله تعالى.

فكما بينا من قبل أثبتنا أن الإيمان يزيد، ولأنه يزيد فهو ينقص ..

وأسباب زيادة الإيمان واردة في كتاب الله سبحانه فيقول جل شأنه:

١ – ﴿ وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانًا ﴾ [الأنفال: ٣].

وإذًا فتلاوة القرآن بفهم تزيد الإيمان نوراً ويقينًا.

٢ – ويقول العلي الكبير:

﴿ هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم ﴾ [الفتح]
والسكينة كما أنها الطمانينة فهي شرعًا كما قال سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه هي "الإلهام" الإلهي للإنسان أو العلم فهو قطعًا يؤدي إلى الطمانينة وذكر الله ﴿ ألا بذكر الله تطئمن القلوب ﴾.

٣ – ويقول سبحانه جل شأنه

﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانًا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾.

فاليقين بأن القوة لله جميعًا. و﴿إن الله يدافع عن الذين آمنوا﴾ و﴿كان حقًا علينا نصر المؤمنين﴾ و﴿ما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم﴾، يؤدي حقًا إلى زيادة الإيمان في قلب المؤمن ويجعل نوره وهاجًا .. ولعل في مثل غزوة بدر الكبرى العبرة للذين يخافون المشركين لكثرة عددهم وعدتهم.

٤ – وقال العليم الخبير

﴿عليها – أي النار – تسعة عشر. وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أُوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانًا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون﴾ [المدثر: ٣٠ – ٣١].

وهذه الآيات الكريمة تبين إعجاز القرآن العظيم في العدد ١٩ الذي يشمل معظم آيات القرآن العظيم، إعجاز حسابي مادي يعلمه المؤمن والكافر ولا يستطيع إنسان مهما كان خصمًا ألدًا إلا أن يعترف ويقر بأن القرآن لا يمكن أن يقوله بشر(١).

وإذا خرجت علينا أستاذة تماري في ذلك على صفحات جريدة يومية دون برهان، قلنا لها إن كنت صادقة فقد لزمك البرهان لقوله تعالى: ﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾.

وبعكس هذه الأعمال ينقص الإيمان ويضعف بالتالي ..

وكما يزيد الإيمان وينقص، فكذلك الكفر، لقوله تعالى: ﴿إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرًا لن تقبل توبتهم﴾ [آل عمران: ٩٠].

الهزيمة والعصيان

ومن هنا ندرك أن كنه الإيمان سر لا يعلمه إلا العليم بذات الصدور، له نور يعلمه اللطيف الخبير؛ وليس للناس إلا الظاهر، وهي الأعمال، فإن كانت تصدر بانفعال صاحبها بها، دلت على صدقه، وإن كانت مراءاة أو بكسل؛ دلت على عكس ما ينطق ويقول مهما كان قوله جميلاً أو خلابًا ...

(١) «الله والكون» للمؤلف – الباب الثاني – البرهان.

والإنسان ضعيف .. ومن ثم فهو خطّاء

لذلك، فإن ارتكاب الكبائر والصغائر عن غير عمد، ليست هي السبب الأكيد والفعال في نقص الإيمان، ذلك بأنَّ أمرها في هذه الحالات غير العمدية هو مع «التقوى» على وجه بالأخص.

وطالما ان الإنسان من طين وفي غطاء، فإنه ينسى أو قد تغشى نوازعه على بصيرته، فيضيع وعيه وتنهزم نفسه بهزيمة عقله، فيخطئ ويرتكب كبيرة أو صغيرة؛

لهذا، ولأن الله سبحانه أعلم بمن خلق ﴿ هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم ... ﴾ [النجم: ٣٢]؛

فقد فتح الله الرحمن الرحيم، باب الاستغفار والتوبة، رحمة منه بعباده، فقال سبحانه وتعالى:

﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله؛ إن الله يغفر الذنوب جميعاً؛ إنه هو الغفور الرحيم ﴾ [الزمر: ٥٣].

أما الذين يرتكبون الكبائر متعمدون ويصرون، فقد قال الله المنتقم الجبار فيهم قوله، فقال تعالى في القاتل المتعمد:

﴿ ومن قتل مؤمناً متعمداً فجزاءه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً أليماً ﴾ [النساء: ٩٣].

وقال جل جلاله في الذين يتعدون حدوده في الميراث:

﴿ ومن يعصى الله ورسوله ويتعد حدوده، يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين ﴾ [النساء: ١٤].

وقال في الذين يمنعون ذكر الله - بكل منهجه - في المساجد ويسعون بذلك في خرابها: ﴿ ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها، أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين، لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم ﴾ [البقرة].

وقال في الذين يعطون الناس بالربا مستغلين ضعف المحتاج وشدة حاجته إلى المال:

﴿ ... فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله؛ ومن عاد - أي أعطى الناس بالربا بعد نزول حكم الله في الربا - فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

وقال العلي الكبير في الذين يتكلمون في الله - كتاب الله - بغير علم

﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير. ثانيَ عِطْفِه ليضل عن سبيل الله؛ له في الدنيا خزي؛ ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ﴾ [الحج: ٨ - ٩] وقال في الذين يعملون ببعض الأحكام ولا يعملون ببقيتها جميعًا: ﴿ أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلاخزي في الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب، وما الله بغافل عما تعملون. أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون ﴾ [البقرة: ٨٥ - ٨٦].

ويبين الرسول ﷺ، العدالة السابغة في كل أحكام الله، ببيان مناطها، فيقول ﷺ (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ..) الحديث ..

ولما كانت الآيات الكريمة التي استشهد بها الإمام الأشعري وهي قوله تعالى: ﴿ لا يصلاها - يدخلها - إلا الأشقى ﴾ و ﴿ وهل نجازي إلا الكفور ﴾ إنما هي آيات من خاص القرآن مثلها مثل قوله تعالى ﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين. ما لكم كيف تحكمون ﴾ [القلم: ٣٥ - ٣٦]. أي آيات كريمة تنص على الحكم الخاص وهو أن النار لا يدخلها إلا الكافرون فقط.

ويبدو هذا واضحًا إذا ما ذكرت هذه الآيات مع عام قوله تعالى: ﴿ وإن منكم - أي جميع الناس مؤمنين وكفرة - إلا واردها - أي وارد النار - كان على ربك حتمًا مقضيًا ﴾ [مريم: ٧١] وقوله تعالى ﴿ وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ [هود: ١١٩] وقوله تعالى: ﴿ ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ [السجدة: ١٣].

ولما كانت القاعدة الأصولية هي أن خاص القرآن يخصص عامه، وذلك الخاص مثل قوله تعالى ﴿ وسيجنبها الأتقى ﴾ [الليل] وقوله تعالى: ﴿ أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلاً بما كانوا يعملون ﴾ [السجدة: ١٩].

ولبيان الخاص يقول علماء أصول الفقه: هو مثل قولك لا تعط أحد شيئًا واعط زيداً درهماً(١).

لذلك

وبالتالي؛ فإن كل ما استشهد به الإمام الأشعري من آيات قرآنية، إنما هو من خاص القرآن ..

ونسيان إعمال هذه القاعدة وغيرها من القواعد في مجال استخراج الأحكام العملية من أدلتها الشرعية، والخلط بين كلمة «الإسلام» وكلمة «الإيمان» هو الذي أدى – في أغلب الأحوال – إلى الخلاف في الرأي ومن ثم نشأة الفرق الإسلامية المتعددة، ومن ثم التنابذ حولها، بل واللدد في خصومة ما كان يجب أن تكون ...

ولهذا

فإننا، عندما نطبق هذه القاعدة الأصولية بحق، أي قاعدة حكم عام القرآن وخاصه، نجد أن آيات قتل المؤمن عمداً أو تعدي الحدود التي رسمها الله في توزيع الميراث والكلام في الله بغير علم ولا هدي ولا كتاب منير ومنع مساجد الله أن يذكر فيها منهجه كاملاً وغيرها من الآيات، إنما هي آيات من خاص القران، ومن ثم تأخذ حكم خاص القرآن دون عامه. أي أنها تختص بمالها من حكم غير حكم عام القرآن.

ولأن قوله تعالى ﴿ ... إن الله يغفر الذنوب جميعًا، إنه هو الغفور الرحيم ﴾ [الزمر: ٥٣] وقوله تعالى ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ [النساء: ٤٨] هو من عام القرآن، ومن ثم لا ينطبق على خاصه وهي التي سبق الإشارة

---

(١) كتاب «أبو حنيفة» للشيخ محمد أبو زهرة/ ٢٤٥ – ٢٦٢ شرح عام القرآن وخاصه.

إليها؛ فإن الرحمن الرحيم فتح لمرتكبيها باب الاستغفار والتوبة إلى الله توبة نصوحًا بشروطها.

وبهذا نجد أن آيات القرآن جميعًا متناسقة وأحكامها متوافقة، فلا تفرط في حق أحد على حساب توبة مرتكب الذنب، ولا تهمل عقاب أحد جزاء ما ارتكب، ولكن الحق لله فهو لله، والحق لله والناس فهو لله والناس والحق للناس فقط فهو لهم فقط.

وسبحان الله عما يصفون ..

والتقوى

ولأن الإيمان إذا زاد وملأ القلب، جعل صاحبه في درجة عالية .. وإذا نقص كانت له درجة يعلمها رب العالمين ..

فإن الله ذكر التكريم للمؤمن بتقواه

ذلك بأن التقوى هي التي تحفظ للإيمان قدره وشرفه ونوره وقوته ..

لهذا، حكم رب العالمين:

﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ [الأعراف].

فالذي لم يَغْشَ إيمانه ما يكدره، لا شك أنه أنصع صحيفة من ذلك الذي كدَّر إيمانه بمعصية، وبالتالي يكون إيمانه أنقى وأشف لأنه الأتقى؛ وهي الصفة التي ذكرها رب العالمين لأبي بكر الصديق - في رأي الإمامين الجلالين - في قوله تعالى ﴿وسيجنبها الأتقى﴾ [الليل: ١٧][(١)].

ولأن الإيمان يقوم بأركانه وبنيانه، ويزداد بأسبابه، ويظل ناصعًا منورًا بتقوى صاحبه؛

فإننا نرى قدر إيمان وتقوى رسول الله ﷺ من عظمة ما وضعه رب العالمين في

---

(١) تفسير الجلالين / ٥٤١.

قلب الرسول من النور حتى ليتحمّل نزول القرآن عليه ولا يتحمله جبل !! .. بل ويتعجل نزول القرآن العظيم على قلبه من قبل أن يقضي إليه وحيه. !!

كان الرسول هو الإيمان كله

وكان الرسول هو التقوى كلها

ولا يقاس به أحد من العالمين ..

قال العلي الكبير :

﴿ فإن خير الزاد التقوى ﴾ [البقرة: ١٩٧].

﴿ واتقون يا أولي الألباب ﴾ [البقرة: ١٩٧].

روي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به) رواه البغوي في شرح السنة وصححه النووي.

وعنه أيضًا قال: قال رسول الله ﷺ: (ليأتين على أمتي كما أتى على بني إسرائيل حذو النعل بالنعل حتى إن كان فيهم من أتى أمه علانية لكان في أمتي من يصنع ذلك؛ وإن بني إسرائيل افترقت ثنتين وسبعين ملة وستفترق أمتي ثلاث وسبعين ملة كلهم في النار. إلا ملة واحدة) قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال: (ما أنا عليه وأصحابي). رواه الترمذي(١).

أي أصحاب رسول الله ﷺ، الذي خلقهم رب العالمين ليكونوا أصحاب رسوله الخاتم الذي أخذ له ميثاق النبيين، ويقيم بهم الدين.

﴿ والله يقول الحق وهو يهدي السبيل ﴾

قال رب العالمين:

---

(١) «أصول الإيمان» للإمام محمد بن عبد الوهاب / ٣٤ - ٣٥.

﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار - أي الصحابة السلف الصالح - والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه واعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً، ذلك الفوز العظيم ﴾ [التوبة: ١٠٠].

والآية الكريمة واضحة محكمة لا تدع مجالاً لقول إلا اتباع رسول الله ﷺ وأصحابه من دون العالمين ...

هذا ويجب أن نوجه عناية الباحث القارئ أنه لا مجال إطلاقاً إلى إيجاد وجه للمقارنة بين "الإسلام" و "الإيمان" وأيهما أدنى والآخر أعلى. ذلك بأن الإسلام هو اسم الدين. ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ و ﴿ ومن يبتغي غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ﴾ و ﴿ يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ ودعاء يوسف الصديق ﴿ توفني مسلماً والحقني بالصالحين ﴾ [يوسف: ١٠١].

فالإسلام هو اسم الدين. ومن دخل الإسلام فقد لزمه أمران: الأول "الإيمان" اليقين بالله تبارك وكل غيبه .. الملائكة والكتاب والنبيين وقضائه وقدره واليوم الآخر. والثاني العبادة مطلقاً أي الطاعة لله والرسول باتباع ما أنزل الله اتباعاً للرسول ﷺ [الأعراف: ٣].

فالإيمان والعبادة معاً هما الإسلام أي الدين.

ومن هنا نرى أن "الإيمان" هو اليقين بالأحدية الإلهية والنبوة والبعث وهي أصول الدين. وأن "العبادة" هي العمل بكتاب الله ﴿ اتبعوا ما أُنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكرون ﴾ [الأعراف: ٣] هي منهاج الدين أي الإسلام، فهما الاثنان معاً وجها الإسلام اى الدين.

وكما أنه لا "عبادة" بغير إيمان، فإنه لا "إيمان" بغير عبادة ولهذا كُفِّر إبليس.

المبحث الثالث: الحياة هي طاعة الله

الإسلام أي الدين هو الإيمان بمعنى التصديق مع العبادة بمعنى الطاعة، وهما معًا الحياة.

قال العلي الكبير في حمزة لما دخل الإسلام ﴿أو من كان ميتًا فأحييناه وجعلنا له نورًا يمشي به في الناس﴾ [الانعام: ١٢٢].

ورسول الله ﷺ هو الأسوة الحسنة للعالمين.

وسيرة الرسول الكريم هي النور مسار الدين على الأرض والمثل الأعلى للمؤمنين.

طرد للشك وإهدار للطاغوت

وتوحيد الله لا إله إلا هو وحده لا شريك له

وأن محمداً رسول الله وعبده، أول من خُلق فاول من أسلم

وأن القرآن العظيم كتاب الله وشرعه ومنهاجه للناس كل الناس

وأن الحكم لله وحده لا شريك له، فالحكم بما أنزل الله

وأن حكم الله للحكم بين الناس وليس على الناس ..

فلا سيطرة لأحد على أحد، ولا سلطة لأحد على أحد

وأن هذا هو نور الله وروح منه

وأن الله متم نوره – على الأرض جميعًا – ولو كره الكافرون

﴿وكذلك أنزلناه حكمًا عربيًا﴾ [الرعد: ٣٧]

ولما كان هذا،

ولما كان الكافر ميتًا ومن ثم فلا حياة له.

ولما كان للعبد مشيئة.. ولما كان الإنسان خلقًا كاملاً بذاته مستقلاً.....

لذلك؛

كان أول شيء يُراد بالدين هو حرية الإنسان، فالحرية هي الأساس الحق الذي يبنى عليه الدين وبالذات في شقه الثاني المتمثل في العمل أي القول والفعل أي العبادة أي الطاعة بإطلاق، أي اتباع سبيل الله العلي الكبير باطنًا وظاهرًا في الحياة الخاصة وفي الحياة العامة معًا وجميعًا لأن مبنى الإسلام لا يمكن أن يوجد إلا في العيان أي في كل أعمال الحياة.

الفصل الخامس عشر
الحُـــرِّيَّة

المبحث الأول: حرية الإيمان أو الكفر

قال العلي الكبير:

﴿إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين ان يحملنها وأشفقن منها، وحملها الإنسان، إنه كان ظلومًا جهولاً﴾ [الأحزاب: ٧٢].

وقال علماء التفسير في «الأمانة»

فقال الإمام الطبري: هي طاعة الله وفرائضه أي وظائف الدين أصولاً وفروعًا.

وقال الزمخشري: إنها الطاعة لله ولرسوله(١).

وقال البيضاوي: لعلها العقل والتكليف.

وقال فخر الدين الرازي: هي التكليف.

وقال تفسير الجلالين: هي الصلوات وغيرها مما في فعلها من الثواب وتركها من العقاب(٢).

وقال القرطبي وأيده ابن كثير: هي التخيير مع الحساب.

وقال عباس العقاد: هي التكليف(٣).

وإذًا، فالأمانة، في مجمل القول هي عبادة الله وحده لا شريك له، أي هي أمانة الطاعة لله والرسول من منطلق الحرية التي أعطاها الله للإنسان وخلقه عليها، ثم حسابه عليها يوم القيامة.

---

(١) الزمخشري حـ٣/٢٧٦ - ٢٧٨.

(٢) الجلالين/٣٧٧.

(٣) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه للعقاد/٧٩ - ٨٤.

ومن ثم؛ فالأمانة هي: الطاعة لله والرسول، بالقيام بوظائف الدين جميعًا، وحرية الإنسان في كل ما كلفه الله به، ومن ثم حسابه عليها .. طاعة وعصيانًا.

هي إذًا بمنتهى الاختصار: الحرية.

هي أمانة حمل الحرية أي الحق أي السبيل الإلهي فإن زغت عن الحق فقد خنت الأمانة ودخلت في دائرة الاستعباد والذل والضياع.

إن عرض الأمانة يقتضي "حرية" المعروض عليهم، ولما كان الجميع قدرفض حمل الأمانة وأشفقن منها فاختار التسخير، إلا الإنسان، فمعنى ذلك أن الإنسان فضل أن يظل حرًا. وهذا مصداق قوله تعالى ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ ولهذا فإن الله علم الإنسان الأحدية الإلهية وأشهده على نفسه وشهد عليه (١٧٢، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٥ الأعراف).

ومن ثم، فإن الأمانة هي أمانة البقاء حرًا مختارًا في إعمال عقله وفكره فيما يعرض له في الدنيا ومن هنا أنشأ الله العظيم للإنسان أجهزة المعرفة وأرسل إليه الرسل للهداية وطلب منه دائمًا أن يعقل ويفكر.

ولنعد إلى البداية ...

حين عرض الأمانة ..

فالثابت بالنص القراني، أن عرض «الأمانة» كان على «السماوات والأرض والجبال» .. ولم يأت ذكر لكلمة الإنسان في حين "العرض"، مع أنه ذكر وحده في حين «الحمل».

ومن ثم؛ فإن المفهوم من ذلك بالضرورة، وبالواقع من النص الكريم هو أن العرض كان على كل من خلقه الله سواء الأجرام والذي يحيا في هذه الأجرام؛ تحقيقًا لقوله تعالى ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾ [الإسراء: ٤٤].

وإذاً فقد كان عرض الأمانة على كل "العالمين"(١).

ولما كان أساس عرض حمل الأمانة هو حق اختيار المعروض عليهم، حق اختيارهم قبول العرض أو رفضه، أي حريتهم الكاملة في قبول العرض أو عدم قبوله.

فإن ذلك يعني حرية العالمين في ذلك الوقت في قبول حمل أمانة الحرية أبداً أو عدم قبولها، ومن ثم قبول التسخير لله عز وجل قصراً ومطلقاً ..

ولما كان حمل أمانة الحرية يترتب عليه الحساب عليها وتحمل تبعة ذلك. فالجزاء الذي يلاقيه حاملها إن أحسن هو الجنة وإن أساء فعقابه ناراً أبداً.

ولما كانت الجنة عظيمة وفوق الخيال في الحسن.

ولما كان الإنسان طموحاً؛ وفطره ربنا على الحرية ..

فقد اختارها

فحمل الأمانة

﴿ إنه كان ظلوماً جهولاً ﴾ ظلوماً لنفسه من تحمل المشاق والمخاطر المؤدية إلى الفوز بالجنة، جهولاً بمشقة وصعوبة الابتلاء الذي سيوضع له في الدنيا ﴿ فَلَيَعْلَمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾ [العنكبوت].

وتحقيقاً، وتنفيذاً، لحمل أمانة الحرية؛

فإن الله سبحانه قرر أن يستخلفه في الأرض لابتلائه أيهم أحسن عملاً؛

وحتى يُستخلف؛

علم آدم الأسماء كلها، ليصنع كل ما يحتاجه في استعمار الأرض؛

وأخذ على بني آدم الميثاق ﴿ ألست بربكم قالوا بلى ﴾ فجعله بالفطرة مؤمناً.

---

(١) صفوة التفاسير حـ٢ / ٥٤٠ : الأمانة هي العموم في التكاليف. وعرضها يحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون الله خلق لها إدراكاً فعرضت عليها الأمانة حقيقة فاشفقت منها وامتنعت عن حملها. والثاني: أن يكون المراد تعظيم شأن الأمانة وأنها من الثقل بحيث لو عرضت على السماوات والأرض والجبال لأشفقن منها وأبين حملها.

وأسجد الله الملائكة لآدم تقديرًا؛

وسخر الله كل ما في السماوات وما في الأرض للإنسان عونًا، ذلك الذي قبل أن يظل حرًا حاملاً لأمانة الحرية؛

بل وكرم الله بني آدم، تسهيلاً لهم في استعمار الأرض ومن ثم تحقيق الابتلاء؛

فحمله في البر والبحر.

بل ولم يتركه العلي الكبير لنفسه؛

فأرسل له الرسل تترى، تبصره وتهديه دومًا.

وجعل الملائكة في عقبه، يحفظونه من أمر الله.

وأعطاه من نعمة لا تعد ولا تحصى، ظاهرة وباطنة.

وجعل له النهار مبصرًا وجعل له الليل سكنًا، والأرض ذلولاً والشمس والقمر بحسبان والنجوم تهديه في ظلمات البر والبحر وزينة للسماء الدنيا ورجومًا للشياطين.

وفتح له أبواب الرحمة في كل وقت وبغير حساب.

ثم أعطاه أعظم شيء؛

أعطاه حق الاتصال به سبحانه في أي وقت، بل وحق المثول في حضرته في كل وقت أراد، قائمًا وراكعًا وساجدًا، لأي وقت رغب وأراد.

وأعطاه حق الطلب منه سبحانه، وحق على الله الاستجابة.

وكتب الله على نفسه رحمته، ويصلي عليه هو وملائكته ليخرجه من الظلمات إلى النور.

ولم يكتف العلي الكبير بهذا كله؛

وإنما أنزل إليه مع رسوله ﷺ كتابًا منيرًا فيه علم الخلق حتى يوقن تمامًا، وهو في غطائه بالله العلي العظيم، وفيه الهدى حتى يكون مع الله سبحانه في ليله ونهاره، وفيه

المنهاج حتى لا يشقى، وفيه الخُلق الرفيع حتى يطمئن ويهدأ مع من حوله من الناس، وفيه أحكام العبادات والمعاملات، حتى يكون عادلاً سلماً، وحتى يعرف كيف يصلي لربه ويصل رحمه ويرحم نفسه وأهله وكيف يعامل الناس ويتعامل معهم في استقرار وطمأنينة سابغين.

ومع كل هذا

وبرغم كل هذا

قال العلي الكبير للإنسان في هذه الحياة الدنيا ..

﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾

أي مع كل هذه العظمة في القوة وفي العطاء، فإن الله سبحانه أقر للإنسان حريته في الاختيار طيلة حياته في الدنيا، فأخبره سبحانه ﴿ لا إكراه في الدين ﴾.

فالأرض التي تعيش عليها أيها الإنسان ذلولاً لك، فامشى في مناكبها وكل من رزقه.

والسحاب والرياح مسخران لك ولكن تبعًا لمشيئة الله سبحانه، تنزل عليك ماء ثجاجًا طاهرًا، وتعطيك من كل ما أراد الله لك من نعم ملأ الله العظيم بها هذا المكان بين الأرض والسماوات.

والشمس مسخرة لك أيها الإنسان، تشرق وتغرب، لا تفرق بين أحد من الناس.

والقمر، ساعة كونية عظيمة ومرآة جميلة فياضة، لكل إنسان ولكل الناس معًا جميعًا.

وهذه البحار وهذه الأنهار، وما فيها: لحم طري ولؤلؤ ومرجان، لكل إنسان يمد يديه إليها ...

وهذه النجوم ... وتلك البروج ....

﴿ تبارك الذي جعل في السماء بروجًا وجعل فيها سراجًا وقمرًا منيرًا ﴾ هداية لك في الظلمات، ورحمات من الله أكبر.

لا فرق بين إنسان وإنسان، لا فرق بين مؤمن وكافر.

كل شيء خلقه رب العالمين جعله مسخراً لكل إنسان بلا تفرقة ولا تمييز .. ضماناً لحرية كل إنسان وتوكيداً.

وحتى يكون الإنسان على بصيرة من أمره؛ فإنه سبحانه وتعالى بين له الحق من الباطل: ﴿ قد تبين الرشد من الغي ﴾ [البقرة].

فاعطى الله الإنسان

أجهزة المعرفة

عينين، وأذنين وحواساً ولساناً وشفتين وقلباً فيه عقل وفؤاداً ولباً وصدراً حفظياً(١).

وهدى الله العظيم، عبده هذا الإنسان، بهذه الأجهزة، إلى التفكر ليتعرف على آثار نعمة الله، ومن ثم يعرف الخالق العظيم.

فقال سبحانه وتعالى للإنسان:

﴿ إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها، وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾ [البقرة: ١٦٤].

إذاً عليك أيها الإنسان، الحر، أن تفكر فيما قاله لك رب العالمين، وقطعاً وحتماً، ستتأكد أنه سبحانه ﴿ لا إله إلا هو، الرحمن الرحيم ﴾ [البقرة: ١٦٣).

وأن تؤمن أيها الإنسان فهذا نتيجة فكرك السليم.

وأن تكفر أيها الإنسان، فهذا نتيجة فكرك السقيم ﴿ ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون ﴾.

---

(١) «الله والكون» للمؤلف/الباب الأول – المعرفة.

فانت أيها الإنسان، وعقلك.

﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ [الكهف].

والله سبحانه وتعالى: ﴿ كتب على نفسه الرحمة﴾ [الانعام: ١٢].

فلم يترك الإنسان وحيداً لعقله

وإنما أرسل إليه الرسل تهديه وتبصره وتبين له وتوضح ...

ومع ذلك

فإنه سبحانه وتعالى: تحقيقاً لحرية الإنسان، أمر الرسل بالبلاغ والهداية، ولم يأمر أحداً بإكراه أحد.

فقال لرسوله ﷺ:

﴿ افانت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾

لا وألف لا .. ﴿لست عليهم بمسيطر﴾ [الغاشية]

الحرية الحرية لكل إنسان على وجه الأرض ...

ولأن هذا الأمر ينحصر في الإيمان برب العالمين وحده ...

فإنه سبحانه جعل حسابه في اليوم الآخر، لا قبل ولا بعد.

فقال تعالى: ﴿إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ [السجدة: ٢٥].

﴿إنا اعتدنا للظالمين ناراً احاط بهم سرادقها .... ﴾ [الكهف].

و ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنَّا لا نضيع أجر من أحسن عملا. أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار ....﴾ [الكهف: ٣٠ - ٣١].

فليس للكافر عذاباً في الدنيا جزاء كفره .. لأن الله أعطاه الحرية في أن يكفر ..

بل له الرزق وزيادة !! ..

﴿ولا يحسبن الذين كفروا أنما نُملي لهم خير لأنفسهم، إنما نملي لهم ليزدادوا إثمًا؛ ولهم عذاب مهين﴾ [آل عمران: ١٧٨].

ولأن من كفر، قد كفر، وجزاءه مقرر ﴿وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ [آل عمران: ١١٦].

فبالتالي، ليس ثمة امتحان أو اختبار له في الدنيا، وإذا عذبهم بما فعلوا فلعلهم يرجعون ﴿ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون﴾ [السجدة: ٢١].

أما الذين آمنوا بالله جل شانه

فلهم شان آخر تمامًا ....

إنهم آمنوا بالله بالغيب

فليس أحد من الناس يرى الله سبحانه

وليس أحد يرى عرشه المجيد، جل شانه

وليس أحد يرى جنته ولا يرى ناره

وليس أحد يرى ملائكته

وليس أحد يرى اللوح المحفوظ

ومع هذا

فقد صدقوا الرسول ﷺ وآمنوا بالله أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد.

صدقوا الرسول بالغيب إذًا ولكن بالعقل والفكر.

ولأن التصديق غيبًا، فقد جعل الله سبحانه الاختبار تلو الاختبار ردءًا حتى يعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين ﴿الم. أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون. ولقد فتنا الذين من قبلهم، فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾ [العنكبوت: ١ - ٣].

وأبان الله العظيم هذه الاختبارات فقال جل شانه:

﴿ ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، وبشر الصابرين ﴾ [البقرة: ١٥٥].

والآية الكريمة واضحة

ففي بعض الأيام يجوع المؤمن، يصل إلى حد عدم الكفاية ...

وفي كثير من الوقت يخاف المؤمن .. يخشى الأيام ويخشى ما فيها

يخاف نفسه وعلى نفسه، ويخاف على أولاده ويخاف هذا الأمر أو ذاك ..

ويخاف الدنيا ويخاف الآخرة.

ويزداد هذا الخوف حتى يصل إلى الخشية من رب العالمين .. فيلين جلده وقلبه إلى ذكر الله، فيطمئن .. ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ [الرعد: ٢٨].

وقد ينقص ماله وفي ظنه أنه سيزيد .. فلينظر ماذا هو فاعل؟ هل تنقص صدقاته وحسناته، هل يختلج نور الإيمان في قلبه.

بل قد يأخذ عزيزاً عليه .. وهذا اقسى ما يكون البلاء ...

ورغم درجة الإيمان في قلب الرسول ﷺ، فقد اختبره رب العالمين ... وما الاختبار إلا في بشريته وأسوة للمؤمنين.

جاع الرسول ثلاثين شهراً في شعب مكة محاصراً من قريش ... وأوذي الرسول في مسار دعوته مئات المرات .. فما زاده ذلك إلا ثباتًا وقوة وتصميمًا.

نقصت أموال الرسول، وانفقها جميعًا على الدعوة؛ كان الرسول غنيًا قال تعالى: ﴿ ووجدك عائلاً فأغنى ﴾ فلم يبق له من مال يذكر.

ومات أبناؤه .. القاسم والطاهر والطيب وإبراهيم، فما قال إلا ما علمه رب العالمين ﴿ إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾ [البقرة: ١٥٦]. وإن كان بكى فهذه مشاعر إنسانية والرسول مثل البشر ﴿ قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً ﴾ ذلك بأن نتيجة البلاء، نتيجة الاختبار، تكون بقدر الصبر في الإيمان. ويقين الإنسان برب العالمين.

فإن كان اليقين حقًا وصدقًا، والتفويض لله كاملاً، والإنابة إليه سبحانه والاعتماد عليه والتوكل، والاستعانة جل جلاله وبمنهجه .. كانت الجائزة الإلهية حقًا للمؤمنين. جنات وما فيها مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿فلا تعلم نفس ما أُخفي لهم من قُرة أعين؛ جزاء بما كانوا يعملون﴾ [السجدة: ١٧].

قال العلي الكبير

﴿أفمن كان مؤمنًا كمن كان فاسقًا؛ لا يستوون﴾ [السجدة: ١٨].

ولأن الله جل شأنه يُحب المؤمنين ويحبه المؤمنون ..

فقد نظم لهم كل شأنهم في الحياة الدنيا وحتى يصلوا بهدايته سبحانه إلى نعيم الآخرة.

فأرسل الرسول ومعه الكتاب، ﴿نور على نور، يهدي الله لنوره من يشاء﴾ [النور: ٣٥] فبين لهم كيف يعبدونه سبحانه بالغيب.

فأنزل أحكام العبادات، بعضها تخفي علته، وبعضها تظهر فيه علته، وبعضها أبان فيه قدر ثوابه، وبعضها أخفى ما فيه من عظمة الثواب، اختباراً من عند الله لمعرفة قدر الطاعة والانقياد والتسليم بالغيب لرب العالمين.

فالذين صدقوا حق الصدق قالوا: ﴿سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾ [البقرة: ٢٨٥].

المبحث الثاني: الحرية وحكم العلماء

لكي يصلح آدم وذريته للخلافة واستعمار الأرض، فقد علمه رب العالمين الأسماء كلها ...

ومن صناعة الأسماء وبصناعتها

يمكن للإنسان أن يفلح الأرض

ويربي الضرع

ويصنع منها ومن غيرها كل شيء، ويبني، ويقيم، ويركب ويستكشف القوانين الكونية.

ومن ثم

تكون الحقوق وتترتب الالتزامات. وتأخذ الحياة جميع مرافقها ومظاهرها وما خفي منها ...

وتكون الدول وتكون الأطماع، ويكون القوي ويكون الضعيف

وتكون العلوم المعالجة لكل صراعات الإنسان وصراعات الناس معًا

ولأن حرية عمل الإنسان، لا بد منها حتى يكون خليفة ويعمر الأرض

فقد دمغ الله العبودية من الإنسان للإنسان بالكفر

وأبقى الإنسان حرًا حتى ولو رفض أن يكون عبدًا لله

ذلك بأن

استمرار الإنسان حرًا مستقلاً بنفسه، إنما هو الأساس الأول والأهم، لكي يظل مستقل الفكر قادر على أن يكون نافذ البصيرة إلى الحق

ومن ثم تكون له قدرته على إدراك الحق وبالتالي الوصول إلى الإيمان بالغيب.

ذلك بأن الإنسان إن لم تكن له حرية كاملة ومن ثم العيش بكرامته مستقلاً عن

الاحتياج، فإنه لن يكون حرًا في فكره، وبالتالي يضيع ما فرضه رب العالمين:

﴿لا إكراه في الدين﴾

بل إن حرية الإنسان الكاملة في العمل، اي عمل وفي أي مكان على وجه الأرض التي استخلفه الله فيها.

يجب ان تظل حريته دائمة وسليمة بغير تدخل من أحد، وبغير أية ضغوط من أحد على أحد، وبغير افتئات وبغير عدوان.

بل ويجب ان يكون الإنسان كل إنسان، آمنًا مطمئنًا في نفسه وفي ماله، في ليله وفي نهاره، في عمله وفي قوله وفعله ما دام انه لا يعتدي على أحد.

ومن ثم

يشعر الإنسان فعلاً بأنه حر.

ولأن الإنسان والناس، دائمًا ابدًا، من حيث يعملون، يتعاونون ويحتكون ويتضاربون ويتحاربون.

ولأن الإنسان، والناس، كل له مصلحة ومصالح، وله هدف وأهداف وطموح، ونزوات وانحرافات، وعواطف، تتضارب كلها وتتعارض، لأنه ليس ثمة إنسان مثل إنسان ابدًا إلا في شكل الخلق.

فإن الخلاف والاختلاف بين الإنسان والإنسان، والناس والناس، أمرٌ حتم لا بد منه، ولا محيد عنه.

ولأن ضمان وجود وبقاء الحرية لا يكون إلا بحكم يحققه .. ولما كان الناس بطبيعتهم في قصور - لأنهم من طين - وخطّائين - لأنهم في غطاء - وأصحاب هوى - لأنهم في نعم الله - فإن الله سبحانه أنزل الحكم الذي يوجد الحرية ويضمن بقاءها، وذلك لتحقيق الحرية بالفرصة المتكافئة والمساواة بين الناس تثبيتًا لقاعدة الحق في حكم ابتلاء الناس ثم حسابهم.

فأنزل الحكم خالصاً من عنده سبحانه، ليحكموا به بينهم ...

أنزل حكماً يتصف بالعظمة لأنه من الله العظيم، ويتصف بالثبات لأنه من الله الأول والآخر؛ ويتصف بالإحاطة والشمول لكل حاجات الناس؛ لأنه من الله ﴿ وكان الله بكل شيء محيطاً ﴾ [النساء: ١٢٦]؛ ويتصف بالصلاحية لكل الناس في كل زمان ومكان؛ لأنه من الله الخالق لكل الناس والخالق للزمان والمكان.

ولأن الله عز وجل خلق الناس جميعاً ومن ثم ليس بينه وبينهم قرابة ..

فقد أنزل الحكم لهم جميعاً بلا تفرقة.

وهذا الحكم الذي أنزله العلي الكبير للناس بلا تفرقة، هو الذي يحكم بينهم معاملاتهم، مع أنفسهم ومع أهليهم، ومع الناس.

ومن ثم

بهذا الحكم يضمن أول ما يضمن، بقاء الإنسان، كل إنسان، أن يظل حراً، ليس عبداً لأحد، له كافة مقوماته من سلطة على الأشياء ومن ثم مسئوليته عنها، بعيداً عن أن يستبد به أحد، ومن ثم كريماً حراً في نفسه ومن الناس.

وأفهمنا العلي الكبير ذلك

بكل القوة.

وبكل الوضوح.

فها هو الرسول ﷺ

الحاكم الأول الذي جمع الله له في يده كل شيء

فالرسول هو أولاً رسول الله للناس، وهي الصفة التي ليس لأحد من العالمين أن يدانيه فيها؛

والرسول هو الذي تلقى التشريع من عند الله الحكيم الخبير ﴿ وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم ﴾، سواء بلفظه من الله أو بمعناه: فبلفظه هو القرآن، وبمعناه هو السنة، ﴿ وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم.. ﴾ [النساء: ١١٣].

والرسول هو الحاكم

فهو الذي يحكم الدولة

والرسول هو القائد

فهو ﷺ الذي يقود جيش المؤمنين ويأمر بالسرايا

والرسول هو القضاء

فهو ﷺ الذي يطبق أحكام المعاملات بين الناس أو يُعين فيهم قاضياً.

والرسول هو الحكومة المنفذة

فهو ﷺ الذي يأمر بتنفيذ الشرع وأحكامه بين الناس.

وإذاً فالرسول مثال فريد في العالمين

ومع هذا كله

فإن الله سبحانه. بياناً للناس في حريتهم وحرية كل إنسان على وجه الأرض، يأمر الرسول ﷺ أمرين كبيرين وخطيرين:

الأمر الأول: يقول العلي الكبير للرسول

﴿قل لست عليكم بوكيل﴾ [الأنعام: ٦٦]

والوكيل هو الذي يأخذ سلطة موكله برضاه أي هي تنازل من بشر؛ لبشر لذلك قال ربنا قل لهم لست عليكم بوكيل.

وإذاً فقد نفى العلي الكبير ان يؤخذ من أي إنسان سلطة، فأبقى كل إنسان على سلطته، لا يعطيها لأحد حتى لو كان هذا الأحد هو رسول الله ﷺ! فيظل كل إنسان معه كامل سلطته وسلطانه الشخصي طالما أنه على قيد الحياة على كل مقومات حياته، سواء الشخصية والعامة وإلا صار مستضعفاً ذليلاً ضائعاً.

والأمر الثاني: يقول العلي الكبير للرسول

﴿لست عليهم بمسيطر﴾ [الغاشية: ٢٢] ﴿وما أنت عليهم بجبار﴾ [ق: ٤٥]

فلا سيطرة من أحد على أحد ..، ولو كان الرسول ﷺ، فقد نفى الله سيطرة أي إنسان على أي إنسان ومن ثم ليس أحد جباراً .. ولأن السيطرة ليست تنازلاً من البشر لأحدهم إنما تكون قهراً افترضه واحد بسبب قوته وسطوته واستبداداً بالناس لذلك لم يقل له ربنا "قل لهم" كما فعل في الوكالة وإنما نهى الله الرسول ومن بَعده كل حاكم أن يسيطر على الناس فيلغي حريتهم ويستبد بهم ويستضعفهم.

ذلك بأن ..

سلب السلطة أو وضع السيطرة

كلاهما أو أيهما

لا بد وأن يؤدي إلى ضياع حرية الإنسان

ومن ثم

يكون ما قاله رب العالمين: ﴿لا إكراه في الدين﴾ قد نسخ من وجه آخر، بل ويحدث التناقض والتضارب في كثير من الآيات الكريمة.

ولكن حاشا لله

بل إن قرآن رب العالمين، عزيز عزيز، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. نسق واحد ومضمون واحد، قول هو أحسن الحديث.

فلأنه لا سلطان لأحد - ولو كان الرسول - على أحد .. ولو كان كافراً، ولأنه لا سيطرة من أحد - ولوكان الرسول - على أحد .. ولو كان كافراً؛

فإن الله العظيم يضع قاعدة الحكم الكاملة الصلبة من عنده وللناس جميعاً.

فيقول للرسول ﷺ وللمؤمنين؛

﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله﴾ [المائدة: ٤٩] ذلك بأن الأصل: الأول والآخر هو:

﴿إن الحكم إلا لله﴾ [الأنعام: ٥٧ ويوسف: ٤٠ و٦٧].

وأن صحيح هذا الحكم لا يعلمه إلا أنت ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ...﴾ [النساء: ١٠٥] ومن ثم فلا يجوز الحكم بأحكام من جنس ما أنزل الله لأنها عندئذ ستكون غير ما أنزل الله وغير ما أراها الله لرسوله .. ومن ثم ستكون من هوى البشر !!

ذلك بأن حرية الإنسان هي مناط سؤاله في الآخرة.

فلا سلطة تُسلب من إنسان

ولا سيطرة تفرض على إنسان

وحتى يكون الحكم لله فعلاً، وليس ثمة شائبة فيه، فإن الله سبحانه وتعالى أوضح في قاعدة الحكم كلمة هي أهم شيء في بيان هذه الكلية العظيمة التي هي الحرية والكلية العظيمة الأخرى وهي الحكم لله وحده.

هذه الكلمة هي «بينهم»

فالحكم بما أنزل الله يحكم به «بين» الناس

فلا حكم من أحد من الناس - ولو كان الرسول - "على" أحد من الناس ولو كان كافراً، ومن ثم فلا حكم لهيئة أو حزب أغلبية أو أحزاب على غيرهم من الناس أو حتى على أنفسهم!

إنما الحكم من الله، ويحكم به "بين" الناس. وليس من أحد ولا لأحد أن يحكم "على" أحد. لأن كلمة «على» لو جاءت، لكان ثمة شبهة في سلطة أو سيطرة.

ولأن الله سبحانه وتعالى

أفرد الحكم فجعله له وحده جل جلاله

وأنزل الحكم للناس جميعاً على سواء.

ذلك بأن الحكم يكون للفصل في المنازعات بين الناس حتى يسودهم الهدوء والطمأنينة مع عدل الله جل شأنه، ومع بقاء حرية كل إنسان كاملة سابغة.

فليس ثمة سلطة في الإسلام لأحد أو لهيئة على أحد من الناس

وليس ثمة سلطة في الإسلام من أحد أو من هيئة على أحد من الناس

إنما السلطة للإنسان على عمله وإنما السيطرة للإنسان على نفسه

ومن هنا

نأتي إلى مبدأ مهم جداً

ألا وهو منع سيطرة الفرد على غيره

ومنع سيطرة هيئة، تحت أي فكر أو نظرية على أي فرد أو على المجتمع، ولو باسم الوكالة الانتخابية.

وإنما الأمر للناس جميعًا في شخص من يبايعونه على الطاعة لله وللرسول، فإن خرج هذا الوالي عن ما أمر به الله والرسول فقد خرج على البيعة وسقط تلقائيًا عن الولاية ...

ومن ثم قال أبو بكر في خطاب ولايته: اطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم.

ولأن ولي الأمر، إنسان، ومن ثم خطّاء، أي كثير الخطأ؛

فإن الله سبحانه قد وضع صمامين اثنين يُؤمّن خُطى الحاكم ونهجه ومسار ولايته؛

ذلك بأن ولي الأمر في الإسلام، هو رئيس الدولة المسئول عنها أمام الله سبحانه وأمام الناس؛

فهو كالرئيس في النظام الرئاسي الحالي بالأسلوب الدستوري المعاصر.

ومن ثم

فإن هذين الصمامين، قد وضعهما رب العالمين، ليأمن الحاكم على نفسه من الخطأ، ويأمن المؤمنون على دينهم وعلى حياتهم وعلى مسار المنهاج الديني كله واستمرار المد الإسلامي إلى آخر الأرض.

أما الصمام الأول:

فقد جعل الله العظيم به ضمانًا من صدور أي قرار من الحاكم إلا إذا كان موافقًا تمامًا لكتاب الله سبحانه.

فقال العلي الكبير:

﴿ واعتصموا بحبل الله - أي بكتاب الله أي القرآن العظيم - جميعًا ولا تفرقوا ﴾ [آل عمران: ١٠٣]

أي يجب ويلزم ان تتمسكوا بالقرآن العظيم قول الله العظيم وكلماته التامات فهو دستوركم وقانون حياتكم ومنهاجها في الحياة الدنيا والمؤدي إلى سعادة الدنيا والآخرة، فتمسكوا به وحصنوا انفسكم بتنفيذه فلا تذهبوا عنه إلى غيره.

ثم بين العلي الكبير الطريق المؤدي إلى تحقيق هذا الاعتصام وهذه العصمة فقال سبحانه:

﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾ [آل عمران: ١٠٤] فهي جماعة متخصصة في علوم القرآن العظيم الذي هو كل العلوم.

قال أبو جعفر الباقر رضي الله تعالى عنه: قرأ رسول الله ﷺ ﴿ ولتكن منكم أمة .. ﴾ ثم قال: (الخير اتباع القرآن وسنتي)[١].

واخرج الإمام احمد بن حنبل بسنده عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما ان النبي ﷺ قال: (والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف وتنهون عن المنكر أو ليوشكن ان يبعث عليكم عقابًا من عنده ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم). رواه الترمذي وابن ماجة[٢].

وقال تفسير الجلالين: الخير هو الإسلام؛ و «من» في كلمة «ومنكم» تفيد التبعيض، فالذين يَدْعُون هو فرض كفاية لا يلزم كل الأمة ولا يليق بكل أحد كالجاهل[٣].

---

(١) تفسير ابن كثير حـ١ / ٣٩٠.

(٢) المرجع السابق / ٣٩٠.

(٣) تفسير الجلالين / ٦٥.

وقال علماء الأزهر الشريف: بأن يكون منكم جماعة متفقهة في الدين يدعون الناس على بصيرة إلى الإسلام وكله خير[١].

وواضح من الآية الكريمة أن هذه الأمة أي الجماعة أو الطائفة لها اختصاصات ثلاث:

الأول : الدعوة إلى الخير أي بيان منهاج الحياة في القرآن والسنة، والعلوم والأحكام والأخلاق، وهذا يلزم الإلمام بكل علوم الخلق والعلوم الإنسانية وكافة علوم السنن الكونية، الأمر الذي يستلزم من الدعاة إلى أن يكونوا علماء متخصصين، على علم بالقرآن والسنة والسيرة الشريفة وعلوم الخلق كلها وكافة العلوم الأخرى.

الثاني : الأمر بالمعروف أي بيان الحكم الصحيح من كتاب الله العظيم وسنة الرسول والأمر باتباعه. وهذا يستلزم العلم بأصول الفقه وفقه الأصول والشريعة الإسلامية كلاً وتفصيلاً.

الثالث : النهي عن المنكر أي بيان الفاسد من الأمور والنهي عن اتباعها، وهو مكمل لما سبق.

ومن ثم لزم أن تكون الجماعة القائمة على ذلك جماعات متخصصة علميًا في كل فروع العلم واللغة وعلومها والقرآن وتفسيره والسنة والسيرة، فهي جماعات متخصصة وليست جماعة من الدارسين للشريعة فقط (أحكام المعاملات والعبادات)، التي هي القانون في الإسلام وهو جزء صغير من القرآن، وإن كانت أهميته راجعة إلى أنه هو الذي به يحكم بين الناس. ولكن توجيه المؤمنين علميًا ومن ثم بناءهم وبناء شخصياتهم والسير بهم في مناحي الحياة وبناء أمة المسلمين ومرافقها هو الأمر الأول والأعظم، وكل ذلك معًا هو الإسلام؛ بناء وسعادة الإنسان وبناء الدولة القوية.

وعمل هذه اللجنة أو الجماعة أو الهيئة ملزم للحاكم لايجوز له التجاوز عنه أو مخالفته.

---

(١) التفسير الوسيط/ ٦٣١.

ودليل الإلزام: ان الله سبحانه اعطاهم اختصاص الأمر والنهي.

وهذه الجماعة في الواقع هي مجلس الوزراء لان لها سلطة الأمر والنهي وهو السلطة التنفيذية للوزراء في الأسلوب الدستوري الحديث.

ولا طغيان من ولي الأمر على هذه الجماعة، لان امرها في كتاب الله العظيم. كما انه لا طغيان من هذه الجماعة على ولي الأمر، لانه هو الآخر في كتاب الله العظيم.

ولان ولي الأمر هو المسئول الاول المسئولية الكاملة والماخوذ له البيعة، فإن لولي الأمر ان يعزل هذه الجماعة او من شاء من أعضائها.

كما ان لهذه الجماعة او لاي عضو فيها ان يعتزل ولي الأمر، بحكم مسئولية كل إنسان عن عمله أمام ربه سبحانه وأمام الناس أجمعين. وهذا ما حدث في خلافة عثمان حين اعتزله علي وغيره من كبار الصحابة.

ولكن لا يجوز لولي الأمر إذا عزل جماعة الأمر بالمعروف ان ينفرد بالحكم فعليه ان يختار جماعة أخرى غير التي عزلها.

وأما الصمام الثاني

قال العلي الكبير:

﴿ والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون ﴾ [الشورى: ٣٨].

فالأمر شورى، أي يدلي كل إنسان برأيه بحرية تامة ..

وعند الخلاف .. قال العلي الكبير

﴿ وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله .... ﴾ [الشورى: ١٠].

قال الإمام ابن كثير: « وأمرهم شورى بينهم » أي لا يبرمون أمراً حتى يتشاوروا فيه ليتساعدوا بآرائهم[١]. وقال الجلالين: يتشاورون فيه ولا يعجلون[٢].

---

(١) تفسير ابن كثير حـ٤/١١٨.

(٢) تفسير الجلالين/٤٢٨ وكذلك صفوة التفاسير حـ٣/١٤٣.

وكان الرسول ﷺ يتشاور مع أصحابه في أمهات الأمور كالحرب وغيرها: عن عمر رضي الله تعالى عنه قال: لما هزم الله المشركين يوم بدر، وقتل منهم سبعينًا وأسر منهم سبعينًا، استشار النبي ﷺ أبا بكر وعمر وعليًا، فقال أبو بكر: يا نبي الله هؤلاء بنو العم والعشيرة، وإني أرى أن تأخذ منهم الفدية فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على الكفار، وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضداً، فقال رسول الله: ما ترى يا ابن الخطاب! قلت: والله ما أرى ما رأى أبو بكر، ولكن أرى أن تمكنني من فلان - قريب لعمر - فأضرب عنقه، وتمكن عليًا من عقيل فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من أخيه (العباس) فيضرب عنقه، حتى يعلم الله أنه ليس في قلوبنا هوادة على المشركين، هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها؛ فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت فأخذ منهم الفداء؛ فلما كان من الغد غدوت إلى رسول الله ﷺ فإذا هو قاعد وأبو بكر الصديق وهما يبكيان، فقلت يا رسول الله: أخبرني ماذا يبكيك أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت. فقال ﷺ: (أبكي للذي عرض على أصحابك من الفداء، لقد عرض على عذابهم أدنى من هذه الشجرة) لشجرة قريبة فأنزل الله ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض ...﴾(١).

والشورى هي التدافع بالرأي السديد ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً. يصلح لكم أعمالكم.﴾ [الأحزاب: ٧٠ - ٧١] وذلك لا يكون إلا ممن كان له مكنة العلم، وراسخ فيه، فيزيد الأمر وضوحًا وثراء، ومن ثم يزيد تثبيتًا للذين آمنوا، ونفعًا ..

قال العلي الكبير:

﴿.... ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾ [البقرة: ٢٥١].

فإن مبدأ الشورى إنما يعني مسبقًا عدم انفراد شخص برأيه، وإلا كان متسلطًا

---

(١) زاد المسير ٣ / ٣٨٠ والرواية لمسلم عن صفوة التفاسير حـ١ / ٥١٢ - ٥١٣.

مستبداً، فاسقًا لأنه يكون قد خرج من حكم الله إلى رأيه وهواه. فأشرك نفسه مع الله دون أن يدري أو وهو يدري، فهو على أي الحالين من المشركين.

وكذلك لا تنفرد جماعة برأي دون جماعة.

ولما كانت الشورى تدافع بالرأي السديد

فإنها لا تكون لأي أحد، بل للراسخين في العلم، حتى يكون الرأي دفعًا للأحسن فيزيد البناء وتزداد القوة ويزداد الطهر.

فالمشورة إذًا للخاصة الذين هم علماء أمتهم.

وهذه الفئة هي جماعة شورى الأمة، وانتخابها يكون بمعرفة العلماء أنفسهم وبمن في حكمهم.

ومن هذا

يتبين لنا، أن الله سبحانه لم يترك الأمر إلا لأولي الأمر، وهم الصفوة من الأمة، عملهم تنفيذ كتاب الله وسنة رسوله .. ومن هنا يكون التقدم أكيداً، والبناء مشيداً، وقوة المسلمين وعزتهم علمًا مرفوعًا دائمًا بقوة الله ونصره.

وقد يُسأل عن مفهوم السلطة ..

ففي نظم الحكم اللاديني، أي الدنيوي أو المدني كما يقولون، قد ينشأ وينمو الحكم من مفهوم السلطة التي هي من مادة التسلط والوصاية على الناس، ومن اعتقاد الحاكم بأنه ذو خواص ترفعه على البشر؛ ومن هنا نشأت الكثير من الديكتاتوريات. وما ترتب عليها من مآسي تشيب من هولها الولدان. بل وكذلك النظام الديمقراطي الذي تمخض عن استبداد الأغلبية بالأقلية ولو كانت أقل بواحد!!

أما القرآن، فإن الله أخبرنا فيه أنه وحده سبحانه صاحب السلطة المطلقة على الناس وعلى كل ما خلق.

فيقول جل شانه: ﴿إن الحكم إلا لله﴾

﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ [التكوير: آخر آية]

﴿ فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون ﴾ [يس: - آخر آية].

﴿ ..... ألا إنه بكل شيء محيط ﴾ [فصلت - آخر آية].

﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾

ثم يبين وظيفة ولي الأمر وكل ولي أمر في هذه الدنيا.

فيقول جل شأنه:

﴿ أهم يقسمون رحمة ربك، نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً، ورحمة ربك خير مما يجمعون ﴾ [الزخرف: ٣٢].

فبين سبحانه أن عمل كل أحد هو تسخير مَنْ دونه درجة لتقوم الحياة. قال الصاوي: إن القصد من جعل الناس متفاوتين في الرزق، لينتفع بعضهم ببعض، ولو كانوا سواء في جميع الأحوال لم يخدم أحدٌ أحداً، فيفضي إلى خراب العالم وفساد نظامه. وقال أبو حيان: الحكمة هي أن يرتفق بعضهم ببعض، ويصلوا إلى منافعهم، ولو تولى كل واحد جميع أشغاله بنفسه ما أطاق ذلك، وضاع وهلك(١).

وإذاً فالتسخير هو بمعنى الاستخدام والارتفاق

ولما كان ذلك

ولما كان التسخير يستمد موضوعه أي أوامره ونواهيه من كتاب الله وسنة رسوله، فليس ثمة أمر من عنديات أحد من الناس وليس ثمة نهي من عنديات أحد من الناس.

ولكن الأمر والنهي لله وحده لا شريك له.

ولما كان الأمر الصادرمن الناس لا يكون إلا بتنفيذ أوامر الله، إذاً فأوامر الناس هي لتسخير بعضهم بعضاً .. تسخير الآمر للمأمور لتنفيذ أوامر الله ونواهيه.

---

(١) صفوة التفاسير حـ٣/١٥٦.

ومن ثم

فليس لولي الأمر سلطة ولا لغيره، وليست له ولا لغيره سيادة ولا سيطرة ولكن لولي الأمر - أياً كانت درجته - حق توصيل الأمر والنهي بما أمر الله به ونهى الله عنه في دائرة رعيته لا يزيد. لقوله ﷺ: (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ..) الحديث

ذلك بأن الحكم لله وحده

﴿ وهو الله لا إله إلا هو، له الحمد في الأولى والآخرة، وله الحكم وإليه ترجعون ﴾ [القصص: ٧٠].

المبحث الثالث : الحرية ونظام الحكم

وتأكيداً لحرية الإنسان.

وتأكيداً لعدم سيطرة أحد على أحد، ولاسلب سلطة أحد من أحد ولو برضاه!

فإن العلي العظيم جعل الحكم في المسائل العامة شورى بين الناس كما بينا؛ والمسائل العامة هي التي تهم الناس كمجتمع، وكدولة.

وهي ما وردت في كتاب الله بألفاظ قليلة واسعة المعنى أو فضفاضة الثوب حتى تلائم الناس في كل عصر ومكان ..

فالشورى – مثلاً – من مادة التشاور، أي استطلاع الرأي والتدافع فيه، حتى يصل المتشاورون إلى أفضل الحلول وأنفعها للناس.

واستطلاع الرأي هذا له سبل كثيرة يمكن أن يتم بها

وقد تعارفت بعض الشعوب على انتخاب فئة منهم تختص بذلك دونهم، وليس لغيرهم، أن يدلو في الأمر شيء، وهو ما يسمى بالنظام البرلماني .. الذي يأخذ فيه نواب المجتمع سلطة الأفراد في حقيقة الأمر بالوكالة عنهم فيما يسمى بالبرلمان أو مجلس النواب أو مجلس الشعب أو مجلس الشورى .. إلى آخر هذه المسميات.

ولما كانت هذه الأشكال جميعاً تقوم على وكالة النواب عن الشعب، ولما كانت الوكالة غير شرعية لقوله تعالى ﴿ قل لست عليكم بوكيل ﴾، فإن هذه البرلمانات بأسمائها المختلفة، هي في واقع الشرع وحقيقته، منهى عنها حتى ولو كان الوكيل هو رسول الله ﷺ، وهو صفوة خلق الله، المعصوم من الخطأ والمعصوم من الناس.

فما بالنا بغيره من آحاد الناس !!

وكل واحد من الناس صاحب هوى

وكل واحد من الناس غير معصوم

وكل واحد من الناس قاصر، ذليل لغيره ..

إذًا، فالوكالة عنْ الناس - في هذا الأمر - تحت أي اسم، غير شرعية، وغير صحيحة، وبالتالي لا تؤدي إلى حق ..

وإذا قلنا إن الأمر يكون لولي الأمر

فإن حقيقة الأمر هي استيلاء ولي الأمر على سلطة الناس، ومن ثم أيضًا سيطرته عليهم.

الأمر الذي يؤدي بهذا الولي إلى الديكتاتورية فالاستبداد والطغيان، ويصير عالٍ في الأرض مثله مثل فرعون.

﴿ إن فرعون علا في الأرض ﴾ [القصص: ٤] والعلو هو الفساد.

﴿ إذهب إلى فرعون إنه طغى ﴾ [طه: ٢٤] والطغيان هو القهر والاستبداد.

﴿ وفرعون ذي الأوتاد. الذين طغوا في البلاد. فأكثروا فيها الفساد ﴾ [الفجر: ١٠ - ١٢].

وإذًا، فإن إعطاء سلطة الناس إلى ولي الأمر أو إلى جماعة منهم، كلاهما لن يؤدي إلى خير .. وإنما لابد وحتمًا أن يؤدي إلى الطغيان الذي يؤدي حتمًا إلى الفساد.

وإذا كان ذلك

فإن الأمثلة العملية التي عرفها الناس لخير دليل

فسرعان - ما يُؤْثر الحاكم، نواب الشعب بالمزايا والمخصصات فينحازون إلى هواه، ويصيرون أسرى عطاياه، فتضيع مصالح الشعب ..... وتنهار مقومات المجتمع على أيدي نوابه ..

إذًا، فما هو الحل الذي وضعه رب العالمين

معرفة ذلك لن تكون إلا في معرفة أول خليفة للرسول ﷺ، وأول ولي أمر ولي أمر المسلمين بعد وفاة الرسول.

فلننظر ماذا قال أبو بكر

ولننظر سمات النظام الذي اتبعه

ولننظر الأسس التي قامت عليها ولايته

ولنعرف من هم الذين شاورهم في أمور الناس جميعًا . .

انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى، ولم يأمر بمن يكون خليفة له من بعده . .

ولكن الرسول أشار إلى ذلك إشارة واضحة يفهمها أصحاب الألباب، فالرسول ﷺ، عندما اشتد عليه المرض ولم يستطع ان يصلي بالمسلمين،

فقد أمر بابي بكر ان يَؤُم المسلمين بدلاً منه في الصلاة.

والإمامة في الصلاة، هي أعظم المواقف عند الله رب العالمين.

فالإمام هو الذي يدعو الله جهراً وسراً نيابة عن المسلمين الذين يقفون خلفه، ولكن في حضورهم جميعًا معه أمام رب العالمين.

والإمام هو الذي يدعو الله سبحانه بما أمر الله جل شانه، فيقرأ فاتحة الكتاب العظيم، وسورة أو طائفة من آياته الكريمة.

وإذًا، فالإمام لا يقول ولا يُسمح له ان يقول شيئًا من عنده

إنما كل ما يقوله، لا بد ولزامًا، ان يكون من عند الله جل في علاه.

ولأن ما يقوله الإمام هو من عند الله

فإنه لا يُسمح لأحد من خلفه ان يتكلم بشيء أبداً، إلا ان يقول: آمين. لانه لا رأي لأحد مع الله سبحانه.

فإذا أخطأ الإمام في كلام رب العالمين، فقد لزم من خلفه - كفرض كفاية - ان يصوب له الخطأ.

وعلى الإمام ان يقرأ الآية مصوبة، إحقاقًا لقول رب العالمين.

وعلى الإمام ان يعلم - إن كان من العارفين - انه ليس أفضل من أحد من الذين خلفه،

لأن الله أفهمنا وأمرنا ﴿ فلا تزكوا أنفسكم ﴾ [النجم: ٣٢].

ولأن الله العليم الخبير الذي يقول الحق، قال لنا سبحنه أن خير الناس وأكرمهم بين الناس وأكرمهم عند الله، هو أتقى الناس

﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ [الحجرات: ١٣].

فليس الإمام – وإن كان – هو أفضل الناس أو أكرمهم، فذلك علم الله، وعلم الله غيب .

ولأن الإمام إنسان، فهو يخطئ لا محالة، لقوله ﷺ (كل بني آدم خطاء ..) الحديث .

ومن ثم

فيلزم الولي أن يقول الحق دائماً

ولأن الإنسان لن يعرف الحق في كل شيء فإن الله سبحانه، وضعاً للأمور في نصابها، ورحمة كبرى منه للناس قال وأمر:

﴿ وقل الحق من ربكم ﴾ [الكهف: ٢٩]

وذلك يعني أن لا نقول شيئاً إلا من كتاب الله لأنه هو وحده الحق من العلي الكبير ﴿ قل ربي يقذف بالحق علام الغيوب ﴾ فالحق خلق من خلق الله عز وجل، ومن ثم فغيره باطل لقوله تعالى: ﴿ فماذا بعد الحق إلا الضلال ﴾ [يونس: ٣٢].

وإلا من السنة المطهرة، لأنه سبحانه أمر الرسول أن يبين لنا كتابه الذي أنزل إلينا .

ومن ثم قصر قوله في سنته على الحق ﴿ وما ينطق عن الهوى ﴾

وإذاً

فليس لولي أمر المسلمين من قول، اي أمر ومنهاج وعمل؛ إلا من كتاب الله سبحانه وسنة رسوله ﷺ

وليس لولي الأمر، وَلِيٌّ من الكِبْر فهو ليس أفضل النأس

وليس لولي الأمر من سلطان، لأن السلطة ليست لأحد من الناس على الناس.

وليس لولي الأمر أن يستبد، لأنه لا سيطرة له من عنده على أحد.

وليس لولي الأمر أن يستأثر الرأي من دون الناس لأن أمر الناس شورى بينهم.

وليس لولي الأمر أن يدعي العصمة أو يفتري على الله، فيدعي الإلهام، فلأنه من طين فهو خطّاء أي كثير الخطأ، فهكذا أخبرنا الرسول ﷺ.

وليس لولي الأمر أن يضيف شيئًا إلى قول الله ولا أن ينقص منه شيئًا، لأنه لا علم لنا إلا ما علمنا الله، وأن كتاب الله واحد لا يتجزأ فهو قسم لا قسيم.

وليس لولي الأمر، أن يكتم شيئًا عن الناس ويقول لهم شيئًا آخر فلا بد له من الصدق، لأنه الرائد، والرائد لا يكذب أهله.

وليس لولي الأمر أن يتقاعس عن أي أمر من أمور الله، وإلا يكون قد خان أمانة ولاية أمر المسلمين.

فانظروا إلى هذه الأسس الركينة والمبادئ السامية، وانظروا إلى خطبة أبي بكر عند ولايته، وقارنوا فلن تجدوا إلا هذه المبادئ جميعًا لم يغادر منها شيئًا.

قال أبو بكر بعد أن حمد الله وأثنى عليه

أما بعد:

أيها الناس

فإني قد وليت عليكم وليست بخيركم.

فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني.

الصدق أمانة والكذب خيانة

والضعيف منكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله

والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله

لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل ..

ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمهم الله بالبلاء ..

أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم ..

قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله(١).

إذًا فهو يحكم بين الناس بما أمر الله به وأنزله إلى الناس

وإذًا فهو يحكم بين الناس بشريعة الرحمن.

وهو لا يدعي علواً في نفسه ولا يدعي علواً في الأرض، ولا يغمط الناس حقهم ولا يبتره. ولا يخضع لقوي ولا يُصعِّرخده لضعيف، ويحذرهم من ترك الجهاد في سبيل الله ويحذرهم من الفواحش، ثم يأمرهم بطاعة الله ورسوله في أمره لهم، ويبين لهم حقيقة ولايته: الطاعة لله والرسول ولا طاعة في معصية الله والرسول؛ وأن أساس هذا كله الصدق .. والصدق وحده لأن الكذب خيانة ..

وإذًا،

فابو بكر الصديق: حاكم وحكومة معًا

وأبو بكر الصديق: قائد جيش المسلمين، وأنه لا قتال إلا في سبيل الله.

وأبو بكر الصديق: قاضي المسلمين، يحكم بين الناس بما أنزل الله سبحانه.

وليس لأبي بكر الصديق من صلاحيات أخرى.

ليست له سلطة ولا سلطان، ولكنه التكليف بالطاعة لله والرسول.

ولننظر تطبيق هذا المثال الأمثل:

لأن أبا بكر إنسان فهو محتاج لغيره، فاتخذ عمر بن الخطاب وزيراً؛ يعاونه في أمر الخلافة ...

إذًا فقد اتخذ ولي أمر المسلمين مساعداً له في شئونه ....

وهذا يفسح المجال للقول بوجود سابقة الوزارة..

---

(١) «عبقرية الصديق» للأستاذ العقاد. و «الصديق أبو بكر» للدكتور محمد حسين هيكل.

وإذا كانت هذه الوزارة الإسلامية من التاريخ الإسلامي، فإن الوزارة كانت من قبل ذلك من التاريخ الإيماني في بعثة موسى عليه السلام، قال رب العالمين على لسان موسى: ﴿واجعل لي وزيراً من أهلي. هارون أخي. أشدد به أزري. وأشركه في أمري﴾ [طه: ١٩ - ٢٢].

إذاً

فالوزارة أمر مطلوب لحسن سير العمل في معاونة ولي الأمر. وهي عند الله ويجب أن تكون عند المسلمين جماعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما بينا في المبحث السابق.

وأمَّ أبو بكر المسلمين في الصلاة ..

والإمامة هي القول الأصيل والركن الركين والسدانة العظمى في ولي أمر المسلمين.

ذلك بأن، الإمام، بذلك الأصل الأول في الإسلام، رائد المسلمين في بيت الله وفي تنفيذ كتاب الله وفي الدعوة إلى الله العلي العظيم، فلن يقول قول الرحمن ثم ينفلت من المسجد ليدعو بالشيطان أو إليه. فذلك التناقض غير وارد في هذا العمل، فالإمامة صفة طاغية ولصيقة بالإمام، تجعله القدوة في كل ما يتصل بها، فإذا كانت الحياة كلها هي ما يتصل بها، فإن الإمام عندئذ سيكون الرائد والقدوة والمثل الطيب الصالح والمسلم الكامل والمؤمن الحق واليقين الصادق والبادئ بكل خير فضلاً عن دعوته إلى كل خير ونهيه عن كل شر.

والإمامة، إشعار للناس، بأن ولي أمرهم ولي الله العظيم، فيكون له حب من بعد الطاعة وله السمع من بعد الشورى وله الأمثولة من بعد الرؤية له على السمع والطاعة لله العظيم ورسوله الكريم.

وقاد أبو بكر جيش المسلمين

قاد أبو بكر جيش المسلمين في حروب الردة، قتال في سبيل الله، قتال لفرض الإيمان على الذين ارتدوا بعدم - دفع الزكاة - من داخل شبه الجزيرة العربية؛ لأن الله

أمر بقتل كل من لا يؤمن بالله في هذه الأرض، أو يؤمن أو يرحل عنها، كما سنبين ذلك في موضعه.

وقبل أن يقاتل عارض بعض المؤمنين الذين أُدخل عليهم والتبس في صدورهم،

فهؤلاء الذين يُريد أن يقاتلهم أبو بكر، يقولون لا إله إلا الله محمد رسول الله ويصومون رمضان ويقيمون الصلاة ويحجون البيت.

لذلك اعترض المسلمون على أبي بكر، وعلى رأسهم وزيره عمر بن الخطاب مستندين إلى حديث رسول الله ﷺ (من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله عصم مني ماله ودمه).

فذكرهم أبو بكر ببقية الحديث قائلاً: (إلا بحقها) يا عمر.

أي بحق هذه الشهادة وشهادة الإيمان، وهي أركان الإسلام جميعًا لا يغادر منها شيئًا.

عندئذ، وبعد هذه المحاورة بين الحاكم والمحكومين، بين ولي الأمر وبين المسلمين، بين الخليفة والناس أجمعين، اقتنع المؤمنون بقول الخليفة، وأدركوا صواب فكره، وأنه على الطاعة لله والرسول، وأنه متفق تمامًا مع كتاب الله وسنة الرسول المطهرة.

عندئذ، وقف الجميع مع أبي بكر، مطيعين لله والرسول

وقامت حروب الردة وانتصر الإيمان على الكفر، وعاد الناس جميعًا إلى صفوف الإيمان. ودفعوا الزكاة إلى بيت مال المسلمين. وعلموا أن جباية الزكاة منهج الحكومة المسلمة وأن عدم دفعها كعدم جبايتها كلاهما كفر.

وحكم أبو بكر بين الناس

ولم يحكم أبو بكر على أحد. وإنما حكم بين الناس بكتاب الله وسنة رسوله.

فإذا لم يجد دليلاً من الكتاب ..

خرج أبو بكر إلى الصحابة الأجلاء يسالهم: أيكم يذكر حديثًا أو عملاً لرسول الله في مثل هذه الواقعة، فإذا ما تذكر الناس سنة الرسول قالوا، ونفذها أبو بكر.

وهو في هذا يسأل الجميع، ويقضي أمام الجميع، والجميع هنا رأسهم هم الصحابة الأجلاء رضي الله تعالى عنهم الذي خلقهم ليبني بهم هذا الدين الذي لا دين غيره عند الله ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾.

إذاً فقد حكم ابو بكر المسلمين بخمس:

فهو الحاكم والحكومة أي هو - في لغة العصر - رئيس الدولة المسئول عن رئاسته أمام الشعب، أي هو النظام الرئاسي المقول به حاليًا.

وهو يعين حكومته بمعرفته، وهو المسئول عنهم، وليست لهم مسئولية امام احد إلاَّ أمامه.

وإذاً فقد حصر المسئولية جميعًا في شخصه، وهذا هو الحق، لأنه هو الذي بايعه الناس، ومن ثم فهو صاحب البيعة أي صاحب التكليف، وما دام أنه صاحب التكليف فهو المسئول عنه، لا يستطيع أن ينفلت منه ويرمي على غيره وإن فوضه، فذلك شأنه وهو المسئول عن شأنه كله.

وابو بكر فوق أنه الرئيس المسئول وحده

فإنه قائد الجيش الذي لا يخرج به في مغامرة أو في أمر لم يأمر به الله العلي العظيم فيكن سببًا في قتل الناس وتبديد أموال الدولة في غير طاعة الله والرسول، وبالتالي في شهوة الحاكم أو ثورة غضب أو نزوة أو مغامرة كما يحدث من الحكام في طول الأرض وعرضها.

ولكن ابو بكر

هو قائد جيش المسلمين، ودستوره هو القتال في سبيل الله لا يحيد.

وابو بكر هو القاضي

وإذا كان ذلك

فإنما هي شريعة الله وسنة رسوله، فليس ثمة قانون يفرضه في ظرف حرب أو سلم أو يدعي به، فلا زيادة ولا نقصان. فالحكم من الله والله وحده لا شريك له في كل مكان وكل زمان!!

لذلك كان قضاء أبي بكر من منطلق الخلافة والأمانة والريادة متبلورة جميعًا في بوتقة واحدة هي الإيمان بالله لا إله إلا هو وأن محمداً عبده ورسوله. وأن كتاب الله هو كل شيء وأن سنة رسوله هي بيانه، وليس لأحد من بعد ذلك من شيء إلا قياس أو اجتهاد بأصوله وشروطه.

إذًا، فأبو بكر هو المسئول عن تطبيق شرع الله بين الناس؛ ويمكن أن نصفه الآن بأسلوب العصر؛ بأنه الحامي للدستور والقانون.

وإذا كان أبو بكر

هو الإمام

فإن الصورة تكتمل في أنه "الخليفة" الحق للرسول ﷺ.

ومن منطلق الخلافة؛ وبها؛ تكون كل الهيمنة الرئاسية بسياج ثابت ودائم وإلهي هو كتاب الله وسنة رسوله.

فليس ثمة مهزلة تشريعية؛ ولا مقولة بظروف استثنائية

وليس ثمة هوى له يدخل ويخرج - كلما أراد - في حياة الناس.

وليس ثمة نواب ونوازع لهم، يبيتون الأمر وينهبون الأرض.

وليس ثمة قضاء، مرة حاكمًا ومرة محكومًا، ومرة نزيهًا ومرة مغلوبًا.

وليس ثمة مغامرات في الحروب وتبديد للحياة والأموال.

وليس ثمة انفصال بين الدين وحياة الناس، ولكن الدين كله من الله للناس، لا يغادر منهم أحداً، ذلك بأن الدين حكم فهو مع الإيمان دولة أيضًا.

وليس ثمة اجتهاد فيما أنزله الله وبينه رسوله، فتشيع الأغراض وما أكثرها وأخفاها، ولكن تطبيق صارم لحكم الله سبحانه، ومن ثم عدالة سابغة وحق شائع قاطع لكل إفك وبهتان.

وليس ثمة حكم دنيوي متبرج، وفصل بينه وبين إمامة المسلمين بكتاب الله والسنة؛

وإنما الحكم، حكم الإمام، وبمظهر ومخبر الإمامة، ليله كنهاره في كتاب الله وسنة رسوله، يقوم بهما إمامًا ويحكم بهما قاضيًا بين الناس، ويصرف أمور الدولة بهما منهجًا ودستورًا، ويقود جيش المسلمين بكتاب الله وسنة رسوله في سبيل الله، وليس في سبيل آخر مهما بدا وزُيِّن له.

ولأن الحكم حكم الإمام

فهو في بيته خليفة لرسول الله كما هو بين الناس

فأهل الحاكم قدوة أيضًا معه للناس.

فلا تبرج لنسائه ولا تدخل في شئون الإمام ومن ثم في شئون الحكم.

ولا خروج عن منهج الله في أهله، ومن ثم فهم أهل فضل وتقوى، ومن ورائهم كل الأهل وكل النساء، مجتمع طاهر لا ترتكب فيه فاحشة إلا قُصم ظهرها في الذين ارتكبوها. وبذلك يقطع شأفة الرجس والدنس، ويُقام الأمر على الطهر والفضيلة.

وكان هذا كله، بحرفه، بنصه، هو أيضًا أمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب

أخذ لين أبي بكر مع شدته وصرامته، الاثنين معًا؛

فكان أمير المؤمنين عمر.

الفاروق كما أخبر جبريل أن اسمه في السماء(١).

وطلب بعض المسلمين من علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أن يحدثهم عن عمر بن الخطاب فقال: ذلك امرؤ سماه الله الفاروق، فرق به بين الحق والباطل(٢).

فقد اتسعت دولة الإسلام، فشملت كثيرًا من الأقطار المتاخمة، فعين الولاة وعين القضاة وعين قواد الجيش.

---

(١) «الخليفة العادل عمر بن الخطاب» للأستاذ عطية عبد الرحيم عطية/١٥ عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة، العدد ١٣٩.

(٢) المرجع السابق/١٤.

وظل عمر، إمامًا للمسلمين، وحاكمًا بين الناس بما أنزل الله.

(طوَّر نظام الشورى

فاستعان بنخبة الصحابة عنده للمشاورة والاستفتاء، وجعل موسم الحج موسمًا عامًا للمراجعة والمحاسبة واستطلاع الآراء في أقطار الدولة من أقصاها إلى أقصاها .. كما لو سميت الآن « جمعية عمومية » وباب المشورة مفتوح لكل إنسان، وإن كانت المشاورة لفن عسير، وإن تعقب مشاورات عمر، لتخبرنا أنه هو واضع دستور الشورى في الدولة الإسلامية، وإن الشورى التي وضع دستورها هي شورى الرأي الأصيل يستعين بكل أصيل من الآراء)[1].

وإذًا،

فرغم أن الشورى للناس جميعًا

فإن كثيرًا من الناس ليس لهم فيها باع.

فهي خبرة كبيرة وعلم وفن وهداية سابغة؛

وعندئذ تكون للصفوة من العلماء

ويمكن وضع معايير موضوعية للصفوة الحقة، وعلى أساسها يكون تكوين أهل الرأي الذين يُستشارون والذين يُحاسِبُون، حتى يكون ولي الأمر في مأمن من الخطأ بنفسه إن انْفَرَدَتْ به نفسه، ويكون حاضرًا معه كل الناس فيهم، فتكون الإمامة دائمًا أبدًا حاضرة ويكون الناس دائمًا أبدًا في عينه وقلبه معًا.

وهذا ما كان عند عمر.

واتخذ سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه وأرضاه وزيرًا؛

وقال عمر: بئس المقام في أرض ليس فيها أبو الحسن

وقال عمر: لولا علي لهلك عمر

---

(١) «عبقرية عمر» للأستاذ العقاد/ ١٢٩ وما بعدها.

فجاء عصر عمر بن الخطاب أنشودة للزمان في أروع مكان وأقدس أرض في الكون كله.

وأنفذ عمر أحكام الحرية بحذافيرها

وأنفذ أحكام الحرية في جميع أقطار الأرض

وأنفذ عمر أحكام الحرية بين الناس جميعًا، فلم يفرق بين مؤمن وكافر، فالحرية للاثنين، كما جعلها الخالق العظيم فطرة في الناس.

وحدث أن ضرب ابن عمرو بن العاص حاكم مصر، قبطيًا ما زال على دين المسيحية، فمشى القبطي من مصر إلى المدينة وأخبر عمر بالعدوان عليه، فاستدعى عمر عمروًا وابنه، وعلى أعين الناس جميعًا قال عمر للقبطي: إضرب ابن الأكرمين. أي ابن عمرو بن العاص.

وقال عمر رضي الله تعالى عنه وأرضاه لعمرو بن العاص قولته التي صارت جبلاً شامخًا في بيان الحق:

متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟!

ويقول الإمام الأعظم أبو حنيفة: إن قول الصحابة وعملهم قريب من مرتبة السنة لأنه في نورها[1].

فما بالنا بأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وهم عيون الصحابة الأولين.

---

(١) «أبو حنيفة» للشيخ محمد أبو زهرة/٣٠٧.

المبحث الرابع: الحرية فردية

أرجو أن تتذكر أخي القارى أن الله تبارك وتعالى قد أعطى للإنسان حريته حتى القمة .. وأعطى للإنسان هذه الحرية طوال وجوده في الحياة الدنيا. وأنه سبحانه مَدَّ له في حبال الصبر مع الرزق الوفير حتى آخر العمر. وأنه جل شأنه الرحمن الرحيم، قد بين للإنسان الرشد من الغي. وأرسل له الرسل تترى، لكل قوم رسولاً بلسانهم، يهديهم سبل الرشاد. وأنه سبحانه - في رسله - يحدث الإنسان، الفرد، الذي أعطاه سمعًا وبصرًا وفؤادًا، حتى يصل بعقله وفكره إلى الحقيقة الكبرى: لا إله إلا الله.

وإضافة إلى هذا كله، فإن الله عز وجل، فطر الإنسان على الدين. وخلق كل فرد مستقلاً بذاته ..

ونسى اليهود والنصارى حظًا مما ذكِّروا به، بل وحرفوا الكلم عن مواضعه وقالوا على الله إفكًا وبهتانًا، وادعوا لأنفسهم السلطة من دون الله فباعوا للناس صكوك الغفران؟ فألّهوا أنفسهم وأشركوا بالله العلي العظيم ..

ثم ترجمت أوروبا القرآن سنة ١٥٤٢ شمسية مصرية إلى اللاتينية وفي سنة ١٧٣٨ إلى بعض اللغات الأوروبية.

وفهم المفكرون معنى الحرية بالحق من معاني آيات القرآن العظيم ..

فقال ڤولتير ورسو - في فرنسا - مقالاتهم بالإخاء والمساواة والحرية

وتغلغل معنى الحرية في قلوب الناس ثم ملأ وجدانهم.

فبعد ستين عامًا اشتعلت الثورة الفرنسية سنة ١٧٩٨ شمسية وشعارها الأخاء والمساواة والحرية !!!

وإذا كانت الثورة الفرنسية، قد غيرت الأفكار لدى القاصي والداني، فأرست تاج الحرية فوق الرءوس، وأشعلت بها القلوب، واستنهضت بها الهمم، حتى باع الناس أنفسهم في سبيلها فاشتعل الفرنسيون ثورة حمراء قانية ضد الاستبداد والطغيان.

فإن نهضة الفكر الألماني

قد رسَّخ معاني الحرية لدى الاوروبيين وملأ بها وجدانهم حتى الثمالة .. فاتت الحرية الفكرية الألمانية بافكار تمجد "الحرية" أعظم تمجيد وجعلتها هى و "الإرادة" اسمان لمضمون واحد، وأنها هي الجوهر والسر الأعظم لهذا الوجود، وأن الوجود في حقيقته ما هو إلا تحقيق موضوعي لها(١).

بمعنى أنهم جعلوا «الوجود» نتيجة للإرادة الحرة.

بل لقد زاد بعضهم هذا المعنى توضيحًا ولالاءً فقال: الوجود نحن، ونحن الوجود(٢). بمعنى أن لا وجود إلا للاحرار.

ورغم ما في هذه المعاني من بريق حقيقي لنور قوي وحي ..

فإنها؛ ولانها لم تؤسس على حقيقة وأعماق أصولها التي اخذت منها وهي الحقائق القرآنية والهدي المحمدي؛ الذي هو ﴿إن الحكم إلا لله﴾.

فقد جاء مفهومها التطبيقي للحرية الفردية في قالب خاطئ، هو: ان الحكم للأغلبية.

فعندهم .. الحرية للفرد، ولكن الحكم للأغلبية ..

فالأغلبية تحكم الأقلية ولو كان الفارق بينهما "واحدًا" أول العد ..

فإذا بنا أمام نصف الناس + واحد تحكم نصف الناس – واحد ..

ليس هذا فقط

بل وللنصف الحاكم كافة السلطات وليس للمحكومين أية سلطة؛ وهذا أعظم سلب للحرية !!.

---

(١) مقدمة الأستاذ علي أدهم لترجمة كتاب «محاورات رينان الفلسفية» وكتاب «شوبنهور» لعبد الرحمن بدوي/ ١٤٥.

(٢) «نيتشة» لعبد الرحمن بدوي/ ٢٢٥.

كل ذلك، بدعوى ان الحكم للاغلبية، تاسيساً على ما يدعونه من حرية فردية تمخض عنها انتخاب الأغلبية !!

ولما كان هذا استعباد للإنسان في حقيقة الأمر

فقد حدث رد فعل لهذا الضلال ..

ذلك بأن وُجدت افكار اخرى تظن انها تحقق الحرية لهذا الإنسان المستعبد. قالت هذه الأفكار: إن الإنسان خَلْقٌ من خلق الطبيعة ؟! وله وجوده، وأن وجوده لا يتحقق إلا بتحقيق رغباته حتى ولو كانت نزوات غريزة !! وواضح ان هذا الفكر الوجودي يتعارض منطقياً مع مبدا: الأغلبية تحكم الاقلية، بل ويعتبر تمرد عليه وثورة في تلك المساحة من الحرية الباقية للإنسان خارج دائرة السلطة .. ومن ثم فإن الوجوديين مارسوا ما ادعوه حقاً لهم فباشروا رغباتهم ونزواتهم خارج دائرة القوانين الوضعية بل والعرف - من باب التمرد إثباتاً للحرية - وانحدروا إلى الجلوس على الأرصفة بل والمبيت عليها، وأتوا كل الانحرافات الإجرامية والجنسية علانية ودون حياء .. بدعوى تحقيق وجودهم. وأخيراً شاع الأمر وانتشر فاصبح ذلك نداءً انتخابياً على مستوى رئاسة الولايات المتحدة الأمريكية.

وبينما هذا في تلك البلاد التي تدعي الحرية وتتزعمها

نجد الانهيار الخلقي الكامل، أيضاً، في تلك البلاد الشيوعية الديكتاتورية التي اعتبرت الفرد من المجتمع كالمسمار من الآلة، ذلك بأن مقولتهم في الإنسان هي أنه موجود بالتطور البيوكيميائي للمادة - أي لا يعترفون بالخلق ولا بالروح - وأن تفاعلات دمه الكيماوية هي سب قدرته وتفكيره !!

أي عبدوا أنفسهم ونسوا الذي خلقهم.

ثم هبطوا بانفسهم إلى الطين فأخلدوا بها إليه ..

ذلك بأن الاستبداد يولد الطغيان الذي يولد الفساد.

وبينما هذه الأفكار المتلاطمة على شاطئ الحرية، قد أدت بهم إلى قتل الملايين من البشر، أي قتلوا أنفسهم بأنفسهم في حربين عالميتين ..

وهذا برهان آكد على الضلال والفساد.

ولأن نور القرآن، ونور الرسول

يشرقان بحق على الوجود

فالله سبحانه ترك للإنسان حريته حتى القمة الإيمانية وضمن له الرغد في المعيشة حتى النهاية.

ولا شك أن هذا المشي في الأرض والأكل من رزق الله، يستلزمان ويستتبعان حرية الفكر ..

لأن استعمار الأرض حركة كبرى

ولأن الإنسان ليس وحيداً على الأرض

ولأن المصالح والرغبات والطموح، لها صراعات

ولأن الحق يصطرع مع الباطل، سواء نتيجة الجهل، ومرض النفوس والاستبداد والكِبْر والبغي والغباء والبلادة الذهنية ..

فإن العلي العظيم، قد قطع على الناس ذلك كله، بمنهاجه لهم وهديه ونوره مع رسله رحمة بالناس أجمعين.

فإذا ما اشرأبت الساعة وأخبر العلي الكبير ﴿ اقتربت الساعة ﴾ و ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾.

انفذ العلي الكبير لهم الرحمة المهداة والمنهج القويم الكامل الدائم ..

ومن ثم

كان الفكر حراً في تبيين هذا المنهج الإلهي العظيم، ولأن الإنسان خطّاء، فإن تدافع الآراء في حرية الفكر كفيل ببيان وجه الحق.

وقف عمر بن الخطاب، الفاروق اسمه في السماء، يدعو الناس في المسجد إلى التقليل من المهور، دفعًا لأزمة في الزواج في رأيه ..

فقامت إليه امرأة تقول: كيف يا ابن الخطاب وقد قال رب العالمين: ﴿ وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وءاتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئًا؛ أتأخذونه بهتانًا وإثمًا مبينًا ﴾ [النساء: ٢٠].

فأجابها عمر: أصابت امرأة وأخطأ عمر

إذًا، ليس الخضوع للحاكم، ولكن هي الطاعة لله سبحانه.

ذلك بأن الفكر الحر بالقول السديد والموعظة الحسنة، هي السمات التي يجب أن تتحلى بها أية مقولة في دار السلم؛

وبالتالي؛

فما دامت كذلك فليس لأحد أن يمنعها

﴿ قل إنما أدعوا ربي ولا أشرك به أحداً. قل إني لا أملك لكم ضراً ولا رشداً. قل إني لن يجيرني من الله أحدٌ ولن أجد من دونه ملتحداً. إلا بلاغًا من الله ورسالاته، ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً ﴾ [الجن: ٢٠ – ٢٣].

ذلك بأن الزيغ عن الهدي القرآني والنور الرباني، ضلال وضياع

﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم ﴾ [محمد: ٣٣].

ومن هذا نرى أن حرية الإنسان – حرية كاملة وبالتعبير عنها تعبيراً صحيحًا وحرًا – هي الأساس الوحيد لحياته في الأرض، فإن شاب هذه الحرية شائبة لحقها البطلان، وترتب عليها الزيغ عن الطريق الصواب، وذهب متفرقًا في غير سبيل الله، وكان الفشل وذهاب ريح المسلمين أمر حتم لا يحيد .. وصار المسلمون مستضعفين وذهب آخرون منهم إلى الدفاع عن حريتهم بالقتل والقتال وصارت الحياة اضطرابًا وفساداً ..

وحفاظًا لقوة المسلمين؛ أفرادًا وأمة؛ وحفاظًا عليهم في وحدة دائمة في آن معًا، فإن الله جل جلاله جعل الضابط الوحيد - عند خلاف المسلمين في الرأي - أن يردوا الأمر إلى الله والرسول ﴿ ... فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر .. ﴾.

ومعنى هذا أن القرآن العظيم وسنة الرسول المطهرة - باعتبارهما التشريع الإلهي[1]؛ هما الدليل الوحيد لكل أحكام المسلمين، لكل أعمال المسلمين، لكل منهج حياة المسلمين.

وليس المقصود بالتشريع هنا أحكام العبادات والمعاملات فقط، ولكن التشريع لمنهج الحياة كلها: إيمان وأخلاق وأحكام وعلوم الخلق والهدي الإلهي والرحمة الربانية.

فهدي القرآن لم يغادر صغيرة ولا كبيرة

ونور القرآن يسبغ كل مناحي الحياة

ونور السنة زاده وضوحًا وترسيخًا

﴿لقد جاءكم من الله نور وكتاب مبين﴾ [المائدة: ١٥]

﴿فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون﴾ [الأعراف: ١٥٧].

ذلك كله بأن الحكم لله ومن الله، وولي الأمر إمام للناس لطاعة الله ومن ثم؛ فإن السلطة كلها لله وحده سبحانه ..

لذلك وبالتالي

كانت القاعدة أنه ليس ثمة سلطة لأحد على أحد، ولكن السلطة الإلهية جعلها الله - في بعض منها - لكل واحد ممن خلق في نفسه تكليفًا؛ فكل إنسان له تكليف

---

(١) «خلاصة تاريخ التشريع الإسلامي» للشيخ عبد الوهاب خلاف / ٢٧٤ - ٢٨١.

بقدر صلاحيته كإنسان لتقبل العمل الذي يعبر عنه بالفرائض والمندوبات ومنهج الحياة بعامة.

فسلطة الإنسان للإنسان على نفسه ﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى. فإن الجنة هي المأوى ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

والله أعلم بمن خلق

فجعل التكليف بالقدر الذي يتناسب مع كل إنسان

قال جل وتبارك

﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾ [البقرة: ٢٨٦] وجعله مسئولاً، بالتالي عنها:

﴿ لا ما كسبت وعليها ما اكتسبت ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وإذاً فحرية الإنسان فردية محيطها التكليف الذي فرضه الله سبحانه على الإنسان بقدر لياقته وطاقته أي بقدر وسعه.

ولأن السلطة من مادة السلطان أي الصلاحية في التحكم والقدرة على الحكم.

فإن الله سبحانه وتعالى لا بد وأن يسألنا عن كيف تصرفنا فيما أمر من تكليف وكذلك يسأل ولي الأمر عما أصاب الناس من ولايته.

فشرع بذلك الثواب والعقاب وكل إنسان طائره في عنقه ولا يُسأل إلا عما كان يعمل.

ولأن عمل الإنسان قد يتجاوز حدوده الفردية إلى غيره كثروا أو قلوا ..

فإن الحرية الفردية يجب أن تشمل تقابل الحريات الفردية الأخرى إذا ما تعدت الفرد إلى غيره.

وضرب الله سبحانه لنا مثلاً في رسوله ﷺ:

وقف المسلمون في بدر حسبما أشار الرسول الكريم، وكان الموقف بعيداً عن الماء.

فقال الحباب بن المنذر - وهو مجرد جندي في جيش المسلمين - بكل الأدب

والفهم معًا: يا رسول الله، هل هذا الموقف أنزلكموه الله أم أنه الحرب والمكر والخديعة؟ قال الرسول: بل الحرب والمكر والخديعة. قال الحباب: إذًا نقف ونجعل الماء من خلفنا فنشرب ولا يشربون.

والماء في حرب الصحراء أقوى سلاح، لأنه قوام حياة الإنسان

وسمع الرسول ﷺ لصوت صاحب القول السديد، وعدل موقف المسلمين في بدر، وكان النصر الكبير.

ولأن السلطة الفردية. قد تزيغ إلى غير الحق.

ولأن السلطة الفردية. قد تقع في مستنقع الهوى.

فإن الله الرحمن الرحيم

قد حدد للناس منهجهم في الحياة.

وحدد أقطار كل شيء بل وحذافيره.

وبينه حتى صار مُبينًا

بل، وأنزله مع الرسول الكريم، يزيده بيانًا وتوضيحًا وتفصيلاً ..

ومن ثم

فإن العمل بالمنهج الإلهي هو إطار الحرية الفردية لا يزيغ عنه إلا هالك.

ولأن هذه الحرية الفردية لا يمكن أن تنطلق في جُمّاع أمرها إلا بالتواصي والتراحم والتعاون والتكافل والتضافر في شتى الصور التي شرعها رب العالمين.

فإن الحرية تبقى دائمًا أبدًا كاملة الإطار في الفرد، لا ترفع عنه إلا ظلمًا وبغيًا أي عدوانًا. وإن رفعت فبنص و اضح صريح ذلك بأن العلي العظيم عندما أشار إلى توقيع العقوبة قصاصًا على مجرم، اعتبر توقيع الحد أو التعزير صورة تزهق فيها الحرية .. فقال سبحانه ﴿ فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين ﴾ [البقرة: ١٩٣]، فسمّى سبحانه وتعالى تنفيذ القصاص شرعًا «عدوان» رغم أن الذي سيقع عليه العقاب هم «الظالمين».

فإلى هذا القدر السامق للحرية، احترم العلي الكبير حرية الفرد.

وبين لنا العلي الحكيم ان الحرية هي الشيء الأساسي الذي يُسأل عنه الإنسان في القبر.

فقال تعالى

﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم – أي بالخضوع لجبار أو مستبد في غير طاعة الله – قالوا فيم كنتم – أي ماذا فعلتم بحريتكم التي حملتم أمانتها – قالوا كنا مستضعفين في الأرض، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها؛ فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً﴾ [النساء: ٩٧].

بل، ولا يُقبل من إنسان ان يلقي التبعة أي المسئولية على غيره، أي يُحمِّل غيره مسئولية عدم طاعته لمنهج الله بدعوى أنه لم يكن إلا مأموراً أو مغروراً؛

ذلك بأن الحرية أمانة في عنق كل إنسان، لا تنفلت منه أبداً طالما هو على قيد الحياة..

قال العلي الحكيم:

﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله انداداً يحبونهم كحب الله؛ والذين آمنوا أشد حبًا لله؛ ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب ان القوة لله جميعًا وان الله شديد العذاب. إذ تبرأ الذين اتُّبعوا من الذين اتَّبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب. وقال الذين اتَّبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا، كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم؛ وما هم بخارجين من النار﴾ [البقرة: ١٦٥ – ١٦٧].

ولأن الحرية فردية

فقد استقامت أطرها وآتت حذافيرها بأزهارها

فليس ثمة إهدار لكرامة الإنسان ولا ضياع لحقوقه في الحياة

وليس ثمة تحكم أغلبية في أقلية، لأنه ليس ثمة سلطة ولا سلطان إلا لله ولا هدي ولا منهاج إلا هدي الله ومنهاجه.

وأن ما آتاه الله الإنسان، آتاه له من عنده تكليفًا

وليس ثمة إهدار لحق، لأن الحق والحكم لله ومن الله

فالكل:

المحكوم والحاكم سواءٌ في نور الله والعمل بمنهج الله، فإن زاغ الحاكم عن طاعة الله، فقد ظلم نفسه ولا طاعة له عند احد، وإن زاغ المحكوم عن طاعة الله، فقد ظلم نفسه؛ وقال الملك الحق في كليهما:

﴿ فلا عدوان إلا على الظالمين ﴾

ولله المثل الأعلى:

ولأن «الحرية الفردية» هي الوجود الحق للإنسان في هذه الحياة وهي سبب صلاحه فيها وصلاحيته لها. فإن الله العظيم ضرب لها مثلاً وجعله حيًا دائمًا ابدًا ومعادًا مفعولاً وفعلاً من الإنسان بنفسه ومع غيره .. ألا وهو «الصلاة» فانت فيها ولو كانت صلاة جامعة أمام الله بذاتك منفردًا دائمًا وراكعًا ساجدًا له وحده، تدعوه فتحمده هو وحده وتستعين به وحده ولا تطلب شيئًا إلا منه، فلست عبدًا إلا له، فإن خرجت من عبوديته فقد استعبدت نفسك لغيره.

المبحث الخامس: القضاء والقدر والجبر والاختيار

﴿إن الله لا يظلم الناس شيئًا ولكن الناس أنفسهم يظلمون﴾

[يونس: ٤٤]

في فجر الإسلام وفي ضحاه، كان المسلمون يعلمون أن "عملهم" هو الذي يحملهم إما إلى الجنة وإما إلى النار مصداقًا لقوله تبارك وتعالى: ﴿فاليوم لا تظلم نفس شيئًا ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾ [يس: ٥٤].

وكانوا يقرءون في محكم التنزيل:

﴿إن الذين آمنوا - أي صدقوا بالرسالة - وعملوا الصالحات - أي بكل ما في القرآن وبينه الرسول - إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً، أولئك لهم جنات عدن ...﴾ [الكهف: ٣٠ - ٣١].

و﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديدًا يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم. ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزًا عظيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠ - ٧١].

و﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾ [التوبة: ١٠٥]. فيعملون بما يأمرهم الله ورسوله، حتى إذا ما اشترى الله سبحانه وتعالى منهم أنفسهم وأموالهم بالجنة باعوها عن طيب خاطر ورغبة غامرة حبًا في الله ورسوله وطمعًا في الفوز بالجنة خالدين فيها أبدًا.

﴿يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدًا عليه حقًا﴾ [التوبة: ١١١].

كان الإيمان نقيًا منورًا في قلوبهم.

وكان الرسول ﷺ، فيهم، نورًا من الله يمشي بينهم بقول الحق من ربه ﴿وما ينطق عن الهوى﴾.

ويأمر رب العالمين ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم﴾ [محمد: ٣٣].

فإذا بالمؤمنين جميعًا على قلب رسول الله في كل ما يأمر من عمل ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا .. ﴾ [الحشر: ٧] ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرًا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

ويتركهم الرسول ﷺ ... ويلحق بالرفيق الأعلى

يتركهم على المحجة البيضاء؛ ليلها كنهارها

وقامت الدولة الإسلامية على مدى الخلفاء الراشدين ... حتى إذا وليَ عليٌّ رضي الله تعالى عنه وأرضاه وكرم وجهه الخلافة؛ وبرزت الفتنة إلى سطح الوجود، وانفلت الخوارج من الإمام وكفروه لقبوله التحكيم مع أنهم أرغموه عليه؛ ثم ما حدث في هذا التحكيم من ألاعيب عمرو بن العاص ومعاوية ..

فإن الناس أخذت تتكلم بمقولة تقارب مقولة الخوارج وإن صاغتها في تساؤلات عن ماهية الإيمان والقضاء والقدر والجبر والاختيار والكبيرة والصغيرة. ومتى يصير المؤمن كافرًا ..

ومن ثم، فقد دلف الزيغ إلى عتبات القلوب

وصارت الإرهاصات في متاهات تحاور ناصع الفكر، حتى إذا ما استقر الأمر للأمويين، وأخذوا الأمور بقوة ودهاء، فقد استقام لهم الحال، وقبعت إرهاصات الزيغ تحت سطح الماء، فإذا أشرفت دولة الأمويين على نهايتها، وضعفت قوتها، وراحت هيبتها، وذهب ريحها، فتفككت روابط عزمها تريد أن تنقض. فقد نشط اللئام: النساطرة واليعاقبة إلى الطعن في الإسلام ...

(ولقد وجدنا في تاريخ بعض المسيحيين، وهو يوحنا الدمشقي الذي كان في خدمة الأمويين إلى عهد هشام بن عبد الملك، ما يدل على أنه كان يُعلِّم المسيحيين ما يجادلون به المسلمين في شأن دينهم، وقد جاء في تراث الإسلام أنه كان يقول: إذا سألك العربي (يقصد المسلم) ما تقول في المسيح، فقل إنه كلمة الله، ثم ليسأل النصراني المسلم: بِمَ سُمِّي المسيح في القرآن، وليرفض أن يتكلم بشيء حتى يُجيب

المسلم، فإنه سيضطر إلى أن يقول: إنما عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه؛ فإذا أجاب بذلك فأسأله عن كلمة الله وروحه مخلوقة أم غير مخلوقة، فإن قال مخلوقة فليرد عليه بأن الله كان ولم تكن له كلمة ولا روح؛ فإن قلت ذلك فسيفحم العربي، لأن من يرى هذا الرأي زنديق في نظر المسلمين ...

وترى من هذا أنه بين مواضع الحجة في نظره، وكيف يفحم العربي ثم يجرهم إلى مسألة قدم كلام الله تعالى ليدرئ بها في دعواه؛ وإن كانت لا تغني في الحق فتيلاً، لأن إضافة الكلمة إلى الله وكون الروح من الله لا يدلان على قدمهما، لأن الكلمة التي يخلقها الله سبحانه ليست قديمة وكذلك الروح الذي يخلقه، وسمي عيسى كلمة الله، لأنه نشأ بمجرد كلمة الله: كن، فكان ومن غير توسيط أب، وكذلك سمي روحاً، لأن المادة الأولى للحي بمقتضى السنة العامة، لم تكن طريقة إيجاده، والأشخاص يوصفون بأظهر أحوالهم. ثم هو يلقنهم ما يعد نقداً لمبادئ الإسلام، فيتكلم في تعدد الزوجات وفي الطلاق وفي المحلل، ثم يثير بينهم أكاذيب حول النبي ﷺ، فيخترع قصة عشق النبي لزينب بنت جحش، وهكذا، ثم يذكر أن تقديس الحجر الأسود كتقديس الصليب وهكذا ..

ولا يكتفي - يوحنا الدمشقي - بكل ذلك، بل يدفع بالمجادلين، ليجر المسلمين إلى الخوض في مسألة القدر، وإرادة الإنسان وحرية هذه الإرادة وخيرها ويقذف بالعقل العربي في تيه المجادلات ويثير بينهم طائفة من المشاكل الفكرية المعقدة، تضليلاً للمسلمين، وإيقاعاً للفرقة بينهم، وإثارة للأهواء والنحل، وليتفرقوا شيعاً وأحزاباً فكرية، وكل ذلك من رجل احتضنه الملك الأموي وربّاه ورعى أباه)[1].

وتعقيباً على ذلك في موضوع خلق عيسى بن مريم عليه السلام؛ أنه مكتوب في الكتاب منذ أن جرى القلم بكتابته قبل خلق العالمين، شأنه في ذلك شأن كل العالمين أما أنه من روح الله، فذلك مثل كل إنسان نفخ فيه من روح الله، فكل إنسان ينفخ فيه من

---

(١) «أبو حنيفة» للشيخ محمد أبو زهرة/ ٨٤ - ٨٥ عن كتاب تراث الإسلام، وكذلك كتاب المخلوقات العربية لمؤلفه لويس شيخو اليسوعي.

روح الله ﴿ ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعلنا لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون ﴾ [السجدة: ٩] وكذلك عيسى ﴿ ... فأرسلنا إليها روحنا - أي جبريل عليه السلام - فتمثل لها بشراً سوياً. قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً. قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً... فحملته... ﴾ [مريم: ١٧ - ٢٢]. وكلمة روح الله لا تعني شيئاً من ذات الله، وإنما هو تشريف للروح مثل قوله تعالى ناقة الله ..

والفارق بين عيسى بن مريم وبين الناس، أن بدء تكوين الناس يكون من نطفة من ذكر وأنثى ينفخ فيها من الروح على رأس ١٢٠ يوماً ... أما عيسى بن مريم فإنه كان نطفة بكلمة الله: "كن" نفخ فيها جبريل عند إبراء عيسى أي إيجاده. فالخلق قديم حتماً ويظهر في الوجود في موعده المحدد.

وإذا أتينا إلى قدم هذه الكلمة، فإننا نتساءل أليس كل إنسان بل وكل شيء كلمة؟ ويجيبنا العلي الكبير تقريراً في قوله تعالى: ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم .. ﴾ [البقرة: ٢٨] أي يحييكم بكلمة في موعد إبراء كل منكم(١).

إذاً؛ فكل إنسان كلمة؛ وكذلك عيسى بن مريم عليه السلام.

وكلام الله قديم

وإذا كان أبو الحسن الأشعري قد قال بأن العلم قد كان هو العلم بأنه سيكون؛

وإذا كان من تلاه قد رأى أن ما قد كان فهو عدم قبله وجود وما سيكون فهو عدم بعده وجود. أي أن العلم علمان.

ثم إن الأشاعرة من بعد ذلك قالوا: بأن حقيقة العلم أنه إضافة؛ وأن كثرة الإضافة لا تؤدي إلى كثرة الذات؛ وكذلك كثرة التغير.

وقال ابن رشد: أن الله سبحانه يعلم الأشياء علماً مقارناً بالزمان فيعلمها حال كونها معدومة بعنوان أنها معدومة ويعلمها بعد وجودها بعنوان كونها موجودة. ولا يلزم من ذلك التغير في ذاته، لأن التغير إنما يلزم عن العلم الحادث، والله يعلم الأشياء بعلم قديم ... (٢).

---

(١) الإبراء هو الإيجاد المادي ﴿ هو الله الخالق البارئ المصور.. ﴾ [الحشر].

(٢) «أبو الحسن الأشعري» / ١٥٧ - ١٥٨.

فإن رأينا ان هذه الآراء لا تختلف ولا تتعارض بل تتطابق ..

فكلام الله قديم كما بينه الرسول ﷺ: (أول ما خلق الله القلم قال: اكتب فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة)

وقال العلي الكبير:

﴿ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر (القرآن) ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

وإذاً؛ فكلام الله العظيم - الذي فيه علمه وخلقه بحرفه ولفظه - قديم؛ أما إبرائه أي إيجاده في الحياة الدنيا وما بعدها - فهو تحقيق بالتنفيذ ..

فأين المشكلة؟ ولماذا الخلاف؟

ولما كان الكفرة والمشركون يتكلمون بمقولات فلاسفة الإغريق التي تكاد تنحصر في المنطق الأرسطي والقياس المبني على الفروض والمسلمات الظنية التي يقودها العقل البشري.

فقد بدأ المسلمون - استجلاباً لحجة مماثلة - اتصالاً بتلك الفلسفة، ومن هنا جاءت ترجمة الفكر اليوناني منذ نهاية الدولة الأموية وحتى المأمون من الدولة العباسية كما بينا مطولاً بالمقدمة.

ونظراً لاختلاف قوة العقول وتباينها ويقين الإيمان بصدقه وزيادة الإيمان ونقصه، فقد اختلف تأثير هذه الأفكار الإغريقية على الناس، فمنهم من هضمها وسيطر عليها، ومنهم من اضطرب بها ولها؛ فإذا أضفنا إلى ذلك هؤلاء الزنادقة الذين كانوا يعلنون آراء مفسدة لعقول المسلمين ويتناجون بأمور هدامة للإسلام، ويدبرون الكيد للمسلمين، فإننا نعلم سبب الاضطراب الذي حدث وشمل على الناس حياتهم؛ ومن ثم نشأت الفرق الفكرية المختلفة مثل الجهمية والقدرية والمعتزلة والمرجئة من بعد الخوارج والشيعة بفرقها المتعددة الكثيرة.

ومن ثم كان الخلاف من بعد الاختلافات والإرهاصات التي سادت الفكر الإسلامي.

ولأننا لسنا في مجال عرض لعناصر هذه الخلافات الفكرية حتى لا يضيع منا موضوعنا وهو حرية الإنسان.

فإننا نحصر كلامنا على القضاء والقدر والجبر والاختيار

وحقيقة الأشياء تعرف دائماً بأسبابها

فالقول بالجبر

قد جاء أول ما جاء، إرهاصاً، بين الخوارج والشيعة، ثم زاد وأوغل بعد أن سدر الأمويون في مخالفة الإسلام، ومن ثم استبد بالكثيرين التساؤل: ما هو الإيمان؟ وجرهم ذلك إلى محاولة تحديد مسئولية العبد عن تصرفاته، فاصطدموا بموضوع القضاء والقدر.

ونشأت في ذلك الوقت فرقتان

الأولى: القدرية. وعلى رأسها معبد الجهني وغيلان الدمشقي؛ اللذين قالا إن الإنسان حر في أفعاله وخالق لأفعاله وأعماله.

ولما كان منطق هذين – على ما يرى ابن نباتة المصري – متأثر بنصراني من أهل العراق؛ فقد قتل الحجاج الأول لابتداعه القول في القدر؛ أما الثاني فقد قتله الملك المرواني هشام بن عبد الملك؛

والثانية: الجهمية. التي تقول بأن الإنسان مجبر وأنه كالريشة في مهب الريح. ونسبت إلى اسم رئيسها: جهم بن صفوان.

وخلاصة منطقها كان في القول بنفي الصفات عن الله سبحانه إلا صفتي الفعل والخلق اللتين لا يشاركه فيهما أحد من خلقه، وتبع ذلك رأيه بالقول بالجبر حيث لا خلق لأعمال العبد وأن الإنسان كالريشة في مهب الريح.

وقد قتله هشام بن عبد الملك أيضاً(١).

---

(١) «أبو الحسن الأشعري» / ٣٧ – ٣٨.

ونرى أن هذا كفر لتعارضه مع الأمر والنهي والثواب والعقاب وهي جميعاً من أصول الدين.

وقال الحسن البصري بحرية العبد وأثبت له الاختيار المطلق في الأفعال كلها خيراً أو شراً(١).

ونرى أن هذا الاطلاق لا يتفق مع المشيئة الإلهية كما سنفصل بعد ..

أما المعتزلة

فتنفي الصفات عن الله، إيجاباً وسلباً.

لأن الله سبحانه عالم بذاته قادر بذاته

ولما كان خلق الأفعال أي القدر، موضوع ينحصر معرفته في العلاقة الحقيقية بين قدرة الله سبحانه وأفعال الإنسان.

فإن المعتزلة قسموا أفعال الإنسان إلى نوعين:

الأول: أفعال اضطرارية خلقها الله تعالى ولا دخل للإنسان فيها مثل الارتعاش من البرد أو الحمى.

(ويلاحظ هنا أن المعتزلة لم يذكروا حركات أجهزة جسم الإنسان وهي حركات القلب والجهاز الهضمي والكبد والكلى والخلايا .... إلخ).

الثاني: أفعال اختيارية مخلوقة بقدرة العبد استقلالاً، ولا صلة لقدرة الله سبحانه بها.

ويرى المعتزلة أن هذا الحكم ضروري لصحة الدين. لأنه لو لم يكن الإنسان حراً لبطل تكليفه وذهبت حكمة إرسال الرسل وإنزال الكتب وسؤال الإنسان وحسابه وجزائه.

واستندت المعتزلة في ذلك إلى قوله تعالى:

﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾

---

(١) «أبو حنيفة» / ١٤٠.

﴿يوم تجد كل نفس ما عملت محضراً﴾

﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحًا﴾

كما أنه سبحانه لام الكفرة لأنهم كفروا فقال تعالى:

﴿كيف تكفرون بالله﴾

﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت﴾

ثم أنه سبحانه أثبت الإرادة والرضا في جميع أفعاله:

﴿فعال لما يريد﴾

ومن ثم

فقد رأت المعتزلة حرية الإرادة للإنسان، وبالتالي مسئوليته.

وجاء قوم من الذين يقولون بالجبر إلى الإمام أبي حنيفة يناقضونه في القدر، فقال لهم: أما علمتم أن الناظر في القدر كالناظر في شعاع الشمس، كلما ازداد نظرًا ازداد حيرة.

ولكنهم طلبوا إليه أن يتكلم في التوفيق بين «القضاء» و «العدل» كيف يقضي الله الأمور كلها، وتجرى على مقتضى قضائه وقدره ويحاسب الناس على ما يعملون؟ فيقولون له: هل يسع أحد من المخلوقين أن يجري في ملك الله ما لم يقض؟

قال: لا، إلا أن القضاء على وجهين:

منه أمر، والآخر قدرة.

فاما القدرة فإنه لا يقضي عليهم، ويقدر لهم الكفر ولم يأمر به بل نهى عنه.

والأمر أمران:

وهو على غير أمر الوحي أي أمر التكليف والإيجاب(١).

وعلى خلاف ذلك تمامًا:

---

(١) «أبو حنيفة» للشيخ أبو زهرة/١٧٧ - ١٧٨.

كتب أحد المفكرين المعاصرين:

(إن في كل إنسان جانب عدمي مظلم هو نفسه الأمارة بالسوء التي تدعوه إلى اليأس والقنوط والانتحار وتسلمه إلى الشهوة والغضب وتحفزه إلى الغيرة المجنونة والانتقام الأهوج. وهذا الجانب العدمي في كل إنسان هو نصيب الشيطان وحظه ومدخله. ويستشهد بالحديث الشريف: «إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم» وأنه يجري في هذه القناة العدمية في كل إنسان. وأن ما يحدث في الدنيا إن هو إلا تحصيل حاصل لما كان في علم الله الأزلي.

وإنما أراد الله بالدنيا كشف المكتوم وإخراج المخبوء في هذه النفوس.

وقال: إن الذين لا يتبعون إلا جوانبهم العدمية فقط قد تخفوا تحتها بأسماء المسلمين أو الملاحدة أو الشيوعية أو الفوضوية أو العبثية أو الفاشية؛ ثم تساءل: أليس لهؤلاء القوم عقول تميز؟ وأجاب: بل لهم عقول وأحيانًا عقول عبقرية ولكنها في اتجاه واحد مثل الشوارع ذات المرور في اتجاه واحد. فهي عقول أسلمت ذواتها تمامًا وسخرت مهاراتها لنفوسهم العدمية، ووضعت ذكاءها في خدمة رغباتهم الظلمانية وكرست علمها ومنطقها لخدمة الباطل بالفكر والنظرية والعمل والتخطيط .. فأصبحت عقولاً عدمية هي الأخرى تسير في اتجاه واحد نحو الهدم وتسخر له جميع مواهبها.

ثم يعقب الكاتب على ذلك بقوله عنهم: هم من قال الله فيهم ﴿ سواء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾ [يس: ١٠] فهم من سبق عليهم القول وغلبت عليهم شقوتهم منذ الأزل)(١).

وواضح أن هذا الرأي يؤمن بأن الإنسان مجبر لأنه محكوم عليه منذ الأزل وأن الله أراد بالدنيا كشف المكتوم في هذه النفوس. وأن الرسل والرسالات ليست للكفرة ولا تجدي معهم لأنه سبق عليهم القول ...

وكذلك كتب إمام المسجد الحسيني بالقاهرة:

---

(١) مقال بعنوان «عودة التتار» للدكتور مصطفى محمود بجريدة الأهرام المصرية في ١٩/٥/١٩٨٣/٧.

(إن الله خلق الأسباب والمسببات، وقضى كل شيء، ولا راد لقضائه ولا معقب لحكمه وككل شيء عنده بمقدار. وقد خط في لوحه المحفوظ المعلق والمعلق عليه، ولا شيء غير ما خطه وقضاه ومن جملته الدعاء. فالدعاء والمترتب عليه من محو الشقاء وإثبات السعادة مقدر ومكتوب في أم الكتاب فلا محو ولا إثبات في الواقع ونفس الأمر، وإنما هو ترغيب للعبد للطاعات والتضرع لله تعالى ليرتب عليه الله ما قضاه وهو سعادة العبد بسبب الدعاء)[1].

ومن هذا المقال نفهم أن كل الأعمال مكتوبة في اللوح المحفوظ وأن المحو والإثبات هما رمز لقبول الدعاء وترتيب المعلق عليه، وهو المقدر فعلاً حدوثه.

ومعنى هذا أن الذين كتب عليهم الشقاء ولم يكتب لهم الدعاء، فهم في شقاء في الدنيا وفي جهنم في الآخرة. ومن ثم فهو الجبر بحذافيره وبكامل اقطاره لأنه كما يقول إن الله خلق الأسباب والمسببات وقضى كل شيء ولا راد لقضائه.

من هذا وذاك

يتضح أن الرأي يسدر في فكر الكثيرين منذ السلف. حتى المحدثين، بين حرية الإنسان الكاملة في كل أعماله ... وبين القول بان الإنسان قد خلقه ربه وكتب عليه منذ الأزل أنه شقي أو سعيد فهو مكتوب عليه مسوق إليه لا يستطيع الانفكاك منه منذ الأزل وحتى الأبد.

ولما كان الاختلاف في الفكر قد ولّد خلافًا انعكس على معنى الدين الذي هو يقين بالله وعمل بمنهجه؛ ومن ثم فإن «الجبر» يكون مناقضًا لحمل الإنسان أمانة الحرية التي هي الأساس ..أن يؤمن بالله سبحانه أو يكفر به..

فإن الرجوع إلى كتاب الله وتدبر آياته الكريمة بقواعد وأصول فقه الكتاب وفقه الدليل، هو الوسيلة الصحيحة الوحيدة لمعرفة الحق من الباطل لقوله تبارك وتعالى ﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر. ذلك خير وأحسن تأويلاً﴾.

---

(١) مقال بجريدة الأهرام المصرية - ملحق الجمعة يوم ٢٧/٥/١٩٨٣/١٥.

لذلك

نذكر آيات الذكر الحكيم

قال العلي الكبير:

﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون﴾ [الأنبياء: ١٠١].

﴿وكان أمر الله قدراً مقدوراً﴾ [الاحزاب: ٣٨].

﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب﴾ [الحديد: ٢٢].

﴿والله خلقكم وما تعملون﴾ [الصافات: ٩٦].

﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾ [القمر: ٤٩].

﴿وما كان لنفس ان تؤمن إلا بإذن الله ...﴾ [يونس: ١٠٠].

﴿إن الذين كفروا سواء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾ [البقرة: ٦].

﴿وسواء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾ [يس: ١٠].

وهذه هي بعض الآيات التي يستند إليها الذين يقولون بان الإنسان مُجبر وأنه مكتوب عليه ما قضاه الله فيه منذ الأزل في أم الكتاب ومقدر عليه عمله.

ويقول العلي الكبير:

﴿ما أصاب من حسنة فمن الله، وما أصاب من مصيبة فمن نفسك﴾ [النساء: ٧٩].

﴿وما أصابك من مصيبة فبما كسبت أيديكم﴾ [الشورى: ٢٠].

﴿قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا﴾ [التوبة: ٥١].

﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون﴾ [الذاريات: ٢٢].

وهذه الآيات تفيد أن الخير من عند الله، وأما السوء فلا يصيب الإنسان إلا نتيجة عمله السيئ أي أن الله لم يكتب على الإنسان سوءً، ولكن الإنسان هو الذي يفعله برغبته !!

ويقول العلي الكبير:

﴿ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

﴿ أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾ [يونس: ٩٩].

﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ [الكهف: ٢٩].

﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئًا ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾ [يونس: ٤٤].

﴿ ولئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ [إبراهيم: ٧]

﴿ أفمن يُلقى في النار خير أمَّن يأتي آمنًا يوم القيامة؛ اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير ﴾ [فصلت: ٤٠].

﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى. وأن سعيه سوف يرى ﴾ [النجم: ٣٩ - ٤٠].

﴿ وقال ربكم ادعوني أستجب لكم ﴾ [غافر: ٦٠].

وهذه الآيات الكريمة صريحة في أن الإنسان حر حتى القمة أي إلى الإيمان بالله العظيم أو الكفر به، ومن ثم فهو حر في كل ما دون ذلك إلى أدنى شئون الحياة ..

وإذًا

فلدينا الآيات التي تفيد - ظاهريًا - جبر الإنسان، وأخرى التي تبين أن الخير من عند الله سبحانه، وأما السوء فمن عمل الإنسان، وثالثة تفيد أن الإنسان مطلق الحرية من أدنى الأشياء وحتى القمة.

ولما كان ذلك

وطبقًا لقواعد أصول الفقه، وقواعد اللغة العربية،

لزم إعمال القاعدة العامة عند وجود دليلين (الدليل هو الآية القرآنية) أو أكثر ظاهرها التعارض ..

وأول أصل في هذه القاعدة هو الجمع والتوفيق؛ ذلك بأن العمل بكل واحد من الأدلة ولو من وجه أولى من العمل بدليل واحد من كل وجه وتعطيل الدليل الآخر.

وأساس ذلك:

١ - الجمع بين النصين العامين يكون بالتنويع.

٢ - الجمع بين النصين المطلقين يكون بالتقييد.

٣ - الجمع بين النصين الخاصين يكون بالتعيين أو بحمل أحدهما على المجاز.

٤ - الجمع بين الخاص والعام يكون بحمل العام على ما عدا الخاص(١).

ولما كانت الآيات الكريمة التي أوردناها هي آيات عامة، فطبقًا للقواعد المتقدمة، يجب تنويعها.

ولما كان خير بيان للتنويع هو شرح الموضوع، فإننا نبين ذلك بآيات رب العالمين تحقيقًا لقوله تبارك وتعالى:

﴿ فإذا قرأناه فاتبع قرآنه. ثم إن علينا بيانه ﴾.

فما هو بيان العزيز الحكيم

يقول العلي الكبير:

﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ﴾

و﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرًا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وواضح أن الآية الأولى تبين معنى «القضاء».

فهي تعني أن الله سبحانه وقد علم الإنسان حقيقة الألوهية وأخذ عليه الميثاق ﴿ ألست بربكم قالوا بلى ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

---

(١) كتاب «علم أصول الفقه» للدراسات العليا (قسم الدكتوراة) بكلية الحقوق سنة ٤٨ - ١٩٤٩ للشيخ محمد أبو زهرة/ ٤١.

فإن الذي ينفك ويحنث في يمينه مع رب العالمين، يكون قد كفر.

لهذا وصف سبحانه الذين كفروا بقوله تعالى ﴿ وكانوا يصرون على الحنث العظيم ﴾ [الواقعة: ٤٦].

وبين العلي الكبير مضمون «القضاء» فقال جل جلاله:

﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، وذلك دين القيمة ﴾ [البينة: ٥].

وبين سبحانه هذه العبادة في أوامره المتعددة بالقرآن والأحاديث الشريفة التي أنزلها لرسوله ﷺ فنطق بها. وجعل الله دليلها في قوله تعالى:

﴿ وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة - أي السنة - وعلمك ما لم تكن تعلم، وكان فضل الله عليك عظيماً ﴾ [النساء: ١١٣] وقوله تعالى ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة ... ﴾ الآية.

أي أن الله سبحانه حصر هذا القضاء في أن يعبدوا الله لا شريك له، ثم بين تفاصيل هذه العبادة: وهي كل ما ورد بالكتاب والسنة: علم وهداية وأحكام؛

ولأن الله سبحانه قال:

﴿ وكان أمر الله قدراً مقدوراً ﴾.

فإن الأمر يكون هو القدر.

ولما كان الأمر هو بيان تنفيذ القضاء.

فإن القدر يكون بيان تنفيذ القضاء.

أي أن القدر هو تفاصيل العمل بمنهجه.

ومع أن الله سبحانه قد حدد «قضاءه».

وفصَّل إنفاذ قضاءه بقدره.

فإنه، سبحانه، قد أطلق الحرية للإنسان: يأخذ هذا القضاء وينفذ قدره، أو لا يأخذه ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾.

وأعطى لكل إنسان كل ما يلزمه لحياته وأكثر، وأغدق على الذين كفروا ﴿ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم، إنما نملي لهم ليزدادوا إثمًا ولهم عذاب مهين﴾ [آل عمران: ١٧٨] ﴿.. والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم﴾ [محمد: ١٢].

فلم يفرق سبحانه بين من يريد أن يهتدي ومن لا يريد، لأن الله سبحانه هو الحق ﴿ولا يظلم ربك أحدًا﴾، ذلك بأن الله قبل من الإنسان أن يحمل أمانة الحرية وأعد لذلك حسابًا حدد له موعدًا لن يخلفه.

فهي إذًا حرية شاملة كاملة.

وهي حرية دائمة منذ مولد الإنسان إلى لحظة وفاته.

ولأنه سبحانه «كتب على نفسه الرحمة» واعذارًا لكل إنسان، فإنه لم يترك الإنسان سُدًى .. فبعد أن أحياه في هذه الدنيا على الفطرة وفي أحسن تقويم فجعل له الأذن ليسمع والعين ليبصر والقلب ليعقل والفؤاد ليفهم ويتدبر واللب ليحفظ .. أي خلقه خلقًا كاملاً عظيمًا فهو سبحانه ﴿الذي أحسن كل شيء خَلَقه﴾ [السجدة: ٧].

فإنه، جل جلاله، وبسم الرحمن الرحيم.

أرسل الرسل تترى، لكل قوم رسولاً بلسانهم.

حتى إذا اقتربت الساعة

بعث الرسول المأخوذ له الميثاق من النبيين والممهد له ولرسالته، يُذكّر الناس كافة بالأحدية الإلهية وينذرهم بالبعث والحساب ويهديهم الصراط المستقيم، حتى تستقيم لهم حياتهم، ويفلحوا في أخراهم.

فهذا قضاء الله، قضاء واضح، وبالحرية الكاملة الدائمة لك أن تأخذه أو تدعه، فإذا تركته فإن الله يُفيق التارك ببعض العذاب لعله يرجع إلى ربه الذي أقسم بربويته ﴿ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر - الخلد في جهنم - لعلهم يرجعون﴾ [السجدة: ٢١].

ذلك بأن الحرية مكفولة للإنسان طوال حياته الدنيا.

أما إذا أخذت هذا القضاء، فقد لزمك قدره ولزمك العزم القوي على أدائه؛

ذلك بأنه سبحانه لا يترك الذي قبل قضاءه وشأنه، وإنما ومن عظمة رحمة رب العالمين وحنانه يصلي عليه ويهديه ﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ..﴾ [البقرة: ٢٥٧] و ﴿هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

ثم

بين لنا العلي العظيم أمرًا مهمًا وأساسيًا

هو أن «القدر» أي تنفيذ القضاء، أي منهج الله، إنما هو من عند الله سبحانه، فلا اختيار للمؤمن فيه ولا رأي له، فقال جل جلاله:

﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرًا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم﴾.

﴿.. ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ..﴾

فلا اختيار في القدر، أي لا خيار للمؤمن في أن يعمل بمثل القدر أو بمثل جنسه كالحكم بالقوانين الوضعية أو يعمل بجزء من المنهج ويترك جزءًا، فليس لك أن تترك الصيام وتصلي أو تصوم وتترك الصلاة أو تترك الزكاة فلا تؤديها، أو تكون قادرًا ولا تؤدي فريضة الحج، أو تكون سليمًا ولا تقاتل في سبيل الله إذا استنفرت لها ... إلخ.

فإذا امتنعت عن الأخذ ببعض القدر أو غيرت فيه فقد تركت قضاء الله، ولأن قضاءه لا يتغير ولا يتجزأ فإن قدره أيضًا لا يتجزأ ولا يتغير.

فالذي يترك أو يغير بعض قدر الله، إنما يترك قضاء الله؛ أي يخرج من الإسلام ... لهذا كان الامتناع عن أداء الزكاة ارتداداً عن الإسلام، فحارب أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه المرتدين جهاداً في سبيل الله ..

ويروى عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، أنه أُتي إليه بسارق فسأله: لم سرقت؟ أجاب: قضى الله علي. فأمر به فقطعت يده وضرب أسواطًا. فقيل له في ذلك، فقال: القطع للسرقة؛ والجلد لما كذب على الله.

قال تعالى: ﴿أو تقول لو ان الله هداني لكنت من المتقين. أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فأكون من المحسنين. بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين. ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة ..﴾ [الزمر: ٥٧ - ٦٠].

وقد زعم بعض الذين اشتركوا في قتل عثمان رضي الله تعالى عنه أنهم ما قتلوه ولكن الله قتله، وحين حصبوه قال بعضهم له: الله هو الذي يرميك، فقال عثمان: كذبتم لو رماني الله ما أخطأني.

ولما كان علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه وأرضاه وكرم وجهه، وكثرت المناقشات حول خلافته، ثم حول مرتكب الذنب، كانت المناقشة في القدر. وجاء في شرح نهج البلاغة لابن حديد: قام شيخ إلى علي رضي الله عنه فقال: أخبرنا عن سيرنا للشام، أكان بقضاء الله وقدره. فقال علي: والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما وطئنا موطئًا ولا هبطنا واديًا إلا بقضاء الله وقدره. فقال الشيخ: فعند الله أحتسب عناي، ما أرى لي من الأجر شيئًا. فقال علي: أيها الشيخ لقد عظم الله أجركم في سيركم وأنتم سائرون، وفي منصرفكم وأنتم منصرفون، ولم تكونوا في شيء من حالاتكم مكرهين ولا مضطرين. فقال الشيخ: كيف والقضاء والقدر ساقانا؟! فقال علي: ويحك لعلك ظننت قضاء لازمًا وقدراً حتمًا. لو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب، والوعد والوعيد، والأمر والنهي، ولم تأت لائمة من الله لمذنب، ولا محمدة لمحسن، ولم يكن

المحسن أولى بالمدح من المسيء، ولا المسيء أولى بالذم من المحسن، تلك مقالة (أي القول بالجبر) عباد الأوثان وجنود الشيطان، وشهود الزور أهل العمي عن الصواب، وهم قدرية هذه الأمة ومجوسها. إن الله أمر تخييراً؛ ونهى تحذيراً، وكلف تيسيراً، ولم يُعصي مغلوباً، ولم يطع كارهاً، ولم يرسل الرسل إلى خلقه عبثاً، ولم يخلق السماوات والأرض وما بينهما باطلاً، ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار. فقال الشيخ: فما القضاء والقدر اللذان ما سرنا إلا بهما؟ فقال علي: هو الأمر من الله والحكم، ثم تلا قوله سبحانه: ﴿وقضى ربك الا تعبدوا إلا إياه﴾(١).

ومن مقالة ابن عباس يخاطب بها جبرية أهل الشام هل منكم إلا مفتر على الله يحمل إجرامه عليه وينسبه علانية عليه(٢).

وعن علي رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ (ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة) قالوا يا رسول الله فلا نتكل على كتابنا وندع العمل. قال: (اعملوا فكل مُيسر لما خلق له، أما من كان من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة ثم قرأ: ﴿فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى.﴾ متفق عليه.

وقال رسول الله ﷺ: (ما من أحد إلا وله منزل في الجنة ومنزل في النار، الكافر يرث المؤمن منزله في النار، والمؤمن يرث الكافر منزله في الجنة، وذلك قوله تعالى: ﴿وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون﴾. أخرجه ابن أبي حاتم - صفوة التفاسير حـ٣/١٦٥.

وفي صحيح مسلم: عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة قال وعرشه على الماء).

(١) «أبو حنيفة» للشيخ محمد أبو زهرة/هامش ٨٣.

(٢) المرجع السابق/١٤٠.

وعن عبد الله بن مسعود رضي تعالى عنه: قال حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق (إن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله ملكًا بأربع كلمات فيكتب عمله وأجله ورزقه وشقي أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح فو الذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها) متفق عليه(١).

ونسارع إلى القول؛ بأنه يجب أن نلاحظ في هذه الأحاديث الشريفة وهي مطابقة تمامًا للآيات الكريمة ومبينة لها، أن الله سبحانه كتب في أم الكتاب عنده علمه "عن" الناس بعلمه السابق عن كل منهم وما سيفعله فقال تعالى عن أبي لهب وزوجه: ﴿ سيصلى نارًا ذات لهب وامرأته حمالة الحطب. في جيدها حبل من مسد ﴾ [المسد]. ولكنه سبحانه لم يكتب "عليهم" أن يفعلوا شيئًا لزامًا أو رغمًا عنهم.

وعلى هذا الأساس طبق الخلفاء الراشدين مفهوم القضاء والقدر وعلموه للناس، على نحو ما رأينا آنفًا.

فالله جل شانه، عندما يقول ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى ﴾ أي الذين كتب الله عنهم بعلمه السابق أنهم سيكونون في الدنيا محسنين، ومن ثم فهم عن النار مبعدون؛ ويقابل ذلك الذين كتب الله عنهم بعلمه السابق أنهم سيدخلون النار، مثل أبا لهب.

أما قوله تعالى ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾ أي خلقكم وخلق "الأسماء" التي ستعملونها في الحياة الدنيا وأخبرنا العلي الكبير عن ذلك مع آدم عليه السلام.

وأما قوله تعالى ﴿ ما أصاب من مصيبة .... إلا في كتاب ﴾ فذلك بعلمه السابق على نحو ما ذكرنا.

---

(١) كتاب «أصول الإيمان» للإمام محمد بن عبد الوهاب/١٦ - ١٨.

وقوله سبحانه ﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾ فذلك يعني أن الله سبحانه لم يخلق شيئًا عبثًا، وهو تحقيق لقوله تعالى: ﴿وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق﴾ و ﴿هو الذين أحسن كل شيء خلقه﴾.

وقوله جل شأنه ﴿وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون﴾ أي ما كان لأحد أن يؤمن إلا بإرادته سبحانه ويجعل العذاب على الذين لا يتدبرون الآيات ولا يستعملون عقولهم فيما ينفع[1]. ونرى أن الله سبحانه ربط الوصول إلى الإيمان باستخدام العقل في المعرفة، وأن هذا الاستخدام العقلي هو المشيئة الإلهية في الإنسان. ومن ثم فقد طلب الله سبحانه من الناس جميعًا أن يعقلوا القرآن في قوله تعالى مرات كثيرة ﴿أفلا يعقلون﴾ و﴿أفلا يتدبرون القرآن﴾، والتفكير السليم يتطلب الحرية الكاملة لذلك قال تعالى: ﴿وإن أحد من المؤمنين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه؛ ذلك بأنهم قوم لا يعلمون﴾ [التوبة: ٦].

أما عن الآيتين الكريمتين في سورتي البقرة ٦ ويس ١٠

﴿وسواء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾ [يس: ١٠]

فإن هذه الآية الكريمة تبين سلوك الذين كفروا من إنذارهم كما هو واضح في وصف الذين كفروا في صدر سورة البقرة ﴿إن الذين كفروا سواء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾ ذلك بأن الله أخبر بأنه أغلق على قلوبهم وعلى سمعهم وأن على أبصارهم غشاوة ﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم﴾ [البقرة: ٧].

وتوضيح هذا؛ أن الله عز وجل بعث الرسول «للناس» - وليس للكافرين لأن الجميع في جاهلية - ينذرهم ويهديهم بآيات الله وأن الذي يكفر من الناس يكون قد اختار حرًا أن لا يعقل آيات الله، بأن لا ينتبه إليها أو لا يسمعها أو يسمعها ولا يعقلها ولا يفكر فيها ويمر عليها برعونة أو يأبى أن يعلمها .. إلخ، فكل هذه الصور وغيرها قد اختارها الذي كفر من الناس بإرادته، فهي تتلى عليه بكرة وعشيًا وكأنه في وادٍ آخر بملء حريته.

---

(١) صفوة التفاسير حـ١/٥٩٨.

وإذاً فقد اختار لأجهزة المعرفة فيه أن تتعطل عن سماع كلام رب العالمين، وعن رؤية الحق من الباطل لتحقيق مآربه الخاصة ﴿ فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ﴾ [القصص: ٥٠].

ومن ثم، فأصحاب هذه الجاهلية كأنهم صم بكم عمي فهم لا يعقلون، وصفهم رب العالمين أصدق وصف في قوله تعالى ﴿ .... لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها؛ أولئك كالأنعام بل هم أضل؛ أولئك هم الغافلون ﴾ [الأعراف: ١٧٩] ﴿ وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون ﴾ [الأعراف: ١٩٨].

وبالتالي فقد صارت هذه الأجهزة مغلقة برغبة صاحبها عن فهم الحق بالسمع الصحيح والرؤية الحقة، فتركت بذلك الحق إلى الباطل قال تعالى: ﴿ وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ﴾ [فصلت: ٢٦]، لذلك صاروا كما أخبر العلي العظيم عنهم ﴿ وسواء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾.

ذلك بأن الله سبحانه جعل الدين فطرة وخلق الإنسان على تلك الفطرة في أحسن تقويم، ولأنه حَمّل أمانة الحرية، فقد جعل الله أجهزة المعرفة في الإنسان حرة في اختيار الطريق الذي تريد، بلاء من الله له في الدنيا؛ مع ما وضعه فيه من فجور وما أفاء الله عليه من سبل التقوى.

وبجهاز المعرفة يمكن للإنسان أن يتبين الفجور ويتلمس التقوى ثم يركن إلى ما يختار منها، فالنفس تختار والعقل يرجح وإن كان قويًا يحكم. فكما قال الصوفية: العقل أمير والنفس أسير والأعضاء رعية[1].

وإعمالاً للبلاء والاختبار والامتحان

فإن الله سبحانه يلهم الإنسان ما يحبه ويختاره لنفسه، فإن أراد الفجور ألهمه الفجور، وإن أراد التقوى ألهمه الله سبلها ﴿ ونفس وما سواها. فألهمها فجورها وتقواها ﴾ ﴿ ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ﴾ [هود: ٧].

---

(١) لطائف المنن لابن عطاء الله، تحقيق الدكتور الشيخ عبد الحليم محمود/ ٤٨ الهامش.

ومن ثم

فإن في ضرب الأمثال من الله العظيم للناس بيانًا كبير الفائدة، ومثال ذلك، ولله المثل الأعلى، ما فعله إبراهيم عليه السلام من النظر في الكون، وهو ما أمر الله به سبحانه رسوله ﷺ أن يأمر به الناس ليؤمنوا، ولنبدأ بما فعل إبراهيم عليه السلام حين جَنَّ عليه الليل ففكر أن الكوكب البازغ هو ربه فلما ذهب ظن القمر، فلما غرب ظن الشمس، إنها أكبر، فلما غربت، علم أن هذه لا بد أن تكون أشياء من خلق الله، لأنه كما تشرق تغرب، فهي مأمورة مسخرة، وليست آمرة ومن ثم فهي مخلوقة، والله العظيم لا بد أن يكون آمرًا ومن ثم خالقًا. فانتهى إبراهيم بعد عقله هذه الحقائق إلى اليقين بالحقيقة الكبرى، حقيقة الألوهية الأحدية فقال ﴿إني وجهت وجهي للذي فطر - خلق - السماوات والأرض حنيفًا وما أنا من المشركين﴾ [الأنعام: ٧٩].

ولأن النظر في الآفاق والإلمام بحقائق الكون تؤدي حتمًا إلى اليقين الصادق بالله العظيم، فإن الله سبحانه قال لرسوله ﷺ ﴿وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله؛ ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون، قل انظروا ماذا في السماوات والأرض؛ وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾ [يونس: ١٠٠ - ١٠١] فأرشدنا إلى أن أعظم العقلانية تكون بالنظر إلى السماء والأرض.

فها هي السماء وما فيها من نجوم عظام، كيف لا تقع على الأرض؟ وها هي الأرض تحيط بها السماء من كل جانب، فمن الذين وضعها هكذا فجعلها ثابتة ساكنة وكل شيء حولها مسخر لها ولمن عليها وفيها؛ فمن الذي فعل ذلك، وما هي القوة الهائلة التي تمسك هذه الأجرام وتحركها حركة دائبة منتظمة بالدقيقة والثانية على مدى بلايين السنين؟

فإذا خلصت من الأوهام والظنون التي ينادي بها العلمانيون وانتهيت منهم وإلى عدم اليقين بأى قول من مقولاتهم، خلصت إلى الحقيقة وهي أنه سبحانه جل جلاله ﴿ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾ [الحج:

٦٥]، وإلى حقيقة جمود وثبات الأرض ﴿ هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها ﴾ [الملك] ﴿ والأرض وضعها للأنام ﴾ أي جعلها ثابتة لا تتحرك، وإلى حقيقة دوران الشمس والقمر متتابعين حول الأرض ﴿ والشمس وضحاها. والقمر إذا تلاها ﴾ وعلمت أن شيئًا لا يمسك شيئًا، فليس في شيء قوة على شيء آخر، وإنما القوة لله جميعًا وخلصت من ذلك إلى أنك تعيش على كوكب واقف في مركز سبع سماوات ومن فوقهن صاحب العرش المجيد ﴿ الذي يعلم السر في السماوات والأرض ﴾ [الفرقان: ٦][1].

وإذا أردنا، أن نبصر، فلنبصر ما في أنفسنا، فهي معنا وليست بعيدة عنا مثلما السماوات والآفاق بعيدة، فما الذي يمسك علينا أعضاءنا؟ وما الذي يحركها حركات مختلفة الاتجاهات والوظائف ولكن إلى هدف واحد، هو استمرار حياتنا؟.

أليس السر الذي وضعه الله فينا ونقول عنه إنه الروح هو الذي يمسك علينا أعضاءنا ويحركها؟

إنه أيضًا «السر» الذي وضعه الله سبحانه في السماوات والأرض، فيحرك ما يريد أن يحركه ويثبت ما يريد أن يثبته، ويمسك الجميع تحقيقًا لغاية يعلمها سبحانه وأعلمها لنا هو استمرار هذه الحياة حتى تقوم الساعة، فتكون الأرض جميعًا قبضته والسماوات مطويات بيمينه.

ويقول العلي العظيم

وحتى لا نجشم أنفسنا مئونة العبث العقلي بالتفكر بالظنون والأوهام ومن ثم الكذب والبهتان على الله وعلى الناس؛

يقول: أنظروا ماذا في السماوات والأرض. ولتسهيل هذا النظر وتحقيق صدقه يذكرنا فوراً بأنفسنا في ذات الآية بأن «السر» في الإنسان هو نفسه «السر» في السماوات والأرض:

﴿ أو لم يتفكروا في أنفسهم؛ ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى؛ وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون ﴾ [الروم: ٨].

ومن ثم ندرك تماماً ان الإنسان حر في حياته بغير إكراه لإرادته ولا حتى من رب العالمين، ذلك بأن الله جل جلاله يختبره ومن ثم لا بد أن يتركه حراً.

﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ [هود: ٧] بل إنه سبحانه لا يترك المؤمنين وشأنهم بل يظلوا في الاختبار حتى الموت ﴿الم. أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون – أي يختبرون –. ولقد فتنا الذين من قبلهم، فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾ [العنكبوت: ١ – ٣].

فأن يكون الإنسان صادقًا أو كاذباً فذلك ملء حريته، وهو أمر مشهود ملموس لكل إنسان في واقع حياته.

كما أن المشهود أيضاً أن القهر والإجبار لا يغير ما في القلب، وهذا دليل مادي آخر لكل إنسان على حريته في حرية سريرته، ومن هنا كانت «التقية» سبباً للنجاة في عصور الطغيان والفتنة التي دمغها رب العالمين بأنها أشد من القتل لأنها تقتل النفس المؤمنة الزكية.

ولأن ما في القلب لا يعلمه إلا الله سبحانه ﴿وهو عليم بذات الصدور﴾ [الحديد: ٦].

فإن النية أي ما يعقله الإنسان بقلبه ويخلص إليه بفؤاده ويحفظه في لبه، كانت هي الأساس التي بها تكون الأعمال وعليها يكون الحساب.

فقال رسول الله ﷺ في حديث أخرجه الصحاح بسند عن عمر رضي الله تعالى عنه وأرضاه: (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ...).

ولأن التقوى لا سبب لها إلا النية الظاهرة؛ فقد جعلها رب العالمين بالتالي أساس تكريم الإنسان في الآخرة فقال سبحانه وتعالى

﴿.. إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ [الحجرات]

ومن هنا

يتبين أن الحساب: الثواب والعقاب أساسهما النية والعمل المترتب عليها. وكلاهما يتم بحرية الإنسان كاملة يقول تعالى: ﴿ ... اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير﴾ [فصلت: ٤٠].

ومن ثم

كانت الحرية سببًا لوقوع الحساب

ولهذا

فإن الله يأمر الملائكة بأن تكتب ما يفعله الإنسان حتى يكون كتابًا له يشهد عليه أو له في الآخرة.

فيقول سبحانه

﴿إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين﴾ [يس: ١٢].

قال أبو حيان: فعبر عن إحاطة علمه جل وعلا بأعمالهم بالكتابة التي تضبط بها الأشياء[١].

ويقول العلي الكبير مبينًا ذلك للناس أن الملائكة تكتب أعمالهم ﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد. إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد. ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾ [ق: ١٦ - ١٨].

بل إن ما يكتبه الملكان تعمل منه عدة نسخ الله أعلم بسبب تعدادها. فيقول سبحانه وتعالى عن يوم الحساب والناس جاثين أمام الملك الجبار ﴿وترى كل أمة جاثية، كل أمة تدعى إلى كتابها، اليوم تجزون ما كنتم تعملون. هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق، إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾ [الجاثية: ٢٨ - ٢٩].

---

(١) البحر المحيط ٧/٣٢٥ عن ضوء التفاسير جـ٣/٨.

وكتابة الأعمال حال حياة الإنسان دليل حريته لأنه لو كانت أعماله مكتوبة "عليه" ما كان ثمة داعٍ لكتابتها ثانية.

ومن ثم

فإن أعمال الإنسان قد حدثت منه بحريته أي أن أعماله في اختيار الكفر أو الإيمان وأعماله الصالحة أو الفسوق والعصيان والظلم، هي أعمال صدرت منه بملء حريته أي أعمال خلقها هذا الإنسان لنفسه ولم يكتب الله عليه منها من شيء.

ولكن هذا لا ينفي علم الله العظيم السابق بها، فإن كان الله قد كتب عن إنسان إنه سيختار الكفر، فلا شك أن ذلك سيتحقق ولكن ليس لأن الله كتب عليه ذلك ولكن لأن الله أعلم عنه أنه سيختار الكفر رغم الرسل والرسالات.

ومن هنا قوله تعالى عن أبي لهب وامرأته وعن انتصار الروم بعد بضع سنين.

أما بالنسبة للمؤمن

فإن الله وملائكته يصلون عليه أي يلهمونه الهداية فإن اهتدى بحريته وكان مكتوباً عنه بعلم الله أنه فاسق أو عاصٍ، فإن الله يمحو ما كتب ويثبت توبته قال تعالى ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ﴾ [الرعد: ٣٩].

لذلك

أمر الله المؤمنين بالدعاء أي بالاستغفار والتوبة ثم بطلب الحسنات في الدنيا والآخرة.

فالدعاء والاستجابة ليسا معلقًا ومعلقًا عليه، وإنما الدعاء هو أمر من الله للمؤمنين إن فعلوه حدثت إجابة الله له ﴿ وقال ربكم ادعوني (أمر) استجب لكم ﴾

وفعل الدعاء مرهون بحرية الإنسان المؤمن، ومن هنا حبب الله المؤمنين فيه وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان، فليستجيبوا لي (أي لأمري بالدعاء) وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وبين الرسول مكانة الدعاء في العبادة فقال ﷺ: (الدعاء مخ العبادة).

وإذا كان ما تقدم بقواعد أصول الفقه والتفسير.

فإننا نبحث الموضوع أيضًا بفقه الدليل القرآني، تأكيدًا للمعنى ورسوخًا لليقين وطردًا لأي زيغ قد يضعه الشيطان في النفوس.

وأساس البحث:

هو ان نحدد الحقيقة أو الحقائق القرآنية التي يلزم أن نصل إلى تحقيقها أي التدليل عليها حتى نصل إلى برهانها.

فأولاً: يلزمنا تحديد الحقيقة أو الحقائق التي هي أم الموضوع والموضوع هو: هل الإنسان حر أم مجبر

وثانيًا: إذا كان الإنسان حرًا؛ فهل القضاء والقدر يضيقان هذه الحرية إلى درجة العدم، ومن ثم يكون الإنسان مجبراً !!؟

وإذا كان هذا؛ لزم أن نعلم ابتداء:

هل الحكمة من الحرية هي الحساب والجزاء، وانها بهذه المثابة تكون دليلاً على أن الإنسان حر؛ كما يقول الكثيرون.

في الواقع والصحيح: ان الحكمة غير الحكم، وأن الدليل غير العلة فالصحيح فقهًا أن النص القرآني (الآية القرآنية) هو الدليل على الحكم أو دليل الحكم.

وأن الحكم هو الذي جاء مقرراً او منشئًا بناء على علة أوجدته. ومن ثم قال العلماء إن الحكم يدور مع علته وجوداً وعدمًا. فإن وجدت العلة وجد الحكم.

فعندما يوجد الحكم فإنما وجد لان العلة أوجدته؛ حتى ولو كانت العلة خافية.. كما في أحكام بعض العبادات بمفهومها الضيق (الصلاة والزكاة والصيام والحج) والتي تسمى بالعبادات المحضة.

وعندما لا توجد العلة فلا يوجد حكمًا.

ولما كانت العلة هي الوصف الغالب والمؤثر الذي به يوجد الحكم.

فذلك هو السبب في أن العلة هي التي توجد الحكم لتحقق به الحكمة أى الهدف من إنشائه أو تقريره.

ولما كانت «الحرية» حقيقة قرآنية لقوله تعالى عنها ﴿ وحملها الإنسان ﴾؛

فإننا لكي نؤصل الظروف التي أحاطت بها من بعد حملها، يلزم أن نبحث عن الحكم الذي شمل الإنسان وله سخر الله العلي العظيم كل ما في الوجود؛ ذلك بأننا إذا علمنا الحكم تيسر البحث عن دليله.

والحكم كما هو ثابت في القرآن هو قول الخالق العظيم ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ [البقرة: ٣٠] وقوله تعالى ﴿ وكنتم أمواتًا فأحياكم ﴾ [البقرة: ٢٨].

وما دام أن وجود الإنسان في الحياة خليفة لله في الأرض وخليفة لنسله نسلاً بعد نسل لتعمير الأرض؛ هو الحكم، فإن النص القرآني هو الدليل عليه.

لهذا، وجب علينا أساسًا أن نبحث عن علة هذا الحكم، أي معرفة السبب الغالب والمؤثر – ظاهرًا أو خفيًا – وكان عاملاً على إحياء الإنسان خليفة في الأرض.

أي ما هو السبب الآكد الذي جعل الله سبحانه وتعالى يستخلف الإنسان في الأرض رغم طموح الملائكة ورغبتها فيها.

وقد أبان الله العظيم عن هذا السبب، فهو ليس ما فضل الله به الإنسان على الملائكة عندما علمه «الأسماء»؛ أي مقدرته على صناعة كل ما يلزمه لتعمير الأرض؛

ولكن لأن هذا التعمير إنما يتطلب أول ما يتطلب حرية الإنسان في حياته، ليس حرية بمعنى العصيان، ولكن الحرية في أن يفعل وأن يعمل؛ أي حرية استعمار الأرض. ولأن هذه الحرية بمعناها يجب أن تكون شاملة كاملة ودائمة، فإن الله سبحانه وتعالى أطلقها للإنسان كاملة غير منقوصة وطوال حياته.

إذًا فإن العلة هي حمل الإنسان لأمانة الحرية؛ . .

أي لأن الإنسان قد اختار أن يكون حرًا، فقد استخلفه الله في الأرض ومن ثم علمه الأسماء كلها.

لذلك وبالتالي؛

فإن هذه العلة قد أوجدت الحكم وهو استخلاف الناس في الأرض، لتحقق به حكمة معينة هي الابتلاء؛ هي اختبار الإنسان في حمل أمانة الحرية.

قال تبارك وتعالى:

﴿ وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا ... ﴾ [هود: ٧].

﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً ﴾ [الكهف: ٧].

إذًا فالعلة هي الحرية في حمل الأمانة والحكم هو "الخلافة في الأرض" والحكمة هي "الابتلاء فالبعث والجزاء" والدليل هو "النص القرآني".

وإذا كان لنا أن نلاحظ شيئًا، فهو أن الله سبحانه وتعالى يرفع الإكراه ويضع الحرية الكاملة في نطاق معين هو الدخول في الإسلام ليؤمن ويعبد الله جل شأنه وينفذ منهجه ويستنبط علم الخلق وهدايته في قرآنه العظيم وسنة رسوله الكريم، فمن شاء فليؤمن فيخضع لحكم الله وينفذ منهجه، ومن شاء فليكفر فلا يتبع هداية الله ولا ينفذ منهجه.

فهل يقصر البلاء في "العمل" على المؤمن دون الكافر؟

أم أن البلاء مطلق؟

لا شك أن الإجابة تتطلب معرفة المشيئة الإلهية والمشيئة الإنسانية.

فما هي المشيئة الإلهية في الإنسان؟

المشيئة الأولى: في الكون

فالله سبحانه وتعالى خلق للإنسان السماوات والأرض، وسخر له كل ما فيهما.
قال تعالى ﴿ وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعًا منه ﴾.

المشيئة الثانية: مصدر الخلق ومكان الإبراء

فمشيئة الله الثانية في أن جعل «الأرض» مصدراً لخلق الإنسان ومستقراً له ومستودعًا ثم مبعثًا، قال تبارك وتعالى:

﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾ [طه: ٥٥].

المشيئة الثالثة: في العمل

فقد خلق الله الإنسان واستخلفه في الأرض ليعمرها. قال تبارك وتعالى: ﴿ .. هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه .. ﴾ [هود: ٦١].

فحدد عمل الإنسان في عمارة الأرض ... بزراعتها والبناء عليها والمشي فيها بالحق.

المشيئة الرابعة: في العلم: علم الأسماء وعلوم التوحيد والخلق والهداية إلى السنن الكونية .. إلخ.

فقال سبحانه وتعالى: ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ﴾، وذلك للتعمير والقوة .. ثم أنزل الهداية في توحيد الله وأردفها ببيان أحكام الحياة وختمها بالذكر الحكيم؛ ومنه يكون العلم الحق: ﴿ ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴾ [البقرة: ١٥١].

المشيئة الخامسة: في تحديد مكان الإنسان من الكون

فالإنسان لا يستطيع أن يخرج من أقطار السماوات والأرض: ﴿ يا يمعشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا، لا تنفذون إلا بسلطان ﴾ [الرحمن] أي لا تنفذون إلا بقوة الله سبحانه، ولم يحدث ذلك إلا للرسول في المعراج الذي تم بقوته سبحانه.

المشيئة السادسة: الاستدعاء إلى الحياة

فالله سبحانه الخالق العظيم يستدعي الإنسان إلى الحياة ﴿ كيف تكفرون بالله

وكنتم أمواتًا فأحياكم ﴾ [البقرة: ٢٨] فليس للإنسان مشيئة في إيجاد نفسه، فقد كان ميتًا ثم أوجده رب العالمين؛ ذلك أنه ليس للميت إرادة.

المشيئة السابعة: إنهاء الحياة والأجل ومكان الموت ..

فالله سبحانه هو القاهر فوق عباده، وجعل لكل إنسان أجلاً ﴿ فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ [الأعراف: ٣٤] وليس هو بقادر على إنهاء حياته وإنما هي أسباب قدرها رب العالمين في وقت محدد: ﴿ وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابًا مؤجلاً ﴾ [آل عمران: ١٤٥] ﴿ وما تدري نفس بأي أرض تموت ﴾ [لقمان: ٣٤].

المشيئة الثامنة: الخلق بكمال السنة الإلهية

فالله العظيم يخلق الحيوان المنوي - بذرة الإنسان - والبويضة - تربة البذرة -؛ بغير إرادة الإنسان وبغير علم منه ولا معرفة ولا قدرة، رجلاً كان أو امرأة. ﴿ أفرأيتم ما تمنون. ءأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ﴾ [الواقعة: ٥٨ - ٥٩].

المشيئة التاسعة: تحديد الظرف

فالله جل جلاله قيد الإنسان بالليل والنهار؛ ﴿ والشمس وضحاها. والقمر إذا تلاها. والنهار إذا جلاها. والليل إذا يغشاها ﴾، وجعل الصيف والخريف والشتاء والربيع فصولاً للسنة، فلا يستطيع الإنسان منها فكاكًا ولا بغيرها حياة ... أرأيت إنسانًا ينام دومًا أو مستيقظًا أبدًا ..

المشيئة العاشرة: تحديد الطعام

﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه. أنا صببنا الماء صبًا. ثم شققنا الأرض شقًا. فأنبتنا فيها حبًا. وعنبًا وقضبًا. وزيتونًا ونخلاً. وحدائق غلبًا. وفاكهة وأبًا. متاعًا لكم ولأنعامكم ﴾ [عبس: ٢٤ - ٣٢].

﴿ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبًا فمنه يأكلون. وجعلنا فيها

جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون. لياكلوا من ثمره وما عملته أيديهم افلا يشكرون ﴾ [يس: ٣٣ - ٣٥].

﴿ أو لم يروا أنّا خلقنا لهم مما عملت ايدينا انعاماً فهم لها مالكون. وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها ياكلون. ولهم فيها منافع ومشارب افلا يشكرون ﴾ [يس: ٧١ - ٧٣]. فهل للإنسان طعام غير هذا ...

المشيئة الحادية عشرة: الشرب

﴿ أفرأيتم الماء الذي تشربون. ءأنتم أنزلتموه من المزن - السحاب الثقال - أم نحن المنزلون. لو نشاء جعلناه أجاجًا - ملحًا - فلولا تشكرون ﴾ [الواقعة] فهل للإنسان بديل غير الماء يشرب. وقد ثبت هذا علمياً.

المشيئة الثانية عشرة: تحديد الشخصية

فقد حدد الخالق العظيم لكل إنسان شخصيته مستقلة متميزة. فليس ثمة إنسان يساوي إنسانًا أبدًا في بصمته على أنامله واقدامه وجلوبين الدم الذي يجري في عروقه وشبكية عينيه وكذلك رائحته وشعره، منذ آدم عليه السلام وحتى آخر إنسان. ؟!! تحديداً يكفي وحده للتسبيح بعظمة الخالق الذي لا إله إلا هو.

المشيئة الثالثة عشرة: تحديد الرزق والمستقبل

﴿ وفي السماء رزقكم وما تُوعَدُون ﴾

فقد حدد الخالق العظيم لكل إنسان رزقًا، في بسطة الجسم، وفي بسطة العلم وفي بسطة المال، وفي بسطة الوسع، وفي بسطة العقل، وفي بسطة الفهم، وفي بسطة الحفظ، وفي بسطة الخصال ... وكذلك عمله طوال حياته ..

وهذه كلها أمور واقعة مجزوم بها، مشاهدة في الحياة ويقررها سبحانه وتعالى ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا، فمنهم ظالم لنفسه، ومنهم مقتصد، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله، ذلك هو الفضل الكبير ﴾ [فاطر: ٣٢] و ﴿ وتلك

حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه، نرفع درجات من نشاء ﴾ [الأنعام: ٨٣] ﴿ وفوق كل ذي علم عليم ﴾ [يوسف: ٧٦] ﴿ ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليتخذ بعضكم بعضًا سُخْرِيًا ﴾ فهذه مشيئة الله في الناس لتسيير حركة الحياة ويكون « البلاء » ..

المشيئة الرابعة عشرة: الناس أنماط مختلفة وغير متساوية

فالناس ليسوا متساويين في أنفسهم أي لكل منهم وسع وقدرة خاصة به. أما الحقوق والواجبات في الأحكام فالناس فيها سواسية: أحكام العبادات وأحكام المعاملات، فالأمير الذي يشتري شيئًا له نفس حقوق الخفير الذي يشتري نفس الشيء وهكذا ..

وكذلك في الحقوق العامة: العمل، الإقامة، التنقل، الأمن ... إلخ لذلك فإن مشيئة الله فيهم، ومشيئته في حسابهم يوم القيامة ان يكون بقدر الوسع الذي حدده لكل منهم ﴿ لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

هذه هي المشيئة الإلهية بقدر ما أعلم، وعلم الإنسان قاصر ومحدود .. فما هي مشيئة الإنسان التي جعلها الله سبحانه للإنسان؟

الإجابة عن السؤال، إجابة بدهية، فالله سبحانه خلق الإنسان حرًا، كما أن الإنسان اختار الحرية أمانة يحملها ويعيش بها في دار البلاء - الدنيا - طمعًا في عظمة الجنة، والأمانة هي حقيقة الصدق. وإذًا فعليه أن يحمل الأمانة بحرية سليمة ..

ولما كان العلي الكبير قد استدعى الإنسان في هذه الدنيا لابتلائه أيهم أحسن عملاً، فلزم أن تكون له مشيئة حرة هي الاختيار فيما خلق الله سبحانه.

إذًا فهو صاحب مشيئة في كل ما يبتليه فيه ربه وفي نطاق ماسمح له الرحمن أن يحيا ويعيش.

ومن ثم، فقد أخبرنا العلي العظيم بانه أعطى الإنسان المشيئات التالية حتى يتمكن من القيام بدوره في الأرض ..

المشيئة الأولى: اختيار الإيمان بالله أو الكفر به.

وحتى تكون هذه المشيئة خالصة من أي عيب قد يشوبها، فإن الله سبحانه خلق الإنسان تماماً على الذي أحسن ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ ﴿... فجعلناه سميعاً بصيراً﴾ [الإنسان: ٢].

والإنسان حر، يختار بملء مشيئته الحرة المستقلة السليمة .. ﴿فمن شاء فليؤمن ومن يشاء فليكفر﴾ [الكهف]

فإذا اختار الكفر فهو في «أسفل سافلين» وهي جهنم..

قال مجاهد والحسن: أسفل دركات النار. وقال الألوسي: والمتبادر من السياق الإشارة إلى حالة الكافر يوم القيامة وأنه يكون على أقبح صورة وأبشعها بعد أن كان - في الدنيا - على أحسن صورة وأبدعها(١).

المشيئة الثانية: اختيار لباسه لجسده ولباسه لنفسه

﴿يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوءاتكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير، ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون﴾ [الأعراف: ٢٦].

فالله العظيم أنزل اللباس، والإنسان يختار بمشيئته وهو أمر واقعي مشاهد. فهو مجزوم به، واللباس هنا ليس بمعنى الملابس فقط وإنما معها الخلق وأرفعها "التقوى" وهي لباس النفس.

المشيئة الثالثة: اختيار أصناف الطعام والشراب.

وذلك من وفرة ما خلقه الله سبحانه وتعالى له ﴿وكلا منها رغداً حيث شئتما﴾ [البقرة].

---

(١) صفوة التفاسير: جـ٣/٥٧٨ و ٥٧٩ عن تفسير القرطبي ١٩/١١٥ وتفسير الالوسي ٣٠/١٧٦.

المشيئة الرابعة: العلم والإقبال عليه.

ان يتعلم الإنسان أو يعزف عن العلم فيكون غبيًا أو يصعد فيه فيكون عالمًا، فذلك مرهون برغبته وهمته وإرادته، لذلك قالوا: إن الغباء هو الوقوف بالإرادة عن إدراك العلم.

المشيئة الخامسة: اختيار مكان الإقامة.

ان يقيم الانسان في هذا المكان او يرحل .. وفي اي بلد وعلى قدر الطاقة لذلك يسأله الله لماذا لم يهاجر إن استضعف فأرض الله واسعة..

المشيئة السادسة: تنفيذ المنهج.

إذا كان الإنسان قد اختار الكفر، فقد خرج من دائرة البلاء إلى دائرة العذاب الأصغر أو الأدنى لعله يتذكر ويعود إلى ربه، رحمة من الله سبحانه بالناس ﴿إن الله بالناس لرءوف رحيم﴾ [الحج: ٦٥].

أمّا إذا كان الإنسان قد اختار الإيمان، فقد لزمه المنهج الإلهي، بتأدية منهج الله والفرائض والمندوبات كما يسميها المذهب الحنفي، والواجبات والمندوبات كما تسميها بقية المذاهب، وتقوى الله سبحانه بالانتهاء عن المحرمات والمكروهات ولكن هذا قضاء ليس حتمًا وأمر ليس لازمًا، فالإنسان المؤمن حر في فعل ذلك، لأنه في دار البلاء، فإذا فعل فقد أدى حق الإيمان، وإذا امتنع فقد عصى، ثم دخل في دائرة الكفر ﴿إن الشيطان كان للرحمن عصيًا﴾.

فتنفيذ المنهج هو دائرة المشيئة الإنسانية، فالتكليف من منطلق الحرية والاختيار. والله العظيم يقول للمؤمنين إن رسوله ﴿حريص عليكم﴾ ومن هنا لزم في بعض الأوقات أن يخوفهم حتى يتقوا الله: ﴿وما نرسل بالآيات إلا تخويفًا﴾ [الإسراءء: ٥٩]. ولكن لأن الإنسان حر مختار فإن الكثيرين لا يخافون ﴿ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغيانًا كبيرًا﴾ [الإسراء: ٦٠].

ومن هذا

يتضح لنا بجلاء معنى قوله تبارك وتعالى ﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ [التكوير: ٢٩].

فالإنسان يشاء؛ ولكن مشيئته دائمًا أبدًا في دائرة ونطاق المشيئة الإلهية، فهو يعيش فوق الأرض رغمًا عنه لا يستطيع منها فكاكًا. وهو يأكل مما تخرج الأرض ومما خلق الله من دابة رغمًا عنه، وهو يستنشق الهواء ويشرب الماء ولا سبيل له غير هذا وهو يلبس مما أخرج الله له ولا يستطيع إلا أن يفعل ذلك، وكل مشيئته محصورة في الاختيار بين موجودات كثيرة أوجدها العلي الكريم الرحمن الرحيم.

فإذا فهمنا ذلك،

فهمنا معنى قوله تبارك وتعالى: ﴿ وما كان لبشر أن يؤمن إلا بإذن الله - أي بمشيئة الله - ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون ﴾ [يونس: ١٠٠].

فالله سبحانه خلق الإيمان والكفر، ودعا الناس إلى الإيمان وبين براهينه واضحة جلية ومن هنا وصف الكفرة بأنهم كاذبون ﴿ وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين ﴾ [النحل: ٣٩].

وإذًا فإن الذي يؤمن إنما يكون قد آمن طبقًا لمشيئة الله حيث دعاهم للإيمان به، وهو بذلك أذن لهم أن يؤمنوا، فمن آمن فقد آمن بإذن الله سبحانه بالتفكر السليم ..

﴿ ربنا إننا سمعنا مناديًا ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ﴾ [آل عمران: ١٩٣] فمن آمن إذًا فقد آمن بإذن الله أي بمشيئة الله، ولكن بكل حرية الذي آمن بالتفكر العقلي السليم.

أما الذي كفر، فإنه يكون قد عمي عن الفهم لهوى في نفسه، وهذه حريته في مشيئته المريض القلب - كما بينا قبل - وليست مشيئة الله؛ لأن الله لم يأمر بالكفر، بل نهى عنه.

فالكافر قد عصى الله مرتين: مرة عندما رفض الإيمان ومرة عندما اختار الكفر والعصيان لا يكون إلا من منطلق الحرية الكاملة .. ﴿وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير. فاعترفوا بذنبهم فسحقًا لأصحاب السعير﴾ [الملك: ١٠ - ١١]. ويتحسر الله العظيم على كفر الناس في قوله تعالى: ﴿يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزءون﴾ [يس: ٣٠].

لذلك قال العلي الكبير:

﴿ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء﴾ [البقرة: ٢٧٢] أي أن الله يهدي الذي يشاء أن يهتدي طبقًا لما عقله وفهمه وعرفه من الحق. ولهذا ثبت في الصحيحين أن قوله تعالى: ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾ [القصص: ٥٦]، قد نزل في أبي طالب وهو على فراش الموت والرسول يدعوه للإيمان فأبى أن يهتدي(١).

ولذلك أيضًا قد كانت سفارة الرسل ورسالاتهم: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم، فيضل من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم﴾ [إبراهيم: ٤] أي يضل الذي يشاء أن يضل ويهدي الذي يشاء أن يهتدي، كقوله تعالى ﴿ونفس وما سواها. فألهمها فجورها وتقواها﴾.

ويقول العلي الكبير تبارك وتعالى:

﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة﴾ [النساء: ٤٠].

و ﴿إن الله لا يظلم الناس شيئًا ولكن الناس أنفسهم يظلمون﴾ [يونس: ٤٤].

و ﴿... وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾ [الحج: ١٠].

و ﴿فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ [التوبة: ٧٠] و [الروم: ٩] و [العنكبوت: ٤٠].

---

(١) تفسير ابن كثير حـ٣/٣٩٤ - ٣٩٥.

وهذه الآيات الكريمة إنما تعبر عن العدل الإلهي السابغ لكل الناس، وعندئذ قد يثور لدى البعض سؤال:

لماذا خلق الله الفقير يتكفف الناس ويتعذب ويتوجع، وخلق الغني يبذر ويسرف وينعم؟

ولماذا خلق الله القوي الفحل الذي يتمتع بقوته وفحولته، ويصول ويجول بها. وخلق الضعيف العليل، بل الكسيح؟

وخلق الذي يشطط بما فيه من كثرة وقوة، وخلق الضعيف الذي يسايس ضعفه وينعطف في كل لحظة من لحظات حياته على ما فيه من قِل؟

وخلق الصحيح وخلق المريض، وخلق قوي العقل والفكر وآخرين كُلٌّ منهم كَلٌّ على صاحبه؟

بل وخلق الذكي الأريب، وخلق البليد والسفيه ؟!

أنماطًا لا حصر لها تجعل الناس أشكالاً وألوانًا، النظر إليهم يؤكد عدم المساواة، ومن ثم تجيء شبهة الادعاء بعدم العدالة بين الناس.

فإذا قامت هذه الشبهة في النفوس، اختلفت موازين العمل وأخطأ الفؤاد الفهم، واضطربت النفوس، ومن ثم تساءلت ثم مارت !!

ولكن الحقيقة التي يجب أن نعلمها، ونركز دائمًا عليها، ونضعها أمام العيون؛

أن الله سبحانه - كما سبق بيانه - خلق الناس ليكونوا خلفاء في الأرض، وبهذه الخلافة يبلوهم أيهم أحسن عملاً.

وإذا كانت الخلافة تعمير

فإن التعمير يحتاج إلى كل أنماط الناس ليرتفق بعضهم ببعض

ولما كان ذلك،

فإن البلاء لكل إنسان، إنما يكون في خلقه الذي خلقه الله عليه.

والله سبحانه - في قاعدته - لا يكلف نفساً إلا وسعها، ولا يحاسب إنساناً إلا على عمله فيما آتاه بقدر وسعه قال تعالى: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفساً إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ [الأعراف: ٤٢] فينظر أيهم أكثر تقوى فيكون الجزاء ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾. أما الذين كفروا فمأواهم النار.

لذلك

يقول العلي الكبير

﴿وهو الذي جعلكم خلائف - جمع خليفة - الأرض، ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم، إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم﴾ [الأنعام: ١٦٥].

وجاء العقاب كما جاءت المغفرة جزاء على حمل أمانة الحرية، فقال جل جلاله: ﴿ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات. ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفوراً رحيماً﴾ [الأحزاب: ٧٣].

فلم يجعل العلي الكبير شيئاً من زينة الحياة الدنيا سبباً لرضاه، وإنما جعلها سبيل البلاء بين الناس؛

وأخبرنا سبحانه أن "التقوى" هي المحك الوحيد لكل البشر على التساوي الدقيق؛ وأن "الحكم" هو: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾.

ومن هذا نتأكد أن الدنيا ليست في حقيقتها سباقاً بين الناس على ما فيها من زينة هي ليست إلا «غروراً» أي خدعة.

ولكنها سباقاً إلى الله بعمل الخير لوجهه سبحانه وتقواه، وطبقاً لمنهجه ﴿واستبقوا الخيرات﴾ ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت

للمتقين ﴾ ﴿ وسيجنبها الأتقى. الذي يؤتى ماله يتزكى. وما لأحد عنده من نعمة تجزى. إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى. ولسوف يرضى ﴾ و ﴿ سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض ﴾ [الحديد: ٢١].

ويحلو للبعض أن يثبت أن كل الناس متساوون في الخلق، لأن ذلك مقتضى العدالة الإلهية بين خلقه، ولا بأس طالما أن هذه المساواة ليست شكلاً ونمطًا واحدًا، وإلا لما أمكن للناس أن يرتفق بعضهم ببعض لمقابلة حاجاتهم في الحياة .. ولا يغير ذلك من الأمر – على الوجه الذي بينا – أدنى شيء..

ومما سبق يبين أن "البلاء" على المؤمن والكافر أي على كل إنسان بإطلاق.

ولأن الإنسان يُبتْلى

فهو مُخير في كل ما يدخل في مشيئته في عمله.

المبحث السادس: زعيم الحرية

قال الله تبارك وتعالى:

﴿ سلهم أيهم بذلك زعيم ﴾ [القلم: ٤٠].

الزعيم: المتضمن المتكفل(١)

الضامن والكفيل(٢)

والضامن هو من يلتزم بوجود الشيء وعدم فقدانه.

والكفيل هو من يتعهد الشيء ويرعاه بأن يحافظ عليه.

وإذاً، فمن الذي يلتزم بالحفاظ على حرية الناس ويتعهدها ويحافظ عليها في الإسلام؟

استقراء التاريخ .. يدلنا على ان الشعوب لم تقض على الاستبداد والتحكم فيها وظلمها إلا بالثورات الدموية الشرسة، حتى استطاعت ان تحصل على حريتها ..

والأمثلة في تاريخ البشر:

فهذه إنجلترا، التي يقولون إنها أم الديموقراطية والحرية! لم يقض شعبها على التحكم فيه والاستبداد به وظلمه إلا بالثورة وإعدام الملك، ومن ذلك التاريخ، صارت الكلمة للشعب الإنجليزي ..

وهذه فرنسا، وثورتها مشهورة، وقتلها للويس السادس عشر وزوجته وأولاده وكل من عثرت عليه من العائلة المالكة واعوانها، حتى استطاع الفرنسيون ان يجعلوا الكلمة لهم، وفي سنة ١٩١٧ أي قريباً جداً، قامت ثورة «الجياع» في روسيا القيصرية وبعد شهرين من قيامها استولى الشيوعيون على الثورة وركبوا موجتها وكأنهم هم الذين فجروها؟

---

(١) تفسير ابن كثير حـ٤ /٤٠٧ وحـ٢ /٤٨٥.

(٢) صفوة التفاسير حـ٣ /٤٢٩ وحـ٢ /٦٢.

وهذه الثورات وقعت بعد نزول القرآن العظيم بأكثر من ألف عام فهل كان قد حدث في شبه الجزيرة العربية ثورة دموية حتى استخلص الناس حريتهم، وصارت الكلمة كلمتهم؟

التاريخ يقول إن الناس في شبه الجزيرة العربية كانوا أحراراً تماماً، بل إن أعظم أنماط الحرية ومضامينها كانت تشمل وجدانهم وأعطافهم؛ حتى كانت هي الكرامة وهي الصدق وهي الرجولة وهي الشجاعة والنخوة والشهامة والمروءة والجوار ... إلخ.

وكانت هذه الحرية متمثلة في القبيلة في جميع أفرادها وعلى رأسهم شيخها.

وإذا كان ثمة تجارة للرقيق، فذلك أمر آخر لا يشوب حرية أهل الجزيرة العربية من بعيد ولا من قريب..

وجاء الرسول ﷺ مبعوثاً بالرحمة الإلهية، يدعوا هؤلاء الأحرار إلى الإيمان بالله الواحد والخضوع له وحده من دون العالمين ..

وكانت دعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، كانت دعوة بكتاب الله العظيم.

وكان الخلاف بين الرسول وزعماء قريش قد حصر في ثلاث أمور: أمر ظاهر قاله الكفار جهاراً، وأمر خفي اضمروه في نفوسهم، وأمر كان يزيغ في قلوبهم ويعبث بفكرهم.

أما الأمر الظاهر: فكان حسداً من عند أنفسهم قالوه وسجله العليم الخبير تعالى شأنه كما ورد في قوله تعالى:

﴿وقالوا لولا نُزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم. أهم يقسمون رحمة ربك ..﴾ [الزخرف: ٣١ - ٣٢].

وإذاً

فالاعتراف بالقرآن العظيم وارد في قولهم لا ينكروه، ولكنهم تمنوا لو أنه نزل - حسب أشهر الروايات - على الوليد بن المغيرة في مكة أو على عروة ابن مسعود الثقفي في الطائف.

فكان الخلاف في شخص الرسول وليس في صفة الرسول ولا في رسالته.

والأمر الخفي مثل الظاهر، هو أثرة وأنانية انتابت بعض القوم، أفصح عنها أبو جهل اللعين في زلة لسانه، فقال مرة في ثورة وموجدة: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا الركب وكنا كفرسي رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه(١).

وأجاب العلي الكبير على هذا التهافت الدنيوي بقوله تبارك وتعالى: ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته سصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون﴾ [الأنعام: ١٢٤].

ذلك بأن الرسول هو صفوة خلق الله العظيم.

والأمر الثالث: فإنه وإن كان مهماً ومؤثراً إلا أنه لم يكن سريع العدو إلى نفوسهم لتدرج التشريع به على طول نزول القرآن حتى الشهور الأخيرة من حياة الرسول، ومن ثم فلم يدركوه بيقين.

ذلك بأن الإسلام جاء فيما جاء ليصحح أوضاع المعيشة، وشجع الجهد الإنساني والطموح البشري والتعاون والتكافل، فشجع الصدقة حتى ليظن أنها فريضة وجعلها بعشرة أمثالها ثم بمائة ثم بسبعمائة ضعف وزيادة ﴿كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء﴾ [البقرة: ٢٦١].

وكان حب الكفار - شأن الرأسمالية الطاغية - للمال حباً عظيماً؛ ولا يخفى أن الناس كثيراً ما يعجبون بصاحب المال ويلتفون حوله ﴿وكان له ثمر - أي مال - فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً﴾ [الكهف: ٣٤].

فأرسل الله جل شأنه وعيداً شديداً للكفار الذين يجمعون المال:

---

(١) «حياة محمد» للدكتور محمد حسين هيكل/١٩٠.

﴿الذي جمع مالاً وعدده. يحسب أن ماله أخلده. كلا لينبذن في الحطمة. وما أدراك ما الحطمة. نار الله الموقدة﴾ [الهمزة: ٢ - ٦].

كانت هذه العوامل الثلاث الحسد والحقد والأنانية والرأس مالية الباغية، تضع الإنسان العربي تحت وطأة الكثير من العنت والشدة..

فإذا أضفنا إلى هذه العوامل الطاغية عامل آخر هو نظام القبيلة وولاء أفرادها لعرفها ولرئيسها؛

علمنا أنه رغم حرية الإنسان العربي، الذي يقول ما يشاء ويفعل ما يريد، ويرحل ويقيم، ولم يخضع لحكم أجنبي ولا لسيطرة أو استبداد ...

فإن الإنسان العربي، لم يكن حراً تماماً في أن ينسلخ من عرف قبيلته ودين آبائه، وانتمائه لقبيلته التي تحميه وتأويه وتذود عنه فتنابذ الدنيا كلها في سبيله ولو أدى ذلك إلى هلاكها.

لذلك

فإن الإسلام جاء في رجل من قبيلة من هذه القبائل، هي أعظمها شأناً. وفي بيت من بيوت هذه القبيلة هو أكرمها بيتاً ..

حتى لينتزعه من البيت ومن القبيلة، ومن ثم من العرف ومن دين الآباء، إلى الدعوة إلى الإيمان بالغيب، مُنددًا بكل ما في القبيلة، وما هي عليه، مسفهاً لكل عقائدها وأحلامها، مُبددًا لكل فكرها ورأيها ..

ومن ثم، كان نمطاً غريباً عليهم حتى إنهم ليتهموه بالجنون .

إذاً

لم يأت الإسلام، ليخرج شعباً من تحت سطوة حاكم وحكومة، وإنما جاء الإسلام ليخرج الناس من سطوة العقائد التي تلبس نفوسهم، ولينقلهم من الخضوع لعرف القبيلة إلى الخضوع لدين الله الواحد القهار.

فكانت المعركة، معركة نفسية لما يعتمل في نفس كل واحد من الناس.

وكانت المعركة، معركة عقلية، لما رسب في صدر كل إنسان وملأ قلبه.

وكانت المعركة، فردية، لأن الفكر والنفس لا يشمل كل منهما إلا الفرد، ففي كل إنسان نفس خاصة به، وفي كل إنسان قلب خاص بذاته..

كانت المعركة فردية نفسية عقلية.

ولم تكن معركة شعب.

فالإنسان في شبه الجزيرة العربية، إنسان حر، ومن ثم جاءت الدعوة إلى الناس أفرادًا، بدأت بعشيرته الأقربين، فقريش بمكة وحواليها ثم أهل الكتاب ثم الناس جميعًا.. ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعًا الذي له ملك السماوات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وصفاء النفس، يختلف من واحد لآخر.

وكذلك قوة العقل.

فكان أول من آمن بالرسول ﷺ، زوجه السيدة خديجة، فهي نبض قلبه.

ثم

علي بن أبي طالب أول من آمن من الرجال وإن كان ما زال فتى، فهو في حجر رسول الله. وكذلك كان قبلاً إبراهيم عليه السلام ﴿ قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم ﴾ [الأنبياء: ٦٠].

ثم مولى الرسول: زيد بن حارثة فهو في بيته في نور نبوته.

ثم صديق الرسول: أبو بكر الصديق، فهو في نور صحبته.

وهكذا فرد ثم فرد ثم أفراد ...

كل من يعقل الأمر بحق السمع والرؤية وينتصر على نفسه، يذهب إلى رسول الله

ﷺ في خفية من الكفار ويبثه إيمانه ... فإذا كان هذا الفرد قويًا كبيرًا في قومه، أعلن إيمانه على الملأ متحديًا ... فهكذا فعل حمزة بن عبد المطلب وهكذا فعل عمر بن الخطاب. رضي الله تعالى عنهم أجمعين ...

وإذًا

فكانت الحرية في بلاد العرب موجودة. وإن كان أفرادها يعيشون في التزام قبلي. فجاء الإسلام وصحح الأمر، من الطاعة لرئيس القبيلة إلى الطاعة لله والرسول، فكان خروجًا من سلطة الفرد إلى سلطان رب العالمين، ومن ثم تحققت أول مساواة بين البشر في الحقوق والواجبات.

ذلك بأنهم كلهم في الحكم سواء، لأن الحكم لله سبحانه، وليس لأحد من الناس مهما علا شأنه أو كثر ماله.

ومن هنا

نعلم الفرق بين ما حدث في كل من إنجلترا وفرنسا وروسيا، وبين ما كان قد حدث في شبه الجزيرة العربية من قبلهم بأكثر من ألف عام.

فلما كان الإسلام، واستقرت دولته وتعاظمت، وفتح الله العظيم لها الأمصار التي كانت شعوبها يحكمها حكام مستبدون، وجدنا أنه لم يكن فتحًا لقهر الناس والسيطرة عليهم والسطو على أموالهم.

إنما كان فتحًا للقضاء على سيطرة الحكام والطواغيت واستبدادهم، ووضع حكم الله موضع التنفيذ بين الناس فكان أول ثماره أن حررهم من عبودية الحكام.

وبذلك أعطى الإسلام للناس - آمنوا أو ظلوا كفرة - حريتهم، وأهدر كل ما كان يطغى عليهم ويهدر كرامتهم، وحقق بينهم العدل الإلهي.

ومن ثم

كان الناس، في حرية الإسلام، يفكرون، لأن الفكر شيمة الأحرار ..

والتفكير هو الهداية الأساسية التي بينها لنا رب العالمين.

ومن التفكير الحر، انتشر الإسلام وسينتشر إلى أقصى الأرض ..

فما هو زعيم الحرية في الإسلام؟

قد تكون الإجابة قد وضحت على السؤال. ولكن حتى تكون على المحجة البيضاء؛ فيجب أن نعرف وباختصار شديد؛ ما هو الإسلام وما هو الإنسان؟

الإسلام: هو الإيمان بالله أحد صمد لا شريك له وبمحمد رسوله خاتم النبيين والقرآن رسالة رب العالمين والطاعة لله سبحانه؛ على ما جاء في قرآنه العظيم وبينه رسوله الكريم، ووجه الطاعة هو العمل بذلك قولاً وفعلاً باتباع الرسول ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم ﴾ [آل عمران:٣١].

والإنسان:

هو نفسه في جسده، وهو فكره وقوله وفعله، وهو ذريته وزوجه، وهو ماله، وهو حريته. أو أن الإنسان هو حريته ..

والإسلام يضمن للإنسان عدم العدوان؛ فالقاعدة فيه أن لا عدوان من أحد على أحد إلا على الظالمين.

قال الله تبارك وتعالى بأسلوب القصر:

﴿ فلا عدوان إلا على الظالمين ﴾

وإذاً، فالإسلام يضمن للإنسان السوي عدم قهره أو نفيه أو البغي عليه أو كتم فمه أو عقل فكره، أو الاستيلاء على ماله تحت أي تسمية، أو العدوان على ذريته وأهله، أو منعه من العمل أو حرمانه منه، وما يترتب على ذلك من حبس حريته في الإقامة والرحيل وكافة حقوقه في الحياة.

إذاً

فالإسلام هو الضامن؛ هو زعيم الحرية

وإذا كان ذلك ...

فمن هو إذاً زعيم الحرية بمعنى الكفيل؟

كتاب الإسلام، هو القرآن العظيم. وبيانه هو سنة رسول الله ﷺ وإجماع الخلفاء الراشدين وصفوة الصحابة والتابعين.

والعلم بالقرآن على أربعة أوجه

فعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: التفسير على أربعة أوجه:

وجه تعرفه العرب من كلامها

وتفسير لا يعذر أحد بجهالته

وتفسير يعلمه العلماء

وتفسير لا يعلمه أحد إلا الله(١).

ولما كان الناس في عصرنا لا يعرفون كلام العرب بحق معرفته، ولما كان تفسير القرآن لا يقدر عليه إلا من عرف اللغة العربية بقواعدها وعلومها، وعلم أصول الفقه وفقه أصوله، وألَمَّ بالسيرة النبوية الشريفة وأحاط بأقطارها بل حذافيرها، وعلم أحاديث الرسول ﷺ، وما قاله ورواه السلف الصالح وما كتبه أئمة علماء التفسير، ثم الإلمام بعلوم الخلق كافة والسنن الكونية ..

ولماكان هذا الأمر، كبير وعظيم ويشق على أغلب الناس.

ويحتاج من الذين يجاهدون فيه الصبر وطول الأناة وتحري الصدق والدقة ..

فإذاً، فلا علم بكتاب الإسلام إلا للعلماء...

وإذا كان الإلمام بالدين، في واقع الأمر، لا يكون لفرد مهما عظم جهده وقوي عقله واتسع فكره.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١/٦.

فإنه، لذلك وبالتالي، يتفرق بين العلماء ..

فهذا عالم في اللغة العربية لغة القرآن ويبين أسرارها فيه ووجوه الإعجاز والعظمة الإلهية في القول وبلاغة الكلام.

وهذا عالم في أحكام العبادات، يبين أصولها وأسبابها وأهدافها وآثارها في الناس والحياة، في الدنيا وفي الآخرة.

وهذا عالم في أحكام المعاملات، بل علماء في هذه الأحكام، فهي تشمل كافة المعاملات، معاملة الفرد مع نفسه ومع أهله ومع غيره، وتشمل أعماله في حركة الحياة، وأعمال الناس كافة مع غيرهم من الأمم، فالمعاملات هي – بأسلوب العصر – كافة القوانين المدنية والجنائية والمرافعات والإثبات، والدولية الخاصة والدولية العامة وقوانين الحرب والسلام والمعاهدات وغيرها، ولا يخفى على احد كيف وكم هذه الفروع وكم هم المتخصصون فيها.

وهذا عالم في أصول الدين، في الإيمان بالغيب، وما أصعبه وأدقه..

وهذا عالم في الأخلاق والبيان المقارن لدى الأمم.

وهذا عالم في الهداية، وما تحتاج إليه من إخلاص وغوص في أعماق الحقيقة.

وهذا عالم في الطبيعة، كيف خلق الله السماوات والأرض، وكيف نظم حركتها وكيف سخرها للإنسان، وظواهرها وقياس هذه الظواهر.

وهذا عالم في الجغرافيا، وكيف أحسن الله سبحانه كل شيء خلقه.

وهذا عالم في الجيولوجيا وكيف كانت الأرض وكيف صارت فأصبحت..

وهذا عالم في البحث عن أول الخلق وكيف بدأ الخلق.

وهذا عالم في الإنسان: جسده ومئات العلوم في أعضائه.

وهذا عالم في الإنسان: نفسه وعشرات التخصصات.

وهذا عالم في الإنسان: حياته ومئات التخصصات.

إلى آخر علوم الخلق ... التي أتى بها القرآن العظيم.

ومن هؤلاء جميعاً يعرف القران العظيم على الوجه الذي يعلمه العلماء لذلك أمرنا العلي الكبير: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾ [النساء: ٥٩].

"وأولي الأمر" هم العلماء لأنهم وحدهم الذين يعرفون بعلمهم القرآن، ومن ثم هم وحدهم الذين يبينون كيف الطاعة لله والرسول، لأن كلمة «أولي الأمر» معطوف على الطاعة لله والرسول. والطاعة لله والرسول لا يبينها إلا القرآن، ولا يعرف القرآن إلا العلماء.

وكلما بين العلماء للناس، كلما وضح الدين وتذكروه، وكلما كان كذلك، فإن العمل بالدين يشمل الناس ويشيع بينهم الطهارة والتزكية..

فإذا قال بعض العلماء:

إن الذي لا يؤدى من الفرائض إلا الصلاة، مسلم. فقد باءوا بالفشل، وإن ازدهرت لهم الدنيا بعض الوقت.

قال الله تبارك وتعالى:

﴿أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض، فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يُردون إلى أشد العذاب، وما الله بغافل عما تعملون. أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة، فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون﴾ [البقرة: ٨٥ - ٨٦].

وكلما قالوا وبرروا عدم جمع الزكاة، فقد أهدروا قوة وطهارة المجتمع وأشاعوا الفقر والمسكنة والذلة بين المسلمين، وأوغروا صدور بعض المسلمين على أصحاب المال، وإذا اختلف الناس ذهب ريحهم وبدلوا قوتهم ضعفاً، وهكذا صارت بلاد المسلمين ..

ولا يخفى أن مانع الزكاة كافر وأكفر منه من برر عدم جمعها.

وإذا قالوا بأن كتاب الله لا يحوي علماً، مع أنه كتاب علم الخلق كله وسننه، فقد ضلوا وأضلوا الناس كثيراً، فراح الناس ملتفتين عن القرآن، ملتفتين إلى علوم الظن والكذب على الله ورسوله، فزاغ الإيمان من قلوب الكثيرين، واضطرب في قلوب الآخرين، ومن ثم أضحى العمل بأحكام الدين أمر فاتر بل وضائع، وضاع من المسلمين قوتهم بعد أن ضاع دينهم منهم ..

وإذا احتالوا على الناس إرضاء للناس وخداعاً لهم فقالوا لهم: أُدعوا الله ينصركم الله، أدوا العبادات تدخلوا الجنة، من قال لا إله إلا الله حرم جسده على النار...

فقعدوا بهم عن العمل بمنهج الله وفي سبيل الله، إلى الاكتفاء بالعبادات أو بعضها، التي ما أمر الله بها إلا لصقل الإنسان ولتذكيره بربه وبمنهجه والعمل به قال تعالى ﴿إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري﴾ [طه] وقال تعالى ﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾ [محمد] فجعل شرط نصر الله للمؤمنين نصرهم أولاً لله سبحانه. ونصر الله هو العمل بمنهجه كله، والصلاة لتذكرك به طوال يقظتك من الفجر حتى العشاء.

وبذلك أخرجوا المسلمين من الحركة الصحيحة في الحياة إلى القعود، فتخلفوا فضعفوا، وأصبحوا يستجدون كل شيء من المشركين لأن هؤلاء المشركين تحركوا في الحياة ولم يقعدوا ... فصاروا أرباباً لها وصرنا عبيداً نستجدي نتائج عملهم وحركتهم في كافة المجالات...

ومن ثم، كانت النتيجة، التخلف عن الناس، واحتقار الناس للمتخلفين أمر ثابت.

وأصبح خمسة ملايين يهودي، ظاهرين على أكثر من مائتي مليون مسلم...

لا نعلق بشيء من عندنا

وإنما القول الفصل للرسول ﷺ الذي ليس من بعد قوله قول...

أ-خرج البيهقي في شعب الإيمان:

عن علي - رضي الله تعالى عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: (يوشك أن يأتي على الناس زمان لا يبقى من الإسلام إلا اسمه، ولا يبقى من القرآن إلا رسمه، مساجدهم عامرة وهي خراب من الهدي، علماؤهم شر مَنْ تحت أديم السماء، من عندهم تخرج الفتنة وفيهم تعود).

وبين الرسول ﷺ كيف يذهب العلم ويضيع الدين

أخرج الإمام أحمد بن حنبل، وابن ماجة:

عن زياد بن لبيد - رضي الله تعالى عنه - قلت يا رسول الله كيف يذهب العلم؟ ونحن نقرأ القرآن ونقرئه أبناءنا ويقرئه أبناؤنا أبناءهم إلى يوم القيامة؟ قال: (ثكلتك أمك يا زياد إن كنت لأراك من افقه رجل في المدينة أو ليس هذه اليهود والنصارى يقرءون التوراة والإنجيل لا يعملون بشيء مما فيهما؟)(١).

ويقول فيهم رب العالمين:

﴿مثل الذين حُملوا التوراة ثم لم يحملوها - أي لم ينفذوها - كمثل الحمار يحمل أسفاراً﴾ [الجمعة: ٥].

ويدمغ العلي العظيم أمثال هؤلاء العلماء الذين يكتمون الحق ابتغاء زينة الحياة الدنيا وإرضاء للحكام ...

يقول ربنا العظيم المنتقم الجبار

﴿إنَّ الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنًا قليلاً - أي في الحياة الدنيا وما فيها من مباهج ومناصب - أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار، ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم. أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النار. ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق ..﴾ [البقرة: ١٧٤ - ١٧٦].

(١) كتاب «أصول الإيمان» للإمام محمد بن عبد الوهاب/ ٤٢ - ٤٣.

قال الإمام ابن كثير:

(فالواجب على العلماء الكشف عن معاني كلام الله وتفسير ذلك وطلبه من مظانه وتعلم ذلك وتعليمه كما قال تعالى: ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنًا قليلاً فبئس ما يشترون ﴾ [آل عمران: ١٨٧] فذم الله تعالى أهل الكتاب قبلنا بإعراضهم عن كتاب الله المنزل عليهم وإقبالهم على الدنيا؛ فعلينا أيها المسلمون ان ننتهي عما ذمهم الله تعالى به وأن نأتمر بما أمرنا به من تعلم كتاب الله وتعليمه وتفهمه وتفهيمه. قال الله تعالى ﴿ الم يان للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم، وكثير منهم فاسقون. إعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون ﴾ [الحديد: ١٦ – ١٧] وفي ذلك تنبيه على أنه تعالى كما يحيي الأرض بعد موتها كذلك يلين الله القلوب بالإيمان والهدى بعد قسوتها من الذنوب والمعاصي. والله المؤمل المسئول أن يفعل بنا هذا إنه جواد كريم)[١].

---

(١) تفسير ابن كثير حـ١ /٣.

الفصل السادس عشر

«لا إله إلا الله»

المبحث الأول : ﴿الرحمن فسئل به خبيراً﴾ [الفرقان : ٥٩].

على فترة من الرسل

جاء للناس رسول من عند الله العظيم يقول لهم :

(قولوا لا إله إلا الله تفلحوا)

كان الرسول ﷺ يمشي في أسواق مكة :

عكاظ وذي المجنة وذي المجاز، يقول لهم ذلك ملحًا عليهم، ولا يمل. داعيًا إلى التوحيد بهذه العبارة التي اخذت أسلوب القصر. وأسلوب القصر في اللغة يستعمل للنفي والإثبات والبيان والتحديد. فنفى الله العظيم وجود إلهًا وأثبت الألوهية له سبحانه وحده مبينًا أنه الله وله وحده كل معاني الألوهية.

فالله هو الأحد.

ولأنه الأحد فهو الصمد بمعنى السيد الذي يحتاج إليه الجميع ..

وبدأ العلي العظيم قرآنه المجيد بثلاث من أسمائه الحسنى: الله الذي تجتمع فيه معاني الألوهية، والرحمن الفائق الرحمة، والرحيم أي الدائم الرحمة. وكرر الرحمن الرحيم، ثم سرد في قرآنه العظيم بقية ما أنزل من أسمائه الحسنى المائة على رواية والتسع والتسعين على روايتي عبد الله بن مسعود وأبي هريرة رضي الله تعالى عنهما.

والذين يقولون إنها مائة، يعدون اسم الإشارة «هو» أول هذه الأسماء. فالشيخ الرئيس ابن سينا العالم العبقري مثله مثل السيد أحمد البدوي العالم المتصوف ولي الله الكامل، كلاهما يلتقي مع الآخر في ان «هو» أول أسماء الله الحسنى.

وقال ابن سينا: هو «الهو» المطلق هو الذي لا تتوقف ماهيته على غيره. وأنه لذلك فهو هو. ولأن هذا الوصف «هو» الذي أطلقه الله على نفسه فهو إذا ليس ممكن الوجود، لتوقف الممكن على الغير. ولا أن هناك تغايراً بين ماهيته ووجوده، لأن كل من كان كذلك فوجوده من غيره. ولأن الماهية قبل الوجود، فإنها لا يمكن أن تكون سبباً في وجود نفسها. كما أنه لا يمكن أن يكون مركبًا من أجزاء وإلا كان وجوده متوقفاً عليها، وبالتالي لا يكون هو هو. كما أنه غير مركب في النفس من جنس وفصل. فهوية الله المحضة أنه لا اسم له إلا أنه: «هو»(١).

وإذا كان الشيخ الرئيس ابن سينا قد بدأ تفسيره لسورة الإخلاص بهذه المقولة الفلسفية عن «هو» ..

فغيره قد فعل ..

والله سبحانه، لم يترك الأمر للمفكرين مهما كانت القدرات العقلية مع الإيمان اليقين في استيعاب الأمور والتعبير عنها ..

كما أنه جل جلاله، لم يترك للرسل والنبيين الأمر، رغم أنهم المصطفين الأخيار.

ومن ثم قال لرسوله ﴿ فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا ﴾ [مريم: ٦٥].

وإنما

ولأن الأمر هو الأكبر والأعظم

فإن الله سبحانه، قد أورده للناس في قرآنه العظيم، تارة في حوار بينه وبين بعض رسله، وتارة بين بعض رسله ومن حاورهم من ملوك الأرض، وتارة في شكل إرهاص انفعل به قلب نبي من النبيين.

١ - فهذا، إبراهيم عليه السلام،

يعيش في قوم كلهم كافر. يعبدون الأصنام والأوثان التي يصنعها لهم أبوه آزر.

وأراد الله، وهو أعلم حيث يجعل رسالته، أن يخرج من بيت آزر، نبياً هو أبو

---

(١) «ابن سينا بين الدين والفلفسة» /١٠٧ - ١٠٨ للدكتور حمودة غرابة.

الأنبياء. آتاه الرشد صبيًا. فاتجه ببصره إلى السماء، وأخذ الحق بحق البصر وحق البصيرة، وربطه بغيره، حتى علم أن الأجرام المسخرة لا بد أن تكون مخلوقة، فآمن بالخالق ﴿إني وجهت وجهي للذي فطر – أي خلق – السماوات والأرض وما أنا من المشركين﴾ [الأنعام: ٧٩].

وهكذا صار إبراهيم على يقين بربه ﴿وكذلك نُري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين﴾ [الأنعام: ٧٥].

فلما قال إبراهيم ذلك لقومه، حاجُّوه، فطالبهم بالبرهان على قولهم قائلاً لهم ﴿وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم يُنزل به سلطانًا فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون. الذين ءامنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون. وتلك حجتنا ءاتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء؛ إن ربك حكيم عليم﴾ [الأنعام: ٨١ – ٨٣].

لذلك يوجه العلي الحكيم رسوله الكريم ﷺ فيقول له آمرًا له أن يأمر الناس بالنظر إلى ما في السماء والأرض ﴿قل انظروا ماذا في السماوات والأرض ..﴾ [يونس: ١٠١] حتى يكونوا على يقين برب العالمين.

٢ – وإذا كان إبراهيم قد اهتدى إلى اليقين بالله سبحانه إلا أنه سأل عن شيء شغله ويشغل بال كل الناس لا نغادر منهم أحداً: ذلك هو البعث.

فإبراهيم عليه السلام يؤمن بالله وعلى يقين صادق

ومن ثم يسأل: ربي أرني كيف تحيي الموتى؟

يريد أن يعلم حقيقة البعث، كيف يكون ويتم، يسأل عن «كيف» القدرة الإلهية التي تحيي الموتى.

ويأمره رب العالمين:

﴿.. فخذ أربعة من الطير فصرهُن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءًا ثم

أدعُهُن يأتينك سعيًا؛ واعلم أن الله عزيز حكيم ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

ولأن الله العظيم غيب

فقوته وقدرته سبحانه وهي من ذاته؛ غيب تبعًا

لذلك لم يُظهر إبراهيم – عليه السلام – على كيف قدرته سبحانه، وإنما أراه آثار قوته وآثار قدرته.

ذلك بأن الله عَليٌّ عظيم أي بعيد عن التصور والتخيل ..

٣ – وهذا إبراهيم عليه السلام، يحاجه الذي آتاه الله الملك.

ويحكي لنا العلي العظيم هذه المحاورة بأبلغ أسلوب:

﴿ ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن ءاتاه الله الملك، إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال – أي الملك – أنا أحيي وأميت، قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر، والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

والصورة تمثل لنا ملكًا غرته الحياة الدنيا وما ءاتاه الله من سلطة الملك فاستبد وطغى، فلا يفهم معنى قوله تعالى ﴿ ربي الذي يحيي ويميت ﴾ أي ربي الذي يخلق ولم يكن لها وجود فتكون المخلوقات أحياء ثم يميتها بغير تحطيم عندما ينتهي أجلها الذي حدده لها. إنما يظن أنها قدرة الذي يبقى على من حكم عليه بالإعدام بالعفو عنه مثلاً، أو إعدام من يريد؛ فيهبط في تفكيره إلى مظان القدرة الإنسانية ولم يلتفت إلى معاني القدرة الإلهية التي خلقته ولم يك شيئًا وآتته الملك ولم يكن من قبل ملكًا.

لذلك، ينقله إبراهيم عليه السلام من مظان المشابهة إلى قدرة الألوهية، فيقول له أن يأتي بالشمس من المغرب، فإن الله يأتي بها من المشرق.

وعندئذ بهت الملك، احتار وانقطع عن الكلام فصار مُبلسًا ...

لقد انقطع عن اللجاجة في القول لعدم وجود شبهة في القول بغير سلطان ..

ومن ثم، يعلم الناس، من حركة الشمس حول الأرض(١) قدرة الله الأحد، لأنه ليس من أحد يأتي بالشمس وله هذه القدرة إلا الله، ولو كان معه آلهة أو إلهًا لفسد الأمر واختل النظام ﴿لو كان فيهما - السماوات والأرض - ءالهة إلا الله لفسدتا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

أي لو كان يوجد آلهة أو إلهًا مع الله لفسد الكون ولم تكن ثمة قدرة على الإمساك به وضبط حركته دائمًا وأبدًا بنظام واحد.

فاستمرار حركة الكون بنظام واحد هو نتيجة أن الخالق والفاعل والمنظم واحد هو الله الأحد جل جلاله.

٤ - وهذان موسى وهارون عليهما السلام ...

يذهبان إلى فرعون ذي الأوتاد، القوي المستبد الطاغية، الضارب في جذور الأرض، قدما في الملك وقدرة في الحكم وعظمة في الحياة وعلوًا في الأرض وتفريقًا للناس؛

يقول للناس ﴿أوليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي﴾

وكانت مصر في ذلك الزمان ﴿جنات وعيون. وكنوز ومقام كريم﴾

ذلك كان فرعون مصر المستبد ﴿لا أريكم إلا ما أرى﴾

فرعون الذي يقول للناس ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ [النازعات: ٢٤]

يذهب إليه موسى وهارون عليهما السلام ويقولان:

﴿... قد جئناك بآية من ربك. والسلام على من اتبع الهدى .. إنا قد أوحي إلينا أن العذاب على من كذب وتولى﴾

قال فرعون: ﴿فمن ربكما يا موسي﴾

---

(١) «الله والكون» و«رحلة في أعماق الكون» و«القمر في الطبيعة» للمؤلف.

قال موسى عليه السلام ﴿ ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾

قال فرعون: ﴿ فما بال القرون الأولى ﴾

قال موسى عليه السلام ﴿ علمها عند ربي في كتاب، لا يضل ربي ولا ينسى. الذي جعل لكم الأرض مهداً وسلك لكم فيها سبلاً وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجًا من نبات شتى ﴾ [طه: ٤٧ - ٥٢].

وفرعون والملأ والناس يعلمون أن فرعون لم يخلق شيئًا ولم يخلق نفسه ولم يخلق الأرض ولم يفعل فيها شيئًا مما فيها ولم ينزل ماء من السماء ولم يخرج الزرع من الأرض...

فرعون يعلم ذلك والملأ يعلمون وكذلك الناس..

ولكن فرعون لا يستسلم، إنما يحاور لجاجة؛ فيقول لموسى عليه السلام:

﴿ وما رب العالمين ﴾ ؟

قال موسى عليه السلام: ﴿ رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين ﴾ فاستدار فرعون إلى الملا و ﴿ قال لمن حوله ألا تستمعون ﴾ لأن موسى عليه السلام أحاله إلى النظر في السماوات والأرض والعلم بهما بحق النظر كما فعل إبراهيم عليه السلام. لذلك أحال فرعون الأمر إلى الكهنة أصحاب هذه العلوم لديه.

قال موسى عليه السلام مستمراً في مواجهة فرعون:

﴿ ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾

أي أنَّ الله الذي خلقك وخلق آباءك

عندئذ يستشيط فرعون غضباً ويتوه منه العقل فيقول:

﴿ إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون ﴾

فيرده موسى عليه السلام إلى ضرورة عقل الأمور الكونية ليفهم ويعرف الحق: ﴿ رب المشرق والمغرب وما بينهما، إن كنتم تعقلون ﴾ [الشعراء: ٢٣ - ٢٨].

ولكن الطغيان المتمثل في رقاب الناس، واستعبادهم والسيطرة الكاملة على مقدراتهم والاستحواز على مال الدولة، تجعل الغشاوة كاملة على عين فرعون، وتعميه عن رؤية الحق، كما تعمي كل حاكم طاغية، فلا يرى إلا نفسه ولا يرى إلا اسطوته، فيقتله غروره وتأخذه العزة بالإثم، فيكذب على نفسه وعلى الناس وعلى الله، ولا يقول إلا خطأ وزوراً.

كان هذا حال الملك الذي حاج إبراهيم في ربه، وكان هذا حال فرعون الذي حاج موسى في ربه، وحال كل حاكم مغرور مفتون يحاج الذين آمنوا في الله ولا ينفذ كتابه.

قال ربنا تبارك وتعالى ملخصاً أسباب تكذيب الرسل:

﴿كذّبت ثمود بطغواها﴾.

أي كذبت ثمود رسول الله صالح عليه السلام بسبب طغيانها، أي لأن ثمود قوم صالح كانوا قوماً طاغين فقد كذبوه وعقروا الناقة.

والطغيان لغة هو تجاوز الحد، وهنا معناه تجاوز الحد إلى الباطل ...

أي الطغيان على الحق، ومن ثم لا يكون إلا فساداً.

المبحث الثاني: طلب التجلي

إذا كان الملوك الطغاة ومن شابههم من الحكام لا يؤمنون ﴿ استكباراً في الأرض ومكر السيئ ﴾ [فاطر: ٤٣] أخذاً للمال والسلطة؛

فما بال الكثير من الناس لا يؤمنون؟!

الناس بشر في غطاء يعيشون الشهادة، والله سبحانه وتعالى غيب.

والناس فكرهم قاصر، ووجدانهم يتالف من المحسوس، مما ترى أعينهم وتسمع آذانهم وتلمس بشرتهم وتمسك أيديهم وتمشي عليه أرجلهم؛ فيكف بهم بالغيب؟!

أمر شاق يحتاج إلى المجاهدة العقلية والفكرية الصعبة مع النفس. فالتفكير هو العمل الأشق عند الناس والرسل عليهم السلام، بشر من الناس، لهم كل ما للناس.

وإن كان الرسل هم المصطفين الأخيار؛ وتفاعل الماديات أي المحسوسات مع الرسل هي نفسها مع غيرهم من البشر، فتجعل النفس أمارة بالسوء !! كما تجعل الإرهاصات الفكرية مجالاً لدى المرسلين والمفكرين .. ولكن مع الفارق .. وربنا العظيم يكلم موسى وحيًا ﴿ وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى ﴾ [طه: ١٣] اي كلامًا خفيًا بغير صوت ويقع في الفؤاد وكانه في الأذن.

١ – وكلم الله رسوله موسى كثيراً .. على مدى أربعين ليلة؛ فتاخذ موسى الفة أو شبه ألفة، فيقع في نفسه أنه يريد ان يرى ربه العظيم، وهو يعلم كنبي أنه لأنه بشر في غطاء فليست له مكنة رؤية الله العظيم؛ فيقول لرب العالمين: ﴿ ربي أرني انظر إليك ﴾ أي إعطني القدرة والمكنة التي بها أراك.

فيرد عليه رب العالمين: ﴿ لن تراني ﴾

﴿ ولكن أنظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني ﴾

﴿ فلما تجلى ربه للجبل جعله دكًا وخر موسى صعقًا ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

٢ - وبعد وقت ليس بالطويل، ذهب موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون..

واشتعل فرعون ثورة عليهما، فقال مجنونًا عبيطًا للملأ من حوله: ﴿ذروني أقتل موسى وليدع ربه﴾ [غافر: ٢٦].

ولكن الله العظيم يمنعه ويوحي إلى موسى وهارون: ﴿لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى﴾ [طه: ٤٦].

ويعود فرعون إلى ضلاله وماديات الحياة التي تشمل كل أعطافه وأعماقه؛ فيقول: ﴿يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري، فاوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحًا لعلي أطلع إلى إله موسى..﴾ [القصص: ٣٨].

و ﴿وقال يا هامان ابن لي صرحًا لعلي أبلغ الأسباب. أسباب السماوات فأطلع إلى إله موسى...﴾ [غافر: ٣٦ - ٣٧].

قولاً لا يجئ إلا من مُلحد امتلأ قلبه نجسًا، وإن كان على علم بالفلك!!

وكذلك من بعد آلاف السنين، قال نفس الكلمة رائد من رواد الفضاء الملاحدة وهو يدور حول الأرض على ارتفاع ٢٩٠ كم من سطحها:

لقد بحثت عن الله فلم أجده!!(١)

تشابهت قلوبهم.. فتوافقت عقولهم وأفكارهم.. نجس على نجس.

صورتان

صورة لموسى عليه السلام، يؤمن بالله العظيم ويرجوه مستعطفًا أن يعطيه القدرة حتى يراه.. زيادة في حبه لله العظيم.

وصورة للمنكرين الكاذبين، لا يفقهون ما يقولون، وكذلك كل الجاهلين..

٣ - وكان اليهود يعيشون طائفة في مصر حوالي ٤٠٠ عامًا، مستذلين

---

(١) قاله رائد الفضاء السوفيتي «تيتوف» وهو الثاني بعد جاجارين السوفيتي.

مستعبدين، فاشرب في قلوبهم عبادة الأصنام التي كان يعبدها قدماء المصريين؛ فقالوا لموسى عليه السلام: ﴿ إجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

وكانوا بطور سيناء، فلما نهاهم، عادوا فسالوه أن يروا الله جهرة حتى يؤمنوا له بالله العظيم، فاشترطوا الرؤية الحسية بالبصر حتى يؤمونا بالله سبحانه ..

﴿ وإذ قلتم لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون ﴾ [البقرة: ٥٥].

..... ومضت بعد ذلك حقبًا كثيرة من الزمن

وجاء رسول من عند الله مصدق لما معهم فسالوه:

﴿ يسئلك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابًا من السماء، فقد سالوا موسى أكبر من ذلك فقالو أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم؛ ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات... ﴾ [النساء: ١٥٣] فقد عبدوا عجلاً جسداً له خوار صنعه السامري على أعينهم مما حملوا من أوزار المصريين - ذهبا كان للمصريين لديهم - حتى إذا جاءهم موسى نسفه في البحر نسفًا وقال لهم اقتلوا انفسكم فقتلوا سبعين الفًا منهم جزاء ما فعلوه ..

وتجلى الله العظيم في ملكوته

١ - وألقى النمرود وقومه بإبراهيم عليه السلام في أتون كبير من النار. فأمر العلي الكبير: ﴿ قلنا يا نار كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم ﴾.

فأحرقت النار كل شيء إلا إبراهيم عليه السلام، فتجلى الله في ملكوت النار.

٢ - وألقى سحرة فرعون عصيهم وحبالهم ﴿ يخيل إليه من سحرهم إنها تسعى. فأوجس في نفسه خيفة موسى. قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى. وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا؛ إنما صنعوا كيد ساحر؛ ولا يفلح الساحر حيث أتى. فألقى السحرة سجداً قالوا ءامنا برب هارون وموسى ﴾ [طه: ٦٦ - ٧٠]. فقد أكلت العصا كل

عصى وحبال سحرة فرعون فادركوا الحق بان الملكوت لله العظيم ملكوت الخلق للخالق العظيم..

٣ - ﴿ وأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ﴾ [الشعراء: ٦٣] فانفلق البحر وبين شقيه طريقًا يبسًا رآه بنو إسرائيل وعبروا فيه إلى الشاطئ الثاني من البحر، ودخل فيه فرعون فأطبقت المياه عليهم فكانوا من المغرقين.

فعلم فرعون أن ملكوت القدرة لله وقال آمنت برب هارون وموسى، فلم تُقبل منه؛ سنة الله التي قد خلت في عباده.

التجلي بالقوة:

١ - وأعد أبرهة جيشًا .... تتقدمه الأفيال، لم تشهد العرب له مثيلاً قبل. وجاء إلى مكة يريد هدم الكعبة بيت الله الحرام، فارسل الله العظيم عليه طيراً أبابيل رمته بحجارة من سجيل فجعلته كعصف ماكول.

وولد الرسول ﷺ، فقال العلي الكبير لأهل مكة يذكرهم بنصر الله عز وجل في عام مولد الرسول ﷺ ﴿ فليعبدوا رب هذا البيت. الذي اطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ﴾ [قريش: ٣ - ٤].

لم تكن نتائج لفعل البشر وإنما كانت كلها نتائج للذي بيده ملكوت كل شيء سبحانه.

وتجلى بقدرته في البعث

فقد مر العزيز عليه السلام على قرية هلكت فتعجب كيف ومتى تبعث ؟! والعزير نبي من أنبياء بني إسرائيل، ويحكي لنا العلي العظيم قصة العزير:

﴿ أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنىٰ يُحيي هذه الله بعد موتها، فأماته الله مائة عام ثم بعثه، قال كم لبثت قال لبثت يومًا أو بعض يوم، قال بل لبثت مائة عام، فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه، وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية

للناس، وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحمًا، فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير﴾ [البقرة: ٢٥٩].

فجعل الله آية البعث متجلية للعزير في بعث حماره، فركب عظامه ثم كساها لحمًا أمام عينيه، فتذكر قدرة الله العظيم.

رأى بعينيه، رأى محسوسًا بأداة إدراك الحس، فكانت المعرفة ثم العلم بالقدرة الإلهية.

٢ - هذا الذي جال في خاطر عزير، ثار في نفسه رغم علمه كواحد صالح من بني إسرائيل أو كنبي من أنبيائهم على قول آخر بواقعة بعث قتيل بني إسرائيل في نبوة موسى عليه السلام ﴿وإذ قتلتم نفسًا فادارءتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون.

فقلنا إضربوه ببعضها، كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون﴾ [البقرة: ٧٢ - ٧٣].

فأراهم الله العظيم آية مبصرة، عيونهم تدرك منظورًا لعلهم يعقلون!

هذا الذي يرونه؛ فيؤمنوا بالله الغيب الأكبر وبقدرته وبملكوت البعث.

وتجلى بحمل العرش المجيد

ليس هذا فقط مما كان يعلمه بنو إسرائيل .. عن قدرة الغيب خالق الغيب والشهادة.

فقد جعل الله العظيم آية مبصرة أخرى لبني إسرائيل، فأحضر لهم التابوت تحمله الملائكة، علامة على إتيان طالوت المُلك عليهم.

﴿وقال لهم نبيم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك ءال موسى وءال هارون تحمله الملائكة؛ إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين﴾ [البقرة: ٢٤٨].

تابوت ضخم تحمله الملائكة

والتابوت مرئي للناظرين

والملائكة غيب

والتابوت محمولاً، متحركًا وفي نفس الوقت مستقرًا على شيء لا تراه العيون.. يأتي وكأنه « طائرة » من عنان السماء حتى يهبط أمام بني إسرائيل على الأرض. وهذه واقعة مادية مشاهدة مرصودة في كتب بني إسرائيل ..

فتجلى الله سبحانه بهذه الآية المبصرة، ليعقل الناس وجود عرشه المجيد تحمله الملائكة ..

﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون .. ﴾ [غافر: ٧].

وجاء في كتب الأثر أن أربعة من الملائكة تحمل عرش الرحمن(١)

أما يوم القيامة، فيحمل العرش ثمانية من الملائكة، قال العلي الكبير: ﴿ والملَكُ على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ﴾ [الحاقة: ١٧].

وتجلى بالرزق

وجاء عيسى بن مريم عليه السلام إلى بني إسرائيل

وقاسى منهم العنت والضغينة والتكذيب

ولم يؤمن به أحد

فوقف أمام الناس وقال من يؤمن بي فهو « جويم » أي إسرائيلي بالروح .. وآمن له الحواريون(٢).

وساروا معه رحلة أربعين يومًا في الصحراء، جاعوا وتعبوا، فضاقت صدورهم، وهموا أن يكذبوا المسيح عليه السلام قال العلي الكبير يحكي حالهم:

---

(١) « الروح لابن القيم » / ٣٦٢.

(٢) كتاب « عيسى بن مريم » للأستاذ عبد الحميد جودة السحار.

﴿إذ قال الحواريون يا عيسى بن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء، قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين. قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين. قال عيسى بن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وءاخرنا وءاية منك، وارزقنا وأنت خير الرازقين. قال الله إني منزلها عليكم، فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذابًا لا أعذبه أحداً من العالمين﴾ [المائدة: ١١٢ - ١١٥].

فتجلى الله العظيم للحواريين بقدرته وأنزل إليهم مائدة من السماء، أكلوا منها حتى شبعوا ولم ينقص منها شيء. آية مبصرة رأوها بعيونهم وأمسكوها بأيديهم وأكلوها بأفواههم ودخلت بطونهم فشبعوا ... ثم رفع المائدة ولم ينقص منها شيء حتى غابت في السماء ... وهي واقعة مادية مثبوتة في الأناجيل ..

وتجلى سبحانه بقدرته فيما خلق ..

١ - وفي الإمساك بما خلق ...

فالله العظيم هو الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين .. وهو الذي جعل الأرض ذلولاً ساكنة قارة، وبنى فوقها سبعًا شداداً هي السماوات السبع، مليئة أدناها بالأجرام العظيمة الضخمة ... ﴿ويُمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، إن الله بالناس لرءوف رحيم﴾ [الحج: ٦٥].

٢ - وخلق الإنسان وغيره، وأمسك عليهم أنفسم لأجلها ..

﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾

فتجلى الله العظيم بقدرته في كل ما خلق، سبحانه وتعالى عما يشركون.

المبحث الثالث : الإثبات

منذ أربعة آلاف عام ونيف، وكبار المفكرين يُعملون فكرهم في البحث في وعن الله العظيم؛

وقدموا في ذلك تراثًا ضخمًا من الفكر، ولأنه فكر في البحث عن الحقيقة العليا، فقد سُمي بالفلسفة.

ذلك بأن هؤلاء المفكرين القدماء الذين أثر عنهم هذ الفكر كانوا من الإغريق.

وكلمة فلسفة عندهم تعني عين الحكمة.

ولأن البحث يبغي معرفة أصل الحقائق كلها، فهو عين الحكمة، أي فلسفة؛ ومن ثم سُميٌ هؤلاء المفكرين فلاسفة.

وظل الناس على فكر الفلاسفة آماداً طويلة من الزمن، لا يعرفون من أمر ربهم حقيقة مؤكدة ..

حتى إذا قال النبيون: الله هو الخالق لكل شيء ولا إله إلا هو وحده لا شريك له، التأم الشمل بين الناس على فريقين: فريق يؤمن وفريق كفر ..

ولأن الكتب التي أنزلت لم تكن تحوي إلا مسطور إخباري عن الحقائق؛ وهداية إنسانية في الحياة، فإن الفكر الفلسفي ومن بعده المذهب العلمي لم يتوافق مع الإيمان في طريق واحد، وضل عنه شيئًا فشيئًا حتى تهاوى إلى مادية الأشياء وأخلد بالإنسان إلى الأرض ..

ذلك بأن مادتهم وماديات الحياة، قد تفاعلا فاغلقا عليهم أبواب السماء فلم يعرجوا بفكرهم إليها وفيها، وظنوا أنهم إن لم يلمسوا الله بأبصارهم، فإن الأمر يكون بعيداً عن الرشد ومن ثم بعيداً عن الحق، فاستمروا في الشطط ولجاجته ..

قال العلي الحكيم ﴿إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء﴾ [الأعراف: ٤٠].

ثم، جاءهم الكتاب كله من عند الله العلي الكبير بالحقائق العلمية مبينة موضحة في الكون المفتوح. ورغم نزول القرآن العظيم بالعلم الإلهي «أنزله بعلمه».

فإن إثبات الألوهية بمضمونه لم يتجاوز المسلمين بكثير؛ لعوامل شتى؛ منها عدم تبليغ القرآن لأوروبا لتوقف القتال في سبيل الله بعد ثلاثة قرون من البعثة المحمدية، والضعف عن اتخاذ أوجه فعّالة للدعوة في مختلف أنحاء الأرض؛ وبالتالي، فإن الفكر الضال المضل الذي كان قائماً من قبل القرآن، ظل سادراً في غيه من بعد نزول القرآن أيضاً ...

وأيضاً لما ترتب على توقف القتال في سبيل الله من ضياع لقوة المسلمين؛ ونشاط المستشرقين في الهجوم على القرآن بتشويه ما فيه والعبث بحقائقه والطعن على الرسول ﷺ.

وإثبات الألوهية في الدعوة الإسلامية، يستند إلى أربع سبل: **الأول**: الآيات القرآنية **والثاني**: الشهادة **والثالث**: القسم **والرابع**: التحدي.

وحقائق الخلق كثيرة جداً وكذلك حقائق التسخير مكتوبة بكافة تفاصيلها وإذا قرأنا التوراة والإنجيل، نجد أنهما لم يتكلما عن الحقائق العلمية للخلق والتسخير، وإن تكلمت التوراة عن الخلق كقصة إخبارية في سفر التكوين امتلأت بكثير من التحريف والتزوير ...

أما القرآن العظيم

فاول ما نزل على الرسول ﷺ نزل بقوله تعالى: ﴿إقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ خلق بإطلاق ولم ينزل عليه إقرأ باسم ربك الرحمن الرحيم..

ثم أبلغه في حكم خاص عن الخلق، فقال تعالى في ثاني آية أنزلت: ﴿خلق

الإنسان من علق ﴾ فاتى باول حقيقة علمية عن خلق الإنسان نسلاً من نسل، ولم يكن ذلك معروفًا ولم يعرف إلا في القرن العشرين(١).

ثم، واستمراراً للأمر لتعلم حقائق الخلق، وجّه رب العالمين رسوله والناس أجمعين إلى كيفية الإلمام بالعلم؛ من بعد حق المعرفة، فقال تعالى:

﴿ الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ [العلق] فبين لنا أن العلم والخلق يكون بالقراءة في كتاب الله وفي صفحات الكون ثم من بعد ذلك بتتبع الحقائق العلمية درسًا وفحصًا وبالكتابة بالقلم حرفًا ورسمًا ونسخًا ..

ثم تتابع نزول القرآن العظيم بكل الحقائق العلمية عن خلق الإنسان ...

ومنذ البداية من التراب ... صلصال كالفخار.

وأيضًا فقد أتى القرآن العظيم بكل الحقائق العلمية لخلق السماوات والأرض وما فيهما من مخلوقات: الملائكة والجن والحيوان والنبات والأجرام ..

وإذا كان بعض الجاهلين يقولون بان القرآن ليس كتاب علم وإنما هو كتاب «عبادة» (بمعنى العبادات المحضة) أو كتاب «أخلاق» ؟!

فذلك راجع إلى عدم دراستهم للقرآن العظيم، ومن ثم جهلهم به. ويبدو أن هؤلاء قد خلطوا بين العلوم، فظنوا أنه لأن القرآن ليس به علوم الصناعة، فهو بالتالي لا يكون كتاب علم!

ونسي هؤلاء أو جهلوا كذلك أن الصناعة علمها هو علم الأسماء .. وأن آدم عليه السلام قد ألقي في قلبه علم الأسماء وكذلك كل بنيه، ومن ثم فإن الله سبحانه لم يأت بشيء منه في كتبه الشريفة، فقال سبحانه بالفعل الماضي ﴿ وعلّم آدم الأسماء كلها ﴾ [البقرة]. أي أن تعليم الصناعة لبني آدم أمر قد تم فعلاً.

---

(١) جاء لفظ «خلق» في الآية الاولى حكمًا عامًا وجاء لفظ «علق» في الآية الثانية حكمًا خاصًا بالإنسان وحده ثم جاءت كلمة ﴿ ثم انشاناه خلقًا آخر ﴾ في سورة المؤمنون ١٤ حكمًا خاصًا بالإنسان للمرة الثانية.

فالصناعة، صناعة كل شيء، لا صلة لها بالقرآن العظيم،

أما علوم الخلق والتسخير

خلق كل شيء، خلق العالمين وتسخير كل ما في السماوات والأرض للإنسان ..

فعلمه في القرآن العظيم لأنها هي العلوم العليا: علوم الآفاق والنفس البشرية.

ولا يمكن الإلمام بحقيقة علوم الخلق إلا من القرآن العظيم وبعد اليقين بالله سبحانه عز وجل والتقوى والهداية والمجاهدة الفكرية المتأنية.

فالفلاسفة وعلى مدى أربعة آلاف عام ونيف لم يستطيعوا أن يصلوا إلى الخلق وبالتالي لم يمكنهم أن يصلوا إلى الحقيقة العلمية للخلق ...

وكذلك كل العلمانيين لم يستطيعوا أن يصلوا إلى حقيقة علوم الخلق، لأنهم أعملوا فكرهم على أساس أن ما يثبت بالتجربة المعملية فهو حق فإن لم يثبت فهو باطل.

ولأن الخلق من أعظم صفات الذات الإلهية

والذات الإلهية غيب،

لهذا، كان مستحيلاً أن نعلم الخلق إلا من الخالق ..

وأنزل الله العظيم كتابه العظيم وفيه حقائق الخلق كلها ..

ومن ثم، فقد بطل التفكير بغير هذا الحق.

ودمغ العلي الكبير الجدال في كلامه بالبطلان، فكفَّر بذلك الفكر المشّاء بالظنون وفروض الفلسفة وغيرها، وكفَّر هذا الطراز من الفلاسفة، فقال سبحانه وتعالى:

﴿ والذين يجاهدون في الله بعد ما أُستجيب له حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد ﴾ [الشورى: ١٦].

بل ودمغ الذين يناقشون في آيات الله كذلك بالكفر، لأن آيات الله حق وعلى

الناس أن تتفكر فيها بالتفسير بقواعده وأصوله؛ وليس بالمحاجة، لأن الذي يحاج في آيات الله قد أشرك نفسه؛ فكره ورأيه؛ بكلام الله، مثلما فعل إبليس الرجيم تمامًا عندما أمره ربه بالسجود لآدم قال أنا خير منه ..

لذلك قال العليم الخبير:

﴿ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلاد﴾ [غافر: ٤].

وقال الرسول الكريم:

(من قال في القرآن برأيه - وقيل بعلمه - فليتبوأ مقعده من النار).

الشهادة الكونية

ذلك بأن الله سبحانه

أثبت وجوده وأحديته معًا بحقائق علوم الخلق والتسخير.

قال العلي الكبير:

﴿وإلهكم إله واحد، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم. إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾ [البقرة: ١٦٣ - ١٦٤].

فأثبت الله العظيم وجوده وأحديته معًا بأمرين: الخلق والتسخير.

فلو كان أكثر من إله واحد ﴿إذًا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض﴾ [المؤمنون: ٩١] ومن ثم فإن وجود الكون ووحدته في نظامه لأقوى دليل على وجود الخالق وأحديته الاثنين معًا.

وقال تبارك وتعالى:

﴿إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يُغشى الليل النهار يطلبه حثيثًا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره، ألا له الخلق والأمر - أي التسخير -؛ تبارك الله رب العالمين﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقال العلي الكبير:

﴿وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعًا منه، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ [الجاثية: ١٣].

أي أن تسيير الشمس والقمر بحسبان وكذلك النجوم حول الأرض لمصلحة الناس وحدهم وفي نظام دقيق مسخر لا يختل أبداً لأمور تدعوا إلى التفكر الذي يصل بالعقل إلى الإيمان بالله وحده الخالق لكل شيء والمسخر لكل شيء.

وكذلك قوله تعالى: حاضًا على عقل الأمور للوصول إلى الحق ..

﴿وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره؛ إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾ [النحل: ١٢].

ويثبت سبحانه وتعالى أحديته بعد الخلق والتسخير؛ بالهداية للإنسان؛ فيقول جل من قائل:

﴿وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون﴾ [الأنعام: ٩٧].

وقوله سبحانه وتعالى:

﴿وعلامات، وبالنجم هم يهتدون﴾ [النحل: ١٦] ومجموعة النجم القطبي ثابتة جامدة في شمال الكون. والهداية عندما تكون ثابتة دائمة، إنما تدل على أن الهادي واحد لا شريك له .. فإن كانا فوق واحد لاختلفت الهداية باختلاف الهادين ولفسد الأمر.

ثم يثبت سبحانه قدرته العادلة الدائمة الرحيمة فيما أعطاه للناس من أرزاق ينعمون بها، فقال جل وتعالى:

﴿ والأرض بعد ذلك دحاها. وأخرج منها ماءها ومرعاها. والجبال أرساها. متاعًا لكم ولأنعامكم ﴾ [النازعات: ٣٠ - ٣٣].

وكذلك قوله تعالى في بيان طعام الإنسان الذي أفاء الله به عليه ﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه. أنا صببنا الماء صبًا. ثم شققنا الأرض شقًا. فأنبتنا فيها حبًا. وعنبًا وقضبًا. وزيتونًا ونخلاً. وحدائق غلبًا. وفاكهة وأبًا. متاعًا لكم ولأنعامكم ﴾ [عبس: ٢٤ - ٣٢] و « أبًا » هو كل نبات يأكله الحيوان.

وقوله سبحانه وتعالى:

﴿ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبًا فمنه يأكلون. وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون. ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون ﴾ [يس].

وأثبت سبحانه وتعالى قدرته في كل ما خلق، وسورة الرحمن تحوي أنماطًا كلية وفرعية فبعد أن تكلمت عن رفع السماء وتسيير الشمس والقمر معًا بحسبان، تكلمت عن ثبات وجمود الأرض ثم خلق الإنسان وخلق الجان، وآيتي المشرق والمغرب، والحاجز بين البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج لا يبغيان، عرجت على خروج اللؤلؤ والمرجان من كل منها ثم آية السفن فوق الماء، كل ذلك آيات من آيات الله، ليس لأحد فيها يد ولا ترتيب ولا قدرة. فهو سبحانه الذي بيده ملكوت كل شيء خلقه كما أن بيده سبحانه مقاليد كل شيء أي مفاتيح وقدرة تسخيرها.

وهو سبحانه يوجه نظر الإنسان إلى أبسط شيء وهو في ذات الوقت أهم شيء للإنسان، ألا وهو الزرع الذي بغيره يموت الإنسان والحيوان وتفنى الحياة ..

فيقول سبحانه وتعالى:

﴿ إن الله فالق الحب والنوى ... ﴾ [الأنعام: ٩٥].

ويقول سبحانه وتعالى:

﴿ أفرأيتم ما تحرثون، ءأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون. لو نشاء لجعلناه حطامًا فظلتم تفكهون. ﴾ [الواقعة].

والله سبحانه يأخذ الإنسان المغرور من الأرض إلى السماء فيقول تعالى:

﴿ فالق الإصباح وجعل الليل سكنًا والشمس والقمر حسبانًا؛ ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ [الأنعام: ٩٦].

ذلك يعقله كل من يدرك أنه ليس لأحد قدرة ولا قوة على شيء من كل ما خلق رب العالمين، لا قدرة في الإيجاد ولا قوة في التسخير. ولا عظمة في الهداية.

ثم أثبت سبحانه خلقه للأنعام فقال جل شانه:

﴿ أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعامًا فهم لها مالكون. وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون. ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون ﴾ [يس].

ولم يدع أحد ولن يدعى أنه خلق أنعامًا أو حيوانًا أو طيرًا أو حشرة أوذبابة وإن اجتمعوا له، تحدي الخالق لكل كاذب كافر.

﴿ يا أيها الناس ضُرب مثل فاستمعوا له؛ إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابًا ولو اجتمعوا له، وإن يسلبهم الذباب شيئًا لا يستنقذوه منه؛ ضعف الطالب والمطلوب ﴾ [الحج: ٧٣].

ولم يدع أحد أنه ذلل حيوانًا لم يذلله الرحمن للناس. فكل الحيوانات المفترسة منذ قديم الزمان ما زالت مفترسة حتى هذه اللحظة وإلى ان تقوم الساعة، وهذا واقع للناس يشهد على حق دليل قوله الرحمن سبحانه.

وإذا كانت هذه الحقائق العلمية القرآنية في الخلق، تثير في النفوس إرهاصات التفكير، فإذا عقلها الناس بحقها، علموا الحق من ربهم وزادهم هدى، وإذا لم يعقلوها بحقها تركهم الحق وانغمسوا في الشطط وظلوا جاهلين.

فإن بيان رب العالمين في خلق الإنسان، لن يستطيع ان يرده إلا جاهل ومكابر الاثنين معًا، ذلك بأن الحق فيه، يملأ أجسادنا والجوارح منا ولا يترك صغيرة ولا كبيرة فينا، إلا وينادي بأعلى صوت: الله الخالق البارئ المصور.

وأخبرنا الخالق العظيم عن خلق الناس

فقال سبحانه وأحسن القول قول العلي الكبير:

﴿ يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ﴾ [الحج:٥].

﴿ ومن آياته ان خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ﴾ [الروم: ٢٠].

﴿ وبدأ خلق الإنسان من طين ﴾ [السجدة: ٧].

﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ﴾ [المؤمنون: ١٢].

﴿ إنا خلقناهم من طين لازب ﴾ [الصافات: ١١] لازب أي لاصق.

﴿ ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمإ مسنون ﴾ [الحجر: ٢٦] والصلصال هو الطين اليابس الذي لم تمسه نار، والحمأ هو الطين المتغير إلى السواد والمسنون أي النتن أو الرطب(١). أو الأملس(٢).

وكانت آخر سلالة من الطين في قوله تعالى:

﴿ خلق الإنسان من صلصال كالفخار ﴾ [الرحمن: ١٤] والفخار معروف.

ثم، وهي كلمة تفيد التراخي الزمني اي وجود فاصل زمني بين ما قبلها وترتيبًا لما بعدها؛ قال الخالق العظيم:

﴿ ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ﴾ [السجدة: ٨]. النسل: هو الذرية.

---

(١) مختصر من تفسير الطبري/ سورة الحجر.

(٢) تفسير ابن كثير حـ٢/ ٥٥٠.

وسلالة أي الماء الذي انسل منه فخرج. وماء مهين أي نطفة ضعيفة[١] وأرى أنه المني الذي يمنى كما في قوله تعالى: ﴿ أفرأيتم ما تمنون. ءأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ﴾ [الواقعة: ٥٨ – ٥٩] ولذلك يقول بعدها:

﴿ ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ﴾ [المؤمنون: ١٣] فالنطفة هي البويضة وفيها الحيوان المنوي. والقرار هو رحم المرأة، ومكين أي هيئ له ومكن بذلك[٢].

﴿ ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر؛ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ [المؤمنون: ١٤].

ثم جعل الخالق العظيم للإنسان سمعاً وبصراً وفؤاداً ليعرف ويفهم بها فقال سبحانه وتعالى:

﴿ قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون ﴾ [الملك: ٢٣] تشكرون أي تستعملونها بالحق فتشكرون ربكم[٣].

وتتبع هذه الآيات نجد أن البداية لا تؤدي إلى النهاية، فكيف يجئ عقب « الصلصال كالفخار »، الماء المهين.

وإذاً فثمة حلقة، بعد الصلصال كالفخار وقبل الماء المهين..

يُبين العلي العظيم ذلك في قوله تعالى للملائكة، للملأ الأعلى منهم..

﴿ .. إني خالق بشراً من طين. فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين. فسجد الملائكة كلهم أجمعون ﴾ [ص: ٧١ – ٧٣]؛ ودلنا سبحانه وتعالى من هو « البشر » الذي خلقه سبحانه في قوله تعالى لإبليس الرجيم الذي امتنع عن السجود لهذا « البشر ».

﴿ قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي، أستكبرت أم كنت من العالين. قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾ [ص: ٧٥ – ٧٦].

---

(١) مختصر من تفسير الطبري / سورة السجدة.

(٢) المرجع السابق / تفسير سورة المؤمنون.

(٣) صفوة التفاسير حـ٣ / ٤٢٠ من تسير الطبري ٢٩ / ٧.

فدل على أن الذي خلقه رب العالمين هو بشر واحد في قوله « منه » و « خلقته » فاستعمل ضمير المفرد رجوعًا على البشر(١).

ثم، سمى رب العالمين هذا البشر، فقال إنه اسمه آدم في قوله تعالى:

﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ﴾ [البقرة: ٣٤].

من هذا التسلسل القرآني العظيم نعلم أن الله سبحانه خلق آدم عليه السلام بيديه أي بكمال قدرته من غير واسطة أب ولا أم.

قال الإمام القرطبي: أضاف خلقه إلى نفسه تكريمًا لآدم وإن كان خالق كل شيء، كما أضاف إلى نفسه الروح، والبيت، والناقة، والمساجد، فخاطب الناس بما يعرفونه(٢).

وإذا كان الله الخالق العظيم قد خلق آدم بكمال قدرته، فإنه سبحانه وتعالى خلق زوجه حواء بغير واسطة كذلك أي بكمال قدرته جل جلاله فقال عز من قائل:

﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة - أي آدم - وخلق منها زوجها - حواء - وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً .... ﴾ [النساء] أي نسلاً من نسل.

وإذًا فإن الله سبحانه، يُخبرنا بانه خلق إنسانًا واحداً من طين هو آدم عليه السلام ومنه خلق زوجه. ومنهما الاثنين كانت النطفة والعلقة. فجعل نسلهما من سلالة من ماء مهين.

(وإذا رجع الناس في تسلسل الخلق البشري - أي تسلسل عددي تراجعي - ، فلا بد أن يعود التسلسل إلى اثنين فقط ذكر واحد وأنثى واحدة).

---

(١) أول قاعدة في رجوع الضمير وإن خلق آدم لم يكن كذلك إلا في هذه الحياة التي نحياها بمعنى أنها « بعث » لآدم. أما أول خلق الناس فقد كان قبل ذلك بملايين السنين في أطوار كثيرة.

(٢) تفسير القرطبي ١٥ / ٢٢٧ و٢٢٨.

وعندئذ يكون السؤال: من الذي خلق الاثنين: الذكر والأنثى؟

إذًا لا بد من خالق، لأن أحداً لم يخلق نفسه.

قال رب العالمين

﴿ وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة، فمستقر ومستودع؛ قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون ﴾ [الأنعام: ٩٨].

من هذا البيان نعلم أن أول من خلق من الناس في هذه الحياة الدنيا التي نحياها هو شخص واحد هو آدم عليه السلام ثم زوجه حواء من ضلعه كما جاء بالسنة النبوية المطهرة.

وأنهما خلقا بكمال القدرة الإلهية.

وأن خلق آدم تم في أعلى خلق حين خلقه خلقًا معتدلاً في أحسن صورة نفخ فيه من روحه، فكان إنسانًا سويًا، سجد له الملائكة أجمعون، قال رسول الله ﷺ: كان آدم رجلاً طوالاً كثير شعر الرأس كأنه نخلة سحوق.

لذلك فإن حقيقة الخلق من سلالة من طين حتى الصلصال كالفخار للإنسان في الحياة الأولى تنفي نفيًا تامًا وقاطعًا النشوء من خلايا متكاثرة متعضونة.

ولأن الخلق من السلالة من الطين حتى الفخار والارتقاء بالإنسان الحالي بكمال القدرة الإلهية كان من بعده استمرار الخلق من النطفة والعلقة؛ فإن القول بوجود خلق من الخلايا في أي مكان وفي أي زمان؛ أي بالنشوء من الخلايا؛ هو مجرد قول بغير دليل من الواقع، بل إن العلمانيين، الرياضيين منهم؛ وأصحاب النظرية ذاتها، قد قطعوا بفسادها وبطلانها. ومن ثم؛ فإن هذا القول يبقى معلقًا على الجهل بل والتزوير للحقائق.

ومنذ سنوات قد أثبتت الآثار الموجودة فوق جبال التبت وزيمبابوي وبوليفيا أن الإنسان، كما هو حاليًا، كان موجوداً وأعظم قوة وعلمًا وحضارة منذ ما يقرب من خمسين ألف عام فوق الأرض، وهو ما يقضي تمامًا على كل فكر داروين(١).

---

(١) كتاب «الذين هبطوا من السماء» للأستاذ أنيس منصور/ ٣٦ وما بعدها.

المبحث الرابع: نفي الشرك

فكثير من العلميين المؤمنين تأخذهم ظنون العلمانيين حتى ليخالفوا حقائق القرآن والسنة، مبررين هذه المخالفة بالعلم وبأن القرآن كتاب عبادة! مع أنهم كلما ظهر في العالمين علم أسرعوا يقولون: هذا موجود في القرآن ...

وهذه الصورة الدقيقة الخفية للشرك - تدخل قلوب الكثير من الناس دون وعي منهم أو دون روية.

والله سبحانه يحذرهم من ذلك في قوله جل جلاله:

﴿فلما جاءتهم رسلهم بالبينات - أى حقائق الخلق والحياة وهي أعلى مراتب العلم - فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون. فلما رأوا بأسنا قالوا ءامنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين. فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا - أي يوم القيامة - سنة الله التي قد خلت في عباده؛ وخسر هنالك الكافرون﴾ [غافر: ٨٣ - ٨٥].

فوصف الله جل جلاله هؤلاء العلمانيين وتابعيهم بانهم كفار...

وقسم بعض العلماء الشرك إلى: شرك أكبر وهو: ان يصرف العبد نوعًا أو فردًا من أفراد العبادة لغير الله.

مع ملاحظة أن العبادة فيها الإيمان بالقرآن والسنة والعمل بهما.

وشرك أصغر وهو كل وسيلة وذريعة يتطرق منها إلى الشرك الأكبر من الإرادات والأقوال والأفعال التي لم تبلغ رتبة العبادة كالرياء اليسير والحلف بغير الله والغلو في المخلوق(١).

---

(١) كتاب «القول السديد» ٢٩/ - ٣١ و ٥١ - ٥٣ للشيخ عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي.

وقال العلي الكبير:

﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله؛ والذين آمنوا أشد حبًا لله؛ ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعًا وأن الله شديد العذاب ﴾ [البقرة: ١٦٥].

لذلك فإن الله سبحانه، علّق الإيمان على طرد الشك فقال جل شانه:

﴿ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

قال علماء التفسير: الطاغوت: هو الأنداد والأوثان وما يدعو إليه الشيطان من عبادة كل ما يعبد من دون الله، أو كل ذي طغيان. والطاغوت: مفرد وجمع(١).

ومن هذا؛

يتبين لنا، أن الشرك بالله يبدو في الإيمان بغير الله وحده. وأيًا كانت صورة هذا الإيمان بغير الله وإليك بعضها وأهمها:

١ - تعبدية؛ بأن تنكر الله أصلاً كالوجوديين والشيوعيين والملاحدة عمومًا.

- أو تجعل له ندًا، كالذي يعبد صنمًا أو وثنًا على انه إله مع الله. وهي صورة كفار قريش.

- أو يعبد الطاغوت بأن يتخذه وكيلاً وعضداً كأن يحكم بغير ما أنزل الله.

- أو يذبح لغير الله قربى وزلفى ...

٢ - فكرية، كأن تعتنق أفكاراً أو نظريات أو معلومات عن حقائق الخلق والحياة غير التي وردت في القرآن والسنة. فقد أشركت نفسك بالله.

- أو يؤول العبد كلمات الله وسنة رسوله ﷺ حتى تتفق مع ما يقول الكفار.

---

(١) ابن كثير حـ١ / ٣١١ والجلالين / ٤٦ والطبري / ٤٦ والتفسير الوسيط / ٤٣٤.

- أو يفسر العبد كلام الله بمقولات ونظريات عن حقائق الخلق والحياة (الكون والإنسان وما في الكون من دابة)؛ متجاهلاً قواعد اللغة العربية وطرق دلالة الألفاظ وقواعد وأصول تفسير القران الكريم؛ فقد أشرك نفسه مع الله.

- أو أن يتجاهل العبد سنة رسول الله. مع أن القاعدة الشرعية أنه ليس بعد بيان الرسول ﷺ قول، لأن السنة إلهام من الله للرسول. فقد جحد الرسول وأشرك نفسه بالله.

٣ - دعائية: كأن يدعو العبد شيئًا غير الله سبحانه. فالدعاء مخ العبادة. وكل من يتوسل إلى غير الله أيًا كان من يُتوسل إليه، فقد تجاهل الله وتجاهل عبادته وجحده فكفر لأنه أشرك من يدعوه بالله سبحانه وتعالى.

والمشرك كافر لقوله تعالى: ﴿ ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر﴾ [التوبة: ١٧] ولكنه أقل مراتب الكفر.

والمنافق كافر لقوله تعالى ﴿ وإذا لقوا - أي المنافقون - الذين آمنوا قالوا آمنا، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزءون ﴾ [البقرة ١٤].

فالشرك والنفاق هما أدنى الكفر وأقصى الكفر

ونفي الشرك

هو أن تطرد من صدرك وقلبك وفؤادك ولبك كل ما قدمنا.

والإيمان أن تؤمن بالله العلي العظيم وحده لا شريك له. فلا تصدق إلا قوله سبحانه في قرآنه العظيم وإلا رسوله ﷺ في سنته. ولا تطع أحداً سواه سبحانه. فلا طاعة لمخلوق - أي مخلوق - في معصية الخالق.

وبذلك ينفي العبد الشرك عن نفسه ويؤمن بالله.

ومن هنا مشى الرسول في قومه يقول (قولوا لا إله إلا الله تفلحوا).

وكانت قريش تؤمن بالله وتعبد الأصنام ليقربوها إلى الله زلفى ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ [الزمر: ٣].

فقريش تعرف الله وتؤمن به، ولكنها أشركت به أصنامها فجعلتهم آلهة مع الله الواحد القهار؛

فجاءهم رسول من عند الله الأحد يقول لهم لا إله إلا الله وأن هذه الأصنام والأوثان: ﴿إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان﴾ [النجم: ٢٣].

﴿ما تعبدون إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان﴾ [الزخرف: ٣].

فالله والأصنام والأوثان في الألوهية شركاء عندهم.

وشبوا وشاخوا على هذا الشرك، ومن قبل ذلك آباؤهم وأجدادهم على هذا الإفك، فصار راسخًا في وجدانهم.

واستبد بالقوم هذا الهراء، وأسعد السادة كما أسعد الذين يعيثون في الأرض الفساد، أن تكون هذه هي آلهتهم؛

فإن زادوا في رذائلهم وهاموا في أخاديد نفوسهم، فما عليهم إلا أن يذهبوا إلى هذه الأحجار الأصنام يقربون إليها شيئًا مما اعتقدوا أنها ترضى به؛ فإذا هم على وهم من قبولها ورضاها عنهم.

وكما أنهم صنعوا هذه الآلهة بأيديهم فقد استقر في وجدانهم أنها ذات بداية من صنعها وذات نهاية إن طاف بها ما يودي بكيانها، فهي تبدأ وتنتهي، وإذا كان هذا هو إلههم، فهم من باب أولى ذوي بداية ونهاية، إنهم يولدون ويموتون؛ فأيقنوا ﴿وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر﴾ [الجاثية: ٢٤].

ليس لهم أمل يطمحون إليه في حياة أخرى أبدية، فلم يبق بالتالي عندهم إلا المتعة

الطاغية في هذه الحياة ... فإذا ما كانت كذلك ... فليس أمامهم إلا هذا الجسد .. فلتكن إذاً كل ما يلذه من شيء يطرب له أو تنشوا به أنفسهم، وتلذ به اعينهم، وتسعد به حواسهم .. فصار إلههم هواهم تماماً مثل أفكار الوجوديين اليوم؛ قال عنهم رب العالمين:

﴿إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس﴾ [النجم: ٢٣]

وصارت سعادتهم في رذائل دنياهم، خمر يعاقرون به نساء استباحوا أجسادهن بأموالهم إطفاء لنار الغريزة الجنسية المستعرة فيهم .. حتى إذا ما استنفدوا لهوهم في الأجساد، عطفوا على اللعب بالمال، فكان الميسر أحد غوائل عبثهم حتى صار ضياع المال في المجون إلفاً لهم.

أما الذين أوتوا الكتاب، فقد أخبر رب العالمين عن موقفهم من الرسول ﷺ

﴿ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون﴾ [البقرة: ١٠١].

وقالوا أيضاً في القرآن العظيم:

﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به، فلعنة الله على الكافرين﴾ [البقرة: ٨٩].

كان موضوع قريش الشرك بالله، وكان ذلك أيضاً موضوع أهل الكتاب؛ الاثنان كفروا بالله وبالرسول.

والإله لغة: المعبود بحق أو بباطل(١).

والمراد في قوله تعالى: ﴿لا إله إلا الله﴾ هو نفي الإلهية عن أي شيء وإثباتها لله سبحانه الذي ليس كمثله شيء، ذلك بأن أسلوب القصر يستعمل للنفي والإثبات والبيان والتحديد.

---

(١) صفوة التفاسير حـ١/ ١١٠.

والله لغة:

فقد ذهب بعض النحاة إلى أنه اسم جامد لا اشتقاق له، وقاله أيضاً الإمام الشافعي والخطابي وإمام الحرمين. أما الإمام الغزالي فقد قال إن كل ما ذكر في اشتقاقه تعسف وتكلف[١].

وقال الإمام القرطبي: إنه مشتق من وله والوله ذهاب العقل، فالله تعالى يحير الفكر في حقائق صفاته. وقال الإمام الرازي: إنه مشتق من ألهت إلى فلان أي سكنت إليه فالعقول لا تسكن إلا إلى ذكره ﴿ الا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾، وقيل مشتق من لاه يلوه إذا احتجب. وقيل مشتق من آله الرجل يأله إذا فزع من أمر نزل به فالهه أي أجاره فالمجير لجميع الخلائق هو الله سبحانه ﴿ وهو يجير ولا يجار عليه ﴾. وقد اختار الرازي أنه اسم غير مشتق وكذلك الخليل وسيبويه وأكثر الأصوليين والفقهاء واستدلوا بقوله تعالى: ﴿ هل تعلم له سمياً ﴾. وعقب الإمام ابن كثير بأن هذا الاستدلال فيه نظر[٢].

وقال علماء الأزهر الشريف في تفسيرهم لقوله تعالى:

﴿ لا إله إلا هو ﴾

انه هو الإله، المتفرد بالألوهية، المستحق وحده للعبادة، فالألوهية مقصورة عليه؛ ثابتة له منفية عن غيره؛ وبذلك نفى الشريك كما تزعم النصارى في عيسى وكما تزعم اليهود في عزير؛ فإن اعتقاد البنوة شرك. كما نفى أن يكون هناك إله غيره، كما يزعم المشركون. كما أن الآية تنفي أن يكون الكون بغير إله خالق، كما يقول الدهريون[٣].

وقال الإمام ابن كثير: ﴿ لا إله إلا هو ﴾ انه إخبار بانه المتفرد بالإلهية لجميع الخلائق[٤].

---

(١) «المقصد الأسنى شرح أسماء الله الحسنى» / ٣٣.

(٢) تفسير ابن كثير حـ١ / ١٩ و٢٠.

(٣) التفسير الوسيط / ٥١١.

(٤) تفسير ابن كثير حـ١ / ٣٠٨.

والعرب كانوا أهل بلاغة وفصاحة؛ ففهموا ما قاله الرسول ﷺ.

وعلموا أن نداء ﴿لا إله إلا الله﴾ يُهدر كل ما هم فيه من حياة .. فهو تسفيه لفكرهم في القمة في هذه الآلهة الأصنام والأوثان ..

ومن ثم، فهو تسفيه كذلك لأحلامهم، وتضييع لدين الآباء والأجداد .. موضع التقديس في نفوسهم.

فلما حضر الموت أبا طالب، قال له الرسول: يا عم قل لا إله إلا الله أحاج لك بها عند الله يوم القيامة فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب .. وما زالوا به حتى كان آخر ما قاله أنه على ملة عبد المطلب ..

وفهم العرب أن هذا النداء ﴿لا إله إلا الله﴾، سب لآلهتهم، لأنه ينزع منها إلاهيتها، ويتركها قطعاً من الحجارة أو الخشب لا تزيد. وهي - في خاطرهم - التي تقربهم إلى الله زلفى إن أرادت أو تحجبهم عنه إن شاءت؛ فهي عندهم الوسيلة الفعالة والتي بدونها لا يكون لهم ثمة شيء يستجيرون به.

وكان العرب يعيشون في الجاهلية، وزعماؤهم أصحاب القوة والمال، فمن كان أكثر مالاً فهو أعز نفراً وأكبر عتاداً وقوة فهو السيد الذي يسود الناس ويفرض نفوذه.

وإذا كان المال هو الأساس؛ فقد كانت وسيلة جلبه ليست مما ينظر فيها، فمن أي السبل جاء فقد جاء؛

لذلك وصل بهم الدرك إلى تحصيله ولو ببيع لذة الجسد. فالمهم هو الحصول على المال، وبالمال تشتري العبيد ويشتري السلاح؛ أي تكون القوة ومن ثم السيادة والسيطرة.. بل السطو والإجرام؛ إذاً فلا بأس إن قطعوا الطريق وسرقوا الناس إكراهاً.

ونداء ﴿لا إله إلا الله﴾ مضمون القيم الصالحة والمثل الرفيعة والسلوك الشريف، ومن ثم فهو تقويض لسلوك هؤلاء الذين يسودون الناس بالقوة ..

وهو نداء يفتح أبواب الفكر والتفكر في هذه الأصنام والأوثان التي لا تعقل لأنها

لا ترى ولا تسمع شيئًا حتى تعقله وليس لها من حركة في الحياة أو مقدرة .. فهي لا تصدر عن نفسها شيئًا .. فكيف تقدر على شيء لغيرها.

كل هذا فهمته العرب، وبالذات السادة منهم

وعلموا أن السكوت على هذا النداء فيه نهاية لكل ما هم فيه .. وإذًا فلا قصور منهم ولا تقصير، لا بد أن يقضوا عليه .. لا سيما وأن بعض عبيدهم آمنوا به، ثم إن بعض الأشراف أمثال أبي بكر وعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف .. قد آمن به كذلك.

ولا بد لهم من عمل فعال مع صاحب هذا النداء.

وصاحب النداء هو منهم في الذروة من السنام الطاهر الشريف العفيف هو ﷺ: ابن الذبيحين، سليل النبيين، مصباح هداية الثقلين، منار سعادة الدارين، المتخير من معدن الحسب الزاكي المنيع ومن دوحة النسب العالي الرفيع؛ نسب قام بإبراهيم بنيانه، وارتفعت بإسماعيل أركانه، واستقرت بقريش أوطانه، وتجلى في شيبة الحمد عنوانه(١).

فلتكن إذًا مسيرتهم إلى عمه سيد مكة وقريش، أبي طالب، يشكون إليه ابن أخيه عبد الله.

ولأن قضيتهم هي: المال والقوة والسيادة

فقد عرضوا عليه المال والملك والسيادة

ولأن ﴿لا إله إلا الله﴾ هي الحكم بما أنزل الله، هي تثبيت الشرف الرفيع بدلاً من الرذيلة وما حواليها من قبح، وهي إعمال للمال في بناء الحياة بالحق بدلاً من التسلط والرشوة والسرقة والاختلاس ومن ثم الانهيار والانحلال؛ وهي إعمال للقوة في قطع رقاب القتلة السفاكين ورجم الزناة وقطع أيدي اللصوص وإلزام الناس حكم الله،

---

(١) من مقال للشيخ الصاوي شعلان في «محمد» هدية منبر الإسلام عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية في ربيع الأول ١٣٩٥ هـ.

وليست في الاستبداد والطغيان ونهب أموال الشعوب وإثراء الأقارب والملأ من الطغاة.

ولأن ﴿ لا إله إلا الله ﴾ هي القيم والفضائل الاجتماعية في احترام الأنثى وإحاطتها بالطهر لأنها مع زوجها خلية بناء المجتمع الفاضل، بدلاً من إهدار حرمتها وسيرها عارية مفضوحة حيواناً ولذة مستباحة وسبباً لأبناء لقطاء ..

ولأن ﴿ لا إله إلا الله ﴾ هي الأخذ بكتاب الله جملة وتفصيلاً، فهي في تنفيذ المنهج الإلهي أمراً حتماً لا اختيار فيه؛ لبناء الفرد والدولة على الطهر والحق والصحيح، بدلاً من اتباع السبل والضلال والفساد ثم الانهيار ..

ولأن ﴿ لا إله إلا الله ﴾ تخليص للإنسان من الرق واعتراف بالفطرة القويمة السليمة بدلاً من الاستعباد والتدهور إلى دركات الأنعام تباع وتشترى وتذبح ولأن ﴿ لا إله إلا الله ﴾ تحرير للإنسان من كل قيد أو قبح قد يحوط بخلقه في أحسن تقويم، أو قد يمنعه من استعمار ربه الكريم له في الأرض بصحيح مفهوم حمل الأمانة، فلا يسوده أحد إلا الله ولا يمنعه أحد إلا حكم الله، ولا يأمره إلا أمر الله، ولا يكبله من قيد إلا حرمات الله.

نداء يقول للناس: انظروا ما في السماوات والأرض سخرها رب العالمين للإنسان وحده، ولم يسخرها أحد غير الله.

فلم يدع أحد أنه صنع ماء أو هواء أو أرضاً أو سماء. ولا يستطيع أحد أن يدعي أنه صنع الشمس أو القمر ولا حتى ذرة من تراب في الأرض أو في السماء، أو يدعي أنه فلق حبة أو نواة، أو فلق الإصباح.

فإذا نظر في نفسه بهرته نفسه، فليس له فيها بداية ولا يعلم أنى النهاية، مغلوب على أمره، مقهور في خلقه، لم يختر شكله ولا قسماته ولا لونه، لا طوله ولا عرضه، ولن يختار مكان موته. ولا يعلم رزقه

نداء ليس فيه ادعاء لإنسان

وليس فيه طلب لأجر

فزلزل أركانهم ...

المبحث الخامس: الإحسان والهداية

﴿ الذي أحسن كل شيء خلقه ﴾ [السجدة: ٧]

﴿ والله يقول الحق وهو يهدي السبيل ﴾ [الأحزاب: ٤]

﴿ واضرب لهم مثلاً ﴾ [الكهف: ٣٢].

﴿ ولله المثل الأعلى ﴾ [النحل: ٦٠].

﴿ وله المثل الأعلى في السماوات والأرض ﴾ [الروم: ٢٧].

يحكي ربنا الحكيم للناس قصة قوم سبأ؛

فقد كان في جنوب، شبه الجزيرة العربية على أيام الجاهلية الأولى - مكان دولة اليمن حاليًا - دولة تسمى، "سبأ" نسبة إلى جدهم الأعلى سبأ بن يشجب بن قحطان الذي يصل بنسبه إلى سام بن نوح عليه السلام.

وكان في هذه الدولة جبلين تسيل بينهما السيول ثم تهبط عنهم؛ فاقاموا سداً يحتجز خلفه ماء السيول حتى ينتفعوا بمائها على مدار العام، فلا ينضب لهم مشرب، ولا يجف لهم زرع.

ويسمى هذا السد في كتب التاريخ بسد مأرب نسبة إلى البلد التي أقيم بالقرب منها.

قال العلي الكبير الرحمن الرحيم

﴿ لقد كان لسبأ في مسكنهم ءاية، جنتان عن يمين وشمال، كلوا من رزق ربكم واشكروا له، بلدةٌ طيبة وربٌ غفور. فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل. ذلك جزيناهم بما كفروا، وهل نجازي إلا الكفور ﴾ [سبأ: ١٥ - ١٧] والمعنى أن كانت آية عظيمة من عند الله لقوم سبأ. قال قتادة : كانت بساتينهم ذات أشجار وثمار تسر الناس بظلالها، وكانت

المرأة تمشي تحت الأشجار وعلى رأسها مكتل أو زنبيل، فيتساقط من الأشجار ما يملؤه من غير كلفة ولا قطاف لكثرة الثمر ونضجه.

وقال البيضاوي: ولم يرد بستانين اثنين فحسب، بل أراد جماعتين من البساتين، جماعة عن يمين بلدهم وجماعة عن شماله، سميت كل جماعة منها جنة لكونها في تقاربها وتضامها كأنها جنة واحدة(١).

أما العرم فهو الحاجز بين الشيئين. قال النحاس: وما يجتمع من مطر بين جبلين وفي وجهه مُسنّاة - أي حاجز فهو العرم(٢).

وإذًا فسيل العرم هو السيل المخزون خلف السدّ. كما نقول مياه السد العالي حاليًا. مع الفارق في أن المياه التي تخزن خلف سد مأرب، إنما كانت تكفي قوم سبأ لعام واحد. فيشربوا منها هُم والأرض وأنعامهم.

﴿فأعرضوا﴾

أي أعرضوا عن شكر ربهم أو الاعتراف بأنه المنعم عليهم، وبذلك كفروا. وهو ما قد يعادل هجر القرآن والعزوف عن تنفيذ منهجه والحكم بغير ما أنزل الله سبحانه.

فما كان جزاء كفرهم إلا هدم السد وضياع الجنتين المثمرتين وشتات الناس من البلدة الطيبة.

وهذه الحوادث سجلها التاريخ عن طريق ما قيل فيها من أشعار وروي من أخبار سجلها تاريخ الأدب العربي، وأثبت شتات قوم سبأ من اليمن إلى نواحي متفرقة من شبه الجزيرة العربية في الشمال منها ووسطها(٣).

ذلك بأنه بعد زوال السد وزوال الجنتين المثمرتين، لم يكن ثمة فرص صالحة للحياة، فقد أبدلهم ربنا بجنتيهم جنتين ولكن ثمارها مرة فلا تصلح للأكل وأشجار أخرى ليس فيها من ثمر إلا شيء قليل من شجر السدر أي النبق.

---

(١) صفوة التفاسير حـ/ ٥٥٠.

(٢) القرطبي حـ١٤/ ٢٨٦.

(٣) «تاريخ الأدب الجاهلي» للدكتور علي الجندي.

هذه قصة أخبرنا العلي العظيم بها

والله سبحانه وتعالى يقول الحق وهو يهدي السبيل، حتى يكون لنا عبرة فيما قصه ربنا علينا. ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب؛ ما كان حديثًا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ [يوسف: ١١١].

فما بالنا بهذه القصة المهولة التي بينت لنا كيف ولماذا أزال الله المنتقم الجبار دولة من الوجود، دولة كانت تعيش رغدة آمنة ولها قوتها ولها طعامها رغداً حيثما شاءوا.

ذلك بأن الله سبحانه يُمهل ولا يهمل، وهو سبحانه صبور أي كثير الصبر، وهو أيضًا رحمن رحيم، فيصبر على الناس ويذكرهم؛ حتى إذا أطاعوه عفا عنهم وتاب عليهم، أما إذا أصروا على عصيانه فجزاءهم هو جزاء الكافرين، فيقول لنا سبحانه ﴿ ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير ﴾ [الملك: ١٨] ويبين لنا أن الذين سبقونا كانوا أكثر منا عدداً وأشد قوة ولكن محقهم الله بكفرهم فلا يأخذنا الغرور بما نحن فيه. قال تبارك وتعالى: ﴿ أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة؛ وما كان الله ليعجزه من شيء في السماوات ولا في الأرض؛ إنه كان عليًا قديرًا ﴾ [فاطر: ٤٤].

فما هي عبرتنا في هذه القصة التاريخية؟

أخبرنا العلي العظيم بأمرين هامين:

الأمر الأول: أنه سبحانه خلق كل شيء تمامًا على الذي أحسن. فالخلق الموجود هو أحسن خلق. فإذا كان النهر يجري من هنا إلى هناك، فإن ذلك هو أحسن مسالكه وأنفعها للناس. فلا يحق لنا أن نغير مجراه، وإذا أردنا أن نبذل الماء إلى جهة أخرى، فما علينا إلا بشق ترعة أو ما شابهها حتى تصل المياه إلى الأرض التي نريد، ولكن لا نغير المجرى الأصلي.

وكذلك، فإن الله سبحانه هو الّذي أنزل الماء طهوراً من المزن وساقه إلى أرضنا.

وإذا كنا في هذه القصة، نعتبر بما فيها كعبرة عامة بدوام الشكر لله على نعمه وتفضله علينا،

فإن في خصوص هذه العبرة يجب ان نذكر النهر العظيم الذي ساقه الله إلينا من منتصف الأرض وأصعده إلينا في الشمال منها حتى يجعل لنا أرضاً طيبة تثمر من كل شيء ويُحيل القفار إلى أشجار رغدة طيبة الثمار..

فيقول ربنا عن نهر النيل:

﴿ أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعًا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم، أفلا يبصرون ﴾ [السجدة: ٢٧].

يقول الإمام ابن كثير: [يبين تعالى لطفه بخلقه وإحسانه إليهم في إرساله الماء إما من السماء أو من السيح وهو ما تحمله الأنهار وينحدر من الجبال إلى الأراضي المحتاجة إليه في أوقاته ولهذا قال تعالى ﴿ إلى الأرض الجرز ﴾ وهي التي لا نبات فيها أي يبسًا لا تنبت شيئًا. وليس المراد من قوله ﴿ إلى الأرض الجرز ﴾ أرض مصر فقط بل هي بعض المقصود وإن مثل بها كثير من المفسرين فليست هي المقصودة وحدها ولكنها مرادة قطعًا من هذه الآية فإنها - أي مصر - أرض رخوة غليظة تحتاج من الماء ما لو نزل عليها مطراً لتهدمت أبنيتها، فيسوق الله تعالى إليها النيل بما يتحمله من الزيادة الحاصلة من أمطار بلاد الحبشة وفيه طين أحمر فيغشى أرض مصر وهي أرض سبخة مرملة محتاجة إلى ذلك الماء، وذلك الطين أيضًا لينبت الزرع فيه فيستغلون كل سنة على ماء جديد ممطور في غير بلادهم وطين جديد من غير أرضهم فسبحان الحكيم الكريم المنان المحمود أبداً](١).

وإضافة إلى هذا القول الحسن، فإننا يجب أن نلتفت إلى كلمة «نسوق»؛ ففيها سر كبير.

---

(١) تفسير ابن كثير حـ٣/٤٦٣ و٤٦٤.

ذلك بأنك إن وضعت سيارة على أول الطريق من قمة الجبل، فإنها تنزل إلى أسفل دون حاجة إلى قوة، ومن ثم دون حاجة إلى أن تسوقها، فهي تنزل متدحرجة على عجلاتها حتى أسفل الجبل.

ولكن، أنظر الأمر حين عكسه، فلكي تصعد هذه السيارة إلى قمة الجبل، فلا بد لها من طاقة قوية ولا بد لها من سائق يسوقها بقوته وحنكة حتى يصعد بها.

وكذلك الماء الذي يأتينا من الحبشة، فضع أمامك نموذج مجسم للكرة الأرضية، وتبين مكان الحبشة حيث تنزل الأمطار التي تسبب فيضان النيل، فإنك ستجد الحبشة قرب خط الاستواء أي قرب منتصف الكرة الأرضية، ثم اتجه شمالاً أي إلى أعلى فإنك ستجد مصر ما بين خط عرض ٢٢ْ شمالاً وخط عرض ٣٣ْ شمالاً. أي أن مصر مرتفعة بالنسبة للحبشة أي في العالي بالنسبة لها، لهذا، فإن نهر النيل «يصعد» من هضبة الحبشة إلى أرض مصر. ولكي يصعد فلا بد من قوة عظيمة تدفعه إلى أعلى، هذه القوة العظيمة أخبرنا الخالق العظيم عنها بقوله تعالى ﴿أنَّا نسوق الماء إلى الأرض الجرز﴾ و«أنا» أي الله سبحانه صاحب القوة كلها والذي بيده مقاليد كل شيء[1].

فالله جل جلاله يدفع الماء من الحبشة بقوته إلى أعلى أي إلى مصر.

وثمة معنى ثان في كلمة «نسوق» وهي أن السائق يتجه بما يسوقه الاتجاه الصحيح ويسير به في الطريق الصحيح. ومن ثم فإن مجرى النيل هو الطريق الصحيح الذي قدره رب العالمين. وبالتالي فإن أي تغيير بالتحويل أو التعديل في مجرى النيل، يكون تغيير للقدرة الإلهية. !!

فإذا كان ذلك

فما بالنا بسد الطريق على الماء؟

إن ذلك ولا شك منعًا للمنهج الإلهي وللحق الإلهي، إنه على المستوى الفردي

---

(١) وهذا مجاز حقيقي.

كالإجهاض تماماً أو قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق. فإذا ما كان على المستوى القومي، فإنه قتل لمصر كلها.

هذا من حيث سد النهر عن أن يسوق الله فيه الماء.

والأمر الثاني: فماذا عن الماء نفسه؟

يقول الخالق العظيم:

﴿ وأرسلنا الرياح لواقح فانزلنا من السماء ماءً فاسقيناكموه وما انتم له بخازنين ﴾ [الحجر: ٢٢].

يقول الإمام سفيان الثوري: ﴿ وما انتم له بخازنين ﴾ اي بمانعين(١).

وجاء في صفوة التفاسير: أي لستم بقادرين على خزنه بل نحن بقدرتنا نحفظه لكم في العيون والآبار والأنهار، ولو شئنا لجعلناه غائراً في الأرض فهلكتم عطشاً كقوله تعالى ﴿ قل أرايتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين ﴾(٢).

فالواقع المادي أن الماء إذا خُزّن أسن، أي صار آسناً أي عطناً أي متغير الرائحة.

وتغير رائحة الماء تعني أن تركيبه الكيميائي قد تغير ومن ثم تغيرت رائحة الماء. وإذا تغير التركيب الكيميائي للماء، فإن ذلك يعني فقدانه لبعض خواصه وعناصره. ومن ثم لا يصبح صالحًا كما كان وقت نزوله. ليس صالحًا للشرب كما كان من قبل، وليس صالحًا للزراعة كما كان من قبل، ومن هنا فإن الثمار لا بد وأن تتناقص ويصغر حجمها، وإن الطعم لا بد أن يتغير ولا يكون لذيذاً كما كان ولا صحيًا..

ولا شك أن الماء الخالي من الطمي، بعد إنشاء السد العالي، له من المضار الكثيرة الخطيرة.

فاحتجاز الطمي خلف السد جعل دلتا النيل على شاطئ البحر المتوسط عرضة

(١) تفسير ابن كثير حـ٢/٥٤٩.

(٢) صفوة التفاسير حـ٢/١٠٨.

للتآكل بعوامل النحت البحرية والتعرية بواسطة أمواج البحر؛ حتى قال أكبر عالم جغرافي في الشرق وهو الدكتور جمال حمدان، إن دلتا النيل أصبحت آيلة إلى الزوال يومًا ما. ويختلف العلماء على الفترة الزمنية التي تختفي فيها الدلتا ولكنهم لم يختلفوا على مصير الدلتا الحتمي(١).

[إن السد العالي جراحة جغرافية من أدق وأخطر ما أجرى الإنسان على وجه الأرض. /صفحة ٩٤٩.

غير أن البعض يرون أن السد العالي ينطوي على أخطار جسيمة معلقة وعلى مشاكل تراكمية كامنة تجعله ثورة ضد النيل أكثر منه ثورة على النيل. /صفحة ٩٥٠.

إن وصول منسوب ارتفاع الماء والمخزون أمام السد إلى ١٧٥ مترًا استدعى في بعض الأحيان إطلاق تصريف النهر أكبر مما تحتاج إليه الزراعة وهو حوالي ٣/١ مليون متر مكعب يوميًا فقد وصل التصريف أحيانًا إلى ضعف، هذا المعدل بل في بعض الأحوال إلى ثلاث أمثاله أي قارب المليون. وهذا خطر شديد يهدد بتفاقم مشكلة النحر في مجرى النهر بكل ما تعني من تصديع لأجنابه ومنشآته. وسوف يتضاعف هذا الخطر أضعافًا في حالة الفيضانات العالية جداً، إذ لن يستوعبها السد وسيتحتم إطلاقها في النهر نفسه، أما إذا تعاقبت سلسلة من تلك الفيضانات العالية، فقد يتحول الأمر إلى كارثة تهدد جسم السد نفسه بالغرق أو مجرى النيل بالاجتياح أو بكليهما معًا. /صفحة ٩٧٥.

ملحوظة: تفادت الحكومة ذلك بإبقاء المنسوب عند ١٧٥ مترًا بعد إنشاء قناة توشكى التي تصب في منخفض توشكى، فاصبح بحيرة أخرى مثل بحيرة السد.

وعن مياه بحيرة السد قال:

وأهم من ذلك إن هناك بعض التغيرات الملاحظة في تركيب مياه بحيرة السد المائي والكيميائي وفي موادها العضوية وتكاثر الأحياء الدقيقة والحشائش المائية والبكتريا، أي

(١) كتاب شخصية مصر - الجزء الثاني عبقرية المكان للدكتور جمال الدين حمدان.

الجوانب الميكروبيولوجية وكبيئة هيدروبيولوجية عموماً. وتلك نتيجة حتمية لتخزين المياه عموماً، وفي المناطق الحارة خصوصاً .. والطريف بعد هذا أن تلك التغيرات التدهورية التي حدثت في نوعية مياه البحيرة تزداد طردياً مع العمق .. وثمة حقيقة هامة أن السحب من مياه البحيرة إنما يتم من طبقاتها السفلى قرب القاع حيث الأنفاق وقناة التحويل على مستواها.

غير أن أخطر ما في أمر مياه البحيرة وتغيرها النوعي ظهور أنواع غريبة من الطحالب من طبيعته خفض نفاذية المياه، اي خفض قابليتها للنفاذ والحركة في التربة لا سيما الطينية بالطبع، مما ينعكس مباشرة على الصرف فيعقد مشكلته ويضاعفها. /صفحة ٩٨٣.

وبحيرة ناصر (السد العالي) - بالتعريف والتصميم - خزانة طمي مثلما هي خزانة ماء. وهذه هي أخطر وأبرز نقاط ضعف السد العالي. فهو يحتجز كل حمولة النهر من الرواسب والطمي التي تقدر بنحو ١١٠ مليون طن سنوياً (١٣٤ مليون طن التقدير الجاري). فلا يصل القاهرة سوى ٤ ملايين طن اي ٣٪. وهذا الطمي يكون دلتا عكسية لأنها من صنع الإنسان تؤكد الطبيعة الشاذة للوضع كله. /صفحة ٩٨٤.

وهذا الطمي أمام السد هو مسحوب من ومحسوب على الدلتا الحقيقية للنهر على البحر المتوسط التي تكونت من الطمي عبر آلاف السنين. ومن ثم فإن منع الطمي سيجعل عوامل التعرية البحرية منفردة بالدلتا. وتبدأ في التراجع والانكماش غير ان البعض يصل بتراجع الدلتا إلى عروض المنصورة، بينما يذهب بعض الجيولوجيين (علي فتحي - مصر السد العالي ص٢٨) إلى حد القول بان القاهرة ستصبح يوماً أجمل ميناء على ساحل البحر المتوسط - نعي الدلتا يعني! /صفحة ٩٨٥ بتصرف.

أما تغير نوعية المياه في اتجاه ضعف النفاذية فالخشية أن يغير بدوره من طبيعة الأرض نفسها. /صفحة ١٠٠٥.

هذا فضلاً عن أن ثبات مستوى الماء في النهر على منسوب عالٍ رفع مستوى الماء الباطني في التربة حتى وصل إلى حد التشبع والنشع. /صفحة ١٠٠٤.

وقد انعكس هذا كله بالفعل في زيادة نسبة الملوحة في التربة وتدهورها المتزايد مما ارتد على إنتاجية الفدان في كثير من المحاصيل كالذرة والأرز والقصب، حتى أراضي الحياض المحولة للري الدائم انحدرت إنتاجيتها في محاصليها التقليدية الشهيرة كالعدس والفول والبصل بصورة مثيرة ./صفحة ١٠٠٥.

لهذا ليس غريباً أن الجيولوجي علي فتحي/٢٩/٢٣/٢٢ قد رفع نداء أن المعركة ضد السد باتت معركة مصير. واقترح إقامة خزان ذي فتحات وعيون على غرار خزان أسوان نفسه ولكن في موقع السد العالي ذاته بأبعاد أضعاف أبعاد الأول وبأرباح اضعاف أرباح الثاني (السد العالي) وبذلك يأخذ من كليهما محاسنه ومزاياه دون أضداده ومثالبه. /صفحة ١٠١٣][1].

ورأى علماء الجيولوجيا والجغرافيا هذا أسس على أصول هذه العلوم، وهي من علوم الخلق، أي أنها أصول مادية منظورة ومُجربة.

وقد قيلت هذه الآراء من قبل أن ينتاب منطقة السد العالي هذه الاضطرابات الأرضية المستمرة، هذه الزلازل التي أشاعت الخوف في الناس ومكنت للحزن من هذا السد العالي. حتى وكأن الذين قالوا ضده قد أيقنوا بما قالوه.

وسنة الله في الناس أن يخوفهم من فسقهم أي من خروجهم عن منهجه وهديه ﴿ وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً ﴾ فسلط عليهم سننه، فاهتزت القشرة الأرضية تحت ثقل مياه السد . فهل نفيق ؟!

هل نتأكد أن علم الخلق عند الخالق؟

هل نتأكد من أن سر الخلق بيد الذي بيده ملكوت كل شيء؟

وهل نرجع إلى الكتاب العظيم الذي أنزل الله الكريم فيه كل حقائق ما خلق لنا وسخر؟! هل نرجع حتى لا نكون أظلم الخلق !!

﴿ ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها، إنا من المجرمين منتقمون ﴾ [السجدة: ٢٢].

---

(١) كتاب شخصية مصر – دراسة عبقرية المكان – المجلد الثاني للدكتور جمال الدين حمدان.

علينا أن نتذكر هدي الرحمن من بعد إحسانه في كل ما خلق، فهو قد خلق النيل أحسن خلق وجلب بمياهه إلينا خيراً للأرض فأقام وادياً عظيماً بما جلبه من فتات جبال الحبشة، وجعل مصر بلداً عظيماً قال عنها العلي الكبير على لسان فرعون.

﴿ أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي ﴾ [الزخرف: ٥١] فكان فرعون منتفخ الأوداج بعظمة مصر بأنهارها وبالخير الذي تجلبه لأهلها حتى وصفها العلي الكبير أعظم وأجمل وصف فقال سبحانه وتعالى:

﴿ فأخرجناهم من جنات وعيون. وكنوز ومقام كريم ﴾ [الشعراء: ٥٧ - ٥٨] أي أن الله سبحانه أخرج قدماء المصريين الكفرة من هذه الجنات والعيون والكنوز والمقام الكريم أي مصر عندما جمعوا أنفسهم وتابعوا موسى وقومه يريدون إدراكهم أي اللحاق بهم بعد أن خرجوا أولئك هاربين من مصر ومما كانوا مستذلين فيه.

تلك كانت مصر بغير خزانات مياه طبقًا للسنة الكونية التي أودعها الله في قوله تعالى: ﴿ وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماءً فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين ﴾ [الحجر: ٢٢]. وكلمة «عيون» في آية الشعراء ٥٧ تقول استنبطوا المياه بالروافع فتكون هي وسيلة الري .. وليس بمد الترع في الدلتا بالذات حتى لا يكون ثمة نشع أو تشبع للتربة بالمياه.

وهي الآن كما علمتم، مياه نيلها وقد أهدر ما فيه من خير، وما ساده من فساد. وأرض قد نشعت، وحرمت ما ساقه الله إليها من طمي كان يجدد شبابها سنويًا بغير لأي من أحد. فكانت تؤتي أكلها لا تظلم منه شيئًا. وكان هدير فيضان النيل يقول لنا إزرعوا الصحراء وانتشروا في أرض الله ومناكبها وكلوا من رزقه.

فهل نحن راجعون .. راجعون إلى منهج الله الذي لا إله إلا هو ﴿ الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾ [طه] أي جعله صالحًا على أحسن حال لما خلقه له وما خلقه عليه ﴿ الذي أحسن كل شيء خلقه ﴾ [السجدة: ٧].

لذلك، يجب أن نفتح هذا السد الأصم عيونًا تنفذ منها مياه الفيضان ليعود فيلتقي

الماء بطميه ويرتمي في أحضان ربوع مصر، الذي ساقه الله العظيم إليها، ثم نغلق الفتحات في وقت معلوم ليحجز ما نريد من ماء على مدار العام وهكذا عند كل فيضان حتى لا تأسن المياه وتظل صالحة.

وإذا كانت الهداية القرآنية هذه تعبيراً واضحاً للحقائق العلمية في خلق تربة مصر كلها وخلق دلتا النيل والوجه البحري كله من بعد الوجه القبلي. فإنها من بعد ذلك، هداية ربانية في قرآنه العظيم للحقائق العلمية في استخدام المياه وتوفيرها للري، وأن أهم حقيقة علمية في أصول الري هي استدرار المياه من مجراها إلى الأرض الجرز (البور والصحراوية) لإحيائها وزرعها، بواسطة الترع - كما فعل المصريون في عهد محمد علي -؛ فإن هذا لا بد وأن يجعلنا نبذل الجهد المضاعف لحفر الكثير من الترع الكبيرة وهي التي تسمى بالرياحات، ومدها إلى جهات جديدة من أرض مصر الشاسعة الصحراوية تحقيقاً لعلم الله سبحانه في قوله عن الخلق:

﴿ وترى الأرض هامدة - أي ميتة - فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج. ذلك بأن الله هو الحق - أي علم الله هو الحق والصحيح - وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير﴾ [الحج: ٥ - ٦].

وإذا كان مد الماء إلى الأرض الجرز هو من الحقيقة العلمية كالرأس من الجسد لإحياء الأرض الموات.

فإن وسيلة مد المياه ليست لزاماً أن تكون بواسطة الرياحات، فإن مد المواسير الضخمة بدلاً من الترع للحفاظ على الماء من التسرب، هو وسيلة يجب أن تكون ملحوظة كلما أمكن ذلك.

كما أن استخراج المياه من باطن الأرض بواسطة الرافعات اليدوية والميكانيكية وسيلة أخرى فعالة أحيت صحراء النقب بفلسطين وجعلته جنات وعيون. ولا شك أن استدرار الماء بالرافعات الميكانيكية من باطن أرض الوجه البحري أحق أن تكون هي وسيلة ومصدر مياه زراعية حتى ينخفض منسوب المياه في باطن الأرض بلا حاجة إلى مصارف مكشوفة أو مغطاة وتوفير آلاف الملايين من الجنيهات في إنشائها ؟!!

وسيناء أي الأرض المباركة الحسنة، بما تحتها من مياه جوفية بحاراً تنادي باستعمال الرافعات الميكانيكية لري أرضها وزراعتها..

ولا شك أن استصلاح الأرض لن يكون بالماء وحدها، ذلك بأن الإنسان هو الفاعل لكل مجريات استزراع الأرض واستنبات الحبوب والثمار.

لذلك فإن هذه الحقيقة العلمية المهمة أرشدنا إليها العليم الخبير بحقائق العلم في كتابه العظيم.

فأرشدنا في أبينا آدم عليه السلام برأس هذه الحقيقة العلمية:

فقال تبارك وتعالى:

﴿ وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ﴾ [البقرة]

فبين سبحانه وتعالى للناس، أين يسكنون؟ هل يسكنون بيتًا مجردًا أو شقة في بيت أو عمارة؛

ولأن "المكان" هو الحقيقة العلمية الأهم في السكن، بمثابة انه مكان الإقامة، المعيشة، الأسرة الزوج والولد، الحياة بأقطارها.

فإن الله سبحانه لم يذكر المكان من داخله حتى يبين نوعية المكان الحق، فقال سبحانه «الجنة» أي الشجر الكثيف الذي يحجب من بخارجه عن أن يرى من بداخله، يجنه أي يخفيه، كما يخفي ظلام الليل الأشياء فيقال جن الليل.

ولأن الناس بشر

فلن يعيشوا على فروع شجر الجنة

وإنما في بيت. وبين لنا العلي العظيم البيت في بساطة: ﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركًا﴾ أربع حوائط وسقف.

وهذا البيت من حوله الجنة. فلا يراه أحد، ولن يرى أحد بالخارج من في البيت أو من حوله داخل الجنة؟!

هذا هو السكن

بيت يحوطه شجر مثمر، و ﴿حيث شئتما﴾ أي أنه مثمر على مدار العام. فلا يجوع أهل البيت في وقت من أوقات العام فلا يذلون لأحد من الناس، ويبين العلي العظيم ذلك لآدم علماً حقاً.

﴿إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى، وأنك لا تظمؤا فيها ولا تضحى﴾ [طه: ١١٩]. فثمر الأكل حيث شئت في الجنة وفي أي وقت، فلن تجوع ولا تتعب.

والإنسان بداخل جنته مستور، فلن يعرى، لن يراه أحد ولا يجرح حرماته أحد ولا يحتاج لأحد. ولن يشعر بظمأ، فهو في ظل ظليل وماء الجنة يرويه، ولن يتعب من شمس أو حر، فالشجر يُبرِّد الجو، يمنع شعاع الشمس الساخن، ويرخي من ظله أعظم ملطف للجو.

تكييف هواء إلهي.

هل عند البشر سكن أعظم من هذا!؟

كلا، إن هذا هو الحلم الذي يحلم به كل إنسان، فهل يمكن تحقيقه لكل إنسان؟!

نعم يمكن تحقيقه. بل لا بد من تحقيقه، لأنه هدى الله لنا بعلمه في خلقه .. خلق الناس وخلق الأرض.

وهل تحقيقه يستدعي مالاً وجهداً. لا نظن إلا التنظيم والهداية.

المبحث السادس: الله الأحد الصمد

قال رسول الله ﷺ:

(أصدق بيت قالته العرب قول لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل).

فالله سبحانه وتعالى هو الخالق لكل شيء، ومن ثم فبيده مقاليد كل شيء ومن ثم، فكل شيء عارض. حدد الله له أجلاً أوجده فيه وأجلاً يُهلكه فيه.

﴿لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه﴾ [القصص: ٨٨].

وقال تعالى: ﴿كل من عليها فانٍ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾ [الرحمن].

ولأن الله العظيم هو خالق كل شيء

فإنه سبحانه وتعالى ﴿ليس كمثله شيء﴾ إذ لا يكون المخلوق كالخالق .. ولو بمجرد الشبه أي لا يوجد بينه وبين أي شيء ولا وجه شبه.

ومن هنا كان تفرد العلي العظيم

فهو «الله»

فهو كما يُقال الاسم الأعظم الذي يوصف بجميع الصفات

يقول سبحانه وتعالى دليلاً على ذلك:

﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾

وإذاً فكل الأسماء الحسنى هي لله، فهي صفات لله سبحانه.

و «الله» اسم لم يُسم به غيره تبارك وتعالى. ولا يعرف في كلام العرب له اشتقاق من فعل يفعل كما بينا آنفاً.

ونقل سيبويه عن الخليل أن أصله إلاه مثل فعال فادخلت الألف واللام بدلاً من الهمزة. قال سيبويه مثل الناس أصله إناس، وقيل أصل الكلمة لاه فدخلت الألف واللام للتعظيم. وهذا اختيار سيبويه(١).

---

(١) تفسير ابن كثير حـ١/١٩.

قال عكرمة: لما قالت اليهود نحن نعبد عزيراً بن الله وقالت النصارى نحن نعبد المسيح بن الله، وقالت المجوس نحن نعبد الشمس والقمر. وقال المشركون نحن نعبد الأوثان؛ أنزل الله تعالى على رسوله ﷺ ﴿قل هو الله أحد﴾ يعني الواحد الأحد الذي لا نظير له ولا وزير ولا نديد ولا شبيه ولا عديل. ولا يطلق هذا اللفظ على أحد في الإثبات إلا على الله عز وجل لأنه وحده الكامل في جميع صفاته وأفعاله(١).

وجاء في التسهيل:

واعلم أن وصف الله تعالى بالواحد له ثلاثة معان كلها صحيحة في حقه تعالى:

الأول: أنه واحد لا ثاني معه فهو نفي للعدد.

الثاني: أنه واحد لا نظير ولا شريك له.

والثالث: أنه واحد لا ينقسم ولا يتبعض(٢).

وجاء في صفوة التفاسير:

أقام الله في القرآن براهين قاطعة على وحدانيته تعالى، أوضحها أربعة :

قوله تعالى: ﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق﴾ وهذا برهان الخلق والإيجاد لجميع المخلوقات السماوات والأرض وما فيهن، ومن ثم فلا شريك له.

قوله تعالى: ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾ وهو دليل الإحكام والإبداع!

قوله تعالى: ﴿لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً﴾ وهو دليل القهر والغلبة !

قوله تعالى: ﴿ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من آلهة، إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض﴾ وهو دليل التنازع والاستعلاء(٣).

---

(١) تفسير ابن كثير حـ٤ / ٥٧٠.

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل ٤ / ٢٢٣.

(٣) صفوة التفاسير حـ٣ / ٦٢١ رأي للأستاذ محمد علي الصابوني.

وقد كتبنا رأينا في مبحث الإثبات عن تفسير هذه الآيات الكريمة.

وقال الشيخ الرئيس ابن سينا: حينما أراد الله أن يشرح هويته أتى بتعريف جامع لما يلزم ذاته من حيث هي ولما يلزمها باعتبار إضافتها إلى غيره حتى يكون تعريفًا واضحًا. ولم يأت بحد. إذ أنه لا حد له. فقال «الله». فإن الإله المطلق هو الذي تنسب إليه جميع الكائنات.

ثم بعد ذلك صرح بما تستلزمه هويته المطلقة. وتكون دليلاً عليه من نفي التركيب عنه. فقال: «أحد» بإطلاق. أي مبالغ في الوحدانية. ولا تتحقق المبالغة إلا بالبساطة التامة(١).

وقال حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالي: الله، هذا الاسم أعظم الأسماء التسعة والتسعين لأنه دال على الذات الجامعة لصفات الإلهية كلها وسائر الأسماء لا تدل آحادها إلا على آحاد المعاني من علم أو قدرة أو فعل أوغيره، وهو أخص الأسماء إذ لا يطلقه أحد على غيره، فلهذين الوجهين يشبه أن يكون هذا الاسم أعظم هذه الأسماء.

و«الأحد» هو الذي لا يتجزأ ولا يتثنى

فهو سبحانه الذي لا يتجزأ أي كالجوهر الواحد لا ينقسم فيقال إنه واحد بمعنى أنه لا جزء له، فالله تعالى واحد أي يستحيل تقدير الانقسام في ذاته.

وهو سبحانه لا يتثنى لأنه لا نظير له بمعنى أنه المتفرد بخصوص وجوده تفرداً لا يتصور أن يشاركه غيره فيه أصلاً، فهو الواحد المطلق أزلاً وأبداً(٢).

و«الصمد»

روى عكرمة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال: «الله الصمد» يعني الذي يصمد إليه الخلائق في حوائجهم ومسائلهم.

---

(١) ابن سينا بين الدين والفلسفة /١٠٧.

(٢) المقصد الأسنى شرح أسماء الله الحسنى/ ٣٣ و٨٤.

روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أنه قال:

هو السيد الذي قد كمل في سؤدده والشريف الذي قد كمل في شرفه والعظيم الذي قد كمل في عظمته والحليم الذي قد كمل في حلمه والعليم الذي قد كمل في علمه والحكيم الذي قد كمل في حكمته.

وقال الحسن وقتادة: "الصمد" هو الباقي بعد خلقه.

وقال الحسن أيضاً (يعني الحسن البصري): «الصمد» الحي القيوم الذي لا زوال له.

وقال عكرمة: "الصمد" الذي لم يخرج منه شيء ولا يطعم.

وحبَّذ الإمام ابن كثير قول الربيع ابن أنس: "الصمد" هو الذي لم يلد ولم يولد، فقال ابن كثير: كأنه جعل ما بعده تفسيراً له وهو قوله ﴿لم يلد ولم يولد﴾ وهو تفسير جيد.

وقال ابن مسعود وابن عباس وسعيد بن المسيب ومجاهد وعبد الله بن بريدة وعكرمة أيضاً وسعيد بن جبير وعطاء بن أبي رباح وعطية الحوفي والضحاك والسدي: "الصمد" الذي لا جوف له.

روى سفيان الثوري بسنده عن مجاهد «الصمد» المصمت الذي لا جوف له وقال الشعبي هو الذي لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب.

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني في كتابه السنة: كل هذه صحيحة وهي صفات ربنا عز وجل الذي يصمد إليه في الحوائج وهو الذي قد انتهى سؤدده. وكذلك قال البيهقي[1].

وقال الشيخ الرئيس ابن سينا: «الصمد» والصمد في اللغة الذي لا جوف له ولا باطن؛ فهو إذاً مجرد عن الماهية. إذ كل من له ماهية له باطن هو ماهيته. وكونه لا جوف له ولا باطن يستلزم أبديته كما استلزمت هويته أزليته.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٤ / ٥٧٠.

وكذلك الصمد في اللغة السيد. ومعناه هنا انه سيد الكل أي مبدأ لصدور الكل عنه. فهو علة النظام والخير في الوجود.

والمعنى الأول للصمد سلبي والثاني إضافي ومجموعهما يحقق معنى الإلهية.

ولما كان الصمد معنى يستلزم ان يكون الكل عنه فقد نفى القرآن أن يتولد عنه مثله لقيام السؤال والظن بذلك في هذا الوقت. فقال ﴿لم يلد﴾ أي لم يتولد عنه مثله. ثم أقام الدليل على ذلك بقوله ﴿ولم يولد﴾ أي لم يتولد عن غيره فيكون الدليل هكذا: أنه لو تولد عنه مثله لشاركه في شيء وتميز عنه بآخر، ولا يكون التميز إلا بالمادة وعلائقها، وكل ما كان ماديًا أو له علاقة بالمادة فهو متولد عن غيره. وهو - أي الله - غير متولد عن غيره، والدليل على أنه غير متولد عن غيره ما ذكر في أول السورة من أنه «هو» أي هوية مطلقة، والمتولد عن غيره يتوقف عليه فلا يكون هوية مطلقة.

ولأن الله لم يلد ولم يولد فليس له مساو في الوجود. لذلك قال تعالى: ﴿ولم يكن له كفوًا أحد﴾(١).

وحتى تكتمل هذه المعاني بيانًا ...

فإن في معرفة سبب نزول سورة الإخلاص كبيان عظيم يُرسّخ في الوجدان عظمة الله وأحديته سبحانه وتعالى عما يشركون.

فإن الذي يروي أن أصل عبادة الأصنام والأوثان(٢) جاءت من أن العرب في جاهليتهم البعيدة، كانوا قد أقاموا بعض هذه الأصنام والأوثان لأجدادهم النابهين العظماء فيهم، تخليداً لهم، ثم وبمرور طوال السنين تطور الأمر إلى تقديس الناس لها بهذه الصفة، وتمر عشرات ومئات السنين فتنسى أصل وأسباب إقامة هذه الأصنام

---

(١) «ابن سينا بين الدين والفلسفة» /١٠٧ و ١٠٨ بتصرف.

(٢) الأصنام هي ما كانت تمثالاً من معدن أو خشب على هيئة إنسان. والأوثان ما كانت تمثالاً من حجر على هيئة إنسان. /كتاب «حياة محمد» /٩٩.

والأوثان ومن ثم تقدس لذاتها، ومن ثم صارت في أعينهم ووجدانهم مقدسة ثم آلهة. فعبدوها آلهة تقربهم إلى الإله الأكبر (الله) زلفى.

أشركوها مع الله في الألوهية.

ولأن هذه الأصنام والأوثان هكذا أصلاً تماثيل لناس من الناس، ومن ثم، لهم نسب في الناس كسائر أفراد الناس، أي لهم آباء وأجداد.

فإن كفار قريش لما بعثوا بثلاثة منهم سفارة ليهود المدينة، باعتبارهم أهل كتاب ويعرفون ما يدعيه محمد من نبوة ودعوة إلى الله الواحد الأحد؛ لينصحوا لهم في أمر محمد عندهم؛

فإن يهود بما فيهم من خبث ولؤم ونجس، لم يقولوا لهم الحق الذي عندهم في التوراة، ولم يقولوا نصيحة صدق، وإنما أخذوا كفار قريش بما يرضى لهم هوى في أنفسهم، وبما يشعل الوقيعة والعداوة بين الرسول ﷺ وكفار قريش. فقالت يهود لسفارة قريش: أسألوا محمداً فقولوا له: إنسب لنا ربك. أي أذكر لنا نسب ربك ابن من هو، من هو والده ومن جده ؟!.

ذلك بأن هذا هو ما تؤمن به قريش في آلهتها (الأصنام والأوثان).

فعادت سفارة قريش، وذهب ثلاثتهم إلى رسول الله ﷺ؛ وقالوا له: يا محمد؛ إنسب لنا ربك. فأنزل الله تعالى: ﴿قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفواً أحد﴾(١).

وأرى أن الله سبحانه وتعالى، قد أثبت لنفسه سبحانه الأحدية المطلقة؛ وأنه لذلك هو الصمد أي الرئيس السيد الذي بيده ملكوت ومقاليد كل شيء، ومن ثم يحتاج إليه كل شيء. وأنه «لم يلد» وسبّقها سبحانه على «ولم يولد» لأن آدم عليه السلام لم يولد ولكنه وَلَد. وأيضاً نفياً للبهتان الذي ادعاه اليهود والنصارى من أن لله ولداً. ثم قال «ولم يولد» نفياً للنسب الذي خدع به اليهود كفار قريش فطلبوه، فليس

(١) تفسير ابن كثير جـ٤ / ٥٦٥ و ٥٦٦.

له سبحانه والد ومن ثم ليس له جد، أي ليس له نسب. كما للناس نسب ولما يشركون بالله من الأصنام والأوثان.

وتحقيقًا للأحدية على أكمل وأتم وجه، قال سبحانه وتعالى: ﴿ولم يكن له كفوًا أحد﴾. قال الإمام ابن كثير: أي ليس له ولد ولا والد ولا صاحبة. وقال مجاهد: لا صاحبة له كقوله تعالى: ﴿بديع السماوات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء﴾ [الأنعام: ١٠١].

وفي صحيح البخاري: قال رسول الله ﷺ: (لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله إنهم يجعلون له ولدًا وهو يرزقهم ويعافيهم)[١].

---

(١) المرجع السابق/ ٥٧٠.

الفصل السابع عشر
في الحضرة الإلهية

المبحث الأول : الأصول الثلاث

تمهيد

في السنة العاشرة من البعثة ماتت خديجة سيدة نساء العالمين زوج رسول الله ﷺ، الحانية عليه المطمئنة له، أم أولاده ..

وفي ذات العام مات أبو طالب، سيد قريش، والذائد عن رسول الله ﷺ ابن أخيه عبد الله.

وألم بالرسول الكريم وصحبه الأبرار حزن عميق .. ويذهب الرسول إلى ثقيف بالطائف يدعوهم إلى الإسلام، فالتفتوا عنه، وحرضوا سفهاءهم وصبيانهم عليه .. فيدعو الرسول: ربي إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ..

وعاد الرسول إلى مكة أسيفًا من فعلة ثقيف.

عاد إلى مكة وهي كما هي، عداء وشقاء.

وأنزل العلي الكبير على رسوله ﷺ:

﴿ وإما نرينك بعض الذي نعدهم .. ﴾ [يونس: ٤٦].

﴿ وإن ما نرينك بعض الذي نعدهم .. ﴾ [الرعد : ٤٠].

وغير ذلك من الآيات الكريمة التي توحي إلى الرسول بأن الله جل جلاله قد يُريه بعض الذي يعد الناس به، وما يعد الله الناس إلا مجازاتهم بالجنة أو بالنار. وما يقول لنا ربنا إلا أنه سبحانه يوم الحساب يأتي على عرشه المجيد تحمله الملائكة ﴿ ويحمل عرش ربك فوقهم يؤمئذ ثمانية ﴾ [الحاقة: ١٧] ثم يحاسب الخلق ويجازيهم ..

ويستقر الخاطر في قلب الرسول ﷺ، ولكنه لا يعلم من الغيب شيئًا، فالغيب كله لله سبحانه.

وتمر سنة ... يشرب الرسول فيها حزنه، وتعتلج نفسه الشريفة بالرضا الإلهي؛

وبعد صلاة العشاء الآخرة، والرسول ﷺ نائم في بيت ابنة عمه: هند (أم هانئ) بنت أبي طالب، إذ بجبريل عليه السلام يأتيه وتبدأ رحلة الإسراء والمعراج.

كانت الرحلة إذًا، إثر حزن الرسول، وإثر رد ثقيف له والتفاتهم عنه. ولم يكن الذين آمنوا إلا بضع عشرات في مكة أم القرى التي يسكنها عشرات الآلاف، وإلا ثمانون هاجروا إلى الحبشة بإيمانهم وما زالوا بها.

وتبدو الدعوة وكأنها حوصرت .. فمن إيذاء للمؤمنين، إلى مقاطعة لهم في كل شيء، إلى مخاصمة وتهديد للرسول ﷺ؛ حتى وكأن الدنيا في مكة قد ضاقت وتوقفت ...

والرسول ﷺ بشر مثل البشر .. والبشر سمع وبصر وفؤاد، يحس ويتأثر لما يرى ويسمع، وينفعل في نفسه بما حوله ..

والرسول حزين حزين حزين ...

فأسري به كي يؤنسه ويسري عنه ويعرفه مكانته الحقيقية في العالمين رأى العين وبحق اليقين. فيرى بفؤاده قدر حب الله العلي العظيم له ويرى ببصره جنة منتهاه، فيزداد علمًا وبهجة، ويزداد نورًا ويزداد تثبيتًا. ويوحي إليه ربه بالعلوم المصطفاة ويفرض على المؤمنين الصلاة، ويُبين لهم موازين الحساب.

وقد تكلم الكثيرون مؤمنون وكفرة عن الإسراء والمعراج.

أما الكفرة فقالوا إنه كاذب مجنون ..

أما بعض الذين آمنوا فقد قالوا وقالوا، بعقلانية المادة مختلط قولهم بمنطق قاصر.

وحتى نضع الأمور في نصابها.

وحتى ينجلي الحق فيظهر نوره واضحاً غامراً.

فإننا نشرح - بعون الله - الأصول الثلاث التالية:

الأصل الأول: الإسراء والمعراج آية غيبية ولس بمعجزة.

هل الإسراء والمعراج معجزة من معجزات الله جعلها سبحانه للرسول ﷺ، كما فعل لبعض الرسل عليهم السلام؟ فنفكر فيها لنعقلها.

أم أن الإسراء والمعراج آية كبرى من آيات الله الغيبية، اختص الله جل شأنه بها رسوله الكريم؟ ومن ثم لا نفكر فيها وإنما نقول:

﴿سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾ [البقرة: ٢٨٥].

ولبيان ذلك

فإن العلماء يُعَرِّفون المعجزة فيقولون: الإعجاز معناه في اللغة العربية نسبة العجز إلى الغير وإثباته له. يُقال أعجز الرجل أخاه إذا أثبت عجزه عن شيء. وأعجز القران الناس أثبت عجزهم عن أن يأتوا بمثله.

ولا يتحقق الإعجاز أي إثبات العجز للغير إلا إذا توافرت أمور ثلاث:

الأول: التحدي أي طلب المباراة والمنازلة والمعارضة. **والثاني**: أن يوجد المقتضي الذي يدفع المتحدي إلى المباراة والمنازلة **والثالث**: أن ينتفي المانع الذي يمنعه من هذه المباراة[1].

ولما كان الإسراء والمعراج ليسا عملاً من جنس ما يفعل الناس، فلا يمكن بالتالي تحديهم به، كما أنه عمل غير معروف لهم ولا معلوم، فلم يره أحد، فقد تم في غيبة منهم، كما أن وسائله غيبية وليست من وسائل البشر، فهو بطبيعته ممتنع عليهم كما أنه عمل ليس له مثيل عندهم، الأمر الذي يجعل الناس بغير مقتضى يدفعهم إلى محاولة مثله وبالتالي فإن الله سبحانه لا يتحدى الناس بأن يؤدوا مثله.

---

(١) «علم أصول الفقه» للشيخ عبد الوهاب خلاف/ ٢٢.

فهو إذًا ليس بمعجزة.

ولما كان الإسراء والمعراج قد تما غيبًا، أي ليس على أعين الناس، كما أنه عمل خارق بكل المقاييس؛ ووسيلة الإسراء دابة غيبية وهي البراق، فهو إذًا آية كبرى غيبية.

ولأن الإسراء والمعراج آية غيبية لله سبحانه.

فإنه جل شأنه لم يتحد أحد بهما.

وإنما جعلهما فتنة للناس.

ومن ثم؛ فإن القائلين بأن الإسراء والمعراج معجزة للرسول، إنما ينسبون للرسول أمرًا لم يفعل فيه شيئًا ولم يشترك في جزئية من جزئياته. ذلك بأن الله سبحانه يسند الإسراء والمعراج له سبحانه فيقول تعالى بكل الوضوح والصراحة والإحكام: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده﴾ أي الله سبحانه منزهًا هو الفاعل.

فالإسراء والمعراج فعل من أفعال الله جل جلاله. فهما آية من آيات الله.

وآيات الله، ليست من جنس ما يفعل البشر؛ ولهذا فالإسراء والمعراج ليس من جنس ما يفعل البشر.

ذلك بأن المعجزة التي تكون من جنس ما يفعل البشر ولكن تعجزهم عن أن يقوموا بمثلها؛ فهي تعقل وتفهم وتبذل فيها المحاولات فيدرك الناس أنهم غير قادرين عليها، أي أنهم عاجزون على أن يأتوا بمثلها، ومن ثم فقد رأوها بأعينهم أو سمعوها بآذانهم، وحاولوا أن يأتوا بمثلها، فأعجزهم أن يأتوا بمثلها، فهي معجزة.

وإذًا فالمعجزة تكون محل تعقل وتفكر، وقد تكون محل محاولة ...

ولكن الآية الغيبية أي التي ليست من جنس ما يفعل البشر، فهي ليست محل تعقل ولا تفكر، لأنه لو قلنا كيف أسرى الله سبحانه بعبده وعرج به إلى الأفق الأعلى متجاوزًا السماوات السبع وما بعدها من فوقها؟ لكان لزامًا أن نسأل: كيف قدرة الله؟ ولمعرفة القدرة لزم أن نعرف الذات صاحبة القدرة. وهذا مستحيل وباطل.

وقد ضرب الله لنا مثلاً في سؤال إبراهيم عليه السلام: ﴿رب أرني كيف تحيي الموتى؟﴾ فاحيا له الموتى ولكنه لم يبين له كيف ذلك.

لذلك؛ فإن التصديق بالغيب يكون بمعرفة الأثر أو بتصديق القائل.

أولاً: فالله سبحانه يخبرنا عن أثر قدرته بخلق الكون وبأنه يمسك السماء أن تقع على الأرض، وأنه رفع السماوات بغير عمد، وأنه يمسك السماوات والأرض أن تزولا، وأنه خلق البشر من طين وأنه جعل من الماء كل شيء حي.

هذه القدرة غيبية.

ولكننا نرى أثرها، فنقول – بعد العقل والفحص والتجربة والفهم والاستنباط – فنقول هذه قدرة الله الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى وبيده مقاليد كل شيء وبيده ملكوت كل شيء.

إذًا فنحن نؤمن بالله الغيب، لأننا نؤمن بأنه الخالق والقادر على ما خلق .. والخلق والقدرة صفتان من صفات الله، ولأن الغيب دَلَّ عليه أثره، فإن إعمال العقل والفكر أمر لازم لإدراكه.

ثانيًا: أما إذا كان الغيب بغير أثر فليس ثمة محل إذًا للعقل ولا الفكر في إثبات حقيقة وجود الغيب، إلا من حيث فهم كلمات الله عنه. وبالتالي، فليس ثمة مجال للدهشة أو التعجب ..

ولكنه التصديق لما يقوله ربنا سبحانه جل شانه في قرآنه العظيم ..

وهذا هو المدخل الوحيد الحقيقي والصحيح لفهم آية الإسراء والمعراج؛ أن نفهمه فقط من تفسير كلمات الله العظيم بقواعد اللغة وقواعد التفسير ونعلم تفاصيلها من أحاديث رسول الله الكريم ..

ولذلك فإن رب العزة وصف آية الإسراء والمعراج بأن كلام الله هو دليلها في قوله تعالى: ﴿إن هو إلا ذكر للعالمين. لمن شاء منكم أن يستقيم﴾ [التكوير: ٢٧ – ٢٨].

وفي السيرة النبوية الشريفة، نرى واحداً فقط قاس الإسراء والمعراج القياس الصحيح. ذلك هو أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه وأرضاه. فعندما أبلغوه الخبر قال أول ما قال: إنكم تكذبون عليه – ذلك بأنه قد أخذته الدهشة من المفاجأة وهول القول الذي لم يسبق له مثيل، فأخذه كما أخذ الناس – فقالوا:

ها هو ذاك في المسجد يحدث الناس به.

وسرعان ما اطمأن قلب أبي بكر ونوره الإيمان القوي فيه، وقال: والله لئن كان قاله، لقد صدق. فما يعجبكم (من العجب) من ذلك؟ فوالله إنه ليخبرني أن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه، فهذا أبعد مما تعجبون منه(١).

فذاك إيمان أبو بكر، هداه إلى القياس الصحيح، قاس غيبًا بغيب، ولم يعمل فيه عقل مادي فأصاب أبو بكر، فصدق ... فكان الصديق.

وإذاً فليس ثمة فكر لعقل مادي، وإنما تصديق لقول .. وهذا هو الطريق الصحيح لمعرفة الغيب الذي ليس له أثر مادي.

الأصل الثاني: كشف عن الرسول غطاءه حتى يكون صالحًا للإسراء والمعراج.

روى عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل بسنده عن أنس بن مالك أن أُبي بن كعب حدث أن رسول الله ﷺ قال (فرج سقف بيتي وأنا بمكة فنزل جبريل ففرج صدري ثم غسله من ماء زمزم ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيمانًا فأفرغهما في صدري ثم أطبقه ...).

وأخرج البخاري بسنده عن أنس بن مالك أن أبا ذر قال إن رسول الله ﷺ قال (فرج سقف بيتي وأنا بمكة فنزل جبريل ففرج صدري ثم غسله بماء زمزم ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيمانًا فأفرغه في صدري ثم أطبقه ..)(٢).

---

(١) «الإسراء والمعراج» للشيخ عبد الحليم محمود شيخ الأزهر الأسبق/ ٤٨.

(٢) تفسير ابن كثير حـ٣/ ١٠ وقد رواهما صحيح مسلم من طريق آخر عن أبي ذر من مثل هذا السياق سواء.

وأخرج الإمام أحمد بن حنبل بسند عن قتادة عن أنس بن مالك أن مالك بن صعصعة حدثه عن نبي الله ﷺ حدثهم عن ليلة أسري به قال (بينما أنا في الحطيم مضطجعاً إذ أتاني آت فجعل يقول لصاحبه الأوسط بين الثلاثة شق ما بين هذه إلى هذه) وقال قتادة فقلت للجارود وهو إلى جنبي: ما يعني؟ قال من ثغرة نحره إلى شعرته وقد سمعته يقول من قصته إلى شعرته قال (فاستخرج قلبي - قال - فأتيت بطست من ذهب مملوء إيمانًا وحكمة فغسل قلبي ثم حشى ثم أعيد ثم أُتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض) قال فقال الجارود هو البراق[١].

ومن هذه الأحاديث النبوية الشريفة

يجب أن نفهم ماهية وحقيقة جسد رسول الله ﷺ وحقيقة ما امتلأ به جوفه استعداداً لرحلتي الإسراء والمعراج ..

وهل كان مثل البشر أم أنه صار في حالة أخرى تماماً؟

فجسد الرسول مثل جسد الناس،

وعندما يكون الإناء مملوءاً غذاء وبقايا الغذاء ودماء وماء ونفايا الماء، فإن الإناء يبدو معتماً لا يُرى ما فيه فضلاً عما بعده من خلفه.

ولكن، إذا أفرغنا الإناء من هذه الأشياء التي تعتم مرآته، وحشوناه نوراً عظيماً، فإن الإناء سيكون نوراً وهاجاً، نرى ما فيه وما حوله.

ويقول العلي الكبير ما حدث للرسول وهو ما بينه الرسول في أحاديثه:

﴿ألم نشرح لك صدرك - عن واقعة شق الصدر - ووضعنا عنك وزرك. الذي أنقض ظهرك - عن واقعة نبذ كل ما في جسد الرسول - ورفعنا لك ذكرك، - عن واقعة حشوه بنور الإيمان والحكمة﴾ [الشرح]. فالدليل على أن الشرح قد تم للرسول بمعنى شق صدره شقاً حقيقياً هو قوله تعالى ﴿ووضعنا عنك وزرك﴾ فنبذ الوزر لا

---

(١) تفسير ابن كثير حـ٣/ ٨ و٩ وقد أخرجاه في الصحيحين من حديث قتادة بنحوه.

يكون إلا من الداخل وإلقائه في الخارج، وهذا يتطلب الشق بالضرورة. و« شرح الصدر» غيب والإيمـان بالغيب هو أصـول الدين، قال تعـالى ﴿ الذين يؤمنون بالغيب .. ﴾ [البقرة: ٣].

ثم يصف العلي الكبير حال الرسول حين ذاك فيقول تعالى:

﴿ الله نور السماوات والأرض، مثل نوره كمشكاة - السماوات والأرض - فيها مصباح - (المصباح هو قلب الرسول) - المصباح في زجاجة - (الزجاجة هي جسد الرسول بعد ملئه بنوري الإيمان والحكمة) - الزجاجة كأنها كوكب دري ... ﴾ [النور: ٣٥].

فالله عز وجل أنزل للناس نورين: الرسول ﷺ والقرآن العظيم بنص آياته. في ١٥٧ الأعراف و١٥ المائدة.

ومن ثم؛ صار الرسول ﷺ لائقًا للإسراء والمعراج.

ولعل ذلك هو المثل - ولله المثل الأعلى - الذي ضربه الله لنا فعلاً وعملاً لبيان معراج الناس كلهم يوم الحشر، يوم تزوج النفوس أجسادها ﴿ وإذا النفوس زوجت ﴾؛ فلن يكون داخل جسد الإنسان إلا نفسه، فلا طعـام ولا شراب ولا بقايا ولا نفايات ولا ماء ولا دماء، وإنما النفس فقط داخل الجسد. يقول العلي الكبير:

﴿ ونفخ في الصور، ذلك يوم الوعيد. وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد. لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ﴾ [ق: ٢٠ - ٢٢].

والنفس نور لقوله تعالى ﴿ والصبح إذا تنفس ﴾ أي إذا أضاء وصار نوراً.

ومن هذا الهدي القرآني والبيان النبوي نفهم حقيقة ما صار إليه جسد الرسول ﷺ أثناء رحلتي الإسراء والمعراج.

كان الرسول ﷺ جسداً بغير غطاء؛ فيه نفسه الشريفة وأنوار الإيمان والحكمة تملأه فجعلته كوكبًا دريًا ونوراً وهاجًا.

وأسري بالرسول ...

والأصل الثالث: افق هو اعلى الآفاق جميعًا.

ذلك هو ﴿الأفق الأعلى﴾ في سورة النجم.

أو ﴿الأفق المبين﴾ في سورة التكوير.

ذلك بأن "الأفق الأعلى" هو المكان الذي حدثت فيه عدة وقائع:

العلم: الأولى: ﴿إن هو إلا وحي يوحى. علمه شديد القوى. ذو مرة فاستوى. وهو بالأفق الأعلى﴾.

الاقتراب: الثانية: ﴿ثم دنا فتدلى. فكان قاب قوسين أو أدنى﴾.

الوحي: الثالثة: ﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾.

الرؤية: الرابعة: ﴿ما كذب الفؤاد ما رأى﴾.

هذه الواقعات هي أهم واقعات المعراج، ولكي نعلم حقيقتها، فإنما لا بد من معرفة مكان وقوعها، لأن المكان يدلنا على صاحب المكان مع مطلق التنزيه عن المكانية لأن الكون كله مثل حلقة في فلاة بالنسبة للكرسي والكرسي حلقة في فلاة بالنسبة للعرش كما ورد في الحديث الشريف.

ومن ثم فممن كان الوحي لرسول الله وممن كان التعليم له، ومن الذي اقترب منه ومن الذي أوحى إليه مرة ثانية، ومن الذي رآه الرسول الكريم ﷺ في الأفق الأعلى المبين ثم عند سدرة المنتهى..

لهذا، كان لابد لنا من معرفة ما هو "الأفق الأعلى" وأين يكون موقعه بالنسبة إلى الكون ؟!

قول أئمة المفسرين: إنه أفق الشمس مع الأرض. أي عند مطلعها على الأرض[1]. ومعنى أفق في اللغة أي ناحية.

---

(١) تفسير ابن كثير حـ٤ /٢٤٧ وتفسير الجلالين/٤٦٦؛ وصفوة التفاسير حـ٣ /٢٧٣ حيث أورد قولاً منسوبًا لابن عباس أخرجه الإمام القرطبي وتفسير قاله الخازن. حيث قالا المراد بالأفق الأعلى مطلع الشمس.

وأخذ كل العلماء هذا التفسير عن رواية قيلت ونسبت لابن عباس رضي الله تعالى عنهما. والرواية إذا تعارضت مع الحقيقة المشاهدة بالبصر، كانت رواية غير صحيحة.

فما هي الحقيقة؟

كلمة "الأفق" تعني فلكيًا الخط الوهمي الذي يُخيل للإنسان أن السماء عنده تنطبق على الأرض كما أنه الخط الوهمي لكل جرم دائري أكبر داخله جرم دائري أصغر فللسماء الأولى خط أفق مع السماء التي تليها وهكذا بين بقية السماوات وغيرها مما لا نعلم.

والأرض لها شكل الاستدارة.

وكذلك السماء محيطة بالأرض من حول الأرض، فلها أيضًا شكل الاستدارة.

ولأن الاثنين لهما شكل الاستدارة وإحداهما أكبر من الثانية وتحيط بها ..

فإن لهما أفقًا، هو الخط الوهمي الذي نراه وقد تلاقا عنده السماء فوق الأرض.

ومن ثم؛

فإنه ليست ثمة أفق للشمس مع الأرض، لأن كلاهما كرة بعيدة عن الأخرى، فالشمس لا تحيط بالأرض .. وكذلك ليس للقمر أفق مع الأرض لنفس السبب.

أما الشمس، فإنها تطلع من عند الأفق الذي للأرض مع السماء .. وعندئذ نراها تخرج من تحت الأفق أي تطلع شيئًا فشيئًا، فتظهر أولاً نقطة مضيئة حمراء ثم خطًا مقوسًا ثم جزء من دائرة ثم نصف دائرة ثم ثلاث أرباع الدائرة ثم تبدو دائرة مكتملة أي قرصًا كاملاً هو الشمس.

فالشمس تطلع شيئًا فشيئًا من عند الأفق الذي للأرض مع السماء. أي الخط الذي يتوهم عنده الإنسان أنه التقاء الأرض مع السماء، فتظهر عنده السماء وكأنها انطبقت على الأرض فلامستها.

هذا الخط الوهمي أي الأفق يبدو لمن يقف على البحر أنه تحت مستوى نظره، فإذا

وقف إنسان في أعلى منزل على البحر أو الصحراء المنبسطة وجد الشمس عند هذا الخط تحت مستوى نظره أكثر من ذي قبل.

فإذا وقف إنسان في برج عالٍ أو فوق جبل مرتفع، فإنه سيرى مطلع الشمس عند هذا الأفق أسفل منه بكثير جداً.

فهل بعد هذا يمكن أن نصف هذا الأفق بأنه "أعلى"؟!.

وإذا كان "أعلى" فما هو الذي تحته حتى يكون هو "أعلى" منه؟.

وإذا علمنا أن الكلام الإلهي كله موجه للبشر أولاً. وأن البشر يعيشون فوق الأرض. ومن ثم فإن الأفق ككلمة لابد وأن تعني ما يفهمه البشر مما يعرفونه بالرؤية، لأن "الأفق" آية شهادة كونية.

وإذاً

ولهذا السبب فإن أفق الأرض يكون هو الذي مع السماء الدنيا وتطلع من عنده الشمس، وليس هو "الأعلى" لأنه تحت مستوى نظر الإنسان.

ولأنه تحت مستوى نظر الإنسان.

فلا بد أن يكون «الأعلى» أفقًا آخر.

ذلك بأن كلمة «الأعلى» تتطلب بالضرورة وجود آفاق أخرى عالية وأقل علواً حتى يطلق على أعلاها أنه «الأعلى». كما أن الله عز وجل يتكلم عن وجود آفاق كثيرة ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق ﴾ وهو جمع أفق..

ولأن الأرض ليس لها إلا أفق واحد هو أفقها مع السماء الذي هو تحت مستوى النظر.

لذلك وبالتالي

لا يكون الأفق الذي تطلع عنده الشمس هو المذكور في سورة النجم بأنه ﴿ الأفق الأعلى ﴾. بل إنه مجرد أفق من الآفاق الموجودة.

من هنا، وجب أن نبحث عن كل الآفاق، ثم نعلم منها أيها «الأعلى».

فأولاً: السماء تحيط بالأرض من حواليها، ومن ثم فلها أفق مع الأرض وهو الذي تكلمنا عنه.

وثانياً: فكل سماء تحيط بها السماء التي بعدها، فكل سماء لها أفق مع السماء التي تليها وكل منها أعلى من التي قبلها.

وهكذا حتى السماء السابعة، فلها أفق مع ما يليها مما لا نعلم وأعلى من كل الآفاق التي قبلها.

فإذا انتهينا من كل السماوات السبع، فهل يمكن أن نقول إن أفق السماء السابعة مع ما يليها هو الأفق الأعلى؟

لا نستطيع أن نقول ذلك لأن الله سبحانه ذكر أنه بعد السماء السابعة توجد "سدرة المنتهى" كما يوجد عندها «جنة المأوى».

وإذاً فلسدرة المنتهى أفق أيضاً مع ما يعلوها أي يحيط بها ..

ولأن الله العظيم الخالق لكل الآفاق وكل شيء قال عن سدرة المنتهى ﴿ولقد رآه نزلة أخرى. عند سدرة المنتهى﴾.

ومع أن معنى كلمة «نزلة» تفسر بأنها «مرة» فإن ذلك لا يمنع بأن تفسر بأصل معنى الكلمة من مادتها وهي النزول الذي يعني الحلول في مكان .. ومن ذلك النزل والمنزل.

ولما كانت الوقائع التي ذكرناها آنفاً قد حدثت في الأفق الأعلى، ثم من بعد ذلك حدث حلول في سدرة المنتهى.

فإن أفق سدرة المنتهى يكون تحت الأفق الأعلى الذي حدث منه النزول.

ولأن كلمة «الأعلى» مفردة. ولأنها معرفة والألف واللام فيها للجنس وليس للعهد..

فإنها تعني أنه الأفق الذي هو أعلى جميع الآفاق.

و«الأفق» ظرف مكان والأعلى صفة تقول إن هذا الأفق هو أعلى مستوى من كل الآفاق.

ويقول العلي الكبير:

﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ [الأعلى: ١].

فهو سبحانه أعلى من فوق كل ما خلق، وذلك يكون وهو سبحانه على عرشه المجيد في الأفق الأعلى. الذي هو الأفق المبين الحق ومن عظمة أنوار عرشه المجيد.

أخرج الإمام أحمد وأبو داود بسندهما عن جبير بن محمد أن رسول الله ﷺ قال: (.. أتدري ما الله إن عرشه على سماواته لهكذا وقال بأصابعه مثل القبة عليه وإنه - أي العرش - ليئط به أطيط الرحل بالراكب).

وعن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال: (إن ملكًا من حملة العرش يقال له إسرافيل زاوية من زوايا العرش على كاهله قد مرقت قدماه في الأرض السابعة السفلى ومرق رأسه من السماء السابعة العليا)[1].

وقد بين العلي الكبير حال هذا الأفق الأعلى بأنه الأفق المبين أي الواضح جداً لعظيم أنواره الحق الأبلج. قال عكرمة رضي الله تعالى عنه: لو جعل الله نور جميع أبصار الإنس والجن والدواب والطير في عيني عبد ثم كشف حجابًا واحداً من سبعين حجابًا دون الشمس لما استطاع أن ينظر إليها، ونور الشمس جزء من سبعين جزء من نور الكرسي، ونور الكرسي جزء من سبعين جزء من نور العرش، ونور العرش جزء من سبعين جزء من نور الستر، فانظر ماذا أعطى الله عبده من النور في عينيه وقت النظر إلى وجه ربه الكريم عيانًا[2].

---

(١) «أصول الإيمان» للإمام محمد بن عبد الوهاب / ١٥ و٢٥.

(٢) تفسير ابن كثير جـ٤ / ٢٧٠ وما بعدها.

ذلك هو الأفق الأعلى الذي هو أعلى من كل الآفاق، ويحيط، من ثم، بكل الآفاق. وفيه العرش المجيد، وبأنوار العرش العظيم صار الأفق الأعلى مبينًا.

فمن «هو» الذي بالأفق الأعلى؟

كل الأحاديث النبوية التي رويت عن الإسراء والمعراج ذكرت أن جبريل عليه السلام عرج مع رسول الله ﷺ فكان يستفتح كل سماء حتى إذا ما دخل فيها وتقابل الرسول ﷺ مع من في السماء، عرج بعدها إلى السماء التي تليها حتى السماء السابعة حيث كان إبراهيم عليه السلام متكئًا على البيت المعمور. وفي روايات أخرى كان موسى عليه السلام هو الذي بالسماء السابعة.

ولكن لم يرد في أي حديث أن جبريل عليه السلام قد تعدى هذه السماء السابعة.

دليل ذلك

أن رسول الله ﷺ قال - وبإجماع رواة الحديث لا نغادر منهم أحدًا - عندما فرض الله عليه فريضة الصلاة في سدرة المنتهى، أنه كان يتردد ما بين ربنا سبحانه وبين موسى عليه السلام، فقد فرض الله خمسين صلاة، وكان الرسول ينزل إلى موسى في السماء السادسة أو السابعة، ويقول له قد فرض ربي خمسين صلاة في اليوم على أمتي، فيطلب منه موسى العودة إلى الله يسأله التخفيف، فخففها خمسًا في كل مرة عاد فيها الرسول إلى رب العزة حتى إذا صارت خمس صلوات في اليوم قال له موسى: إني خبرت بني إسرائيل وقد فرضت عليهم صلاتان فلم يحتملاها، فعد إلى ربك كي يخففها، فقال ﷺ: (قد ترددت على ربي حتى استحييت)[1].

وإذًا فالوحي بفريضة الصلاة كان بإجماع رواة الحديث من الله سبحانه جل شأنه لرسوله ﷺ مباشرة وهذا تحقيق لقوله تعالى:

---

(١) تفسير ابن كثير حـ٣/٣، ٤، ٥ وكل الاحاديث صفحة ٢٣ رواها الصحيحان والإمام احمد. كما اتى بها الشيخ عبد الحليم محمود شيخ الأزهر الأسبق في كتابه «الإسراء والمعراج».

﴿ ولقد رآه نزلة اخرى. عند سدرة المنتهى ﴾ [النجم].

فإذا كان النزول قد تم بعد الأفق الأعلى في سدرة المنتهى.

فالأفق الأعلى، منطقياً أعلى سدرة المنتهى، لأنه «الأعلى» بإطلاق.

ولأن التردد كان من الرسول ﷺ على ربنا سبحانه، فإن الوحي كان من الله سبحانه لرسوله مباشرة.

﴿ وما كان لبشر ان يكلمه الله إلا وحيًا ... إنه علي حكيم ﴾ [الشورى: ٥١].

وإذًا فالله جل جلاله هو الذي بالأفق الأعلى وهو الذي أوحى إلى عبده (الرسول) ما أوحى. إذًا فلا وجود لجبريل في سدرة المنتهى ولا في الأفق الأعلى من فوقها ..

وطبقًا لقاعدة رجوع الضمير على أقرب مذكور، فإن «الهاء» في "عبده" تعود على [شديد القوى. ذو مرة]، ولأن الرسول وأي بشر هو عبد الله سبحانه وحده، فإنه يكون هو الله، المنعوت بشدة القوى وذي مرة؛ وليس جبريل لأنه ملك عبد لله وليس شيئًا غير ذلك. وبهذا يستوي التفسير في مساره الصحيح.

أما بعد ...

فبهذه الأصول الثلاث نعلم آية الإسراء والمعراج حق العلم وبمنتهى الحق بأعماق اليقين الصادق.

المبحث الثاني: الإسراء

كان العرب أهل فصاحة وبلاغة، يسمعون القول فيفهمونه بكل أقطاره وحذافيره.

وخرج الرسول من عند ابنة عمه هند التي كان يبيت عندها ليلة الإسراء، وجلس بالمسجد الحرام.

ورآه عدو الله أبو جهل، فذهب وجلس بجواره وقال كالمستهزئ:

هل كان من شيء؟

فقال رسول الله ﷺ: نعم.

قال: ما هو؟

قال: إنه أسري بي الليلة.

قال: إلى أين؟

قال: إلى بيت المقدس.

قال: ثم أصبحت بين ظهرانينا!

قال: نعم.

فلم ير عدو الله أن يكذبه، مخافة أن يجحده الحديث إذا دعا قومه إليه !!

قال: أرأيت إن دعوت قومك تحدثهم ما حدثتني؟

فقال رسول الله ﷺ: نعم.

فانطلق أبو جهل إلى قريش ينادي: يا معشر بني لؤي. فانتفضت له المجالس، وجاءوا حتى جلسوا إليهما؛

فقال أبو جهل: حدث قومك بما حدثتني.

فقال رسول الله ﷺ: إني أسري بي الليلة.

قالوا: إلى أين؟

قال: إلى بيت المقدس.

قالوا: ثم أصبحت بين ظهرانينا!

قال: نعم.

فإذا بالقوم بين مصفق، وبين واضع يده على رأسه متعجبًا للكذب!! ثم قالوا: وهل تستطيع أن تنعت لنا المسجد؟

وفي القوم من قد سافر إلى ذلك البلد ورأى المسجد الأقصى. فقال رسول الله ﷺ: (فذهبت أنعت - أي أصف - فما زلت أنعت حتى التبس علي بعض النعت) قال: (فجيء بالمسجد وأنا أنظر حتى وضع دون دار عقيل، فنعته وأنا أنظر إليه). قال: فقال القوم: أما النعت فو الله لقد أصاب(١).

ومن هذا نفهم أن حديث الإسراء كان من الرسول ﷺ للناس حديث الذي أسري به إنسانًا حيًا جسدًا ونفسًا معًا وكاملاً في يقظته لأنه يقول به أنه وقع له.

والواقع هو الحياة والحركة فيها من الأحياء في يقظتهم.

واقعات الإسراء.

ويبين الرسول الكريم ﷺ تفاصيل الإسراء.

أخرج الإمام أحمد بن حنبل بسنده عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه، أن رسول الله ﷺ قال: (أوتيت بالبراق، وهو دابة أبيض، فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه - أي بصره - فركبته فسار بي حتى أتيت بيت المقدس، فربطت الدابة بالحلقة التي يربط فيها الأنبياء، ثم دخلت فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت، فأتى جبريل بإناء من خمر، وإناء من لبن، فاخترت اللبن. قال جبريل: أصبت الفطرة) ورواه مسلم عن شيبان بن فروخ بهذا السياق. وقال الإمام ابن كثير عن ذلك. هذا الذي قاله هو الحق الذي لا شك فيه ولا مرية(٢).

---

(١) حديث رواه الإمام أحمد بسنده عن ابن عباس - «الإسراء والمعراج» ٤٦/ - ٤٨ للشيخ عبد الحليم محمود.

(٢) تفسير ابن كثير حـ٣/ ٤.

دليل الإسراء في القرآن.

وقد أنزل العلي الكبير آية الإسراء واضحة محكمة قال سبحانه: ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا؛ إنه هو السميع البصير﴾ [الإسراء: ١].

فحدد العليم الفعال لما يريد، أن الإسراء، وهو لغة السير ليلاً، كان ليلاً تأكيداً للظرف الذي تم فيه الإسراء وتوضيحاً لقصر الظرف معاً.

وحدد بدايته بأنه من المسجد الحرام.

وإذاً فالاستعداد للرحلة: كان بأن أخذ جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ من بيت هند بنت أبي طالب إلى المسجد الحرام حيث شق صدره وجوفه كله ثم غسله بماء زمزم ثلاثاً ثم ملأ قلبه وجوفه بكامل نور الإيمان والحكمة، وقد بين الرسول ﷺ ذلك في الأحاديث الشريفة التي أوردناها بالأصل الثاني من المبحث السابق.

سرعة الإسراء.

وسير البراق وعلى ظهره الرسول ؛ هل كان بسرعة الضوء الذي هو سرعة الكهرباء أم بسرعة البراق؟

الثابت بدليل السنة أن الرسول ﷺ كان يركب البراق، وإذاً فالسرعة هي سرعة البراق. وأي قول آخر يكون لغواً.

فما هي سرعة البراق؟

قال رسول الله ﷺ عن البراق: (يضع حافره عند منتهى طرفه) أي يضع قدمه عند نهاية ما يرى ببصره. أي يسير بسرعة البصر. كما فهم بحق الإمام الراحل الشيخ عبد الحليم محمود شيخ الأزهر السابق رضي الله تعالى عنه.

وسرعة البصر سرعة آنية أي في التو واللحظة وهذا هو الثابت مادياً.

ولأن السرعة مسندة إلى البراق. فإن السرعة تكون سرعة بصر البراق، وليست سرعة بصر المحمول عليها سيدنا رسول الله ﷺ، ولا سرعة بصر جبريل عليه السلام.

رلما كان البراق غيبًا.

لذلك فإن السرعة غيب وإن كانت آنية مع صاحبها.

وإنما تختلف المدة باختلاف مدى البصر .. فإن كان مداه المسجد الأقصى فإن ذلك يعني أن البراق وعليه الرسول ومعه جبريل قد وصلوا جميعًا في التو واللحظة.

ولأن "البصر" غيب.

فإنه ما يجب ان نلتفت إليه أنه لا يقاس بسرعة الضوء الذي هو سرعة الكهرباء، ذلك بان الضوء والكهرباء كلاهما نوعًا شفافًا من المادة اي ليسا من الغيب فقد أمكن تصويرها.

أما البصر فهو سر عند الله ولا يعلم سره إلا مالكه ﴿ أمَّن يملك السمع والأبصار .. فسيقولون الله ... ﴾ [يونس: ٣١].

لذلك فهو غيب رغم وجوده معنا.

نهاية الإسراء.

وكما حددت آية الإسراء بداية الإسراء من المسجد الحرام، فقد حددت نهايته في المسجد الأقصى، ببيت المقدس.

كما حددت نفس الآية الظرف الذي حدث فيه الإسراء فقالت «ليلاً» تأكيداً؛ ذلك بان «الإسراء» لغة هو السير ليلاً.

ومن ثـم فالآية الكـريمة واضـحة محكمة في بيان هذه المعـالم الثلاث، وبالتالي لا مجال لتأويلها بغيرها من خارجها.

ولما كانت الآية الكريمة ذاتها قد ذكرت أن الله سبحانه أسرى «بعبده»؛ وكلمة «بعبده» لا تطلق إلا على الإنسان الحي، وهو معناها اللغوي.

فمن ثم يكون الإسراء قد حدث للرسول ﷺ بالجسد والنفس معًا اي حيًا في يقظته.

ولو كان الأمر «منامًا» لما كان قد صيغ بصياغة الواقعة، ولكانت له صياغة تفيد ولو بقرينة أنه رؤيا منامية، كما اعتاد السياق القرآني في الكلام عن الرؤى . .

ولأن الإسراء كان للرسول بالجسد الحي.

فقد أُتي له بالبراق وهو دابة لتحمله. فالدابة وسيلة يركبها الجسد أمًّا النفس فلا تحتاج لوسيلة تركبها.

وكذلك البصر فإنه من آلات الذات الجسمانية ﴿ .. شهد عليهم سمعهم وأبصارهم ﴾ [فصلت: ٢٠]، لذلك قال عنه رب العالمين ﴿ ما زاغ البصر وما طغى ﴾ [النجم: ١٧].

المبحث الثالث: العروج والرؤية

العروج لغة: الصعود وهو مصدر عرج يعرج، والمعراج يعني المصعد.

قال الله تبارك وتعالى:

﴿ولو لا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفًا من فضة ومعارج عليها يظهرون﴾ [الزخرف: ٣٣].

ومعارج أي مصاعد؛ وهي جمع معراج.

﴿ولو فتحنا عليهم بابًا من السماء فظلوا فيه يعرجون﴾ [الحجر: ١٤].

﴿.. ويعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها..﴾ [الحديد: ٤].

ويعرج أي يصعد. و ﴿يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون﴾ [السجدة].

فالعروج بعد الإسراء هو الصعود إلى السماء وما بعد السماوات إلى الأفق الأعلى ثم النزول إلى سدرة المنتهى..

فالعروج بالرسول ﷺ هو صعوده من عند "الصخرة" في بيت المقدس إلى الأفق الأعلى المبين..

قال الله تبارك وتعالى:

﴿من الله ذي المعارج. تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾ [المعارج: ٣ - ٤].

أي هو من الله العظيم الجليل، صاحب المصاعد التي تصعد بها الملائكة، وتنزل بأمره ووحيه، ثم فصل ذلك بقوله تعالى ﴿تعرج الملائكة والروح إليه﴾ أي تصعد

الملائكة الأبرار وجبريل الأمين في يوم طوله خمسين ألف سنة. قال ابن عباس: هو يوم القيامة جعله الله على الكافرين خمسين ألف سنة[١].

أعظم المعارج.

وإذًا فعروج الرسول ﷺ وبصحبته جبريل عليه السلام خلال السماوات السبع، كان بواسطة مصعد خاص ثم عرج بالرسول وحده في مصعد أعظم إلى الأفق الأعلى.

ولا نقول هنا – كما قال البعض – إنه سُلَّم، فذلك قول بغير تمييز ولا دليل، كما أنه من خيال الفكر البشري المادي الضحل!

وإنما مصاعد ربنا في سماواته غيب من الغيب وأعظم من الخيال..

ومن ثم، فلا نقول إلا ذات الكلمة، إنها معارج، ومعراج الرسول ﷺ ومعه جبريل، لا بد وأن يكون من أعظم هذه المعارج.

فالرسول هو خاتم النبيين وهو المأخوذ له الميثاق من النبيين جميعًا، وهو صاحب الرسالة الكاملة الشاملة الباقية، وجبريل هو الروح الأمين وهو في موضع الرئاسة من ملائكة الروح.

والتدرج في النص على العروج في الآية الأولى من سورة الإسراء أو سبحان، حيث تنص على العروج بأسلوب ضمني، في قول العلي الكبير:

﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من ءاياتنا، إنه هو السميع البصير﴾.

فالعروج في هذه الآية، جاء ضمنيًا في قوله تعالى ﴿لنريه من آياتنا﴾؛ وآيات الله التي لا يراها الرسول والناس وهم في الأرض، هي الآيات الغيبية. ولأن الله سبحانه قال ﴿وإما نرينك بعض الذي نعدهم﴾ أي الجنة والنار، فإن كلمة «آياتنا» في آية الإسراء، إنما يقصد بها الجنة والنار وسدرة المنتهى والأفق الأعلى وغير ذلك.

---

(١) صفوة التفاسير جـ٣/٤٤٣.

وإذًا فالإسراء كان تمهيداً للعروج ولرؤية هذه الآيات الغيبية. ومن ثم فالآية كما ورد بها الإسراء لفظًا صريحًا، فقد ورد بها العروج ضمنًا، فأبان الله سبحانه أن الإسراء إنما هو لرؤية آياته سبحانه: الجنة والنار وسدرة المنتهى والأفق الأعلى وغير ذلك.

ومن ثم

فإن الذين يقولون بأن آية الإسراء خاصة بالإسراء فقط يكون قولهم مبتوراً حيث لم يمتد لباقي كلمات الآية الكريمة، وقصر عن معرفة أن الإسراء سبب للعروج لرؤية آيات الله، ذلك بأن اللام في كلمة «لنريه» للتعليل أي لبيان سبب الإسراء.

وسنة الله العظيم في إقناع الناس التدرج بهم. لأن الإنسان هو أكثر شيء جدلاً، والتدرج رأفة من الله بعقول الناس ..

فعندما يلقي العلي الكبير بالخبر إلى الناس، فإن الإنسان بما ركب فيه من جهاز المعرفة، وبما جبل عليه من التفكير فهو يفحص ويمحص ويفكر ويدبر، ثم يميل غالبًا إلى المعارضة والنقد بل والتكذيب، سيما في مثل هذه المواطن الغيبية ..

لذلك، فإن الله سبحانه، الخالق العليم بالنفوس وما توسوس به، يترك الناس تمضغ أفكارها، حتى إذا فرغت، ألقى إليهم بالدليل الذي يهدر كل ما عارضوا به، فتضيع معارضتهم، وتخبت له قلوب الذين آمنوا.

وقائع العروج.

فما هي وقائع العروج؟ بدايته من عند "الصخرة" ونهايته "الأفق الأعلى".

إن الحديث الشريف الذي قاله الرسول ﷺ هو الذي قيل فور عروج الرسول؛ أي من قبل نزول القرآن العظيم بآيات الإسراء والمعراج..

وإذا قرأنا الآيات الكريمة في سورتي النجم والتكوير لوجدنا أنها رد على المكذبين؛ ومن هنا، فإن واقعات العروج وتفاصيله قد وردت في الأحاديث النبوية الشريفة .. وأوفى هذه الأحاديث والذي أيده ورواه صحيحا البخاري ومسلم وأيده الإمام ابن

كثير، هو ذلك الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد بن حنبل بسنده عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنهم أجمعين؛ قال أن رسول الله ﷺ قال: بعد بيان الإسراء ..

(... ثم عرج إلى السماء الدنيا فاستفتح جبريل فقيل له من انت؟ قال جبريل. قيل ومن معك؟ قال: محمد؛ قيل وقد أرسل إليه، قال: قد أرسل إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بآدم فرحب بي ودعا لي بخير. ثم عرج بنا إلى السماء الثانية، فاستفتح جبريل فقيل من أنت؟ قال جبريل، قيل ومن معك؟ قال: محمد، قيل وقد أرسل إليه؟ قال: قد أرسل إليه. ففتح لنا فإذا أنا بابني الخالة يحيى وعيسى. فرحبا بي ودعوا لي بخير. ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة، فاستفتح جبريل، فقيل له من أنت؟ قال: جبريل، فقيل ومن معك؟ قال: محمد. قيل وقد أرسل إليه؟ قال: قد أرسل إليه. ففتح لنا فإذا أنا بيوسف عليه السلام وإذا هو قد أعطي شطر الحسن، فرحب بي ودعا لي بخير. ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة، فاستفتح جبريل، فقيل من أنت؟ قال: جبريل. فقيل ومن معك؟ قال: محمد، فقيل وقد أرسل إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا فإذا أنابإدريس فرحب لي ودعا لي بخير. يقول الله تعالى:﴿ورفعناه مكانًا عليًا﴾. ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة فاستفتح جبريل فقيل من أنت؟ قال: جبريل. فقيل ومن معك؟ قال: محمد. فقيل وقد أرسل إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا فإذا أنا بهارون، فرحب بي ودعا لي بخير. ثم عرج بنا إلى السماء السادسة فاستفتح جبريل. فقيل من أنت؟ قال: جبريل. قيل ومن معك؟ قال: محمد. فقيل وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بموسى عليه السلام .فرحب بي ودعا لي بخير. ثم عرج بنا إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل فقيل: من أنت؟ قال: جبريل. قيل ومن معك؟ قال: محمد. فقيل وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا فإذا بإبراهيم عليه السلام، وإذا هو مستند إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، ثم لا يعودون إليه. ثم ذهب إلى سدرة المنتهى، فإذا أوراقها كآذان الفيلة وإذا ثمرها كالقلال، فلما غشيها من أمر الله ما غشيها، تغيرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن يصفها من حسنها. قال: فأوحى الله إليّ ما أوحى، وقد فرض علي في كل يوم وليلة، خمسين صلاة.

فنزلت حتى انتهيت إلى موسى، قال ما فرض ربك على أمتك؟ قلت خمسين صلاة في كل يوم وليلة، قال: ارجع إلى ربك، فاسأله التخفيف لأمتك فإن أمتك لا تطيق ذلك، وإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم. قال: فرجعت إلى ربي فقلت: أي رب خفف عن أمتي، فحط عني خمساً.

فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فقال: ما فعلت؟ فقلت حط عني خمساً، فقال: إن أمتك لا تطيق ذلك. فارجع إلى ربك، فاسأله التخفيف لأمتك.

قال: فلم أزل أرجع بين ربي وبين موسى، ويحط عني خمساً خمساً حتى قال: يا محمد هن خمس صلوات في كل يوم وليلة بكل صلاة عشر، فتلك خمسون صلاة؛ ومن هَمَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشراً. ومن هَمَّ بسيئة. فلم يعملها لم تكتب، فإن عملها كتبت سيئة واحدة.

فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فأخبرته، قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، فإن أمتك لا تطيق ذلك. فقال رسول الله ﷺ: لقد رجعت إلى ربي حتى استحييت).

ورواه مسلم بهذا السياق عن شيبان بن فروخ عن حماد بن سلمة.

قال البيهقي: وفي هذا السياق دليل على أن المعراج كان ليلة أسري به عليه الصلاة والسلام من مكة إلى بيت المقدس. ورواه الإمام البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث قتادة.

وقال الإمام ابن كثير: هذا الذي قاله هو الحق الذي لا شك فيه ولا مرية(١).

وأخرج الإمام أحمد أيضاً بسنده عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: (لما عرج بي إلى ربي عز وجل مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم فقلت من هؤلاء يا جبريل؟ قال هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم). وأخرجه أبو داود من وجه آخر ليس فيه أنس(٢).

---

(١) تفسير ابن كثير حـ٣/٣، ٤، ٩ «الإسراء والمعراج» للشيخ عبد الحليم محمود شيخ الأزهر/ ٣٤ - ٣٧.

(٢) تفسير ابن كثير حـ٣/٤.

وثابت من هذه الأحاديث الشريفة الصحيحة قطعًا – لتعدد السند ووحدة المتن – الحقائق التالية:

الأولى: أن جبريل عليه السلام كان مع الرسول ﷺ منذ فرج سقف بيته بمكة ثم شق جوفه وملأه بأنوار الحكمة والإيمان ثم الإسراء إلى بيت المقدس ثم العروج معه إلى السماء الدنيا واستفتحها له كما استفتح له باقي السماوات واحدة بعد واحدة حتى انتهيا إلى السماء السابعة.

الثانية: أنه لم يكن لجبريل عليه السلام وجود في سدرة المنتهى حيث فرض الله الصلاة على رسول الله ﷺ، حيث كان الوحي من الله إلى الرسول مباشرة.

الثالثة: أن الرسول كان يروح ويجيء بين ربنا العظيم وبين موسى عليه السلام ليخفف له من الصلوات حتى جعلها خمسًا بعد أن كانت خمسينًا ..

الرابعة: أن الوحي كان من الله العظيم للرسول مباشرة وهذا مصداق قوله تعالى في سورة النجم ﴿فأوحى إلى عبده ما وحى﴾ وقوله تعالى ﴿وما كان لبشر ان يكلمه الله إلا وحيًا ..﴾ [الشورى: ٥١].

الخامسة: أن هذه الواقعات تدل على ان "الأفق الأعلى" كانت فيه الرؤية الأولى لله عز وجل بالفؤاد ثم كانت الرؤية الثانية بالبصر وفرض الصلاة في "سدرة المنتهى".

السادسة: أنه ليس ثمة وجود لجبريل في سدرة المنتهى ومن باب أولى في "الأفق الأعلى".

السابعة: أن الرسول قال صراحة (لمأ عُرِج بي إلى ربي عز وجل) وقال صراحة (لقد رجعت إلى ربي حتى استحييت)، فدل على أن الوحي من الله إليه مباشرة مصداقًا لقوله تعالى ﴿ولقد رآه نزلة أخرى. عند سدرة المنتهى﴾ [النجم].

الرؤيــة.

أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن ابن عباس. قال: قال رسول الله ﷺ:

(رأيت ربي عز وجل) .

وأخرج الإمام محمد بن جرير الطبري في الأوسط بسند صحيح عن ابن عباس: قال: إن رسول الله ﷺ رأى ربه مرتين، مرة ببصره ومرة بفؤاده .

وروى الحاكم في مستدركه عن ابن عباس. قال: قال ﷺ : (رأيت ربي عز وجل)(١).

وأخرج الإمام أحمد بن حنبل بسنده عن أبي ذر؛ قال: سألت رسول الله ﷺ : هل رأيت ربك؟ قال: (نور أنّى أراه) . وأخرجه مسلم في صحيحه(٢) .

وهذه الأحاديث النبوية الشريفة تبين معانى قوله تعالى:

﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾ و ﴿ أفتمارونه على ما يرى ﴾ و ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى ﴾ .

فذكر سبحانه وتعالى واقعة رؤية الرسول لله سبحانه في الآية الأولى بقوله تعالى « رأى » وهي فعل ماض. ثم في الآية الثالثة بكلمة « رآه » وهي فعل ماض أيضاً . والهاء فيه عائدة على الله سبحانه جل شانه . اما الآية الثانية فقد جاء الفعل فيها « يرى » مضارعًا .

والسورة كما سبق أن بينا أنزلت على قلب الرسول بعد واقعتي الإسراء والمعراج للرد على المكذبين. وإذاً فكان الإسراء والعروج فعلاً ماضياً عند نزول السورة .

وإذاً فعندما تأتي الكلمات القرآنية مبينة واقعة الرؤية، فلا بد وأن تأتي في الزمن الماضي . وهذا هو الذي جاء في الآيتين الأولى والثالثة : فلماذا جاءت كلمة الرؤية في الآية الثانية « يرى » بالفعل المضارع؟

الإنسان عندما يرى منظراً أو إنساناً أو اي شيء، فإنما تستقر الصورة في مخيلة

---

(١) تفسير الجلالين/٢٤٧ .

(٢) تفسير ابن كثير حـ٣/٩ .

الإنسان آماداً كثيرة، ويستطيع أن يصفها، ذلك بأن الإنسان مخلوق من مادة وأجهزته بهذا الجسد المادي الذي تحيا فيه نفسه تدرك بصراً وسمعاً كل ما يعرض له من ماديات.

ومن ثم، فإن ما يراه من ماديات يعلق بماديات أجهزته ويختزنه بلبه، فيستخرجه في أي وقت شاء.

أما هنا

فالرؤية لله عز وجل.

والله سبحانه ليس كمثله شيء.

ولما كان كل شيء من مادة.

فإن الله سبحانه ليس مادة، وسبق تفصيل ذلك.

فعندما صعد الرسول ﷺ حتى كان في الأفق الأعلى المبين قال ﷺ: «رأيت ربي عز وجل» وقالها بالفعل الماضي.

وكذلك قال ابن عباس: إن رسول الله ﷺ رأى ربه مرتين مرة ببصره ومرة بفؤاده. فاستعمل أيضاً الفعل الماضي عن الرؤيتين.

ذلك بأن رؤية الله في الأفق الأعلى وسدرة المنتهى إنما حدثتا وانتهيتا فلم يعلق شيئاً منها بجهاز رسول الله في جسده. وإن تذكر أنهما وقعتا ولكن: كيف الرؤية؟ فهذا أمر ضاع منه عقب حدوثه فوراً، لأن الله سبحانه ليس مادة حتى يعلق المنظر والوصف بمادة رسول الله ﷺ.

فلما سأله أبو ذر: هل رأيت ربك؟ والسؤال يتضمن الكيف أو يوحي بالسؤال عن الوصف؛ لذلك أجاب الرسول بما علق في ماديات جسده وأجهزة المعرفة فيه فقال (نور أنّى أراه).

ومن ثم ذكر المادة التي بقيت في ماديات جسده ﷺ، وهذه المادة هي النور،

فقال (نور أنّى أراه) و "أنى" تفيد الكيف والزمان والمكان. والنور لله وليس ذات الله سبحانه.

لذلك استعمل العلي العظيم الفعل الماضي في واقعتي الرؤية، أما ما بقي في قلب الرسول ﷺ وهو النور فقد استعمل العلي العظيم الفعل المضارع « يرى » للتعبير عن النور الباقي فيه ﷺ وقاله في حديث لأبي ذر تحقيقًا لقوله تعالى ﴿ أفتمارونه على ما يرى ﴾ أي اتشكون وتستريبون فيما يراه عن ربه وعلق بقلبه بعد الرؤية الحقة ؟!

الرؤية بالفؤاد.

وقال العلي الكبير:

﴿ ذو مرة فاستوى. وهو بالأفق الأعلى. ثم دنا فتدلى. فكان قاب قوسين أو أدنى. فأوحى إلى عبده ما أوحى. ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾ [النجم: ٦ - ١١].

وقعت الرؤية بفؤاد الرسول وهو بالأفق الأعلى الذي هو الأفق المبين. وكانت لربنا العظيم من على بعد ضئيل جداً هو قوسين أي مترين تقريباً. وكانت الرؤية أثناء وحي الله سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ، فقد استمرت الرؤية طوال الوحي الإلهي لرسوله.

ويقرر العلي العظيم أن رسوله الكريم رآه بفؤاده. وأن هذا الفؤاد صادق ولذلك أقسم الله بذلك في قوله تعالى ﴿ ولقد رآه بالأفق المبين ﴾ [التكوير]. وقد عندما تدخل على الفعل الماضي تفيد يقين التحقيق. واللام موطئة للقسم بحرف الواو في « ولقد ».

لهذا؛ فإن فؤاد الرسول رأى ربنا العظيم حق الرؤية.

فهل الإنسان، والرسول إنسان مثل الإنسان، يرى بفؤاده؟

والإجابة، بينها العلي العظيم للناس كل الناس في المدينة المنورة وهم مجتمعون في المسجد يخطبهم عمر بن الخطاب أمير المؤمنين.

بينها العلي العظيم للناس بطريقة مادية أخذتهم أخذاً شديداً من الدهشة والعجب.

ولكن هو الله، يُجلِّي آياته أنَّى شاء.

وقف عمر على منبر رسول الله ﷺ في المدينة يخطب الناس وفي أثناء الخطبة قال: يا سارية الجبل الجبل، كان ينادي بأعلى صوت. ودهش الناس جميعًا وكلهم صحابة رسول الله ﷺ وفيهم عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب، ولأن سارية يقود جيش المسلمين في فارس، فكيف يناديه عمر وهو بالمدينة.

وانتهى عمر من خطبته وصلى بالناس،

فالتف حوله كبار صحابة رسول الله ﷺ وسأله علي ابن أبي طالب، لماذا ناديت على سارية؟! فتعجب عمر ونفى ذلك فقال علي مؤكداً: نعم لقد قلت يا سارية الجبل الجبل!! وأيده الصحابة ..

وعاد سارية بعد أن فتح الله للمسلمين فارس، وقص ما حدث: لقد كُنَّا عند سفح الجبل وكان الفرس يحاولون أن يلتفوا حولنا، فسمعت أمير المؤمنين يناديني: يا سارية ويقول: الجبل الجبل، فادركت الموقف وسبقت الفرس وارتقيت الجبل، فكنا فوقهم، وظهرنا عليهم وتم النصر.

واقعة مادية تشهد بأن عمر رأى بفؤاده ساحة القتال وألهمه العزيز الحكيم بخطة النصر: صعود جيش المسلمين الجبل، فقالها لسارية قائد جيش المسلمين وسمعها سارية بفؤاده أيضاً. وتم النصر وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم.

لقد رأى عمر ساحة القتال في فارس وهو في كامل يقظته ويقف خطيباً في مسجد الرسول بالمدينة، ثم هو ينادي بأعلى صوته فيسمعه الناس في المسجد ويسمعه سارية في فارس.. إذاً فقد رأى وتكلم وهو في كامل يقظته ووعيه .. ومع ذلك لم تعلق بذاكرته ..

وكذلك الرسول ﷺ الإنسان: رأى ربه بفؤاده وسمع وحيه له مباشرة ولكنه لما سئل لم ينس أنه رأى ربه ولكن نسى كيف رآه جل جلاله؛ لأنه عز وجل ليس كمثله كشيء.

وأين عمر من رسول الله ﷺ

وشتان بين واقعات الأرض وبين واقعات الأفق الأعلى حيث ربك الأعلى.

الرؤية بالبصر.

قال العلي الكبير:

﴿ ولقد رآه نزلة أخرى. عند سدرة المنتهى. عندها جنة المأوى. إذ يغشى السدرة ما يغشى. ما زاغ البصر وما طغى. لقد رأى من ءايات ربه الكبرى ﴾ [النجم: ١٣ – ١٨].

هذه الرؤية بالبصر كالرؤية بالفؤاد، اختص الله سبحانه وتعالى بها رسوله الكريم من دون العالمين.

دليلها هو القرآن الكريم في آيات سورة النجم.

ودليلها آيتي سورة القيامة. قال العلي الكبير مبينًا حال المؤمنين يوم القيامة:

﴿ وجوه يومئذ ناضرة. إلى ربها ناظرة ﴾.

والمعنى أن وجوه – والوجه فيه العينان أي أداة البصر – أهل السعادة يوم القيامة مشرقة حسنة مضيئة، من أثر النعيم، وبشاشة السرور عليها، كقوله تعالى: ﴿ تعرف في وجوههم نضرة النعيم ﴾.

﴿ إلى ربها ناظرة ﴾ أي تنظر إلى جلال ربها – بعيونها التي في وجوهها – وتهيم في جماله، فأعظم نعيم أهل الجنة رؤية المولى جل وعلا والنظر إلى وجهه الكريم بلا حجاب(١).

قال الحسن البصري: تنظر إلى الخالق، وحق لها أن تنضر وهي تنظر إلى الخالق(٢).

---

(١) صفوة التفاسير حـ٣/ ٤٨٦.

(٢) تفسير الطبري حـ٢٩/ ١٢٠.

وهذا هو مذهب أهل السنة ويؤيده ما ورد في الصحيحين لرسول الله ﷺ (إنكم سترون ربكم عياناً كما ترون هذا القمر ..) وفي صحيح مسلم قال رسول الله ﷺ: (فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم تبارك وتعالى)(١).

وأنكر المعتزلة رؤية الله في الآخرة وأولوا «ناظرة» بمعنى منتظرة تنتظر ثواب ربها. وهذا التأويل ينافي قواعد اللغة العربية لأن نظر بمعنى انتظر لا يتعدى بحرف الجر. والآية صريحة في أن حرف الجر سبق كلمة ناظرة. ومن ثم يكون معناها رؤية الخالق سبحانه(٢).

والرؤية بالبصر لأهل الجنة مجمع عليه بين الصحابة والتابعين وسلف هذه الأمة؛ كما هو متفق عليه بين أئمة الإسلام؛

قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى في قوله تعالى عن الكفرة: ﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾ [المطففين: ١٥]، حجب الفجار إلا وقد عُلِم أن الأبرار يرونه عز وجل(٣).

وبينا من قبل أن الناس في البعث سيكونون بغير غطاء بنص آيات سورة ق.

وبينا في هذا الفصل أن الرسول عند الإسراء قد صار في غير غطاء كذلك.

فالأبصار ترى ربها يوم القيامة، بإذن ربهم، والإذن للمؤمنين.

وكذلك رآه الرسول ببصره.

في تمام اليقظة.

ذهب الجمهور من علماء المحدثين والفقهاء والمتكلمين، إلى أن الإسراء والمعراج وقعا في ليلة واحدة في اليقظة بجسد النبي ﷺ ونفسه، بعد البعثة(٤).

---

(١) تفسير ابن كثير حـ٤ / ٤٥٠ وصفوة التفاسير حـ٣ / ٤٨٧.

(٢) «أبو الحسن الأشعري» / ٤٩ وصفوة التفاسير حـ٣ / ٤٨٧.

(٣) تفسير ابن كثير حـ٤ / ٤٥٠.

(٤) «الإسراء والمعراج» لشيخ الأزهر الأسبق عبد الحليم محمود / ٣٧.

وأدلة ذلك من كلام العلي الكبير في سور النجم والإسراء والتكوير.

فالله سبحانه يعلم أن الكفرة ستكذبه، فاتى بالكلمات التي تبين انه كان في كامل يقظته، فقال سبحانه ﴿ما ضل﴾ أي ما تاه فكره عن الحق إلى الشطط، ﴿وما غوى﴾ أي أخبركم بالحقيقة دون زيغ ولا غرض ﴿وما ينطق عن الهوى﴾ فليس ثمة كلمة نطق بها لهوى في نفسه، ثم يختم سبحانه أدلة اليقظة في قوله تعالى ﴿ما زاغ البصر وما طغى﴾ أي أن بصر الرسول كان يقظًا ومحددًا ومركزًا حين رأى الأفق الأعلى ورأى ربه في سدرة المنتهى وما رأى من آيات ربه الكبرى كجنة المأوى وغيرها مما ورد في أحاديث الإسراء والمعراج ..

الحكمة.

وللإسراء والعروج حكم كثيرة.

ذلك بان هذه الآية الغيبية الفريدة ما كانت إلا لتحقيق أهداف عظمى.

وقد أفصح القرآن عن حكمتين منها وأجمل الباقي فبينه الرسول.

فالأولى: قال العلي العظيم: ﴿لنريه من آياتنا﴾ فأوضح بلام التعليل عن الإسراء إنما كان ليرى رسوله من آيات الله العظيم، فيرى ربه العظيم عيانًا والعرش المجيد والأفق الأعلى المبين، ثم يرى سدرة المنتهى وجنة المأوى وما يغشى السدرة .. على نحو ما فصلته سورتي النجم والتكوير ..

فتذكر الرسول ﷺ أعظم الذكرى.

وثاني حكمة: أفصح عنها القرآن العظيم هي في قوله تعالى ﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس﴾ فكانت هذه الآية الغيبية العظمى عاملاً حاسمًا في تطهير صفوف المؤمنين من الذين أسلموا على حرف، كما أخرجت شبه الضلالة من قلوب المومنين وتركتهم وقد امتلأت صدورهم وقلوبهم بنور اليقين بالله والرسول.

فكانوا القوة الحقة التي بها قام الدين وقامت بها أول دولة إسلامية.

أما الأهداف الأخرى.

فقد جاءت مبهمة في قوله تعالى ﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾ قال قطب الصوفية أحمد البدوي تعبيراً عما صار إليه رسول الله بعد هذا الوحي بأنه معدن الأسرار الربانية وخزائن العلوم الاصطفائية.

وفرض رب العالمين في هذا المعراج فريضة الصلاة عماد الدين، كما أوحى الله سبحانه وتعالى إلى عبده بميزان الحساب: الحسنة بعشرة أمثالها والسيئة بمثلها.

أما الأهداف الضمنية فهي خطيرة حقًا.

ذلك بأن الإسراء والمعراج آية عظمى كأعظم ما يكون تعبيراً عن البعث والحشر والرجوع إلى الله العظيم ملك يوم الدين للحساب ..

ومن ثم

لم يترك ثغرة في نفوس المؤمنين ينفذ منها شيطان الشك في البعث والحساب أمام الملك الحق الأحد خالق كل شيء وبيده ملكوت كل شيء، لا شريك له، وهو على كل شيء قدير ..

المبحث الرابع: الرد على الضالين والمكذبين

الضالون جمع ضال، والضال هو التائه الذي اتبع طريقًا غير صحيح.

قال بعض المسلمين قولاً.

وقال بعضهم قولاً آخر.

وقال الذين كفروا قولاً ثالثًا.

أما قول الأولين، وهو قول جمهور المفسرين:

فقد فسروا القرآن، الغيبي منه كغيره، بأن أخضعوه لمنطق العقل مع حكم الواقع المادي.

فقالوا إن الذي رآه الرسول هو جبريل عليه السلام.

وانه رآه على هيئته الملكية مرة في الأفق الأعلى الذي هو في ظنهم أفق مطلع الشمس على الأرض، ومرة ثانية في سدرة المنتهى.

وأن قوله تعالى ﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾ أي فأوحى جبريل إلى عبد الله محمد ﷺ ثم "فتدلى" أي ازداد قربًا منه، حتى صار منه ﴿قاب قوسين أو أدنى﴾، ﴿ولقد رآه نزلة أخرى. عند سدرة المنتهى﴾ أي رأى الرسول ﷺ جبريل مرة أخرى في صورته الملكية عند سدرة المنتهى(١).

وقبل أن نبدأ في مناقشة هذا التفسير العقلاني الخاطئ.

فإننا نعجب كل العجب من هؤلاء المفسرين الأجلاء، نعجب ولنا الحق في ذلك لسبب واحد هو أنهم جميعًا قد أخرجوا الأحاديث النبوية الشريفة عن الإسراء والمعراج، ويؤمنون بها حق الإيمان، حتى أن الإمام ابن كثير رحمه الله قال: هذا الذي قاله هو الحق الذي لا شك فيه ولا مرية.

---

(١) تفسير ابن كثير حـ٤ /٢٤٧ وتفسير الجلالين/ ٤٦٦ وصفوة التفاسير حـ٣/ ٢٧٣.

وهذه الأحاديث كلها بينت بمنتهى الوضوح والصراحة القطعية أن الرسول عرج به ربه عز وجل إليه وأن الله العظيم أوحى إليه ما أوحى ومن بين ما أوحاه إلى الرسول ﷺ فريضة الصلاة، وأن الرسول كان يروح ويجيء بين ربنا سبحانه وبين موسى يحط خمسًا خمسًا منها حتى صارت خمسًا فقط وقال لموسى عليه السلام (لقد رجعت إلى ربي حتى استحييت).

فإذا كان هؤلاء المفسرون الأجلاء ينكرون في تفسيرهم هذا كله، فلنا الحق في الدهشة والعجب من أمرهم وقد صدقوا الأحاديث وقالوا عنها إنها الحق والصدق الذي لا مرية فيه !!

وإذًا فلنبدأ فهم الآيات القرآنية.

وقبل هذه البداية نكرر ما قلناه في مقدمة هذا الكتاب، وهو أن الغيب كله لله، ومن ثم فتفسيره يكون بتفسير ذات كلمات الله بقواعد اللغة العربية التي نزلت بها ﴿إنا أنزلناه قرآنًا عربيًا﴾ وبقواعد وأصول تفسير القرآن العظيم. وأنه ليس ثمة عقلانية مادية مع الغيب، فالماديات هي عالم الشهدة الذي طلب الله العظيم منا التفكر فيه وعقله بمثابة أن عالم الشهادة هو الدليل والبرهان على أنه أثر وأثارة فعل الغيب. فالله هو الغيب الأكبر وخالق بقية الغيب والشهادة. و"عقل الغيب الأكبر" محاولة خاطئة: وفاشلة، لأننا لا نعرف الغيب وبالتالي فكيف نعقله؟!، ولهذا وذاك فهو كفر، لأنك أخضعت الله وقوته وقدرته وهما من ذاته سبحانه لعقلك وفكرك، فاشركت نفسك به، وهذا شرك ومن ثم كفر(١).

لهذا كله، لزم تفسير الغيب بذات قواعد التفسير في كلمات الله سبحانه كما أنزلت بقواعد اللغة والبلاغة وأصول التفسير، ذلك بانه لا تجوز المجادلة والمماراة في مواضيع الغيب والوحي(٢) ولا في آيات الله جميعًا لقوله تعالى ﴿ما يجادل في آيات

---

(١) الإسلام هو الإيمان اليقيني بالغيب وليس الإيمان بالشهادة؛ لان الشهادة مخلوقة. فالإسلام احادي النظرة قوي البرهان. ولذلك قال ربنا سبحانه ﴿إنما تنذر من اتبع الذكر (القرآن) وخشي الرحمن بالغيب..﴾ يس.

(٢) صفوة التفاسير حـ٣ / ٢٧.

الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلاد ﴾ [غافر: ٤]. وهذا هو طريقنا مع الله العظيم وأقول كما قال أصحاب الرسول ورضي الله تعالى عن أصحابه وأرضاهم:

﴿ سمعنا وأطعنا؛ غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾

يقول العلي الكبير شارحًا للناس واقعات العروج في سورة النجم بعد أن شرح لهم وقعات الإسراء في سورة الإسراء ﴿ والنجم إذا هوى. ما ضل صاحبكم وما غوى. وما ينطق عن الهوى. إن هو إلا وحي يوحى. علمه شديد القوى. ذو مرة فاستوى. وهو بالأفق الأعلى. ثم دنا فتدلى. فكان قاب قوسين أو أدنى. فأوحى إلى عبده ما أوحى. ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾.

هذه هي الواقعة الأولى في العروج: وصول الرسول - بعد القسم ووصف حال الرسول أثناء هذه الواقعة تأكيداً لحاله الدائم من قبلها - إلى الأفق الأعلى واقترابه من ربه حتى كان على بعد قوسين أو أقل وعندئذ أوحى الله إلى عبده أي الرسول ما أوحى من علوم، وأن الرسول في أثناء هذا الوحي رأى ربه العظيم بفؤاده.

فهل كلمات سورة النجم تقول هذه المعاني ..

يقول العلي الحكيم أول ما يقول ﴿ والنجم إذا هوى ﴾ فالواو هي واو القسم، فيقسم العلي الكبير بالنجم إذا هوى (أي سقط مع الفجر)(١). ولأن النجم لا يسقط مع الفجر، فأقول إن القسم بالنجم إذا سقط على الأرض. وفي هذا القسم تخويف للكفرة، فالتخويف مفهوم ضمنيًا أنه جواب القسم. ذلك بأن النجوم لا تسقط مع الفجر وإنما تدبر أي تغرب لقوله تعالى ﴿ والنجم إذا أدبر ﴾ وقال تعالى: ﴿ وما نرسل بالآيات إلا تخويفًا ﴾ [الإسراء: ٥٩]، ذلك بأنهم يرون النجم كتلة هائلة من النار، فإذا سقطت على الأرض أهلكت النسل والحرث ولذلك يقول لنا الرحمن الرحيم ﴿ ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، إن الله بالناس لرءوف رحيم ﴾ والنجم من مكونات السماء إذ النجوم زينة.

---

(١) تفسير ابن كثير حـ٤ / ٢٤٦، قاله ابن نجيح عن مجاهد وروى عن ابن عباس وسفيان الثوري واختاره الإمام ابن جرير الطبري.

وبعد هذا القسم الذي ترتعد له الفرائص.

يقول العلي الكبير ﴿ما ضل صاحبكم وما غوى﴾ اي ان الرسول في إعلامه لكم بالإسراء والمعراج لم ينحرف عن طريق الهداية ولم يلابسه غي أي لم يلابسه جهل وفساد فكر..، ﴿وما ينطق عن الهوى﴾ أي وما يقول لكم عن غرض في نفسه، ﴿إن هو إلا وحي يوحى﴾ أي ما هو إلا قرآن يوحى به إليه؛ ﴿علمه شديد القوى﴾. وشديد القوى هو «الرحمن» لانه سبحانه هو الذي ﴿علم القرآن﴾ [الرحمن: ٢]، فالقرآن يفسر القرآن لقوله تعالى ﴿فإذا قرأناه فاتبع قرآنه. ثم إن علينا بيانه﴾ وعلماء التفسير كلهم على ذلك[١].

وإذًا فالله سبحانه هو شديد القوى ﴿إن الله هو الرازق ذو القوة المتين﴾ [الذاريات: ٥٨] ومن أسمائه الحسنى "القوي" ﴿أن القوة لله جميعًا﴾ [البقرة: ١٦٥] وأنه سبحانه ﴿ذو مرة فاستوى﴾ أي ذو بهاء وجمال لا يوصف، وهذا ما قاله العلماء عن رب العزة: إن أعظم نعيم في الآخرة هو النظر إلى وجه الله الكريم. ﴿فاستوى﴾ أي استقر أو قصد، وهذا لله وحده فهو سبحانه الذي يقصد بإرادته ما يريد فيكون، وهو وحده الذي يستوي على العرش. أي يستقر عليه ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ [طه: ٥]؛ ﴿وهو بالأفق الأعلى﴾ وقد أثبتنا على وجه اليقين ان الأفق الأعلى هو أعلى الآفاق بعد السماوات والجنات وسدرة المنتهى، وهو بكل شيء محيط. وهو الذي به عرش الرحمن جل جلاله، ﴿ثم دنا فتدلى﴾ و"ثم" اداة عطف نسق للترتيب والتراخي فتفيد وجود فرجة زمنية بين الحدث الذي قبلها وبين الحدث الذي بعدها. وإذًا فما كان من قبلها من تعليم في الأفق الأعلى، جاء بعده اقتراب ﴿ثم دنا فتدلى﴾ وازداد قربًا حتى صار على بعد قوسين ﴿فكان قاب قوسين﴾ من رب العزة جل جلاله، أو «أدنى» أقرب من قوسين (مترين تقريبًا)، وفي هذا القرب والحب ﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾ أعلم الله العظيم رسوله بخفاء أي بغير صوت مسموع، وهو معنى الوحي،

---

(١) يقول الإمام ابن كثير: فما أحسن طرق التفسير؟ الجواب ان أصح الطريق في ذلك ان يفسر القرآن بالقرآن.. فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة فإنها شارحة القرآن وموضحة له. حـ١ / ٣.

﴿ما أوحى﴾ اي الذي أوحى، لأن "ما" هنا اسم صلة. والرسول ﷺ لم يفصح عن "ما أوحى" الله به إليه في "الأفق الأعلى". وإنما قال ﷺ: (أنا مدينة العلم)، وقال ولي الله الكامل السيد أحمد البدوي عن رسول الله ﷺ وما تلقاه من ربه العظيم من علم في الأفق الأعلى: أنه ﷺ معدن الأسرار الربانية وخزائن العلوم الاصطفائية(١).

وكان رسول الله ﷺ وهو في هذا القرب وفي هذا المقام "قاب قوسين" يرى رب العزة بفؤاده. أي بنور وضع في قلبه فرأى رب العزة به، كما سبق أن بينا. وينفي العليم الخبير عن فؤاد الرسول اي كذب عما رأى. كما ان الرسول ﷺ هو الصادق الأمين. ونفي الكذب هنا جاء لأن الموقف فريد في نوعه، لم يحدث لأحد من قبل ولن يحدث لأحد من بعد. ﴿ما كذب الفؤاد ما رأى﴾ ثم قال رب العزة:

﴿أفتمارونه على ما يرى﴾ اي هل تجادلون أيها المشركون على أنه رأى ربه عز وجل؟ وأجاب سبحانه عن السؤال بتقرير أنه رآه مرة أخرى، فاثبت بذلك الأولى .. قال تعالى ﴿ولقد رآه نزلة أخرى﴾ وهذه الآية تعني أنه رآه مرة متقدمة(٢) ومذهب أهل السنة أن النبي ﷺ رأى ربه ليلة المعراج في السماوات العلى رؤية بصرية(٣).

وعن ابن عباس وعكرمة، ان الرسول ﷺ رأى ربه بعيني رأسه، وانكرت ذلك عائشة وردت الحديث الشريف بقوله تعالى: ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار﴾ [الأنعام: ١٠٣] وهذا رد في غير موضعه، فالرسول ﷺ لم يكن في المعراج بشراً مساوٍ للبشر، وإنما كان بشر كشف عنه غطاؤه، ووضع في قلبه وجوفه أنوار الإيمان والحكمة؛ وعرج به رب العزة إليه، فهذا موقف آخر تماماً له ظروفه وحالاته الخاصة به. يدل على ذلك، أنه ليس ثمة استطاعة لبشر أن يسري ويعرج حتى يتساوى مع الرسول في أن يرى الله سبحانه ببصره وبفؤاده. ثم إن الرسول لم يدرك ربه ببصره ولا بفؤاده وإنما فقط «رأى». لأن الإدراك هو الإحاطة الكاملة وهذا لم يقله الله في القرآن ولم يقله الرسول في أحاديث الشريفة.

---

(١) «السيد أحمد البدوي» للشيخ عبد الحليم محمود شيخ الأزهر السابق/١١٣.

(٢) البحر المحيط ٨/١٥٨.

(٣) صفوة التفاسير حـ٣/هامش رقم ٥ ص ٢٧٣.

وقد قرر العلي الكبير في قرآنه العظيم ان الإسراء والمعراج خصوصية مع الرسول ﷺ، فليس لأحد مهما كان، بل وليس للناس جميعاً والجن معهم ان يعرجوا من آفاق السماوات والأرض وينفذوا منها، فقال تعالى ﴿ يا معشر الجن والإنس إن استطعتم ان تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا، لا تنفذون إلا بسلطان – أي قوة الله جل جلاله – فبأي آلاء ربكما تكذبان. يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران ﴾ [الرحمن].

فلم يمنع سبحانه العروج في أقطار السماوات والأرض، وإنما منع النفاذ من هذه الأقطار. ومن ثم فقد اقتصر النفاذ منها على سيدنا رسول الله ﷺ بقوة الله في قوله تعالى: ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ﴾.

والموقف الثاني لرسول الله ﷺ

كان في سدرة المنتهى وهي جنة ينتهي عندها علم الخلائق. وفي الحديث الشريف: (ثم صعد بي إلى السماء السابعة ورفعت إلى سدرة المنتهى)

قال العلي الكبير مبيناً هذا الموقف:

﴿ ولقد رآه نزلة أخرى. عند سدرة المنتهى. عندها جنة المأوى. إذ يغشى السدرة ما يغشى. ما زاغ البصر وما طغى ﴾ [النجم].

وكلمة «عند» ظرف مكان مبهم يبينه المضاف إليه وإذاً فمكان الرؤية الثانية لرب العزة كان داخل أو بجوار سدرة المنتهى. ففي هذا الموقف رأى الرسول ﷺ ربه عز وجل مرة أخرى أو مرة ثانية، ولكن كانت الرؤية في هذا الموقف ببصر الرسول ﷺ.

ويؤكد العلي العظيم ان هذه الرؤية كانت بحق البصر، فالبصر لم يزغ ولم يطغ، والزيغ هو الميل يميناً أو شمالاً، «وما طغى» أي وما جاوز الحد الذي رأى. قال الإمام القرطبي: أي لم يمد بصره إلى غير ما رأى من الآيات، وهذا وصف أدب النبي في ذلك المقام إذ لم يلتفت يميناً ولا شمالاً(١).

(١) تفسير القرطبي ١٧/٩٨.

وقال الخازن: لما تجلى رب العزة وظهر نوره، ثبت ﷺ في ذلك المقام العظيم الذي تحار فيه العقول، وتزل فيه الأقدام وتميل فيه الأبصار(١).

ويقول الإمام عبد الحليم محمود شيخ الأزهر الأسبق، إن ابن عباس وابن مسعود وأبا هريرة رضي الله تعالى عنهم وجعفر الصادق والإمام أحمد بن حنبل والإمام ابن حجر والإمام الصاوي والإمام الألوسي والعلامة الطيبي وأبا حفص السهروردي وابن الفارض كلهم على أن الرسول ﷺ رأى ربه ببصره.

ويقول الإمام الشيخ عبد الحليم محمود، كما قلنا إن الضمائر في قوله تعالى ﴿ دنا فتدلى ﴾ و ﴿ كان ﴾ و ﴿ أوحى ﴾ والضمير المنصوب في ﴿ رآه ﴾ لله عز وجل.

ومعنى هذا أن الرسول رأى رب العزة بفؤاده في الأفق الأعلى وببصره عند سدرة المنتهى، وأن الله جل جلاله هو الذي أوحى لرسول الله ما أوحى، كما يقول العلامة الطيبي: وَحْيًا بغير واسطة بجهة التكريم(٢).

وإذا كنا دهشنا وتعجبنا في أول الأمر من جمهور المفسرين لأنه بعد ما أعلنوا إيمانهم بالأحاديث النبوية الشريفة وقرروا أنها الحق الذي لا شك ولا مرية فيه كما ورد بتفسير الإمام ابن كثير وغيره ...

فإننا في ختام الرد عليهم، ندهش ونعجب منهم أكثر وأكثر، فإنهم وبصفتهم «علماء تفسير»، قد خالفوا أول ما خالفوا قواعد اللغة العربية في تفسير الآيات القرآنية الكريمة.

وإذا كانت هذه الدهشة من منطلق مخالفة قواعد اللغة التي أنزل بها القرآن، فإنه يحسن بالقارئ أن يعرف السبب، ألا وهو طغيان العقل على النفس أو نقول بُعد الشقة عن البعثة المحمدية، قد أدت بهؤلاء العلماء الفطاحل أن يطرحوا قواعد اللغة العربية جانبًا، وأصول التفسير في الجانب الثاني، ويسلكوا بعقلهم في الغيب!! وهذا باطل، وهو ما أدى إلى الفساد الذي ذخرت به التفاسير القرآنية في معظم آيات الغيب والوحي.

---

(١) تفسير الخازن ٤/٢١٦.

(٢) «الإسراء والمعراج» ١٠٨/ - ١١١.

أما القول الآخر لبعض المسلمين وهم الكتاب المحدثين.

فإن اظهرهم إطلاقًا هو ما كتبه المرحوم دكتور محمد حسين هيكل باشا في «حياة محمد»؛ في الفصل الثامن الذي أورد به «الإسراء والمعراج» والذي لم يات به ولا حديثًا نبويًا واحداً عن هذه الآية الغيبية !!..

وإنما، مع مزيد الأسف - أورد ترجمة لما كتبه أحد المستشرقين، قال إن عبارتها طلية ومستخلصة من كافة كتب السيرة[1] مع أنها مملوءة زيفًا وتزويرًا كما أورد حديث أم هانيء هند بنت أبي طالب الذي اتخذه المزيفون سنداً لهم في قولهم - مع أنه لا يصلح لذلك - ثم أورد تأييداً لوجهة نظره رواية عائشة عن الإسراء ..

وقال المؤلف! إن هناك رأيًا يقول إن الإسراء كان بالجسد، أما المعراج فكان بالروح. ورأى آخر يقول إن الإسراء والمعراج كانا بالروح، ثم يقول: فمما لا شك فيه ان لكل رأى من هذه الآراء سنداً عند المتكلمين، وأنه لا جناح - أي لا إثم - على من يقول بواحد دون غيره من هذه الآراء؛ فمن شاء ان يرى ان الإسراء والمعراج كانا بالروح فله من السند ما قدمنا. وما تكرر في القرآن وعلى لسان الرسول ﴿إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنّما إلهكم إله واحد﴾ [الكهف: ١١٠] وأن كتاب الله وحده هو معجزة محمد و﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ [النساء: ٤٨][2].

ثم يقول دحضًا للذين يقولون بان الإسراء كان بالجسد: (ويدلل الذين يقولون إن الإسراء بالجسد على رأيهم بأن قريشًا لما سمعت بامر إسرائه وساله الذين آمنوا به عن آية ذلك، فإنهم لم يسمعوا بشيء من مثله، فوصف لهم عيراً مر بها في الطريق، فضلت دابة من العير فدلهم عليها، وأنه شرب من عير اخرى وغطى الإناء بعد أن شرب منه!! فسألت قريش في ذلك فصدقت العيران ما روى محمد عنهما. واحسبك لو سالت الذين يقولون بالإسراء بالروح في هذا لما رأوا فيه عجبًا بعد الذي عرف العلم في وقتنا الحاضر من إمكان التنويم المغناطيسي للتحدث عن أشياء واقعة في جهات نائية. ما

(١) حياة محمد / ٢٠٣ - ٢٠٥.

(٢) «كتاب حياة محمد»/ ٢٠٦ - ٢٠٧.

بالك بروح يجمع الحياة الروحية في الكون كله ويستطيع بما حباه الله من قوة أن يتصل بسر الحياة من أزل الكون إلى أبده؟)(١).

وانتهى رأي الكاتب عند هذا الحد ..

ولو تمعنا بسيطًا في قول الكاتب، لرأينا جراته في قوله، وفهمه الخاطئ: وأنه لا جناح على من يقول بواحد دون غيره من هذه الآراء لأن الرسول بشر مثلكم ولأن الله يغفر ما يشاء إلا ان يشرك به وأن معجزة محمد كتاب الله وحده.

بهذا الفهم الخاطئ قال أيضًا في وصف أسباب هزيمة جيش أبرهة على مشارف مكة: كان وباء الجدري قد تفشى بالجيش وبدأ يفتك به وكان فتكه ذريعًا لم يعهد من قبل قط، ولعل جراثيم الوباء جاءت مع الريح من ناحية البحر، وأصابت العدوى أبرهة نفسه ..(٢).

والله العظيم يقول: ﴿ وأرسل عليهم طيراً أبابيل. ترميهم بحجارة من سجيل. فجعلهم كعصف مأكول ﴾ [الفيل: ٣ – ٥].

طيراً: قالوا طيراً من البحر أي من جهة البحر واختلفوا في وصف لونه أصفر أم أسود أم أخضر كما ذكروا لون منقاره. وكلهم على انه طير دون الحمام أي أقل حجمًا من الحمام له منقار وأرجل فضلاً عما للطير من جناحين. وكان بعضهم شهود عيان لما حدث لقرب وقوعه من تاريخ البعثة المحمدية.

أبابيل: قال البعض، أبابيل أي جماعات(٣) وقال ابن عباس والضحاك: أبابيل أي يتبع بعضها بعضاً. وقال الحسن البصري وقتادة: الأبابيل: الكثيرة.

سجيل: الطين المتحجر. وهو ما قاله السدي عن عكرمة عن ابن عباس.

وأنه ما كان يرمي أحد بحجارة في رأسه إلا خرجت من دبره، وإن رميت في

---

(١) نفس المرجع السابق/٢٠٩.

(٢) نفس المرجع/١١٩ و١٢٠.

(٣) البحر المحيط ٨/٥١١.

جنبه خرجت من الجنب الآخر(١).

وقد أثبت علم «الجسيمات الطبيعية» وهو الذي يبحث في دقائق الذرة أن من الجسيمات ما يخترق الكرة الأرضية في لا وقت!!

ومن هذا التفسير اللغوي والعلمي لكلمات الله، نرى مدى التحريف الذي قاله كاتب: «حياة محمد» فجعل الحجارة من سجيل جراثيم الجدري، وجعل الطير ريحًا، وجعل الرمي بالحجارة عدوى بجراثيم الجدري. هذا فضلاً عن تجاهله لجميع القواعد الأصولية اللغوية. !!؟

وقال الكاتب نفسه أيضًا عن واقعة شق صدر الرسول ﷺ، وهي واقعة غيبية أوردها العلي الكبير قرآنًا عظيمًا يتلى في سورة الشرح، فينعي الكاتب على المؤرخين العرب والمسلمين عدم إنكارهم كل ما لا يدخل في معروف العقل من حياة النبي حتى لا يتركوا سندًا لغيرهم يطعن به. فقال الكاتب: وأن ما يشير القرآن إليه – أي في سورة الشرح – إنما هو عمل روحي بحت، والغاية منه تطهير هذا القلب وتنظيفه ليتلقى الرسالة القدسية خالصًا ويؤديها مخلصًا تمام الإخلاص محتملاً عبء الرسالة المضني(٢).

وواضح من ذلك مدى التأول على كتاب الله، فلم يفسر القرآن بألفاظه وحروفه ولم يؤمن بحديث الرسول عن شرح صدره، مرتين مرة في صباه ومرة عند الإسراء. وإنكار الحديث الصحيح كفر لأنه عدم تصديق للرسول الذي أمرنا الله سبحانه بالطاعة له ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ [النساء:٨٠]، كما أن إجماع العلماء على أن كتاب الله هو الدليل الشرعي الأول يليه سنة رسوله ﷺ يليها إجماع المسلمين. وأحاديث الرسول ورد سندها في القرآن العظيم في قوله تعالى: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم﴾ وقوله تعالى ﴿وأنزل الله عليك الكتاب – أي القرآن –

(١) تفسير ابن كثير حـ٤ / ٥٥١ وعلى هذا تفسير الجلالين/ ٥٥٠.

(٢) «حياة محمد» /١٢٨.

والحكمة - أي السنة - وعلمك ما لم تكن تعلم. وكان فضل الله عليك عظيمًا ﴾ [النساء: ١١٣]. وقوله تعالى ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾.

فإنكار الأحاديث النبوية، إنكار للسنة، وإنكار السنة إنكار لأدلتها في القرآن..

وعندما يقول العلي العظيم ﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ والشرح هو الشق، فإن المعنى هو شق الصدر. ولما كان الرسول بشراً، فإن شق صدر الرسول لا بد وأن يكون قد تم له كما يتم للبشر. ولكن ولأن الذي شق هو جبريل عليه السلام، فإن ذلك يتم بطريقة تختلف عما يكون من بشر لبشر. لذلك قال الرسول بأن الشق تم بلا وجع، وأنه ليس ثمة دماء، وأنه قد وضعت عنه علقة، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ ووضعنا عنك وزرك ﴾، والمنطقي أن إخراج شيء من داخل القلب لا بد وأن يسبقه شق هذا الصدر وشق هذا القلب .. فهو شرح خاص بالرسول لا يتماثل مع شرح قلب موسى أو المؤمنين الذي ينحصر في دخول نور الإيمان في القلب كما تدخل الأشعة في الجسد.

وما يقوله الرسول هو الحق.

من هذا البيان نعرف السبيل الذي اتبعه كاتب حياة محمد في كتابه، سبيل الأخذ بالعقلانية المادية، وما درى أن العقلانية إنما تكون مع الشهادة كدليل لإثبات الغيب، وما درى أنه لا سبيل للعقل في إدراك الغيب الذي ليس له أثر مادي. لأن الغيب في هذه الحالة يعرف من كلمات صاحب الغيب وحده.

وأنه إذا استعمل العقلانية في أول أسس الدين وهو الوحي لرسول الله. فماذا عساه يقول: لن يقول، تبعًا لعقلانيته إلا الإنكار، ولكنه لم يقل، فلماذا إذًا يؤمن بالقرآن؟! أيضًا لم يقل لنا السبب العقلي الذي جعله يصدق ذلك، وأين العقلانية في بداية الخلق من تراب وكذلك البعث !!

تعارض في القول للتعارض في السبيل، ومن ثم يضل عن السبيل الحق ويضل بالتالي عن القول الحق.

لقد قال الكاتب - رحمه الله وغفر له - ما قال مُحرفًا كلمات الله، فاستبدلها بغيرها، كما بينا من قبل في سورتي الفيل والنجم.

والله العظيم يقول: ﴿واتل ما أوحي إليك من كتاب ربك، لا مبدل لكلماته، ولن تجد من دونه ملتحداً﴾ [الكهف: ٢٧] و﴿لا تبديل لكلمات الله﴾ [يونس: ٦٤].

ومن ثم، فإن تبديل كلمة قرآنية بكلمة أخرى، وكذلك القول بمعنى لا يطابق معنى الكلمة القرآنية، هو تحريف للقرآن العظيم، لأن القرآن هو كلمات الله العظيم، فكيف بغير كلماته أو بكلمات غيره !!

أما عن القول بأن الإسراء والمعراج قد تم بالروح، وأن الكون كله اجتمع في روحه فوعاه منذ أزله إلى أبده، وصوره في تطور وحدته إلى الكمال عن طريق الخير والفضل والجمال والحق في مغالبتها وتغلبها على الشر والنقص والقبح والباطل بفضل من الله ومغفرة، ثم استشهاده على ذلك بدليل علمي هو التنويم المغناطيسي الذي يعطي للنائم القدرة على التحدث عن أشياء واقعة في جهات نائية(١).

فذلك قول لا يعدو معناه صور التلاعب بالألفاظ شأن المتفلسفين الماديين.. كما أن التدليل قياساً أو تمثيلاً بالمنوم المغناطيسي، فيه إهدار كامل للعقلانية التي يدعيها الكاتب، ذلك بأن القياس العلمي لا بد وأن يتطابق حتى يكون صحيحاً.

والرسول ﷺ، لم يدع أحد ولن يدعي، أنه كان منوماً تنويماً مغناطيسياً، عندما قال إنه أسري به إلى بيت المقدس ثم عرج به عبر السماوات كلها ونفذ منها إلى الأفق الأعلى حيث كان في حضرة ربه؛ وإنما الادعاء يكون صحيحاً أو باطلاً بقدر فكر المدعي وسبيله الذي يسير فيه بقوله وفكره وحججه.

ولما كان سبيل الكاتب هو الإنكار للقرآن والإنكار للحديث بدعوى أنه لا جناح على من يقول بذلك إذ أن الرسول بشر والله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك؛ وأنه لأنه لا يشرك بالله – في ظنه – فإنه مهما قال فلا جناح عليه ..

فقد فات الكاتب – رحمه الله – أن من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من

---

(١) المرجع السابق/٢٠٧ و٢٠٩.

النار، وأن القول بالرأي – وهو هنا ثابت في تبديل كلمات الله – إنما هو الشرك بعينه.

وإذا كان الكاتب قد أورد أساساً: قولين يرد بهما الإسراء والمعراج بالجسد والروح معًا، هما قول لعائشة وقول لمعاوية ابن أبي سفيان، فقد فاته أن عائشة كانت طفلة في السابعة من عمرها وقت آية الإسراء والمعراج، أما معاوية فمن هو من المسلمين إلا طليق ابن الطليق رئيس الأحزاب..

وهل قول معاوية بأنه "رؤيا" صادقة إلا قول يطعنه البهتان في قلبه ويدل على كذبه من ذات ألفاظه.

ذلك بأن الرؤيا الصادقة هي الرؤيا التي يراها الإنسان في نومه ثم تتحقق في الواقع وفي حركة الحياة تمامًا كما رآها.

ولأن معاوية ابن أبي سفيان مفتري على الله ورسوله، فقد أنطقه رب العالمين ألفاظًا حملت مع كذبه دليل كذبه وهي كلمة «صادقة» وكان الأحرى بالكاتب أن يتحرى المعنى الحق، فيتبين أن كلمة «صادقة» يعني أنه بعد أن رآها في المنام، قد حدثت بعد ذلك في الواقع كما رآها من قبل تماماً في المنام. يعني بعد أن كانت "منامًا" صارت «حقيقة واقعة» ؟!!

وأخيراً، فإن الكاتب لم يذكر لنا دليلاً واحداً على أن الإسراء والمعراج كانا بالروح فقط،

لم يذكر لنا دليلاً لا من القرآن ولا من السنة ولا من منطق العقل مع آيات الغيب!!

وكل ما قاله بالمعنى ولم يقله باللفظ هو أنه لا يصدق القرآن ولا يصدق الرسول. لم يصدقهما بعقله ...

لم يصدق القرآن العظيم الذي قاله ربنا ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ﴾ ولو كان أسرى بروح عبده ما أعجز الله البيان ..

ولم يصدق القرآن العظيم الذي قال: ﴿ ماضل صاحبكم وما غوى ﴾ و ﴿ ما

كذب الفؤاد ما رأى ﴾ و ﴿ أفتمارونه على ما يرى ﴾ و ﴿ ما زاغ البصر وما طغى ﴾ والروح لا تضل، والفؤاد والبصر من أدوات الجسد الذي نفخ فيه الروح؛ قال الخالق العظيم: ﴿ قل هو الذي أنشأكم – أي خلقكم – وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون ﴾ [الملك: ٢٣]. أي أن الله خلق الجسد ثم جعل فيه السمع والبصر والفؤاد بعد أن نفخ الروح فيه. فالسمع والبصر والفؤاد هما أدوات الجسد الحي. أما الجسد وحده بلا نفس فلا شيء من هذا فيه، وأما النفس وحدها، فإن هذه – أي البصر والسمع والفؤاد – ليست من أدواتها في الحياة خالصة إلا مع الجسد(١).

وقال آخرون إن الإسراء والمعراج "رؤيا" منامية.

وقالوا تدليلاً على ذلك بأمرين:

الأول: ﴿ وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس ﴾ [الإسراء: ٦٠].

والثاني: قول أم هانيء أي هند بنت أبي طالب ابنة عمة الرسول التي كان الرسول نائمًا عندها ليلة الإسراء. حيث قالت: إن رسول الله نام عندي تلك الليلة في بيتي فصلى العشاء الآخرة، ثم نام ونمنا، فلما كان قبيل الفجر أهبنا رسول الله، فلما صلى الصبح وصلينا معه قال: يا أم هانيء لقد صليت معكم العشاء الآخرة كما رأيت بهذا الوادي، ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه، ثم قد صليت الغداة معكم الآن كما ترين فقلت له: يا نبي الله لا تحدث به الناس فيكذبوك ويؤذوك.

قال: والله لأحدثنهموه.

فيقول الذين يدعون أن الإسراء والمعراج كان رؤيا منامية، إن القرآن صريح في قوله تعالى ﴿ الرؤيا التي أريناك ﴾ أي رؤيا منامية(٢) وأن حديث أم هانيء يقطع بأن الرسول لم يترك بيتها من وقت العشاء الآخرة حتى صلاة الفجر غداة اليوم التالي.

ومن ثم فالإسراء والمعراج رؤيا منامية.

---

(١) ملك الروح ينفخ النفس في الجنين على رأس ١٢٠ يومًا. فالروح هو جبريل أو الملك المختص بنفخ الروح أو القرآن ومن هنا نرى تعبير كتاب "حياة محمد" غير سليم.

(٢) «رؤيا» في اللغة يعني رؤيا منامية، و «الرؤية» يعني الرؤية البصرية.

والذين قالوا إنها رؤيا منامية هم معاوية ابن أبي سفيان والمحدثون فقط.

فإذا جاءت على سبيل الرؤيا المنامية - كما يقول البعض - كان لا بد وأن يكون معها القرينة التي تفيد الرؤيا المنامية.

وخير دليل قول العليم الخبير:

﴿ يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك .. ﴾ [الصافات: ١٠٢].

فجاءت كلمة «المنام» لتبين معنى الفعل "أرى".

وقد تجيء هذه القرينة رمزية كما في قوله تعالى:

﴿إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكبًا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين. قال يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدون لك كيداً﴾ [يوسف: ٤ - ٥]. وكذلك في رؤيا فرعون للسبع بقرات والسبع سنبلات.

أما في الإسراء والمعراج، فإن الله فعل العكس تأكيداً على الرؤية الحقة للحق والحقيقة والواقع الذي رآه الرسول بالفؤاد والبصر. فبعد أن استعمل كلمة «الرؤيا» فقط في آية الإسراء ٦٠، أكد على أنها رؤية حقيقية فقال تعالى ﴿ما كذب الفؤاد ما رأى﴾ وكلمة "رأى" ليست من مادة «الرؤيا» وإنما هي من مادة «الرؤية» يعني الرؤية بالبصر طبقًا لقواعد اللغة و ﴿ما زاغ البصر وما طغى﴾ فأتى بقرينتي الحياة اليقظة تأكيداً للرؤية اليقظة التي أريها رسول الله ﷺ في الإسراء والمعراج.

ولأن هذا هو الفهم الحق فقد قال ابن عباس:

هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أُسري به والشجرة الملعونة هي شجرة الزقوم[1]. رواه البخاري وغيره من أصحاب السنن.

ولأن العرب كانوا أهل فصاحة وبلاغة، فقد فهموا ما قاله الرسول على أنه أمر واقع له في يقظته بجسده ونفسه، ولذلك دُهشوا له وتملكهم منه العجب ولم يصدقوه فكذبوه.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٤ /٢٤٦.

لذلك قال الإمام ابن كثير: لو كان منامًا لما كان فيه كبير شيء ولم تكن مستعظمة، ولما بادرت قريش إلى تكذيبه، ولما ارتدت جماعة ممن كان قد أسلم(١).

والقاعدة في التدليل بالإسانيد أن يؤتى بكل الآيات القرآنية التي تتكلم عن الموضوع وكذلك الأحاديث النبوية الشريفة التي رواها رواة الأحاديث الأعلام. فإذا استند كاتب إلى حديث صحيح وترك حديثًا آخر، فهو مخطئ في تدليله، وإنما يجب عليه كتابة الأحاديث كلها فإما أن تتساند وإما أنها لا تكن صحيحة في إحداها، وأم هانئ لها حديث آخر رواه الحافظ أبو القاسم الطبراني بسند قوي جداً عن عبد الأعلى بن أبي المساور عن عكرمة عن أم هانئ قالت: بات رسول الله ﷺ ليلة أُسري به في بيتي ففقدته من الليل فامتنع مني النوم مخافة أن يكون عرض له بعض قريش فقال رسول الله ﷺ: (إنما جبريل عليه السلام أتاني فأخذ بيدي فأخرجني فإذا على الباب دابة دون البغل وفوق الحمار فحملني عليها ثم انطلق حتى انتهى بي إلى بيت المقدس) وواضح من الحديث أن أم هانئ قد أوضحت أنها لم تجد الرسول في بيتها أثناء الليل. وهو الظرف الذي كان فيه الإسراء والمعراج(٢) وهو يكمل الحديث السابق.

ومن هنا نجد أن حديث أم هانئ يساند الإسراء والمعراج بالنفس والجسد، وليس العكس كما ادعوا كذبًا.

وقالوا أيضًا

إنه لم ير ربه ولكنه رأى جبريل فأوحى إليه

وإذا كنا قد فنّدنا هذا القول من قبل، فإنما لأننا نحب أن نختم هذه المقالة التي قالها البعض بواقعة هامة تبين لكل ذي فهم وبصر أو ألقى السمع وهو شهيد، وتؤكد، الاثنين معًا جميعًا، أن الرسول ﷺ إنما عرج به ربه عز وجل إليه، ورأى ربه عز وجل وعلمه ربه عز وجل ودنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى من ربه عز وجل فأوحى الله سبحانه وتعالى نفسه ومباشرة إلى رسوله ﷺ دون وساطة.

---

(١) المرجع السابق.

(٢) المرجع السابق جـ٣/ ٢١ و٢٢.

ذلك دليله التشهد آخر شعائر الصلاة الذي نقول فيه ما قاله الرسول ﷺ وما رد به العلي الكريم وقالته الملائكة.

فاول ما حضر الرسول أمام عظمة ربه عز وجل خر ساجداً فامره ربه بالقعود فقعد وقال التحيات المباركات لله والصلوات والطيبات.

فرد عليه العلي العظيم التحية:

السلام عليك أيها النبي وررحمة الله وبركاته.

فقالت الملائكة من حول العرش:

السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين.

وقالت كل الملائكة: اشهد ان لا إله إلا الله واشهد ان محمداً عبده ورسوله.

وكل المسلمين، يختمون صلاتهم بهذا التشهد الذي هو من مادة الشهادة .

شهادة الرسول ﷺ لربه عز وجل بفؤاده. وسجل العلي الكبير هذا قرآناً فقال تعالى: ﴿ وإذا جاءوك – أي الكفرة – حيوك بما لم يحيك به الله ﴾ [المجادلة: ٨] أي لا يقولون لك السلام عليك ورحمة الله وبركاته تحية لك، كما حياك بها ربك عندما جئته بالأفق الأعلى.

كان هذا، بعد ان خرَّ الرسول ساجداً امام ربه واصبح «أو أدنى»؛ فلما اعتدل من السجود، أسرع بتحية الله العلي العظيم فرد ربه له التحية.

قال العلي الكبير:

﴿ فكان قاب قوسين أو أدنى ﴾ [النجم: ٩].

وكلمة "أو" تستعمل في اللغة لإثبات الخبر عنه ونفي ما زاد عليه(١).

كما تجئ بمعنى "الواو" كما في قوله تعالى: ﴿ ولا تطع منهم آثماً او كفوراً ﴾

---

(١) تفسير ابن كثير حـ٤/ ٢٤٩.

وتجئ بمعنى "بل" كما في قوله تعالى: ﴿فهي كالحجارة أو أشد قسوة﴾ [البقرة] وكذلك كما في قوله تعالى ﴿فكان قاب قوسين أو أدنى﴾ [النجم] (١). وقال ابن جرير الطبري أن معناها عندكم وقال آخرون المراد بذلك الإبهام على المخاطب.

وقال علماء اللغة المحدثون:

تستعمل "أو" لإفادة التخيير مثل: خذ هذا أو ذاك.

وتستعمل لإفادة الإباحة كقوله تعالى: ﴿ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم أو بيوت آبائكم﴾ [النور: ٦١] كما تستعمل لإفادة الشك وعدم العلم كما في قوله تعالى ﴿قال لبثت يومًا أو بعض يوم﴾ [البقرة: ٢٥٩] وتستعمل للتشكيك والإيقاع في الحيرة كما في قوله تعالى: ﴿فمن حج أو اعتمر﴾ [البقرة] كما تستعمل للعدول عن شيء إلى آخر مثل: زر إبراهيم أو دع ذلك(٢).

فما هو إذًا سبب استعمال كلمة "أو" في قوله تعالى ﴿.. أو أدنى﴾؟ الآية الكريمة تعبر عن المسافة التي كانت بين رب العزة ورسوله ﷺ في الأفق الأعلى. فهل هي لإثبات أن المسافة كانت أقل من قوسين ومن ثم تنفي أنها كانت قدر قوسين. أي هي تبين أن المسافة لم تكن قوسين ولكنها بمعنى بل فكانت أقل من قوسين.

هذا المعنى يقوله الإمام ابن كثير عن المسافة وليس طرفيها(٣).

أم أن السبب في "أو" لأحد الاستعمالات السابق بيانها.

إن هذه الحقيقة لا تعرف إلا بمعرفة حقيقة الموقف الذي كانت فيه المسافة ومن ثم يكون تحديدها.

فعندما كان الرسول ﷺ من ربه سبحانه قاب قوسين أو أدنى، فإن ذلك لا بد وأن

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ / ١١٤.

(٢) كتاب «النحو والصرف» / ١٠١ للدكتور رمضان عبد التواب عميد كلية آداب عين شمس وأستاذ اللغة العربية.

(٣) تفسير ابن كثير جـ٤ / ٢٤٩.

يكـون لإثبات مسـافتين، كان الرسول ﷺ فيهـما من ربه عـز وجـل لأن الموقف لا يحتمل غير ذلك.

وتفصيل ذلك ببيان واقعات هذا الموقف.

فالرسول أول ما كان من ربه، فقد كان واقفًا على بعد قوسين، فخر ساجدًا، فاقترب بسجوده بمسافة طول جزعه ورأسه من ربه، ومن ثم صار «أدنى» أي أقرب.

قال تعالى: ﴿واسجد واقترب﴾ [العلق: ١٩].

ذلك بأن الموقف لا يترك مجالاً لنفي شيء وإثبات آخر، ولا تخييرًا ولا إباحة ولا تشكيكًا.

إنما هي أعظم آية في الوجود للبشر.

الآية التي تقول لهم: إنكم مبعوثون، وإلى ربكم ترجعون، وتحاسبون، وتثابون أو تعاقبون.

لذلك؛ ينكرها المبطلون.

فماذا قال الذين كفروا ربهم؟

تحدثنا كتب السيرة المطهرة والأثر.

بأنه لما سمع كفار قريش حديث رسول الله ﷺ، تولتهم الدهشة ودار بهم العجب، وضربوا يدًا بيد، وانصرفوا عنه مكذبين، فانزل الله العظيم سورة النجم يقسم به سبحانه في صورة تخوفهم حتى يعملوا أبصارهم في الكون ويعقلوا آياته ويخافوا رب العالمين، فلما تداولوا الأمر بينهم، خلصوا نجيًا إلى أنه مجنون.. فعاد الرحمن الرحيم رب العالمين، يدعوهم إلى آيات الكون ويقسم بها، ﴿فلا أقسم بالخنس. الجوار الكنس. والليل إذا عسعس. والصبح إذا تنفس. إنه لقول رسول كريم﴾ [التكوير: ١٥ – ١٩].

والقسم في القرآن ليس وسيلة لبيان الصدق كما هو عند الناس، ولكنه في القرآن،

أسلوب يدعو الناس إلى المقسوم به ويلفتهم إليه بشدة للتفكر فيه، وبمعرفتهم حقيقته يدركون حقيقة العمل أو الشيء المقسوم عنه.

فالله سبحانه يقسم بالكواكب العظيمة وبعظمة القوة التي بها يتعاقب عليهم الليل والنهار، أن الإسراء والمعراج قول رسول كريم ذي قوة أي حظوة وحب شديد عند رب العالمين ذي العرش المجيد، وأن هذا الرسول مطاع لدى أصحابه أمين على رسالته، وليس بمجنون كما تدعون ..

﴿إنه لقول رسول كريم. ذي قوة عند ذي العرش مكين. مطاع ثم أمين. وما صاحبكم بمجنون. ولقد رآه بالأفق المبين﴾ [التكوير: ١٩ - ٢٣].

فأنهى العلي الكبير وصف الرسول بأنه ليس مجنونًا وأردف بآية المعراج وأعظم واقعة فيها ألا وهي رؤيته ﷺ لربه عز وجل بالأفق المبين أي الحق الشديد الوضوح وهو الأفق الأعلى الذي كان فيه من ربه سبحانه قاب قوسين أو أدنى؛

ذلك بأنه عندما يكتفي العلي العظيم بذكر أعظم واقعة في آية المعراج بعد هذا القسم، فإنها أحرى بإثبات ما هو أدنى منها، ومن ثم اكتفت آيات سورة التكوير بذكر واقعة رؤية رب العالمين، وعطفت بعدها فذكرت ما تلاها من واقعات في إشارة مجملة فقال سبحانه وتعالى: ﴿وما هو على الغيب بضنين﴾ ثم نفت عن رسول الله ﷺ، أن يكون قد دخل قوله زيغ شيطان فقال جل جلاله ﴿وما هو بقول شيطان رجيم﴾.

وإذًا، وقد سَدَّ الله العظيم كافة السبل على الكفرة فقد قال لهم:

﴿فأين تذهبون﴾

فلا سبيل للمجادلة والمماراة لأنه قرآن عظيم نزل يذكركم.

﴿إن هو إلا ذكر للعالمين﴾.

﴿لمن شاء منكم أن يستقيم﴾ [التكوير: ٢٤ - ٢٨].

وكان هذا القول هو القول الفصل لأنه سبحانه جعله التحدي للإنس والجن الاثنين جميعًا أن يأتوا بمثله.

وإذا كان الإسراء والمعراج قد سجلا تسجيلاً عظيماً بالقرآن المجيد؛ إذاً فالتحدي بالقرآن هو آية إثباته عند الذين كفروا صاحب القرآن.

قال العلي الكبير:

﴿ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين. فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة، أعدت للكافرين ﴾ [البقرة: ٢٤ - ٢٤].

وإذ نختم هذا المبحث، فخير رد ما قاله علماء الأزهر الشريف في التفسير الوسيط: أن الله سبحانه وتعالى كلمَّ محمداً ﷺ بدون وساطة جبريل ليلة الإسراء والمعراج كما ورد في أحاديث الإسراء والمعراج في كتب الصحاح[١].

وهذا هو الذي يتفق تماماً مع تفسيرنا لكل واقعات الإسراء والمعراج.

(١) التفسير الوسيط/ ٩٧٩.

المبحث الخامس: التحقيق العلمي

الإسراء لغة هو السير ليلاً كما قدمنا، ولكنه في واقعة آية الإسراء والمعراج قد جاء على أنه آية غيبية لله سبحانه من حيث السرعة الآنية التي تم بها.

والوصول حاليًا ليلاً أو نهارًا من مكة إلى بيت المقدس، بطائرة نفاثة يتم في دقائق.

وإذًا فالتحقيق العلمي أثبت القدرة في الوصول بين المسجدين في دقائق، وهذه قدرة البشر، المشابهة.

فما بالنا بقدرة الله جل جلاله.

إذًا فنحن الآن، لا نستبعد ما حدث في واقعة الإسراء واقعيًا، لأننا نملك الوسائل التي تستطيع أن تصل ما بين الحرمين في دقائق.

ولما كان هذا هو مكنة الإنسان وقدرته.

فمما لا ريب فيه، أن قدرة الله سبحانه أعظم.

وما دامت قدرة الإنسان تتم في فسحة زمنية مهما قلت هذه الفسحة فإنه مما لا شك فيه، لا بد وأن تكون القدرة الإلهية بغير مشابهة مع القدرة الإنسانية.

ومن ثم

لزم يقينًا أن يكون الإسراء قد تم آنيًا أي في التو واللحظة.

أما المعراج

وهو الصعود في السماء بمصعد غيبي وهو معراج من معارج الله سبحانه ..

فقد يلزمنا أن نعلم ما السماء ؟!

أين هي أولاً؟

قال العلميون والعلمانيون: الأرض تتكون من ثلاث:

اليابس والماء والهواء. فاعتبروا الغلاف الجوي جزء من الأرض وفسروا مقولتهم هذه بأن الأرض تمسك الغلاف الجوي بقوة جاذبيتها.

وقال العلميون والعلمانيون: قولاً آخر.

فقالوا بأن السماء تبدأ من الهواء فوق الأرض مباشرة، لأن السماء من سما أي ارتفع، ولأن الهواء يرتفع عن الأرض، فهو بداية السماء ...

وقال علماء الأزهر الشريف:

السماء: هي كل ما سما وعلا فوق الأرض، ويشمل أيضًا الغلاف الهوائي المحيط بالأرض(١).

وقالوا قولاً آخر: في تفسيرهم لقوله تعالى: ﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح﴾: إن المجرات بنجومها وكواكبها، هي المصابيح التي زين الله بها السماء الدنيا - أي الأولى - وحيث كانت زينة لها فليست هي السماء الأولى ولا غيرها من السماوات، ألا ترى أن عقد اللؤلؤ زينة لصدر الفتاة، وليس هو صدر الفتاة بل غيره(٢).

ومن هذا نرى أن علماء الأزهر الشريف قد تابعوا قولاً ثم قالوا آخر، فهم في قول مختلف، ولأنهم اعتمدوا على تفسير ألفاظ بمعناها تاركين كلمات وآيات الله دون تفسير، فقد وقع القول متعارضًا.

فأين السماء؟

قال الخالق العظيم:

﴿وجعلنا السماء سقفًا محفوظًا...﴾

---

(١) التفسير الوسيط /٦٧.

(٢) التفسير الوسيط /٧٠ وكذلك قال صاحب صفوة التفاسير حـ٣ /٢٩٧ - ٢٩٨.

ولأن السقف لا بد وأن يكون بناء، قال العلي الكبير:

﴿ الذي جعل لكم الأرض فراشًا والسماء بناء ... ﴾ [البقرة: ٢٢].

إذًا فالسماء سقفًا وأن هذا السقف بناء ومرتفع ارتفاعًا كبيرا لقوله تعالى:

﴿ والسماء رفعها ﴾ [الرحمن: ٧].

﴿ رفع سمكها فسواها ﴾ [النازعات: ٢٨] أي جعلها عالية البناء(١).

وما دام ذلك

فلا بد وأن يكون بينه وبين المسقوف مكانًا خاليًا من البناء

فقد قال سبحانه وتعالى:

﴿ الله الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ﴾ [السجدة: ٤].

فأخبرنا العلي العظيم أن الخلق ثلاث: السماوات والأرض وما بين السماوات والأرض.

وكلمة "بين" ظرف مكان مبهم يجليها المضاف إليها وهما الاسمان اللذين يليانها.

وإذًا فيوجد مكان بين السماوات والأرض؛ ليس من السماوات وليس من الأرض.

هذا المكان أخبرنا الخالق العظيم ماذا وضع فيه فقال جل جلاله:

﴿ وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماوات والأرض.. ﴾ [البقرة: ١٦٤] أي أن "المكان" الواقع بين السماوات والأرض، فيه رياح وسحب ... أي هو الغلاف الجوي بالتعبير المعاصر ..

وإذًا فالأرض هي الأرض التي نعيش عليها.

والسماء هي التي بعد الغلاف الجوي. فأين هذا السقف الذي تبدأ منه السماء؟.

عندما شرع الناس في الوصول إلى القمر، فقد استكشفوا الغلاف الجوي، فوجدوا أنه يخف كثافة كلما صعدنا فيه حتى إذا ما انتهى الهواء تمامًا، على ارتفاع حوالي ٣٠٠ كيلو مترًا من سطح الأرض، وجدوا حزامًا مجدولاً من الأشعة الكونية المتأينة،

صُلْبًا وإن كان شفافًا تمامًا، بلغت صلابته أنه إذا اصطدم به صاروخ هائل ارتد ثانية إلى الأرض، ومن ثم بحثوا عن أبواب في هذا الحزام الكوني الهائل حتى عثروا على أبواب فيه.

إذًا هذا الحزام الكوني ...

هو بداية السماء، هو سقف الأرض ومن بعده يكون السماء وهو سقف لأنه يحجز الأشعة الكونية المتأينة المهلكة التي تملأ السماء من السقوط على الأرض فتهلك كل ما فيها ومن فيها.

لذلك قال العلي الكبير ﴿ سقفًا محفوظًا ﴾.

والدخول من باب هذا السقف يؤدي مباشرة إلى السماء الدنيا – أي الأولى – قال الخالق العظيم:

﴿ ولو فتحنا عليهم بابًا من السماء فظلوا فيه يعرجون. لقالوا إنما سُكِّرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ﴾ [الحجر: ١٤ – ١٥].

ذلك بأن الغلاف الجوي هو الذي يتسبب في وجود النور نتيجة ما يقع عليه من أشعة ضوء الشمس.

أما بعد السقف – أي الحزام الكوني – فلا يوجد هواء ولا غلاف جوي، ومن ثم لا توجد الوسيلة التي تسبب النور، فيكون الظلام مسيطرًا مستبدًا ودائما فيظن من يعرج فيه أن أعينهم سكرت أي أغلقت مع أنها مفتوحة ولكن لا ترى شيئًا للظلمة الحالكة التي تعم السماء ...

وبسبب هذا، فقد وجد رواد الفضاء على ارتفاع ٤٣٥ ك.م السماء سوداء حالكة وذلك في رحلة فيسخود –٢ الروسية وسكاي لاب الأمريكية ١٩٦٥، ولأنه لا يوجد هواء في السماء، فإنه لا يوجد غلاف جوي حول القمر ... ولا حول أي كوكب .. ومن ثم لا توجد حياة ..

وإذًا فالسماء هي التي تقع بداية من الحزام الكوني وما فوقه من مجرات مليئة بالنجوم وهي غازات مشتعلة والكواكب وهي غازات متجمدة أو ثلجية وما فيه من شمس وقمر..

ولأن النجوم التي في داخل السماء تهدم وتنفجر فتكون شهبًا.

فإن الله سبحانه أخبرنا أن هذه النجوم والكواكب داخل السماء في قوله تعالى على لسان الجن:

﴿وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديداً وشهبًا﴾ [الجن:٨].

ولأن اللمس يكون على أول الشيء أي السماء من بدايتها، ولأن الملء يكون بوضع الشهب داخل السماء، فإذًا تكون النجوم والكواكب داخل السماء. وكذلك الشمس والقمر لوقوع كل منهما على بعد من الأرض أكثر بكثير جداً من بداية أول السماء الدنيا ..

ولأن الأرض ليست في السماء، بل السماء سقف لها.

ولأن الأرض على شكل كرة، والسقف يلتف مع المسقوف، وهذا أمر مشاهد عيانًا.

فإذًا تكون السماء ملتفة حول الأرض، والأرض في مركزها ..

وبين الاثنين الغلاف الجوي أي جو السماء كما ورد في القرآن العظيم. [النحل: ٧٩] وليس جو الأرض كما يدعي البشر(١).

فإذا كنا قد عرفنا السماء.

وإذا كنا قد رأينا بأعيننا، صعود مراكب الفضاء إلى القمر داخل السماء ..

فإن هذا يكون عروجًا في السماء.

ومن ثم فهو تحقيق علمي من الإنسان ذي القدرة المحدودة على العروج في السماء الدنيا، وكذلك ما يبعث به من مراكب الفضاء لاكتشاف كواكب المريخ وغيرها، هو عروج أكثر تقدمًا في السماء الدنيا.

فإذا قدر المخلوق على العروج في السماء الدنيا.

فإن هذه القدرة لتدل بقصورها على عظمة القدرة الإلهية.

---

(١) «القمر في الطبيعة» للمؤلف.

ولأن الله سبحانه ﴿ليس كمثله شيء﴾ [الشورى: ١١].

فإن قدرته سبحـانه تكـون بغير وسـائل الإنسـان، وإنما تكون بقوة ووسائل غيبية لا نعلمها لأنها من غيب الله سبحانه كما انه ليس كمثلها قوة ولا وسيلة لقوة ..

كذلك كان الإسراء وكذلك كان المعراج.

ولأن قدرة الإنسان محدودة وقاصرة.

فإن الله سبحانه قد حدد له المكان الذي يستطيع ان يعرج فيه الا وهو اقطار السماوات، لا ينفذ منها أبداً.

أما معراج الرسول، فلأنه بقدرة الله اللانهائية.

فإن العروج ثم النفاذ به من كل اقطار السماوات، كان حتى وصل إلى أعظم الآفاق «الأفق الأعلى» حيث العرش المجيد ... أي أنه خرج من هذا الكون وتركه إلى غيب ملك الله حيث كانت سدرة المنتهى وجنة المأوى ومن فوقها العرش المجيد.

وإذا كانت قدرة الإنسان في الصعود في السماء في حدود قدرته، فإنه أيضاً بوسائل خارجة عن طبيعة خلقه، فلا بد له من وسائل يركب فيها، وملابس آلية يتمنطق بها لاتقاء شر الضغوط الهوائية المنخفضة أو المعدومة وكذلك ما يتناثر في الفضاء أو في السـماء من أشعة كونـية مهلكة؛ ثم هو من بعـد ذلك لا يستطيع ان يرى إلا بقدرة ما استطاع من مناظير ومن أضواء وأنوار تنير له، وهو من قبل ومن بعد لا يستطيع أن يسمع إلا بأجهزته وإلا المادي من السمع.

وتلك قدرة الإنسان وهو في غطائه، وعلمه الذي اكتسبه.

ولأن المعراج ومن قبله الإسراء كانا بقوته سبحانه.

فقد رأى الرسول ما رأى من الغيب وقابل من قابل من الرسل ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن في مرية من لقائه ..﴾ [السجدة] ﴿وسئل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون﴾ فأم الرسول النبيين جميعاً بالقدس والتقى بموسى في السماء السادسة وراح وجاء بين الله العلي العظيم وبين موسى حتى استحى من ربه عز وجل ... وتلك قدرة الله سبحانه وسبحان الله عما يشركون.

المبحث السادس: العالي القدر العظيم الجاه

لكي نعلم، من منطلق القصور العقلي، عظمة "الأفق الأعلى"، فإن ما شاهده علماء الفلك والطبيعة بالمناظير الإلكترونية الضخمة، قد أثبت لهم بالرؤية المادية ان هناك مجرات بملايين الأعداد وبأحجام تفوق مجرتنا؛ وكلها تجري وتسير بسرعة الضوء، ثم بسرعة أكبر من سرعة الضوء فتدخل في عالم الغيب .. كل ذلك في السماء الدنيا.

ولأننا لا ندري ولن ندري، قدر ما يخلق الله في السماوات، ولا ابعاد هذه السماوات. فإن علمنا بالأفق الأعلى، من حيث مكانه ومن حيث حجمه، هو علم القاصر عن العلم، والعاجز عن إدراك الخيال.

وأخرج الإمام ابن كثير بسنده عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ (كرسيه موضع قدميه والعرش لا يقدر قدره إلا الله عز وجل).

وروى الإمام ابن جرير الطبري بسنده قال: قال رسول الله ﷺ: (ما السماوات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة ألقيت في ترس).

وقال أيضاً بسنده عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ (ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد بين ظهراني فلاة من الأرض)(١).

من هذا البيان في سنة رسول الله ﷺ، فإن حجم الكرسي الذي يسع السماوات والأرض ﴿وسع كرسيه السماوات والأرض﴾ [البقرة]؛ مع ضخامة السماوات التي لا نستطيع أن نتخيلها، فإن الكرسي مع هذا كله ليس إلا كحلقة من حديد في وسط أرض شاسعة كتمثيل لحجم السماوات والأرض من الكرسي ثم من العرش.

فما هو إذاً حجم العرش؟

ذلك غيب، وليس لدى الإنسان عنه إجابة، إلا ان الله سبحانه وتعالى بكل شيء محيط.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١/٣٠٩.

وتفسر هذه الكلمات بكل أعماقها، فالله سبحانه محيط بكل شيء علمًا، كما أنه محيط بكل شي مكانًا، كما أنه محيط بكل شيء قدرة، كما أنه سبحانه بيده ملكوت كل شيء، .. وكل ذلك بلا تخييل ولا تعطيل بل منزهًا بإطلاق.

ولأن الله سبحانه وصف عرشه بأنه مجيد، فإنه عظيم الجمال والبهاء والشرف(١).

وهذا العرش العظيم موجود في الأفق الأعلى بل هو يملأ كل الأفق الأعلى، فمنطق العقل يقول ذلك(٢)، طالما أنه أعلى الآفاق، وطالما أنه يحيط بكل الآفاق.

ولأن به العرش المجيد، فهو عظيم الأنوار شديد الوضوح. ومن ثم فقد وصفه رب العالمين بجانب ﴿ الأعلى ﴾ [النجم] بأنه ﴿ المبين ﴾ [التكوير].

والعروج بالرسول ﷺ إلى هذا الأفق الأعلى المبين، هو من هذا الوجه وحده قمة التقدير الإلهي والحنان الإلهي والحب الإلهي للرسول ﷺ.

فلم يخبرنا العلي العظيم عن مخلوق بشر أو ملك استدعى إلى هذا الأفق الأعلى العظيم.

فجبريل عليه السلام، لم يفارق - رغم قدره - السماء السابعة!

ولأن الله العظيم سبحانه، قد خلق الرسول ﷺ، خلقًا فريدًا فجعل قلبه أقوى من الجبل فتحمل إنزال القرآن عليه.

ولأن خُلق الرسول ﷺ، خلق عظيم بالمقياس الإلهي، فمن ثم كان قمة في الخَلْق والخُلُق من دون العالمين.

وجعل رب العزة صدره وقلبه محصلان للحق والشرف والعلم كله، ومستقرًا لكلماته سبحانه وتعالى، ومن فؤاده مستقرًا للحق ﴿ وبالحق أنزلناه وبالحق نزل ﴾ [الإسراء].

---

(١) المقصد الأسنى شرح أسماء الله الحسنى/٧٧.

(٢) عندا نستعمل كلمة «منطق» فهو للتبسيط ولا نعني استخدامها بالمعنى الارسطي. ولكن بمعنى عقل الشيء أي ربطه بما سبقه.

ومن هنا

فإنه سبحانه يبين للعالمين قدر رسوله لديه، قدر الحب وقدر القرب وقدر التأييد وقدر التفويض.

وإذا أردنا قياساً مع الرسول

فإن الناس، العظماء منهم الأولياء، تعرف الله سبحانه بآثار خلقه وعلمه في خلقه ورحمته لخلقه؛ وبشفافية النفس وبالمجاهدة الطويلة الصامدة الكاملة، قد تصبح بعد طول لأي صاحبة علم يقين.

أما الرسول ﷺ، فإن الله تبارك وتعالى يفرده عن كل العالمين، وبالرؤية الحقة للجنة والنار من بعد ما أفرده تبارك وتعالى بالرؤية الحقة له سبحانه جل جلاله.

فالرسول صاحب عين اليقين من دون العالمين.

ثم إن الله تبارك وتعالى

من بعد ما أفرده بالرؤية الحقة له جل جلاله، يفرده بالوحي له دون وساطة بالأفق الأعلى في مقام ﴿قاب قوسين أو أدنى﴾ وردٌ سبحانه على الرسول التحية، فحياه سبحانه، ولم يحي أحداً من قبله ولا من بعده،

وأوحى إليه من العلوم ما أوحى، وأراه من آيات الحب والحنان والتقدير ما قوى عزم الرسول وثبت جنانه حتى كان هو الرسول الوحيد من دون الرسل والنبيين الذي حارب وقاتل في سبيل ربه حتى ظهر الحق وزهق الباطل وترك المؤمنين على المَحجَّة البيضاء والحق الأبلج لا يزيغ عنه إلا هالك.

ورأى الرسول سدرة المنتهى.

قال المفسرون: والسدرة شجرة النبق تنبع من أصلها الأنهار، وهي عن يمين العرش، وسميت سدرة المنتهى لأنه ينتهي عندها علم الخلائق وجميع الملائكة، وهي في السماء السابعة !؟

وعند سدرة المنتهى جنة المأوى ﴿عندها جنة المأوى﴾ [النجم].

وجنة المأوى هي التي في القرآن العظيم ﴿أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلاً بما كانوا يعملون﴾ [السجدة: ١٩].

ويقول المفسرون هي الجنة التي تأوي إليها الملائكة وأرواح الشهداء والمتقون[١].

وروى صحيح البخاري، وغيره من كتب السنة والحديث أن رسول الله ﷺ قال: (أنا سيد الناس يوم القيامة) ومن كان سيد الناس يوم القيامة فهو من باب أولى سيدهم في الدنيا؛ وفي حديث رواه الحاكم وصححه أن رسول الله ﷺ قال: (أنا سيد العالمين)[٢].

لهذا؛

فإن الرسول ﷺ عالي القدر عظيم الجاه

والجاه لغة المكانة العالية والحظوة والشرف الرفيع

وضرب الله مثلاً، ولله المثل الأعلى.

قال تبارك وتعالى:

﴿إنْ تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما، وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين، والملائكة بعد ذلك ظهير﴾ [التحريم: ٤].

وكانت السيدة حفصة زوج الرسول قد ذهبت إلى أبيها في زيارة له، وتركت الرسول في حجرتها فحضرت جاريته مارية إليه، فلما عادت السيدة حفصة تملكتها الغيرة، فأسر النبي ﷺ لها خبراً يسترضيها به، قال ابن عباس: هو ما أسر إلى حفصة من تحريم الجارية على نفسه، كما أخبرها بأن الخلافة بعده تكون في أبي بكر وعمر[٣].

---

(١) صفوة التفاسير حـ٣/٢٧٣ - ٢٧٤.

(٢) «السيد أحمد البدوي» للشيخ عبد الحليم محمود شيخ الأزهر السابق/١١٣، ومختصر إحياء علوم الدين/٢٨٤ لحجة الإسلام الإمام الغزالي.

(٣) صفوة التفاسير حـ٣/٤٠٦ - ٤٠٧.

إلا أن حفصة أبلغت عائشة الخبر؛ فأنزل الله قرآنه في هذا لترى زوجاته والناس أجمعين قدر الرسول عند ربه عز وجل وعظيم جاهه لديه سبحانه.

هذا في الحياة الدنيا

أما الآخرة

فنكتفي منها بقوله تعالى: ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾.

قال الرسول ﷺ في رواية عن أنس أخرجها الترمذي بسنده:

بينما رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا، إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه مبتسماً فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: (أنزلت علي آنفًا سورة فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ [السورة] ثم قال: أتدرون ما الكوثر؟ قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: فإنه نهر وعدنيه ربي عز وجل فيه خير كثير، هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد النجوم، فيختلج العبد – أي ينتزع ويقتطع – منهم فأقول: إنه من أمتي! فيقال إنك لا تدري ما أحدث بعدك). قال أبو حيان: وذكر في الكوثر ستة وعشرون قولاً، والصحيح هو ما فسره به رسول الله ﷺ فقال: (هو نهر في الجنة حافتاه من ذهب، ومجراه على الدر والياقوت، تربته أطيب من المسك، وماؤه أحلى من العسل)[1].

إسراء ومعراج إلى الأفق الأعلى حيث كان من رب العزة قاب قوسين أو أدنى، فأوحى الله إلى عبده ما أوحى من علوم مصطفاة وأسرار ربانية، ثم يرى رب العزة مرة أخرى عند سدرة المنتهى ويفرض سبحانه وتعالى على رسوله والمؤمنين فريضة الصلاة، فينزل بها الرسول إلى عباد الله والمؤمنين، فيها معراجهم جميعاً إلى رب العالمين.. تأكيداً لوصلهم بالحق تبارك وتعالى، وتأكيداً لعودتهم إلى ربهم يوم الدين ... فينظر في أعمالهم بميزان الذر، والحق من ربكم، لا ظلم اليوم.

---

(١) أخرجه مسلم والترمذي. صفوة التفاسير جـ٣/ ٦١١.

نزل الرسول ﷺ بالصلاة

ومن قبل أُنزل الرسول ﷺ بالقرآن

﴿ وبالحق أنزلناه وبالحق نزل ﴾ [الإسراء: ١٠٥].

﴿ فالذين ءامنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور - أي القرآن - الذي أُنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

في الأولى غيب وفي الثانية غيب.

وقال العلي الكبير: ﴿ إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم ﴾ [يس: ١١].

﴿ إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كريم ﴾ [الملك: ١٢].

الفصل الثامن عشر
القتال في سبيل الله

﴿وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة﴾ [التوبة: ٣٦]

القتال في سبيل الله هو ذروة سنام الدين؛

ذلك بأن توقع الموت بسبب القتال؛ قد جعل منه القدم المعلى في إرضاء الله طاعة وتسليماً؛ فهو بيع النفس والمال لله تبارك وتعالى ..

فالقتال في سبيل الله دليل صدق الإيمان؛

فكل الفرائض الأخرى، قد يحتمل فيها مظهرية الأداء، أو الخشية من الحاكم، أو مراءات الناس ...

أما القتال في سبيل الله وما يحتمله من نهاية للحياة، فإنه بهذه المثابة دليل الصدق الآكد. شهادة الحق لله تبارك وتعالى ...

قال العلي الكبير تبارك وتعالى:

﴿والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس، أولئك الذين صدقوا، وأولئك هم المتقون﴾ [البقرة: ١٧٧].

والبأس: هو القتال في سبيل الله(١).

﴿إنما المؤمنين الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، أولئك هم الصادقون﴾ [الحجرات: ١٥].

ولما كان الإيمان بالله ورسوله ليس قعوداً ولا تخاذلاً، وإنما يقيناً وتمكيناً للحكم بما أنزل الله لتحرير البشر من حكم البشر.

(١) مختصر الطبري/ ٢٩ .. وتفسير ابن كثير حـ١/ ٢٠٩ وتفسير الجلالين/ ٢٩ والتفسير الوسيط/ ٢٧١ وصفوة التفاسير حـ١/ ١١٨.

فإن الله العظيم أمر المؤمنين ان يقاتلوا الذين يلونهم من الكفار، لفرض حكم الله بين الناس؛ بغض النظر عن "الإيمان" الذي هو متروك لحرية الإنسان.

ذلك بان الحكم بما أنزل الله يؤدي إلى تحقيق هدفين: الأول: الحرية الكاملة للناس، والثاني: إيجاد الدين وإحقاق الحق وإزهاق الباطل؛ ومن ثم بيان الطريق السوي والصراط المستقيم، فيشمل الناس القناعة بحكم الله ومن ثم يؤمنوا بأن الله حق وأنه لا إله إلا هو. فيؤمنوا بالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ رسولاً، مع اطمئنان النفس وقناعة الفكر..

ولما كان العكس يؤدي إلى طمس معالم الدين وضياع نوره، وإصابة المؤمنين بالذل، فيذهب ريحهم وتزول شوكتهم.

ولأن الإسلام دعوة الرسول ﷺ للناس كافة، ونشراً لرسالته؛ لا بد وأن تمتد حتى تصل أقصى الأرض.

فإن الله سبحانه قد تدرج بالناس حتى إذا كانوا في أواخر أيام الدعوة..

جعل القتال في سبيل الله محلاً لعقد الإيمان به.

فقال سبحانه تبارك وتعالى:

﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقَتلون ويُقتلون ....﴾ [التوبة: ١١١].

المؤمنين يقاتلون في سبيل الله .. هذا هو بيعهم

والله سبحانه أعطاهم الجنة ثمنًا هذا هو شراؤه.

وبالتالي، فإن الذي يتخلف عن القتال في سبيل الله بنفسه وماله، فقد رفض عقد الإيمان بالله العظيم، أي رفض البيع، ومن ثم فليس له ثمن عند الله.

والإسلام هو دين الله العظيم منذ خلق الله السماوات والأرض وما فيهن ولما كان

التمهيد للإسلام بقوله تعالى: ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ﴾ [إبراهيم: ٤].

فإنه، لما كانت بنو إسرائيل؛ لم يخرجوا بدعواهم إلى خارجهم، لأن الدعوة كانت فيهم وحدهم ولهم، وكل رسلهم منهم وإليهم. حتى كان آخرهم عيسى بن مريم عليه السلام ﴿ وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقًا لما بين يدي من التوراة ومبشرًا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد .. ﴾ [الصف: ٦]؛ فلما لم يؤمن به يهود قال: كل من يؤمن بي رسولاً يصير إسرائيليًا بالروح «جويم»!(١).

وإذًا فالنصارى إيمانًا بدعوة عيسى بن مريم رسولاً من بني إسرائيل إلى بني إسرائيل، قد صاروا إسرائيليين بالروح،

ومن ثم،

فإن الدعوة كانت لبني إسرائيل وليست لأحد من خارجهم، وبالتالي لم يكن ثمة نزاع ديني أو دنيوي يتصور قيامه في شأن من غيرهم، وبالتالي أيضًا فلم يكن ثمة اهتمام من أحد بأمر دينهم، إلا إذا مس ذلك مصلحة له وهذا لم يحدث إلا في البداية مع فرعون؛ ثم عند دخولهم للأرض التي كتب الله للعالمين وهي فلسطين ..

لهذا كانت اليهودية دين متقوقع؛ وكذلك في كل مكان على وجه الأرض.

وإذا ما قامت النصارى بالتبشير، فإنما بذات السنة، سنة التقوقع داخل عنصرية إسرائيل بالروح؛ ومن هنا جاء التعاضد بين الإسرائيليين الاثنين: اليهود والنصارى.

أما الإسلام

فقد قام على الدعوة العامة والخاتمة للثقلين إنس وجن على طول الأرض وعرضها لفرض حكم الله العظيم بين الناس ﴿ وكذلك أنزلناه حكمًا عربيًا ﴾ [الرعد: ٣٧]. فرض الحكم بما فيه أساسًا لاستخلاص الحرية للناس؛ سواء من عبوديتهم في أنفسهم أو

---

(١) المسيح عيسى بن مريم للأستاذ عبد الحميد جودة السحار.

من عبوديتهم في حكمهم؛ أي ثورة كاملة في نفس الإنسان وفي المجتمع والحكام. ولما كان ذلك فلا بد وأن يكون بالقتال، فكذلك شُرع القتال في البعثة المحمدية وحدها لأنها العامة والخاتم ﴿ والله متم نوره ولو كره الكافرون ﴾ [الصف: ٨].

ولأنه للعمل بحكم الله، فقد سمي بالقتال في سبيل الله أي لإعلاء كلمة الله العلي الكبير.

المبحث الأول: تحمل الأذى والهجرة

فطر الله العظيم الناس على العطف والحدب على الضعيف، فإذا ما اعتدى أحد على ضعيف، كان عدوانًا غاشمًا تتبرأ منه النخوة والشجاعة، وكان في حد ذاته دعوة لكل رجل أو قوم لدرء العدوان عن الضعيف ورده مهما كان مكلفًا ومهما كان صعبًا.

تلك فطرة الله جعلها العلي العظيم سنة بين الناس.

وولد الرسول ﷺ يتيمًا .. ثم ما فتئ أن ثكل أمه، وكان له من الدنيا خمس من الإبل وقطيع من الغنم وبيت ... فهو فقير من عداد الفقراء بالنسبة لمن حوله في قريش.

رسول فقير ويتيم ...

وحتى يعوضه العلي العظيم عن هذا اليتم وهذا الفقر، فقد زَوَّجه السيدة/خديجة بنت خويلد من أغنياء قريش، تكبره بخمسة عشرة سنة ولكن على قدر عظيم من الملاحة.

فوجد الرسول فيها كل ما حُرِم منه من حنان وسكن ومال وحب.

وتفرغ متحنثًا لرب العالمين .. ينقطع عن الدنيا شاخصًا إلى السماء، حتى إذا نزل إليه جبريل، وأمره ربه بالتبليغ، حصره في عشيرته الأقربين .. ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾.

دعوة عظيمة في رأفة من التبليغ.

فقد كان العرب أبناء صحراء جافة وجبال حجرية صلدة، جُبلت قلوبهم على الشدة وطباعهم على الغلظة وأودعت فيهم جفاء، جعلهم يقتتلون على أبسط الأشياء أو أخطرها على حد سواء، فكانت الدماء تثير فيهم القسوة مع الخوف من الفناء، ومع هذا الذي تهدر به حياتهم، كانت ذات الطبيعة البسيطة: الصحراء العريضة الواسعة الشاسعة والنسمة العليلة ليلاً مع تلاقي النجوم والكواكب في قبة السماء، توحي إليهم

برقة ما برحت أشعارهم تدوي بها .. رقة وحنانًا وحبًا وولهًا ..

كانت فيهم الغلظة وكان فيهم الحب والحنان .. الاثنين معًا. !!

وتعرض المسلمون للأذى والتعذيب والتنكيل.

فالدعوة الإسلامية تهدم كل ما هم فيه من أحلام وتقديس ونظم، وتجعل العبد يشب على سيده، فيعبد غير ما يعبد ويقول ما يسفه فكر سيده، وإذًا فالأمر ليس إلا طعنًا في قيم المجتمع، كل القيم، وهدم لكل النظم، وتسفيه لكل ما يعبده القوم من آلهة، ثورة كاملة على السادة وعلى آلهتهم. دينهم وفكرهم ..

ومن ثم، ليس أمام السادة أصحاب الرئاسة وأرباب المال، إلا تعذيب هؤلاء الذين خرجوا عليهم وطعنوا.

فكان التعذيب والتنكيل.

ولم يُوح العلي العظيم بمقاومة ولا بعدوان ولا بدفاع عن النفس..

ويمر الرسول على آل ياسر وهم يكادون من هول العذاب يلفظون أنفاسهم. فلا يسعه إلا أن يقول لهم: (صبرًا آل ياسر إن موعدكم الجنة).

ويروي علي كرم الله وجهه: كنت صبيًا أجلس إلى جوار رسول الله ﷺ وهو متوسد ببرد له في الكعبة، فجاء خباب بن الأرت يطلب من رسول الله أن ينصره هو وسائر المعذبين مثله. فجلس الرسول ﷺ وقد أحمر وجهه وقال: (قد كان مَنْ قبلكم يؤخذ منهم الرجل، فيحفر له في الأرض، ثم يجاء بمنشار فيجعل فوق رأسه، ما يصرفه ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخشى إلا الله عز وجل، والذئب على غنمه، ولكنكم تعجلون!)(١).

وانصرف خباب متأسيًا يواجه التعذيب بصمود غريب، وأقبلت عليه القرشية

---

(١) كتاب «علي إمام المتقين».

الثرية التي اعتقته من قبل. فاشتركت في تعذيبه، وجعلت تكوي رأسه وظهره بالحديد المحمي حتى تهرأ جلده، فمر به الرسول وهي تعذبه فقال: (اللهم انصر خباباً) .. ويكمل علي كرم الله وجهه: لقد شاهدت تلك المرأة وقد عضها كلب فاصابها السُعار بعد أيام، فكانت تنبح كالكلاب وتعوي؛ ولم يجدوا لها طباً إلا كي رأسها بالنار(١).

ويمر أبو بكر، فيجد بلالاً رضي الله تعالى عنه، من هول القسوة التي تشمله أن تهلكه، فيشتريه من سيده ويعتقه...

ويسدر الكفار من خوفهم على أوضاعهم في غيهم، ويسبوا الرسول عدواً ويتفلون عليه، ويلقونه بالحجارة، وهو الصادق الأمين بإقرارهم، وهو ابن سيدهم وسيد آبائهم، ولكن دفاعهم عن أنفسهم، عن استبدادهم. عن أموالهم، عن سيطرتهم، جعلتهم في غير وعي مما يفعلون ..

لقد كانوا في غفلة وفي ضلال،

لقد كانوا واقعين في الغفلة حتى قمة رءوسهم فيما حذرهم العلي الكبير منه يوم أخذ عليهم الميثاق: ﴿ألست بربكم﴾ ﴿قالوا بلى﴾.

فقد حذرهم العليم العزيز.

﴿أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين. أو تقولوا إنما أشرك اباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم، أفتهلكنا بما فعل المبطلون﴾ [الأعراف: ١٧٢ - ١٧٣].

كان الجو العام شرك عبيط وجهل تام وغفلة كاملة، وما ترتب على ذلك من انحلال الحياة الاجتماعية، وما سادها من استباحة كل الحرمات، وطغياناً كبيراً.

وفي هذا الجو البليد النجس

بُعث الرسول ﷺ برسالة الحق والطهر ...

وبعد أن اكتسب بعض السند من أهله وأصدقائه، مشى في الناس يقول لهم: (قولوا لا إله إلا الله تفلحوا).

---

(١) كتاب «علي إمام المتقين» للأستاذ عبد الرحمن الشرقاوي.

وكانت قولة رابية .. فهم الناس كل أقطارها.

وكان الرسول يمشي وحيداً.

ولم يكن معه سيف.

فكان هو الوديع في دعوته ..

عرض الدنيا:

واستيقنت بعض النفوس الزكية قولته، وأصبح له رهط، وصار للرهط مقر في بيت الأرقم بن أبي الأرقم ..

وتغشت الدعوة الإسلامية نفوساً كثيرة شريفة، فاستبد الخوف بالنفوس الضالة، وعمدوا إلى الرسول يدعونه إلى المال أو السلطة أو السيادة أو الملك، تكلموا بما هم فيه من زخرف هذه الفانية، وما علموا حقيقة الإسلام بأنه ابتلاء في الدنيا للخلود في الآخرة.

ولم يؤت عرضهم على الرسول أمراً.

فعاودوا الكرة، مع التهديد والوعيد، فلم يلتفت إليهم الرسول وقال قالة زلزلت كيان كل ذي قلب أو القى السمع وهو شهيد: (والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر أو أهلك دونه ما تركته).

إسلام حمزة:

ويستبد الغضب بأبي جهل، فيسب الرسول سباً ويحاول العدوان عليه، ويعلم حمزة عم الرسول وأخوه في الرضاع بما حدث، فتأخذه الحمية ويندفع إلى دار الندوة فيجد عدو الله أبي جهل فيشج رأسه شجة منكرة وينهال عليه سباً وشتماً، ويعلن إسلامه على الملأ.

شعر حمزة بمدى الهوان الذي فيه ابن أخيه.

وأحسّ حمزة بالضياع لأخيه في الرضاع.

وثار في قلب حمزة نخوة وشجاعة هو أحق بها من كل قريش، فهو السيد المفتول العضل، الفارس القنّاص المُخَوِّف...

وثار في قلب حمزة رقة وحنانًا على ابن أخيه المعتدى عليه، حنانًا دعاه إلى شد أزره وهو في ضعفه من وحدته ومن يتم منذ صغره ومن تكاتف كل ذوي القوة والبأس عليه.

فاندفع حمزة بما فطره الله عليه يدافع عن ابن أخيه ويرد العدوان على من اعتدى عليه، ويشرح الله صدره للإسلام، فيعلن إيمانه على الملأ.

ويشتد أزر المسلمين بحمزة.

ويقول الكفار في الرسول كل ما خطر لهم على بال: قول ساحر، قول كاهن، قول مجنون. ويفندوا لأنفسهم ما قالوه بأنفسهم، فلا يجدوا محيصًا من أنه عظيم، ولكنه يقوض صرحهم في قوله تعالى: ﴿إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ فضيع المال والقوة والحسب والرئاسة؛ فيقولون ﴿إئت بقرآن غير هذا أو بدله﴾.

فيرد الرسول « ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي، إن اتبع إلا ما يوحى إلي، إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم﴾ [يونس: ١٥].

مقاطعة المسلمين:

ولا يجد الكفار محيصًا من مقاطعة المسلمين ومعهم بني عبد المطلب وبني هاشم، مقاطعة اجتماعية واقتصادية كاملة.

ويوثقوا هذه المقاطعة في صحيفة يضعونها جوف الكعبة تقديسًا لها، ويقيم المسلمون ثلاثين شهرًا بشعب مكة حتى ينفد ما كان معهم من زاد وحتى يأكلوا ورق الشجر الجاف.

ومن فرط هذه المعاناة وتحملهم أذى كفار قريش بصبر جميل، فقد رق قلب هشام ابن عمرو الذي أقنع زهيرًا بن أبي أمية والمطعم بن عدي وأبو البحتري بن هشام وزمعة بن الأسود، على نقض هذه الصحيفة، فتنادوا بذلك، وسُقط في يد أبي جهل،

واخرجوا الصحيفة من الكعبة فما وجدوا فيها إلا «باسمك اللهم» واكلت الارضة الصحيفة كلها !!

إسلام عمر:

وعاد المسلمون من الشِّعْب إلى ديارهم، وعاد العداء والإيذاء والسب والشتم، وكان قد أخذ الغضب بعمر بن الخطاب، إثر هجرة بعض المسلمين إلى الحبشة فعزم على قتل رسول الله، الذي كان السبب – عنده – في تفريق جماعتهم. وأثناء سيره قابله نعيم بن عبد الله فعرف منه أمره فقال له: والله لقد غشتك نفسك من نفسك يا عمر! أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على وجه الأرض وقد قتلت محمداً؟ افلا ترجع إلى أهل بيتك وتقيم أمرهم؟

وكانت فاطمة بنت الخطاب وزوجها سعيد بن زيد قد أسلما. وسمع عمر صوتهما يقرآن شيئًا. فسألهما عمر: ما هذه الهينمة؟ فلما أنكرا بطش عمر بسعيد فقامت فاطمة تدافع عن زوجها فشجها ونزفت دمًا. وهاج الزوجان واعلنا انهما مسلمان. ورأى عمر دماءها، فأخذ بعمر رقته باهله، فسأل أن يعطياه الصحيفة التي كانا فيها يقرآن. وكان بها سورة طه، فاخذها وقرأها وشرح الله صدره للإسلام، فخرج متوجهًا إلى رسول الله ﷺ وأعلن إسلامه ... وكان ذلك وعمر في السابعة والعشرين من عمره !!

وذهب عمر إلى الكعبة وأعلن على الملأ إسلامه متحديًا الملأ من كفار قريش.

ولم يرض عمر أن يستتر في إسلامه ولا في صلاته، فاصر بما فيه من حمية وقوة شكيمة ان يصلي في الكعبة أمام الناس وعلى أعينهم، وصلى معه المسلمون . فكان انقلابًا في الدعوة.

وكان الإيذاء واستمرار العدوان على المسلمين.

وعاد الذين كانوا بالحبشة لما سمعوا بإسلام عمر، فما ان وصلوا حتى أدركوا ان الإيذاء ما زال على عهدهم به، فرجعوا إلى الحبشة ثانية ومعهم آخرون ..

الإسراء والمعراج:

ثم ماتت خديجة ومات أبو طالب.

وكان الحزن، وكانت التفاتة ثقيف عن الرسول.

واستمر الأسى، وكان الدعوة قد حوصرت.

فاسري بالرسول وعرج به إلى ربه عز وجل، وارتد من ارتد من الذين كانوا يؤمنون على حرف، لم يؤمنوا بالغيب فلم يدركوا معنى الإسراء والمعراج فعادوا كما كانوا إلى إعمال العقل في الله فما وجودا غير الأصنام التي يسجدون لها !!

الصلاة:

وبقي المؤمنون الذين نوًّر الله قلوبهم بالحق وقد أنزل الله لهم مع رسوله الصلاة فكانوا في طهر وتزكية بالوضوء وفي معراج إلى الملك القدوس خمس مرات في كل نهار وليلة...

الهجرة:

وهاجر المؤمنون أفراداً وجماعات.

وهاجر الرسول.

وقد يشغل فكر بعض الناس تساؤل، لماذا لم ينصر الله سبحانه رسوله ومن معه من المؤمنين ويوطن لهم مكة ومن بعدها العالمين؟

ويبين العلي العظيم ذلك فيقول سبحانه وتعالى:

﴿.. ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلوا بعضكم ببعض﴾ [محمد: ٤]
وابتلاء الناس هو موضوع الحياة الدنيا.

وثمة أمر آخر مهم، هو علم الله سبحانه.

فالرسالة الإسلامية هي الرسالة الخاتم، ومن ثم لا بد وان تنتصر وتقوم في العالمين.

والنصر يحتاج إلى الرجال الأشداء والقلوب العامرة بنور الله، وإذا أباد الله قريشًا وأحابيشها، إذا أفنى الله قبيلة رسوله ﷺ وسدنة الكعبة البيت الحرام، فمن ذا الذي يبني مع الرسول دين الله القويم، ويسيطر على شبه الجزيرة العربية حتى يعمها الإيمان ويشمل كل ربوعها؟ لذلك أبقى الله عليهم وشرح صدورهم للإسلام، فآمنوا وكانوا جيش الرسول إلى ثقيف ثم جيشه إلى الروم بتبوك، ثم من بعد الرسول ﷺ، إلى العراق والشام ومصر وكل شمال إفريقيا والأندلس وفي الشرق إلى فارس وحتى الصين.. إنهم الفتية والصفوة التي شيدت بناء الإسلام.

ذلك بأن الله العظيم جعل الإسلام والقرآن هما الرسالة الباقية. وحفظ القرآن من التحريف بعد أن أنزله بعلمه بلفظه وحرفه ورسمه شاملاً وحاكمًا ومنهاجًا عظيمًا لحياة الإنسان في كل زمان ومكان.

ومن ثم، كان لا بد وأن يستقر وأن يستمر وأن يمتد إلى كل العالمين حتى يُتم الله العظيم نوره ولو كره الكافرون.

لهذا أبقى الله على قريش وأحابيشها، وأبقى الله على العرب حتى يقوموا بالدين، ويقيموا الإسلام في العالمين ...

فلا دهشة ولا تعجب من هجرة الرسول والمؤمنين.

ولكن تكون الدهشة والعجب من عدم الهجرة.

فما هي الهجرة؟

الهجرة لغة هي الترك

والترك إنما يكون عن مفاضلة بين البقاء وبين الترك.

فإذا ما قال المستشرقون أن الرسول هرب بدينه، فإنما هو خُبث الذي يريد أن يُدخل في وجدان القارئ أن الرسول هرب إلى المدينة، والهروب لا يكون إلا من جبان رعديد!

وحاشا لله ان يبعث رسولاً جبانًا.

ولكن هو الشرك الذي املى على هؤلاء المستشرقين هذا الإفك وحقاً وصدقًا وصفهم العلي العظيم ﴿إنما المشركون نجس﴾.

والرسول ﷺ

ابن سيد قريش، يعيش في مكة ثلاثة عشرة سنة من حين البعثة لا يقول للناس شيعًا إلا الدعوة إلى الله الواحد الاحد، فهي وإن كانت كلمة إلا أنها في حقيقتها ثورة كاملة على قريش وكل العرب وكل الناس.

ومع هذا فإن ما فرط من قريش لم يتعد إلاّ أذىً. ﴿لن يضروك إلا أذى﴾ ﴿والله يعصمك من الناس﴾.

ولم يستطع أحد أكثر من هذا أبدًا ...

فحكم القبيلة أوله حماية افرادها مهما قالوا ...

وهذه قريش بعظمتها وبمكانتها، لا يستطيع احد أن يدنو من رسول الله إلا من قريش وإلا إلقاء لكلمة ..

أما العدوان على شخص الرسول فلا..

وأمر العلي العظيم رسوله بالهجرة.

فيخرج العباس مع الرسول. والعباس عمه وما زال مشركًا. يخرج معه إلى الأوس والخزرج حيث بيعة العقبة الثانية ويقول لهم: يا يمعشر الخزرج! إن محمداً منا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، وهو في عز من قومه ومنعة في بلده. وقد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم. فإن كنتم ترون انكم وافون له فيما دعوتموه إليه وما نعوه ممن خالفه، فانتم وما تحملتم من ذلك. وإن كنتم مسلميه وخاذليه بعد خروجه إليكم فمن آلان فدعوه.

ويعقب الرسول ﷺ :

(أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم).

ويرد البراء بن مغرور سيد قومه وكبيرهم: بايعنا يا رسول الله! فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة ورثناها كابرا عن كابر.

وإذ تم هذا الحلف الغريب العجيب، حلف الإيمان والحب مما ليس له مثيل في الدنيا ..

فقد خلص لرسول الله ﷺ باب الخروج من مكة، إعراضًا من العلي العظيم ومن رسوله عن المشركين تحقيقًا لقوله تعالى:

﴿ فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين. إنا كفيناك المستهزئين. الذين يجعلون مع الله إلهًا آخر فسوف يعلمون ﴾ [الحجر: ٩٤ - ٩٦].

وفتح الله العظيم لرسوله الكريم باب الدخول إلى المدينة، وفي الطريق بين مكة والمدينة يُنزل العلي الكبير آية واحدة على قلب رسوله يطمئنه:

﴿ وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم ﴾ [محمد: ١٣].

فيفهم الرسول ويعلم أن في الإبقاء على قريش وأحابيشها، سر وسبب، من أسرار وأسباب العليم الحكيم ...

ويدخل الرسول ﷺ المدينة المنورة ويترك ناقته القصواء حتى تنزل به فيبني فوق هذه الأرض مسجده، وعلى جدرانه حجراته، ويؤاخي بينه وبين علي كرم الله وجهه، ويؤاخي بين المهاجرين والأنصار، ويبني مجتمع الأمة الإسلامية أول ما يبنى على الإخاء والحب والتكافل والتعاون على البر والتقوى، ويحكم بين الناس بما أنزل الله.

دولة لها أرض عليها شعب، لها حاكم وقائد، ولها كتاب: دين ودولة، ولها جيش يذود عن حماها.

أول دولة إسلامية وأعظم .. وأنور ..

المبحث الثاني: الدفاع

فكما منع العلي العظيم المسلمين في مكة من الدفاع عن أنفسهم، حتى لا يكون قتالاً بينهم وبين قريش، بين مائة من المؤمنين وبين آلاف من المشركين،

ويكون الأمر قد خرج من دعوة بالحق وبالتي هي أحسن تثير فيهم الفكر وتهزم الشيطان في نفوسهم، إلى حرب وإراقة دماء وثار بين الناس؛

فإن العلي الكبير، وإن أذِنَ للمسلمين في أول دولة لهم بالدفاع عن أنفسهم في قوله تعالى:

﴿أذن للذين يُقاتلون بأنهم ظلموا، وإن الله على نصرهم لقدير. الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله﴾ [الحج: ٣٩ - ٤٠].

إلا أنه قد بين لهم حدود هذا القتال بأنه دفاع عن أنفسهم، وعن دولتهم لا يزيد. في قوله تبارك وتعالى:

﴿.. فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم، واتقوا الله، واعلموا أن الله مع المتقين﴾ [البقرة: ١٩٤].

فحصرهم في رد العدوان بمثله لا يزيد لأنهم ما زالوا دولة ناشئة ومن ثم لا ينبغي التزيد حتى لا يستفزوا الكفار.

وبين لهم السبب في الإذن بالقتال في قوله تعالى:

﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله، فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين﴾ [البقرة: ١٩٣].

ولأن القتال في الجاهلية، كان بغير هدف إلا الاستبداد والطغيان والثار وغير ذلك من دواعي الظلم والجهالة ..

فإن الله سبحانه بين للمؤمنين أنه إنما يكون للدفاع عن النفس والدين وعن دولة

الإسلام حتى لا يفتنوا اي لا يعذبوا في دينهم، كما كان الحال في مكة؛ وليس لسبب غير هذا.

وأنه إن ظن أحد أن القتال يورث القتال، كما كان في الجاهلية، فإن ذلك لأن سببه كان عدوانًا وظلمًا ..

أما القتال في سبيل الله، فلأن سببه والداعي إليه هو نصرة الله في الأرض، فإن العاقبة هي الخير والنصر، فيقول سبحانه وتعالى:

﴿ كتب عليكم القتال وهو كره لكم، وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيئًا وهو شر لكم، والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ [البقرة: ١٦] ﴿ ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون ﴾ [الأنفال: ٨] وقد تحقق ذلك على أحسن وجه وأعظم قدر..

فقد كان عدد المسلمين في غزوة بدر ثلاثمائة ونيف، فلما قاتل المسلمون الكفار، زاد عدد المسلمين إلى ألف مقاتل في غزوة أحد، وثلاثة آلاف في غزوة الخندق، وعشرة آلاف في فتح مكة، واثنى عشر ألفًا في موقعة حنين، وثلاثين ألفًا في غزوة تبوك؛ وظهر الحق وزهق الباطل في أرض المبعث كلها.

وكان المسلمون، عقب هجرتهم إلى المدينة، في أشد الحاجة إلى ما يقيم أودهم، وهم وإن آخاهم الرسول ﷺ مع الأنصار الذين أعطوهم من ديارهم وزوجوهم من نسائهم، فإن سماعهم بقافلة لقريش بقيادة أبي سفيان تمر على مقربة من المدينة، قد أوغل في نفوسهم أن يأخذوها بدلاً مما تركوه في مكة من أموال وديار، ويحكي لنا العزيز الحكيم هذه الواقعة ما سبقها وما كان فيها وما لحق بها.

وإذا كان المسلمون في قلة عددهم وعدتهم، لا تتطلع نفوسهم إلى أخذ هذه القافلة بقتال، لأنهم ليسوا من حيث العدد والعدة بقادرين على مواجهة قريش.

فإن سماعهم بقافلة قريش، قد أقنعتهم بأخذها، لأن عددهم يقدر ولا شك على الاستيلاء على قافلة غير مهيئة بطبيعة الحال للقتال والحرب، فهي غير ذات شوكة. ومن ثم فهي فريسة سهلة وفيها العوض عما تركوه.

قال العلي الكبير في سورة الأنفال ٥ – ١٣ حيث وصف حال المسلمين ووصف المعركة التي دارت بين المسلمين في بدر وما كان يدور في صدورهم وما حدث من أحداث:

﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق﴾ قال الإمام الطبري: كما أخرجك ربك بالحق على كره من فريق من المؤمنين كذلك يجادلونك في الحق بعد ما تبين، والحق الذي يجادلون فيه النبي ﷺ بعد ما تبينوه هو "القتال"(١). ﴿وإن فريقًا من المؤمنين لكارهون﴾ أي كارهون للخروج لقتال العدو خوفًا من القتل أو لعدم الاستعداد ﴿ويجادلونك في الحق بعد ما تبين﴾ هو قولهم: ما كان خروجنا إلا للعير أي القافلة ولو عرفنا قتالاً لاستعددنا. ﴿كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون﴾ قال البيضاوي: أي يكرهون القتال كراهة من ينساق إلى الموت وهو يشاهد أسبابه لقلة عددهم وعدتهم مما يدل على ثمة شعور بالفزع والرعب(٢) ﴿وإذ يعدكم الله إحدى الفئتين﴾ أي أن الله سبحانه وعدكم إحدى الفئتين: العير أو النفير ﴿وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم﴾ نزل جبريل عليه السلام فقال يا محمد: إن الله وعدكم إحدى الطائفتين: إما العير وإما قريشا، فاستشار الرسول ﷺ فاختاروا العير لخفة الحرب وكثرة الغنيمة، فلما خرجوا بلغ الخبر أهل مكة فنادى أبو جهل: يا أهل مكة النجاء النجاء، عيركم أموالكم إن أصابها محمد فلن تفلحوا بعدها أبداً، فخرج المشركون على كل صعب وذلول ومعهم أبو جهل حتى وصلوا بدراً، وكانت القافلة قد انفلتت غرباً ناحية البحر. فأخبر الرسول ﷺ وقال لهم: إن العير قد مضت على ساحل البحر، وهذا أبو جهل قد أقبل، فقالوا: يا رسول الله عليك بالعير ودع العدو، فغضب رسول الله. فقام سعد ابن عبادة فقال: إمض بنا لما شئت فإنا متبعوك، وقام سعد بن معاذ فقال: والذي بعثك بالحق لو خضت بنا البحر لخضناه معك فسر بنا على بركة الله، فسر رسول الله ﷺ وقال لأصحابه: سيروا على بركة الله وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم(٣).

---

(١) الطبري حـ١٣/ ٢٩٣.

(٢) البيضاوي / ٢٠٩.

(٣) البيضاوي / ٢٠٩ بتصرف.

﴿ ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ﴾ أي يظهر الإسلام بقتل الكفار يوم بدر.
﴿ ويقطع دابر الكافرين ﴾ والمعنى أنكم ترغبون في الفائدة العاجلة (قافلة قريش)، وسلامة الأحوال، وسفساف الأمور، والله يريد معالي الأمور وإعلاء الحق والفوز في الدارين، وشتان بين المرادين، فاختار لكم ذات الشوكة فنصركم وهزمهم وأذلهم وأعزكم(١).

﴿ ليحق الحق ويبطل الباطل ﴾ أي إظهار الإسلام وإبطال الكفر.

﴿ ولو كره المجرمون ﴾ ولو كره المشركون ذلك. ﴿ إذ تستغيثون ربكم ﴾ روى أن رسول الله ﷺ نظر إلى المشركين وهم ألف، وإلى أصحابه وهم ثلاثمائة وبضعة عشر، فاستقبل القبلة ومد يديه يدعو:

اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلن تعبد في الأرض؛ فما زال كذلك حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأخذه أبو بكر فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه وقال: يا نبي الله كفاك مُناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك فنزلت هذه الآية ﴿ فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين ﴾ أي متتابعين يتبع بعضهم بعضاً. قال المفسرون ورد أن جبريل نزل بخمسمائة وقاتل في يمين الجيش ونزل ميكائيل بخمسمائة وقاتل بها في يسار الجيش، ولم يثبت أن الملائكة قاتلت في واقعة إلا بدر، وفي غيرها كانت تنزل لتكثير عدد المسلمين ولا تقاتل(٢).

﴿ وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله؛ إن الله عزيز حكيم ﴾ أي جعل الله إمدادكم بالملائكة بشرى لكم بالنصر. ﴿ إذ يغشيكم النعاس أمنة منه ﴾ قال علي كرم الله وجهه: ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله ﷺ يصلي تحت شجرة ويبكي حتى أصبح وقال الإمام ابن كثير: وكان ذلك كائن للمؤمنين عند شدة البأس لتكون قلوبهم آمنة

---

(١) صفوة التفاسير عن البحر ٤/٤٦٤.

(٢) حاشية الصاوي على الجلالين ٢/١١٨ صفوة التفاسير حـ١/٤٩٦.

مطمئنة بنصر الله[١]. ﴿ وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان ﴾ قال البيضاوي: روى أنهم نزلوا في كثيب أعفر، تسوخ فيه الأقدام علي غير ماء وناموا فاحتلم أكثرهم فوسوس لهم الشيطان. فأنزل الله المطر ليطهرهم به ويثبت الأقدام فزالت الوسوسة ﴿ وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام ﴾.

ثم حكي العلي الكبير عن الملائكة في المعركة فقال سبحانه:

﴿ إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم ﴾ أي بالعون والنصر ﴿ فثبتوا الذين آمنوا ﴾ أى قووا أنفسهم على أعدائهم ﴿ سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب ﴾ الخوف والفزع حتى ينهزموا ﴿ فاضربوا فوق الأعناق ﴾ قيل المراد الرءوس لأنها فوق الأعناق. ﴿ واضربوا منهم كل بنان ﴾ أي أطراف الأصابع حتى يشل عن القتال ويقع أسيراً ويقتل[٢].

والسبب في هذه المعركة وفي قتل المشركين ﴿ ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله فإن الله شديد العقاب ﴾ في الدنيا والآخرة.

كان هذا هو حكم الله.

أن يدافع المسلمون عن أنفسهم وعن دينهم وعن دولتهم، وإذا كانوا قد خرجوا من مكة على ضعف وقلة شيء، وخوف يملأ وجدان الكثيرين من المهاجرين ممن عذبوا وأوذوا.

فلذلك وضعهم الله رغم أنفسهم أمام المشركين، ومن ثم فرض القتال عليهم، وهم على غير أهبة للحرب في عددهم وفي عدتهم حتى تزول كل هذه العقلانيات الحسابية والمادية، ويعلموا أن الأمر لله من قبل ومن بعد وأن وعد الله حق وأن الله ينصر من ينصره، وأن النصر من عند الله العزيز الحكيم، وأن الله يفعل ما يريد وأنه على كل شيء قدير.

---

(١) صفوة التفاسير حـ١ / ٤٩٦ عن أبي يعلي.. وتفسير ابن كثير حـ٢ / ٢٩١.

(٢) صفوة التفاير حـ١ / ٤٩٧ عن التسهيل ٢ / ٦٢.

فقد وضع الله المسلمين في هذا المازق الصعب بفكر الإنسان ثم نصرهم نصراً مؤزراً على خلاف التقدير والحساب العقلي؛ فعلموا ان الله هو الحق، وصار ذلك يقينهم.

وما كانت تلك الواقعة إلا قطعًا لدابر الكافرين فقد قتل فيها رءوس الكفر وأولهم أبو جهل الذي مكن الله منه عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه فداس بقدمه عنق أبي جهل وراسه ثم قطع راسه بسيفه، فامكن الضعيف من القوي، وما ذلك إلا من عند الله العزيز الحكيم.

المبحث الثالث : الهجوم

التدرج في التشريع أمر ثابت في القرآن العظيم.

وقد جاء هذا التدرج عن طريق تبديل حكم جديد بحكم سابق عليه، كما جاء في تحريم الخمر على ثلاث مراحل وكذلك الصيام والزكاة.

وهذا التدرج يأتي بطريق يسمى «النسخ» فالحكم الجديد ينسخ الحكم القديم، أي حكم جديد يحل بدلاً من حكم سابق.

فإذا قلنا إن الله حرم الخمر فذلك معناه ان الحكم الذي قاله القرآن ﴿لا تقربوا الصلاة وانتم سكارى﴾ قد بطل العمل به وإن بقى آية في القرآن يتعبد بتلاوتها وفهمها.

كذلك، كان التدرج في أحكام فريضة القتال في سبيل الله.

فقد ظل المسلمون طوال البعثة في مكة يتحملون العذاب ولم يؤمروا برد العدوان. وبينا السبب الحكيم الذي دعا إلى هذا الموقف.

فلما هاجر الرسول والمؤمنون إلى المدينة، وأصبحت لهم دولة، فقد اذن لهم بالقتال دفاعًا عن الدين والنفس وعن الدولة بقدر ما وقع من عدوان لا يزيد.

وإذًا فالإذن بالقتال، قد جاء حكمًا جديداً أبطل الحكم بتحمل الأذى. فما عاد يجوز لمؤمن في المدينة ان يتحمل اذى من المشركين، بل عليه ان يدافع عن نفسه بمثل ما اعتدى عليه ولا يزيد، حتى لا يستفز المشركين لأنهم ما زالوا حديثي عهد بالدولة، فعددهم قليل وعدتهم قليل، ومن ثم يجب التريث حتى يزيد العدد والعدة ويمكن الله لهم في الأرض إعمالاً لسنة الله في الكون ورأفة ورحمة بالمؤمنين.

وقد وقعت معركة بدر الكبرى في ثاني شهر رمضان يأتي على المؤمنين بالمدينة المنورة (وكان ذلك عقب تغيير القبلة في ١٥ شهر شعبان). فقد وقعت على أرجح الأقوال في السابع عشر من رمضان ولم تكن قد فرضت فريضة الصيام بعد.

وبعد معركة بدر والنصر الإلهي المؤزر.

ذاع صيت المعركة، وأصبح المشركون ولا هم لهم إلا أن يأخذوا بثأرهم من رسول الله ﷺ وأصحابه.

ومن قبل واقعة أحد التي كانت ثأراً للكفار، كان قد انضم للمؤمنين أكثر من ثمانمائة مؤمن كلهم قاتل في سبيل الله في واقعة أحد.

ولأن الأمر قد استفحل وشمل قريشاً وأحابيشها ومن انضم إليها من الأحزاب، يعدون العدة لملاقاة المؤمنين، ويثيرون القبائل الأخرى عليهم، ويحاولوا أن يلتفوا حول المؤمنين بالعهد والاتفاق مع يهود خيبر ويهود المدينة؛

فإن موقف الدفاع برد العدوان بمثله لا يزيد، أصبح غير كاف لحماية الدولة الإسلامية الوليدة، ولا هو كاف لمنع الفتنة في دينهم..

ومن ثم

فقد أنزل الله حكماً جديداً للقتال في سبيل الله نسخ به حكم الدفاع قال العلي الكبير:

﴿ وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء؛ إن الله لا يحب الخائنين. ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا، إنهم لا يُعجزون ﴾ [الأنفال: ٥٨ - ٥٩].

ولما كان هذا الحكم يتطلب الاستعداد وإعداد أدوات القتال وشحذ همة المؤمنين، حتى ينفروا في سبيل الله أقوياء، فقد بين لهم العلي الكبير أمرين:

الأول في قوله تعالى: ﴿ ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء، ولكن لا تشعرون ﴾ [البقرة: ١٥٤].

ولهذا، نادى الرسول على قتلى بدر فقال له الصحابة أتنادي على قوم جيفوا، قال الرسول: (والذي نفسي بيده ما أنتم باسمع لما أقول منهم لكنهم لا يجيبون)[١].

---

(١) اخرج البخاري ومسلم الحديث الشريف (إن أحدكم إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه وإنه ليسمع قرع نعالهم). فإن الميت يسمع ويرى ويحس.

والثاني في قوله تعالى ﴿ واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدوا الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم، الله يعلمهم ﴾.

ودعاهم إلى الإنفاق على القتال في سبيل الله:

﴿ وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون ﴾ [الأنفال: ٦٠].

فعرَّف الخالق العظيم، المؤمنين بأنهم إن قتلوا في سبيل الله، فلن يموتوا بل يظلوا أحياء؛ وهذا أعظم خبر وأعظم جزاء.

ثم حرض المؤمنين على الاستعداد لملاقاة العدو وحرضهم على الإنفاق على القتال في سبيل الله، فقال تعالى:

﴿ وانفقوا في سبيل الله ولا تُلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا، إن الله يحب المحسنين ﴾ [البقرة: ١٩٥].

ذلك بأن القتال حتى ذلك الوقت كان فرض كفاية لقوله تعالى:

﴿ فقاتل في سبيل الله لا تُكلَّف إلا نفسك وحرِّض المؤمنين.. ﴾ [النساء: ٨٤].

ولأنها كانت فرض كفاية وليست بعد فرض عين على المؤمنين فإن الله جل جلاله زيَّن القتال في سبيل الله للمؤمنين حتى يحببهم فيه، فقال لهم العلي الكبير:

﴿ لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم؛ فضَّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة؛ وكلا وعد الله الحسنى؛ وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً. درجات منه ومغفرة ورحمة؛ وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ [النساء: ٩٥ - ٩٦].

فكان الله العظيم قد وضع استراتيجية عسكرية للدولة الإسلامية الوليدة: إعداد الجيش والإنفاق عليه ومهاجمة العدو من قبل أن يتجه إليهم، أي مفاجأة العدو في عقر داره حتى يتم إجهاض قوة العدو بالقضاء على استعداداته وإدخال الرعب والفزع في

قلوبهم من مفاجآتهم ثم بيان عظمة أجر الجهاد في سبيل الله.

وتنفيذاً لهذا التخطيط الإلهي.

بعث الرسول ﷺ السرايا الإسلامية العديدة كغزوة دومة الجندل لما علم المسلمون أن في ذلك المكان أعرابًا يقطعون الطريق على المارة ويريدون الإغارة على المدينة المنورة. وكذلك غزوة بني المصطلق وهم من ساعدوا المشركين في أحد، وأرادوا جمع الجموع للإغارة على المدينة. وغزوة بني لحيان لقتلهم عاصم بن ثابت وإخوانه. وغزوة الغابة لإغارة عيينة بن حصن في أربعين راكبًا على لقاح للنبي ﷺ كانت ترعى الغابة. وسرية محمد بن سلمة إلى القصة لما بلغ الرسول أنه بذلك الموقع ناس يريدون الإغارة على نعم المسلمين التي ترعى بالهيفاء. وسرية زيد بن حارثة لمعاكسة بني سليم الذين كانوا من الأحزاب يوم الخندق. ثم سرية زيد أيضاً للإغارة على بني فزارة الذين تعرضوا لهم. وسرية عمر بن الخطاب لما بلغ المسلمين من أن جمعاً من هوازن يظهرون العداوة للمسلمين. ثم سرية علي بن أبي طالب لما بلغهم من أن بني سعد بن بكر يجمعون الجموع لمساعدة يهود خيبر على حرب المسلمين. ثم غزوة خيبر لأن أهلها كاوا أعظم محرض للأحزاب، وغير ذلك من السرايا(١).

ولأن الهدف من "الهجوم" على معاقل الأعداء هو إهدار قوة أعداء المسلمين حتى لا تكون ثمة قوة تستطيع أن تتحرك إلى المدينة، ومن ثم يسودها الهدوء والطمأنينة، فتبنى الدولة الإسلامية في جو هادئ وبالتالي يبني الإنسان المسلم ويتفقه في الدين فيقوى ويشتد عوده ويربط قلبه حتى إذا استنفر للقتال كان خير أجناد الأرض ﴿.. كزرع أخرج شطاه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يُعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار﴾ [الفتح].

ولما كان ذلك

فإن الله العظيم شرع السلم في هذه المرحلة مع الذين يجنحون للسلم مع المؤمنين.

---

(١) «حقائق الإسلام وأباطيل خصومه» للأستاذ عباس العقاد/ ٢٣٠ - ٢٣١.

قال العلي الكبير:

﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله، إنه هو السميع العليم، وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله؛ هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين﴾ [الأنفال: ٦١ - ٦٢].

وتنفيذاً لهذا الأمر الإلهي تم عقد صلح الحديبية.

وفي شهر رمضان في العام الثامن من الهجرة، نقضت قريش صُلح الحديبية حيث أعانت بني بكر على خزاعة، فلما خرج عمرو بن سالم الخزاعي إلى رسول الله وأخبره قال الرسول ﷺ: (لا نصرت إن لم أنصر بني كعب) وأمر بتجهيز الجيش وخرج من المدينة في العاشر من رمضان وفتح مكة في العشرين منه(١).

والقرآن العظيم

يقول إن الله جل جلاله أخبر رسوله الكريم بالفتح والنصر من قبل أن يأتيه عمرو الخزاعي يستنصره.

قال العلي الكبير:

﴿ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهمّوا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة، أتخشونهم، فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين. قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين. ويذهب غيظ قلوبهم. ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم﴾ [التوبة: ١٣ - ١٥].

فكان إخبار النبي ﷺ بفتح مكة قبل وقوعه معجزة عظيمة له. وبعد أيام من فتح مكة سمع الرسول باستعداد أشراف ثقيف وهوازن لمحاربته، فسار إليهم ودخل عليهم، ودارت المعركة في وادي حنين قرب الطائف، ﴿ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين﴾ [التوبة: ٢٦].

---

(١) التفسير الوسيط/١٦٦٧.

وترك الرسول الطائف وترك مكة وعاد إلى المدينة المنورة، وإنما ترك بالمدينتين مكة والطائف بعض صحابته ليفقهوا الناس في الدين، وليحكموا بينهم بما أنزل الله..

لم يترك فيهما جيشًا يحتل، ولم يترك جندًا تفسد في الأرض، بل كان الفتح لإقامة حكم الله وبيان للإسلام في حرية كاملة للناس.

لأنه، وإن كان حكم الله لا بد وأن يحكم به بين الناس، فإن الإيمان لا يكون إلا بيقين الناس وعميق اختيارهم ذلك بأنه ﴿لا إكراه في الدين﴾ و ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾، هو مضمون وجوهر الحكم بما أنزل الله.

فحكم الدين لازم ولا بد منه، لأنه الحكم القائم على الحق فلا يتبع الهوى، ولا يمس إيمان القلوب، ويحقق ويضمن للناس حريتهم كاملة والعدل السابغ بينهم.

وإنما ولأن حكم الدين هو الحكم الحق الذي يضبط حياة الناس ويشيع العدالة بينهم ويجعلهم في طمأنينة ورضا، فإنه هو الهدف من القتال في سبيل الله، فيه يكون تحقيق حرية الناس بالحكم بينهم بما أنزل الله وبيان الدين، فلا سلطة إلا لله.

أما الدخول في الإسلام فحسابه على الله وعند الله، لا سيطرة لإنسان على إنسان مهما كان هذا الإنسان. فيقول العلي الكبير للرسول ﷺ: ﴿أفانت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾ [يونس: ٩٩]؟؟ كلا ﴿لا إكراه في الدين﴾ [البقرة: ٢٥٦].

المبحث الرابع: تطهير الأرض المقدسة مبعث النور

ولما تمض شهور على فتح مكة، حتى بدأت مرحلة تطهير شبه الجزيرة العربية من الرجس والنجس والدنس؛

فقد نزل الوحي بكثير من آيات سورة التوبة وفيها تبرأ الله ورسوله من المشركين الذين لهم عهد ونقضوا عهدهم، ومن باب أولى من الذين ليس لهم عهد، أما الذين لهم عهد فقد تبرأ الله ورسوله منهم كذلك وإن تركوهم إلى مدتهم.

فقال سبحانه وتعالى:(١)

﴿ براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين. فسيحوا في الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزي الله وأن الله مُخزي الكافرين. وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريءٌ من المشركين ورسوله، فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله، وبشر الذين كفروا بعذاب أليم. إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئًا ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم، إن الله يحب المتقين﴾ [التوبة: ١ - ٤].

وسورة براءة (أو التوبة) معناها إنهاء حكم الأمان.

لذلك فقد أرسل رسول الله ﷺ عليًا إلى مكة ليتلو على المؤمنين الذين كانوا يحجون بيت الله الحرام مع أبي بكر، وعلى الناس جميعًا ما نزل من آيات سورة التوبة ويبلغهم قول الرسول ﷺ: أمرت بأربع: لا يقرب البيت بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ولا يدخل الجنة إلا كل نفس مؤمنة وأن يتم إلى كل ذي عهد عهده.

---

(١) جاء بتفسير الجلالين/ ١٧٠: لم تكتب البسملة لأنه ﷺ لم يؤمر بذلك كما يؤخذ من حديث رواه الحاكم، وأخرج في معناه عن علي بن أبي طالب أن البسملة أمان وسورة التوبة نزلت لرفع الأمن بالسيف. وعن حذيفة إنكم تسمونها سورة التوبة وهي سورة العذاب. وروي البخاري عن البراء أنها آخر سورة نزلت.

ومن رحمته سبحانه أنه أعطى الكفرة مهلة أربعة شهور بدايتها يوم الحج الأكبر أي يوم عرفة أو يوم النحر تنتهي في يوم الثاني عشر من ربيع الثاني.

فإذا جاء هذا اليوم ولم يكونوا قد آمنوا بالله ورسوله وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، فقد أمر الله سبحانه رسوله والمؤمنين بأن يقتلوا المشركين حيث وجدوا لأنهم نجس.

وهنا نلاحظ أن الأمر هو "القتل" وليس "القتال"، ذلك بأنهم نجس؛ وأن قتلهم تطهير للدولة بأمر رئيس الدولة. أي طاعة لله والرسول.

فقال العلي الكبير:

﴿ فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد، فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم، إن الله غفور رحيم ﴾ [التوبة: ٥].

وأَمْر الله بقتل المشركين بعد أربعة أشهر إنما لسببين:

الأول: أن الرسول ظل يدعوهم قرابة اثنين وعشرين عامًا. وبالتالي فإن الأمل في رجوعهم إلى الحق غير ظاهر في أفق حياتهم، ومن ثم فهم مجرمون يستحقون القتل؛

والثاني: أن الدين الإسلامي هو الرسالة الخاتم جاء مصدق لما بين يديه من التوراة والإنجيل، ومهيمنًا عليهما، وهم يعلمون أن الرسول حق كما يعلمون أبناءهم، وإذًا فلا شيء لديهم إلا أن تأخذهم العزة بالإثم، فهم مجرمون لا يرجى منهم خير، ولا بد من تطهير شبه الجزيرة العربية منهم.

ولأن الرسول ﷺ هو خاتم النبيين، فإن الله سبحانه بيَّن أمرين:

الأول: أنه لذلك فهو سبحانه حافظ القرآن العظيم ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾.

حتى لا تتعرض الرسالة الخاتم المهيمنة والباقية والشاملة والصالحة لكل زمان ومكان لأي تحريف.

الثاني: أن يحمل المسلمون الدعوة الإسلامية والقتال في سبيل الله الاثنين معًا ومن بعد الرسول حتى آخر الأرض وآخر الزمان.

ذلك بأن الإسلام هو الدعوة الممتدة لأنها الدعوة الأخيرة، فهي ممتدة حتى يوم القيامة وحتى آخر الأرض، يحمل لواءها علماء المسلمين، الذين قال الرسول فيهم مبينًا جهادهم (علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل). فهم المسئولون عن بيان القرآن بالعلم والهداية وبقواعد اللغة وعلومها وقواعد تفسيره. ويتولى القتال في سبيل الله كل المؤمنين لا يقعد عنهم إلا مريض أو أعمى أو أعرج، حتى يحكم الناس بما أنزل الله لتحقيق حرية الإنسان(١) ومن هنا جعل العلي الكبير المؤمنين شهداء على الناس كما كان الرسول شهيدًا على صحابته ﴿لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

لذلك كان منطق الأحداث يؤيد أن حديث القتال أو حديث السيف الذي قاله الرسول ﷺ، إنما يكون قد قاله في هذه المرحلة من مراحل الجهاد في سبيل الله جل جلاله التي صار فيها القتال فريضة عين.

قال الرسول ﷺ: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة). وهذه رواية التفسير الوسيط ص ١٦٦٠(٢).

وكتب الحديث بمتن آخر وإن لم يختلف في المعنى؛ قال رسول الله: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فمن قالها عصم مني ماله ودمه إلا بحقها وحسابهم على الله)(٣).

---

(١) قال علماء الأزهر الشريف في التفسير الوسيط/١٦٥٣ - ١٦٥٤ عن سورة التوبة التي نزلت بهذه الاحكام:
[ودعوة إلى تكوين المجتمع الإسلامي المعتمد على القوة والاستعداد العسكري القائم على الإيمان والطاعة والعلم والحرص على تحمل المسئولية والمحافظة على الأمانة والإخلاص وبذل المال في سبيل الله ومحاربة النفاق والمنافقين].

(٢) هذا هو نص الحديث الوارد في الصحيحين بسندهما عن ابن عمر رضي الله تعالى عنه.

(٣) «حقائق الإسلام وأباطيل خصومه» للأستاذ عباس العقاد/٢٤٦ وكذلك أخرجها تفسير ابن كثير جـ١ /٢٢٧ عن الصحيحين.

وأخرج الإمام ابن كثير بسنده، قال سفيان بن عيينة: قال علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: بُعث النبي ﷺ بأربعة أسياف، سيف في المشركين من العرب قال تعالى: ﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ والسيف الثاني هو قتال أهل الكتاب قال تعالى: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾ والسيف الثالث قتال المنافقين، قال تعالى ﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين﴾ والسيف الرابع قتال الباغين، قال تعالى ﴿فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله﴾(١).

وبنزول سورة براءة وأحاديث الرسول فقد نسخ حكم الجنوح للسلم إن جنح لها الكفار، وأصبح ذلك الحكم في خبر كان مثل ما جعل حكم ﴿لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾ في خبر كان بتحريم الخمر.

عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره﴾ قال نَسخَ ذلك قوله تعالى ﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ وكذلك قوله تعالى ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر .. إلى قوله وهم صاغرون﴾ فَنَسخَ هذا عفوه، وكذا قال أبو العالية والربيع بن أنس وقتادة والسدي إنها منسوخة بآية السيف(٢). فبدل حكمًا بحكم ﴿وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل..﴾ [النحل: ١٠١].

وفي هذه المرحلة كان نور الإيمان قد تمكن من قلوب المؤمنين، فجعل العليم الخبير القتال في سبيل الله فرض عين على كل مؤمن إلا على ثلاث فئات: الضعفاء والمرضى والذين لا يجدون ما ينفقون به على القتال ووصم القاعدين بالكذب والكفر فقال العليم الخبير:

﴿وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم وقعد الذين كذبوا الله ورسوله؛

---

(١) تفسير ابن كثير حـ٢/ ٣٣٦ - ٣٣٧.

(٢) تفسير ابن كثير حـ١/ ١٥٣ وعلى هذا كل اقوال السلف والمفسرين.

سيصيب الذين كفروا منهم عذاب اليم. ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله؛ ما على المحسنين من سبيل؛ والله غفور رحيم ﴾ [التوبة: ٩٠ – ٩١].

ثم وصف العليم بذات الصدور حال المؤمنين الذين ليست لديهم مؤنة الحرب وما يعتمل في قلوبهم من حزن الا يقاتلوا في سبيل الله، فقال العليم الخبير:

﴿ ولا على الذين إذا ما اتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنًا الا يجدوا ما ينفقون ﴾ [التوبة: ٩٢].

وفضلاً عن نسخ آيات العفو والأمان بنزول آيات السيف وأحاديث السيف ومعنى ذلك إهدار دماء المشركين والمنافقين؛

فإنه سبحانه نسخ آيات الجدال بالتي هي أحسن التي كانت قد نزلت في جدال أهل الكتاب في شبه الجزيرة العربية. وذلك بإنهاء حكم الأمان لهم.

ومن ثم نزل قول الحق تبارك وتعالى:

﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم... ﴾ [العنكبوت: ٤٦] والذين ظلموا هم الذين ظلوا على شقاق مع الرسول ولم يؤمنوا به حيث وصفهم رب العالمين بأنهم كفرة في الآية التي تليها مباشرة ﴿ ... فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمنون به، وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون ﴾ [العنكبوت: ٤٧].

فأمر سبحانه بقتلهم لان عدم إيمانهم بالله ورسوله نقلهم من فئة أهل الكتاب إلى فئة المشركين. والمشركون نجس ﴿ إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ﴾ [التوبة: ٢٨].

ذلك بأن الأمر بقتلهم، ما جاء إلا تطهير للأرض المقدسة أرض مشرق الإسلام من النجس المتمثل في المشركين، وتوطيد لدعائم ونور الإيمان في أرض رسول الله والكعبة بيت الله الحرام.

ولما كان ذلك؛

يجب أن نتذكر فساد مقولة الذين أتاحوا السلام لليهود أثناء حربهم في فلسطين ١٩٤٨، ونعلم أن كل ما ترتب على عدم اتباع حكم الله في نسخ آيات العفو والسلام، إنما هو الذي أدى إلى ضياع فلسطين والشعب الفلسطيني وإهدار دماء الآلاف المؤلفة من المسلمين الرجال والنساء والأطفال وضرب الناس بالذل.

وأن استمرار الأخذ بأحكام السلام التي نُسخت من قبل فتح مكة؛ إما أن يكون من ضعف القلوب وضياع الإيمان، وإما أنه نابع من الخطأ.

لذلك حَرَّم العلي القدير الدعوة للسلام تحريمًا تامًا ونهائيًا في قوله تعالى:

﴿ ولا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم ﴾ وبين حيثية ذلك بأن نبه إلى أن الحياة الدنيا لعب ولهو فقال سبحانه في الآية التي تليها مباشرة ﴿ إنما الحياة الدنيا لعب ولهو، وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم ﴾ [محمد: ٣٥ - ٣٦].

لذلك، أدعو الله جل شأنه، أن يجعل ما حدث تحرفًا لقتال، وأن يملأ الصدور بنوره وينفخ فيها من روحه ويهب بالمسلمين قتالاً بالنفس والمال في سبيل الله حتى يستخلصوا المسجد الأقصى من براثن الكفرة المغضوب عليهم، إنه سميع قريب مجيب.

المبحث الخامس: دليل الصدق

انتهى الرسول من تطهير شبه الجزيرة العربية كلها من المشركين والكفار.

وصارت أرض مبعث النور وبيت الله الحرام، لا يقيم عليها إلا المؤمنون الذين وثقوا عقد الإيمان مع الله سبحانه، فباعوا أنفسهم وأموالهم لله يقاتلون في سبيله فيقتلون ويقتلون ولهم الجنة ثمنًا.

وبين العلي الكريم للمؤمنين شيئًا يعتمل في نفوسهم فقال سبحانه:

﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتًا، بل أحياء عند ربهم يرزقون. فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون. يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين ﴾ [آل عمران: ١٦٩ - ١٧١].

ولأن الله سبحانه الرحمن الرحيم، لا يعاقب أحداً إلا وقد أنذره وأعذره فقد بين لهم حالهم إن لم يبيعوا أنفسهم وأموالهم له سبحانه:

فقال العلي الكبير:

﴿ إلا تنفروا يعذبكم عذابًا أليمًا ويستبدل قومًا غيركم ولا تضروه شيئًا، والله على كل شيء قدير ﴾ [التوبة: ٣٩].

مبينًا لهم سبحانه أن قعودهم عن القتال في سبيل الله يجعلهم كافرين رغم كل ما يؤدونه من فرائض، بمثابة أن القتال في سبيل الله قد صار فريضة عين ودليل صدق الإيمان بالله، فقال تعالى:

﴿ إنكم رضيتم بالقعود أول مرة - وهم المتخلفين عن الخروج مع الرسول في غزوة تبوك(١) - فاقعدوا مع الخالفين. ولا تصل على أحد مات منهم أبداً ولا تقم على قبره، إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون ﴾ [التوبة: ٨٣ - ٨٤]. وقال تعالى: ﴿ إن المنافقين هم الفاسقون ﴾ [التوبة: ٦٧].

---

(١) صفوة التفاسير جـ١/٥٥٣.

ومنذ تلك اللحظة صارت شبه الجزيرة العربية هي وحدها دار السلم في العالم كله، وبقية بلاد العالم دار حرب(١).

---

(١) يقول الأستاذ عباس العقاد في كتابه «حقائق الإسلام» ٢٤٦/ - ٢٤٧: ووضح من لدد القوم (أي المشركين) وإصرارهم عليه أنهم لا يهادنون إلا ليتوفروا على جمع العدة وتأليب العدو من الخصوم والأحلاف، فبطلت حكمة الدعوة إلى العهد ولم يبق للمسلمين من سبيل إلى الايمان معهم إلا أن يخرجوهم من حيث أرادوا أن يخرجوا المسلمين ولا يبقوا أحداً غير مسلم في تلك الجزيرة التي أبت أن تكون وطناً للمشركين وأحلافهم دون سواهم. فانتهت حكمة التخيير بين المعاهدة والقتال، ووجب الخيار بين أمرين لا ثالث لهما، وهما الجوار على الإسلام أو على الخضوع لحكمه، فلا جوار في الجزيرة لأحد من المشركين وأحلافهم اليهود إلا أن يدين بالإسلام أو بالطاعة. ويستشهد الأستاذ العقاد في هذا المقام بقوله تعالى: ﴿ وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ﴾ وقول النبي عليه السلام يومئذ (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فمن قالها عصم مني ماله ودمه إلا بحقها وحسابهم على الله). وفي هذا المعنى ينص القرآن الكريم على محاربة أهل الكتاب الذين تحالفوا مع المشركين ونقضوا العهود المتوالية بينهم وبين النبي كما تقدم في ذكر الغزوات والسرايا ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾.

وتبعاً لهذا الرأي قال الدكتور محمد بدر الأستاذ بحقوق عين شمس في كتابه تاريخ النظم القانونية والاجتماعية» ٥٩٨/ ما سبق أن بيناه في الفصل الثاني عشر - المبحث الثاني وتعقيبنا على ذلك وعما تبقى من قول: أن القول بأن حديث السيف أو القتال إنما قاله الرسول ﷺ لإخضاع شبه الجزيرة العربية كلها وقبل تمام الفتح لها ودخولها كلها في الإسلام، فإن ذلك لا يعبر عن حقيقة الوقائع الواردة في السيرة النبوية المطهرة التي ذكرت فتح مكة في السنة الثامنة من الهجرة ومن بعدها بأسبوعين تم فتح الطائف وأقبلت الوفود تدخل في الإسلام وكان من قبل ذلك قد تم القضاء على اليهود في المدينة وفي خيبر. وكل ذلك من قبل نزول آيات القتال في التوبة؛ وإذا كان الأستاذ العقاد قدر رأى أن القتال في شبه الجزيرة العربية كان هدفه إما الجوار في الإسلام وإما الطاعة للإسلام، فإن هذا التخريج يتنافى مع صريح قول الله تبارك وتعالى: ﴿ فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ﴾ [التوبة] لذلك فإن الحق ما قاله علماء الأزهر الشريف في الوسيط ١٦٥٤/ حيث قالوا [لتخلص جزيرة العرب للمسلمين وحدهم حتى تكون كلمة الله هي العليا في مشرق الإسلام].

أما قول الدكتور محمد بدر بأن حروب أبي بكر كانت دفاعاً عن سلطة وليست لردة عن الدين، فقول مردود فمعنى حديث السيف نفسه لا يطيق هذا التفسير لربطه ﷺ الشهادة كعنوان على الإيمان بكلمة «إلا بحقها» أي بأركانها وشروطها. كما أن الواقع الثابت في حروب الردة أن المرتدين كانوا معترفين بخلافة أبي بكر وبأركان الدين جميعاً إلا الزكاة، ومن هنا جاء قول أبي بكر لهم ولأصحابه؛ والله لو منعوني عقالاً - وفي رواية عناقاً - كانوا يعطونه رسول الله لقاتلتهم عليه. والعقال الرباط والعناق أنثى الماعز عمرها أقل من سنة. فكان

وعندئذ يكون التساؤل:

١ – من المسئول عن الأمر بالقتال في سبيل الله؟

٢ – متى تجب تنفيذ فريضة القتال في سبيل الله؟

٣ – ومع من يكون القتال في سبيل الله؟

وربنا العلي الكبير جل جلاله الذي خلقنا وأنزل القرآن العظيم أجاب عن هذه الأسئلة بكل الوضوح والإحكام معًا.

فقال سبحانه وتعالى:

﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس .... ﴾ [التوبة: ٢٧] ثم بين ماذا يفعل المؤمنون بهم فقال سبحانه في الآية التالية مباشرة: ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾ [التوبة: ٢٨].

= الخلاف إذًا على ركن الزكاة. ولم يكن على سلطة أو خلافة. ولذلك سميت حروب الردة والردة لا تعني إلا الارتداد عن الدين، أما الذي يخرج عن السلطة، فقد سموا بالخوارج عند العرب.

وذكر الأستاذ العقاد في كتابه: حقائق الإسلام/ ٢٤٣ و٢٤٤ أن قتال المسلمين للدول المجاورة إنما تم للتمكين لأمن الدولة الإسلامية. وقوله هذا مثل قول كل الذين يتكلمون عن فريضة الجهاد في سبيل الله ويقولون إنها لمنع العدوان!!

إلا أن الملاحظ أن هؤلاء جميعًا لم يتعرضوا لآية عقد الإيمان ولا لآية قتال الذين يلوننا من الكفار (رقم ١١١ و١٢٣ التوبة). وكما سنوضح في هذا المبحث وهو الذي يشرح المرحلة الأخيرة والباقية إلى آخر الارض للقتال في سبيل الله، لهذا جاء رأيهم قاصر عن إدراك الحقيقة القرآنية التي وضحها السلف الصالح مثل الأئمة الاعلام الطبري والقرطبي والرازي وغيرهم والخلف الصالح مثل الإمام ابن كثير والجلالين.

والخطأ الذي يقع فيه أولئك إنما جاء من منطلق ظنهم بأن قتال الذين يلوننا من الكفار هو عدوان عليهم. وهذا الظن يتنافى مع حقيقة الفهم الإيماني، فالأرض أرض الله والناس خلق الله والامر بالقتال إنما للحكم بما أنزل الله وتحقيق حرية الناس التي حملوا أمانتها، ومن ثم فليس ثمة ولو احتمال بأن القتال هو للسيطرة والاستبداد واستغلال ثروات الشعوب وابتزازها، ولكنه كما هو ظاهر من اسمه أنه في سبيل الله: حرية الناس أمانة الله فيهم وحكمه بينهم بالحق.

فالأمر موجه من العلي العظيم إلى الذين آمنوا بالله ورسوله لقتال كل أنواع المشركين؛

ولأن هذا الأمر قد يُؤَول على أنه قتال للمشركين في شبه الجزيرة العربية وينتهي، كما فهم البعض؛

فإن الله سبحانه، بين المكان الذي يستمر فيه القتال من بعد الجزيرة العربية في قوله تعالى:

﴿ يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة، واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ [التوبة: ١٢٣] فبين ميادين القتال من بعد الجزيرة العربية بأنها تلك التي بها الكفار الأقرب منكم فالأقرب، أي الدولة التي بجوار الجزيرة العربية ثم التي تليها .. وهكذا.

فماذا فعل الرسول عندما نزلت عليه هذه الآية؟

إنَّ فعل الرسول هو السنة المؤكدة وهو تفسير القرآن العظيم.

تقول كتب التفسير وكتب السيرة أن الرسول ﷺ، فور نزول هذه الآية جهز جيش المسلمين في عدد وعدة لم يسبق لها مثيل؛ فكان جيشه ثلاثين ألف مقاتل كلهم راكب إما فارس وإما ممتطياً ناقة وكلهم له درع وسيف ومعهم الفرسان وأصحاب الأقواس والنبال واتجه إلى بلدة تبوك في أول بلاد الشام لأنها أول ما يلي الجزيرة العربية من بلاد الكفرة وهم أولى الناس بالقتال لأنهم من الذين أوتوا الكتاب، فوجدها بلدة فقيرة والجو شديد الحرارة والسفر طويل ومرهق وعدد المسلمين كبير، كما أن الروم لم يتحركوا لملاقاة الرسول، فأوحى الله سبحانه إليه بعد أن بين للمسلمين تفسير الآية وسنته في تنفيذها، أن يعود إلى المدينة حتى يحج بالناس، وليبين لهم مناسك الحج وقد أوشك موسمه على الحلول، ثم ينزل عليه رب العالمين الوحي بما بقي من آيات قليلة من القرآن العظيم وتكون بذلك مهمة الرسول الكريم قد انتهت وينتقل ﷺ إلى الرفيق الأعلى.

ويخلف الرسول ﷺ، صاحبه ووزيره الصديق أبو بكر، الذي ينشغل فترة في حروب الردة، وما أن ينتهي منها، حتى يسير جيوش المسلمين إلى تبوك بالشام وإلى العراق باعتبارها أول ما يلي الجزيرة العربية من بلاد الكفر تنفيذاً للقرآن العظيم وحسبما بين الرسول ﷺ للمؤمنين.

ويموت أبو بكر

ويستكمل عمر بن الخطاب فتح الشام وفتح العراق ثم تكون بلاد فارس هي ما يلي من الكفار فيوجه إليها جيش المسلمين فيفتحها ثم يوجه جيش المسلمين إلى مصر فيفتحها كذلك.

ومن بعده يقوم أمراء المؤمنين بتنفيذ الأمر الإلهي واتباع سنة الرسول ﷺ فيستكملون فتح ما يفتح الله لهم من بلدان حتى وصلوا الصين شرقًا وكل شمال إفريقيا غربًا ثم فتحوا أسبانيا (الأندلس) والبرتغال، ثم فتحوا جنوب آسيا ووسطها ثم امتد الفتح إلى شرق أوروبا ووسطها فتم فتح دول شرق أوروبا ويوغسلافيا والنمسا حتى دخلوا «ڤيينا» عاصمة امبراطورية النمسا مرتين.

وكلما عزف المسلمون عن الفتح يذهب ريحهم، فإذا عزموا وقاموا بتنفيذ أمر العلي الكبير قوى شأنهم وفتح الله لهم بلدانًا كثيرة.

ويقول الإمام الحافظ بن كثير في تفسير آية قتال الذين يلونكم من الكفار وهو يطابق ما قاله الإمام محمد بن جرير الطبري والإمام القرطبي والإمامان الجلالان:

[أمر الله تعالى المؤمنين أن يقاتلوا الكفار أولاً فأول الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام، ولهذا بدأ رسول الله ﷺ بقتال المشركين في جزيرة العرب، فلما فرغ منهم وفتح الله عليه مكة والمدينة والطائف واليمن واليمامة وهجر وخيبر وحضرموت وغير ذلك من أقاليم جزيرة العرب دخل الناس من سائر أحياء العرب في دين الله أفواجًا، شرع في قتال أهل الكتاب فتجهز لغزو الروم الذين هم أقرب الناس إلى جزيرة العرب وأولى الناس بالدعوة إلى الإسلام لأنهم أهل الكتاب فبلغ تبوك ثم رجع لأجل جهد

الناس وجدب البلاد وضيق الحال وذلك سنة تسع هجرية عليه السلام، ثم اشتغل في السنة العاشرة بحجة الوداع ثم عاجلته المنية صلوات الله وسلامه عليه بعد حجته بأحد وثمانين يومًا فاختاره الله لما عنده، وقام بالأمر بعده وزيره وصديقه وخليفته أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وقد مال الدين ميلة كاد أن ينجفل فثبته الله تعالى به فوطد القواعد وثبت الدعائم ورد شارد الدين وهو راغم ورد أهل الردة إلى الإسلام، وأخذ الزكاة ممن منعها من الطغام، وبين الحق لمن جهله، وأدى عن الرسول ما حمله، ثم شرع في تجهيز الجيوش الإسلامية إلى الروم عبدة الصلبان، وإلى الفرس عبدة النيران، ففتح الله ببركة سفارته البلاد، وأرغم كسرى وقيصر ومن أطاعهما من العبيد. وأنفق كنوزهما في سبيل الله كما أخبر بذلك رسول الله، وكان تمام الأمر على وصيه من بعده، وولي عهده، الفاروق الأواب، شهيد المحراب، أبي حفص عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، فأرغم الله به أنوف الكفرة الملحدين، وقمع الطغاة والمنافقين واستولى على الممالك شرقًا وغربًا وحملت إليه خزائن الأموال من سائر الأقاليم بعداً وقربًا. ففرقها على الوجه الشرعي، والسبيل المرضي، ثم مات شهيداً وقد عاش حميداً. أجمع الصحابة من المهاجرين والأنصار على خليفة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه شهيد الدار. فكسى الإسلام رياسة حلة سابغة. وأمدَّ في سائر الأقاليم على رقاب العباد حجة الله البالغة. فظهر الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها. وغلت كلمة الله وظهر دينه. وبلغت الملة الحنيفية من أعداء الله غاية مآبها. وكلما علوا أمة انتقلوا إلى من بعدهم ثم الذين يلونهم من العتاة الفجار امتثالاً لقوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وليجدوا فيكم غلظة ﴾ أي وليجد الكفار فيكم غلظة عليهم في قتالكم لهم فإن المؤمن الكامل هو الذي يكون رفيقًا لأخيه المؤمن غليظًا على عدوه الكافر كقوله تعالى: ﴿ فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ﴾ وقال تعالى: ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ وقال تعالى: ﴿ يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ﴾. وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: (أنا الضحوك القتال) يعني الضحوك

في وجه وليه قتال لهامة عدوه. وقوله تعالى: ﴿واعلموا أن الله مع المتقين﴾ أي قاتلوا الكفار وتوكلوا على الله واعلموا أن الله معكم إذا اتقيتموه واطعتموه؛ وهكذا الأمر لما كانت القرون الثلاثة الذين هم خير هذه الأمة في غاية الاستقامة والقيام بطاعة الله تعالى لم يزالوا ظاهرين على عدوهم. ولم تزل الفتوحات كثيرة ولم تزل الأعداء في سفال وخسار؛ ثم لما وقعت الفتن والأهواء والاختلافات بين الملوك طمع الأعداء في أطراف البلاد وتقدموا إليها فلم يمانعوا لشغل الملوك بعضهم ببعض ثم تقدموا إلى حوزة الإسلام فأخذوا من الأطراف بلدانًا كثيرة ثم لم يزالوا حتى استحوزوا على كثير من بلاد المسلمين، ولله الأمر من قبل ومن بعد. فكلما قام ملك من ملوك الإسلام وأطاع أوامر الله وتوكل على الله فتح الله عليه من البلاد واسترجع من الأعداء بحسبة وبقدر ما فيه من ولاية الله. والله المسئول المأمول أن يمكن المسلمين من نواصي أعدائه الكافرين وأن يعلي كلمتهم في سائر الأقاليم إنه جواد كريم] انتهى(١).

فلأن الجهاد في سبيل الله المفروض فرض عين على المؤمنين بقتال ﴿الذين يلونكم من الكفار﴾ قد نسخ ما قبله من أحكام القتال في سبيل الله سواء أحكام مرحلة رد العدوان بمثله أي مرحلة الدفاع، وأحكام مرحلة الهجوم وإن جنحوا للسلم فاجنح لها.

فإن الجهاد في سبيل الله بقتال الذين يلوننا من الكفار فريضة دائمة ومستمرة حتى آخر الأرض، ومن ثم فهي تتطلب العزم والقوة والصلابة والاستعداد العسكري الدائم المستمر من الدولة المسلمة لقتال الدولة الكافرة التي بجوارها.

لهذا، فإن الله سبحانه وتعالى أمر المسلمين بقوله تعالى: ﴿فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم﴾ [محمد: ٣٥] أي أن الجهاد يقتضي عدم الضعف الذي مظهره الدعوة إلى السلام مع الكفار، ويقرر سبحانه وتعالى أننا إذا تمسكنا بقوة إيماننا بالله جل جلاله وإيماننا بأن القوة كلها لله، واعددنا ما استطعنا - و ﴿لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها﴾ - للقتال، وقاتلنا بقوة وثبات وصبر وغلظة

---

(١) تفسير ابن كثير حـ٢ / ٤٠١ - ٤٠٢.

وشدة، مصممين مستبسلين بائعين أنفسنا وأموالنا لله جل جلاله، فإن الله العظيم يقرر بعلمه الإلهي أننا الأعلون أي المنتصرون وأن الله معنا وأجرنا عند الله سيكون الأوفى ﴿ ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم ﴾ [محمد : ١١].

وتطبيقًا عمليًا لفريضة قتال الذين يلوننا من الكفار حتى يؤمنوا أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون أي أذلاء مستسلمين لحكم الله؛ هذا العهد الذي كتبه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه وسماه المؤرخون عهد بيت المقدس. ونصه الذي كتبه الخليفة عمر بن الخطاب لأهل إيليا [إنه أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها، وأنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من خيرها ولا من صلبهم ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم ولا يضار على أحد منهم. ولا يسكن بإلياء معهم أحد من اليهود، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن وأن يخرجوا منها الروم واللسوت؛ ومن خرج منهم فهو آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم. ومن أقام معهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية. ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بينه وبين صلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم](١).

والقتال في سبيل الله، ليس عدوانًا كما يدعي المستشرقون، وينخدع بعض المسلمين بحسن النية، فيدافعوا عن الإسلام ويقولوا بآيات الله عن الدفاع برد العدوان بمثله وبأن ما زاد عليه فهو عدوان كدليل على عدم وجود عدوان في القرآن!!

وهذا النهج من القول ظاهر البطلان، وخطأ من الجانبين، فهو خطأ ممن يقول بأن في الإسلام عدوان، وبالتالي فهو خطأ ممن ينفي وجود العدوان، لأنه نفي شيء لا وجود له، هو من قبيل الخطأ في الجدال. ذلك بأن العدوان لا تنعقد أركانه إلا إذا كان **أولاً** قد وقع على حق للغير؛ **وثانياً** ترتب عليه أخذ حق الغير أو الإضرار به.

---

(١) «حقائق الإسلام» للاستاذ عباس العقاد/ ٢٣٣ - ٢٤٤.

ولما كان القتال في سبيل الله هو أمر من الله سبحانه وجعله فريضة مقدسة باقية وذروة سنام الدين ودليل صدق الإيمان به؛

فهو بالتالي حق الله سبحانه.

ولما كان هذا القتال هدفه الوحيد هو تطبيق حكم الله جل جلاله وأوله تحرير الناس على أرض الله الخالق العظيم وتحقيق الصدق والعدل بينهم.

إذاً فهو ليس اغتصاباً ولا اعتداء على حق أحد؛ ففتح البلاد بواسطة المجاهدين المقاتلين في سبيل الله لا يترتب عليه - كما رأينا في عهد الخليفة عمر بن الخطاب في بيت المقدس - أخذ أموال أحد ولا انتهاك لحرمات أحد ولا اغتصاب أعراض أحد ولا اعتقال أو سجن أحد، ولا تعذيب أحد، ولا منع السعي على الرزق ولا فرض وصاية على أحد.

إنما الذي يترتب على الفتح الإسلامي

هو شيء واحد فقط الا وهو الحكم بين الناس بما أنزل الله، بين الناس كافة مسلمين وغير مسلمين، لا تفرقة بينهم في شيء. ولأن المسلمين يدفعون الزكاة ومن مصارفها ما هو في سبيل الله أي القتال في سبيل الله للحفاظ على الدين والعمل بحكم الله بين الناس، فإن الذين يبقون على ملتهم وهذا من صميم حريتهم التي يكفلها لهم حكم الإسلام، يدفعوا الجزية أي الجزاء المقابل لحق الدفاع عنهم وعن أموالهم وعن حرياتهم، لأنهم غير مكلفين بالدفاع عن الإسلام طبقاً لحكم الإسلام.

ومن هذا، يتبين جلياً، أنه ليس هناك عدوان من المسلمين على دول الكفار التي تجاورهم ويفتحها المسلمون، لأن المسلمين لا يأخذوا منها شيئاً لأنفسهم إطلاقاً. وعهد إيليا أي عهد بيت المقدس أكبر دليل مادي وتاريخي على هذا.

وإذاً فالدفاع عن الإسلام

إنما يكون ببيان حقيقة أحكامه وبالأدلة التاريخية الثابتة عند العالمين.

وليس بالتخبط في الاستشهاد بالآيات القرآنية الكريمة في غير موضعها، وإحياء المنسوخ منها وطمس الناسخ لها.

وقد يسأل أحد، ولماذا الحكم بما أنزل الله بين الكافرين، ومن ثم لم يكن هناك مسوغ لقتالهم؟!

فنجيب، كما بينا، أن الأرض هي الأرض التي خلقها الله ولم يدع أحد أنه خلق منها ذرة، لا فيها ولا في السماوات. وأن الناس، خلق الله، خلقهم من تراب ثم سواهم ونفخ في كل إنسان من روحه، وإذاً فالكل ملك له سبحانه، ومن منطلق هذه الملكية، فهو أعلم بما يصلح لهم ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾ [الملك].

ولما كان ذلك

ولما كان الحكم بما أنزل الله بين الناس؛ وهو الحكم الذي فيه العدالة الحقة لأنه خالٍ من الهوى؛ هو أحسن حكم.

فإن الحكم بما أنزل الله هو وحده الذي يؤدي إلى إرساء الحق في الأرض، ويدعو الناس بالتالي إلى التفكر في الله صاحب الحكم العادل. والتفكر في الله هو المدخل والطريق المستقيم إلى معرفته جل جلاله.

ولما كان التفكر في الله سببه الحرية التي تحققت للناس نتيجة حكمهم بما أنزل الله.

فإن التفكر لا بد وأن يستمد أسبابه من القرآن العظيم الذي فيه حكم الله، فإذا ما كان التعقل والفهم لآيات الله الكريم، كان النور الذي يملأ العقل وتنشرح له الصدور، ومن ثم الإيمان واليقين بالإسلام ﴿ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾ [التوبة: ٣٢].

وإذاً فالقتال في سبيل الله فريضة شرعها الله لإلزام الناس جميعاً على كل الأرض دانيها وقاصيها بحكم الله العظيم لأنه أحسن حكم، ﴿ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾ [المائدة: ٥٠].

ولنشر هدي الدين الإسلامي بين الناس تمكينًا لنوره في الأرض، ولأن الله سبحانه - ﴿وهو عليم بذات الصدور﴾ [الحديد: ٦] يعلم أن الكفرة سيظلون في سائر الأرض على عدائهم للمسلمين وعدوانهم عليهم بكل وسيلة ظاهرة وخفية وبالسلاح وبغيره من وسائل الإيذاء والاعتداء؛ اقتصاديًا وعلمياً ونفسيًا ودعائيًا وحربيًا وسياسيًا وثقافيًا ... إلخ.

فإنه، سبحانه، جعل فريضة الجهاد في سبيل الله بالقتال فريضة دائمة أبدًا حتى آخر الأرض، أي حتى يظلل الحكم الإسلامي كل شبر من الأرض، ولا سبيل للسلام أو التفاوض، لأن الهدف من القتال هو تطبيق حكم الله بين الناس كافة. ولأنه ﴿في سبيل الله﴾ فهو خير محض.

ولأن المشركين علموا ذلك من القرآن ومن التاريخ الإسلامي، فإنهم عاهدوا أنفسهم على أن يقضوا على المسلمين والإسلام بشتى الطرق، فالدولة الرومانية التي كانت موجودة في فجر الإسلام وضحاه نص قانونها على اعتبار دار المسلمين دار حرب، وكذلك فعلت أوروبًا حين قننت قانونها الدولي في القرن السادس عشر ونصت فيه على أن أحكام هذا القانون [تسري على العالم المسيحي ولا تسري على العالم "المحمدي" لأنه عالم جهالة لا يفقه هذه الحدود ولا يلتزم بواجباتها وتبعاتها] !؟(١).

ومن دواعي السخرية حقًا أن تقول أوروبا هذا القول، وهي التي تعلم أن القرآن العظيم هو الذي وضع أصول الأحكام بين الدول من قبل هذا القانون الأوروبي بأحد عشر قرنًا، وضعه بالعلم الإلهي الذي نزل بالقسط بين الناس فبين أحكام إعلان الحرب والتبليغ به والنبذ والمعاهدة والصلح والذمة والموادعة والهدنة والسفارة والوساطة، كل ذلك في القرآن العظيم على وجه الإجمال، فصلته السنة النبوية الشريفة. ثم بيان القرآن العظيم في أن الفتح الإسلامي تنحصر حقوقه في الحكم بين الناس بما أنزل الله فيه وأول ما فيه تحرير الناس وتحميلهم أمانة هذه الحرية التي حملوها في نهاية النشأة لأول مرة (الحياة الأولى)(٢).

---

(١) المرجع السابق/ ٢٤٩.

(٢) حكاية البشر... علميًا للمؤلف.

وإذا كنا نريد أن نتبين الحق، فكلنا يعلم ويعرف ما هو الفتح وحقوقه عند أوروبا، أليس هو إهدار الحقوق وسلب أموال الدولة المغلوبة وقتل ابناءها وإشاعة الفواحش فيها وفيهم، أما التعذيب والسجن فحدث عنه ولا حرج وتضييع قيم الشعوب وأخلاقياتهم، وتضييع لسانهم وآدابهم..

وبمرور الزمن ولزيادة وسرعة الاتصال بين الشعوب، فقد بدل الاستعمار الأوروبي والأمريكي وسائله فألبسه الأسماء الناعمة مثل نشر الثقافة والتعاون في التعليم وبرامجه والتنمية والتعاون الاقتصادي والقروض الاستثمارية والنهوض بالأمم المتخلفة وتحديد أو تنظيم نسلهم خداعًا لتحقيق أغراضهم في إبادة هذه الشعوب أو جعلها دائرة في فلكهم وسوقًا لمنتجاتهم وتحت سيطرتهم ثم استنزافهم ... وتحقيقًا لهذا جاءت اتفاقية "حرية التجارة العالمية وإزالة الرسوم الجمركية" المعروفة باسم اتفاقية "الجات".

وإذا كان المشركون في حلف دائم ضد المسلمين منذ الرومان وحتى الآن مرورًا بالحروب الصليبية، عندما اتحدت أوروبا وروسيا - وكانوا وقتها هم العالم كله - ضد المسلمين.

ثم احتلال الإنجليز والفرنسيين والإيطاليين لأرض المسلمين، وعدوانهم على المسلمين بكل صنوف العدوان من القتل إلى إفشاء الفساد في المجتمع وتضييع اللغة من المسلمين حتى لا يعرفوا القرآن وينسوه فينسوا إمامهم وصراطهم المستقيم.

ولما كان المشركون كذلك، وعندما تبدل الحال، بدلوا الخطة فانشأوا لليهودية دولة في قلب العالم الإسلامي لتكون الحربة الموجهة إلى المسلمين على الدوام وبؤرة إشعاع الفساد والرذيلة وسفك ا لدماء وابتزاز أموال المسلمين وإجهاض قوتهم، حين نصت معاهدة معسكر داود على إنشاء أكاديمية إسرائيلية بمصر لنشر الدعاوات الإسرائيلية وما فيها من أباطيل ضد مصر والعرب مع إشاعة الفحشاء بين الناس.

ولما كان الهدف واحد، فقد احتلت روسيا أفغانستان موطن حجة الإسلام أبي حامد الغزالي وجمالد الدين الأفغاني..

لما كان ذلك كله

إذًا فهم جميعًا في حلف دائم وهدف واحد ضد الإسلام والمسلمين.

لذلك قال رب العالمين بعلمه وهو سبحانه العليم الحكيم:

﴿ قاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة ﴾ [التوبة: ٣٦].

ولأن هذا هو علم الله سبحانه، فإنه سبحانه وتعالى جعل الجهاد بالسيف أي قتالاً في سبيل الله هو الدليل على صدق الإيمان ﴿ إنما المؤمنون الذين يؤمنون بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله؛ أولئك هم الصادقون ﴾ [الحجرات: ١٥].

وطبقًا لأحكام أصول الفقه

فإن الآية الكريمة ﴿ يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين ﴾.

هي الدليل الشرعي للحكم.

وأن الحكم هو: أن المؤمنين يقاتلوا الكفرة بغلظة ويتقوا الله فلا يقتلوا طفلاً ولا امرأة ولا شيخًا ولا يقطعوا شجرة مثمرة.

وأن علة هذا الحكم هي: وجود الدولة الكافرة بجانب الدولة المؤمنة فالقتال إزالة للكفر إزالة للفساد في الأقوام التي ليست في حكم الله.

وأن الحكمة التي يحققها الحكم: تحقيق حريتهم والعدل بينهم بالحكم بينهم بما أنزل الله.

ومن هذا وطبقًا لقاعدة الحكم يدور مع علته وجوداً وعدمًا؛ فإذا وجدت العلة وجد الحكم أي إذا وجد الإيمان وبجواره الكفر وجد القتال في سبيل الله، وإذا لم توجد العلة لم يوجد الحكم. أي إذا انعدم الإيمان والكفر بجواره فلن يوجد قتال في سبيل الله.

وإذاً، فإن المؤمن الذي يقاتل في سبيل الله، هو المؤمن الصادق الإيمان، وهو لا يقاتل منفرداً أو مع جماعة، إنما يقاتل في جيش الدولة ضد الدولة المجاورة الكافرة. وهي السنة التي بينها الرسول ﷺ وظلت سادرة على طول ثلاثة قرون..

ويقول الرسول ﷺ (الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة)(١) ويقول (من مات ولم يغز أو يحدث نفسه بغزو مات على شعبة من النفاق) أي مات كافراً(٢).

رُوي أن رجلاً من المسلمين حمل على جيش الروم حتى دخل فيهم فصاح الناس: سبحان الله ألقى بيديه إلى التهلكة. فقال أبو أيوب الأنصاري (مضيف رسول الله ﷺ في المدينة): إنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار حين أعز الله الإسلام وكثر ناصروه قلنا: لو أقمنا في أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها، فنزلت ﴿وانفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ فكانت "التهلكة" الإقامة على الأموال وإصلاحها وترك الجهاد في سبيل الله، فما زال أبو أيوب شاخصاً ببصره في سبيل الله حتى استشهد ودفن بأرض الروم.

والمعنى أن لا تبخلوا عن الإنفاق على الجهاد في سبيل الله وتنشغلوا بأموالكم وتقعدوا عن الجهاد فيتقوى عدوكم عليكم ويكون هلاككم(٣).

وقال ابن عباس: أي تمسك بيدك عن الإنفاق في سبيل الله.

لذلك قال أبو بكر الصديق في خطبة توليه الخلافة: ما ترك قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل.

وهذا واضح من حال أمة المسلمين حالياً بما يغني عن البيان ...

ويتضح المعنى ويزيد ظهوراً، إذا علمنا أن المال والرجال هما عصب القتال. فهما معاً عدته وأجر سيره وتطويره، ومن ثم فبمال الله وجند الله يكون النصر من عند الله العزيز الحكيم.

أما إذا تخلف المال، وتخلف الناس عن القتال بدعوى إصلاح المال والحال. كان ذلك سبب الضعف ومن ثم الهزيمة.

والهزيمة لا تعني إلا احتلال بلاد المسلمين وسلب أموالهم التي حرص المخلفون

---

(١) «علم أصول الفقه» للشيخ عبد الوهاب خلاف/١٨٨.

(٢) تفسير ابن كثير حـ١ /٢٥٢ عن صحيح البخاري والإسراء والمعراج للشيخ عبد الحليم محمود شيخ الأزهر/٧٣.

(٣) تفسير ابن كثير حـ١ /٢٢٩ وصفوة التفاسير حـ١ /١٢٧.

عليها، بل وسلب حياتهم وأعراضهم، وضياع قيمهم ولغتهم وآدابهم ومجتمعهم، ويصيروا بشكل أو بآخر مستذلين مستعبدين للمحتل.

لذلك يبين لنا العليم الخبير هذه المعاني في السورة التي نسخت السلم والسلام مع الكفار، وفرضت القتال في سبيل الله إلى يوم القيامة وآخر الأرض، ومن ثم وضعت للأمة الإسلامية نظامها العسكري الذي يجب أن تثابر عليه دائماً أبداً.

﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحبَّ إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره، والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ [التوبة : ٢٤].

ويقول علماء الأزهر الشريف في تفسير قوله تعالى: ﴿ وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم ﴾ [البقرة : ٢٤٤]: وإنك لترى الأمر بالجهاد منثوراً في هذه السورة، ضمن آيات الأحكام، مذكراً من آن لآخر، لأنه من أشق التكاليف، وعليه يدور بقاء هذا الدين، الذي يتربص به أعداؤه، فلو لم يجاهدوا لهلكوا، وضاع دينهم.

وفي مضمون الآية الكريمة: تحذير لكل مسلم من أن يجبن عن القتال في سبيل الله حذر الموت بقوله تعالى: ﴿ قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ﴾ [الجمعة :٨]. إذ الموت أجل يبلغه المرء فيموت: سواء كان على فراشه، أم كان في حرب ضروس[١].

لذلك يقول العلي الكبير: ﴿ فلا تَهِنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم ﴾ [محمد : ٣٥].

لا جُبْن ولا خَوْر

لا ضعف ولا وهن ولا تخاذل.

ولكن تصديقًا بالبيع، واستحقاقًا للجنة.

واسمع مقالة خالد بن الوليد، سيف الله المسلول، وهو في سياق الموت: لقد شهدت كذا وكذا موقفًا - أي معاركه الحربية - وما من عضو من أعضائي إلا وفيه طعنة أو ضربة، وها أنذا أموت على فراشي كما يموت العير؛ فلا نامت أعين الجبناء[٢].

---

(١) التفسير الوسيط / ٤١٥.

(٢) تفسير ابن كثير حـ١ / ٢٩٩.

المبحث السادس : العودة إلى الله

مما سبق، يتبين بعمق الحق ويقين الصدق، أن الإسلام، دين الله العظيم إنما يتبلور في ذروة فرائضه: القتال في سبيل الله للحكم بما أنزل الله، ومن ثم كان نتاجه الحق، في تحرير الإنسان ومنهج الله وعدله وهدايته.

والقتال في سبيل الله هو الفريضة التي تتواءم مع الفطرة التي خلق الله الناس عليها، ذلك بأن الفطرة السليمة هي التي تدرك أننا وكل شيء خَلْق الله العظيم، وأنه لهذا فإن الإيمان به وحده هو الحق.

ومن ثم

فإن الخروج على هذه الفطرة التي فطر الله الناس عليها، إنما هو انحدار في دركات السفال العقلي وخلود إلى ماديات الأرض وجنوح بالغرائز إلى الرذائل، والكلام بسفساف الأمور، ولهو الحديث، فإذا بالإنسان في أسفل سافلين. ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم. أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم﴾ [محمد: ٢٢، ٢٣].

لهذا

شرع الله الحكيم للمؤمنين لما فيهم من رشد وهداية، فهم يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، في طاعة الله ونوره، أن تكون لهم اليد القوية بقوة الله فيهم، لإرغام الشاردين من خلقه عن حقوق الله فيهم على الخضوع لحكم الله، وتحريرهم من آثار العبودية مهما تنوعت أساليبها، وإرساء عدالة الرحمن بينهم، فإذا هم في حياتهم قد أصبحوا على أصول ثابتة وقواعد عدالة وارفة، تشيع فيهم الحق والأمن والطمأنينة، فتزكي نفوسهم بطهر الله في حكمه، وتجعل أسباب الإيمان بالله ورسوله قد تهيأ لها في صدورهم شرح ونور، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

ومن ثم

وجب علينا أن نبحث بعلم الله ونوره عن الأسباب التي أبت على المسلمين أن

يكونوا يد الله الضاربة القوية بقدرته وعزته في أرضه لتطبيق حكم تحرير خلقه وتثبيتهم على طريق هدايته ورحمته.

وإذا اهتدينا بفضل الله وهدايته إلى معرفة أسباب ذلك، فإن نور الحق من الله يجلي ويبين ويثبت أن العمل بالقرآن العظيم، كله لا يتخلف منه شيء، إنما هو الصراط القويم الذي يعود إليه المسلمون فيعودوا به أمة واحدة في منهج واحد وحكم واحد، فإذا بهم أقوياء أعزاء بقوة الحق ورباطة الجاش والثقة الكاملة في أنفسهم بعزة الله فيهم وعلم الله في قلوبهم وفهم نوره بأفئدتهم، فيكونوا مرة ثانية - بإذن الله - خير أمة أخرجت للناس، الذين حباهم الله من فضله فجعلهم عباده القوامين على إرساء حكم الله في أرض الله بالقتال في سبيل الله إلى يوم القيامة، عازفين عن الدنيا الفانية مؤثرين الآخرة، ورحمة ربك خير وأبقى؛ وخير مما يجمعون.

وإذا استقرأنا التاريخ وجدنا الأسباب كثيرة ونوجز أهمها فيما يلي:

أول أسبابها، هو اتخاذ الخلافة سبيلاً إلى ملك عضوض، ومن طمع الكثيرون في أن يكون لهم مثل ما لغيرهم، وكلٌ يرى الحق في جانبه وقد سبقهم إليها طليق لا حق له في الخلافة أصلاً.

ومن تفاعل هذه الأحداث، وإن اتصلت عشرات ومئات السنين، تقسمت الأمة الإسلامية الواحدة إلى دويلات متناحرة ومتحاربة في بعض أوقاتها، فذهب ريح المسلمين، وطمع المشركون فيهم وأزالوا المسلمين من كثير من الأرض التي كان قد فتحها الله عليهم.

ذهبت الأندلس بعد ثمانمائة عام. وذهبت جميع الدويلات الواقعة شمال فارس والعراق وأفغانستان.

فلما توحدت أمة المسلمين على يد خلفاء آل عثمان، عادت إليهم قوتهم ودخلوا أوروبا من مشرقها حتى منتصفها في ڤيينا عاصمة النمسا.

ذلك بأن الله سبحانه يفهمنا هذه الحقيقة.

حقيقة أن قوة الإسلام في وحدة أمة المسلمين والقتال في سبيله.

فيقول سبحانه هاديًا مبينًا:

﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون﴾ [الأنبياء: ٩٢].

﴿وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون﴾ [المؤمنون: ٥٢].

وثاني أسبابها، هو الوقوع في حبائل المشركين رغمًا عنا، فحكمونا بقوانين الكنيسة الوثنية التي يعبدونها، بعد أن كنا نحكم بكتاب الله. وإذا بنا من بعد جلاء جيوشهم من بلادنا، نستمرئ طغيانهم فنأخذ به أنفسنا ونهدر به حياتنا، فنتبع غير سبيل المؤمنين، ونتبع السبل فنضل بها عن سبيل الحق والرحمة، وإذا بالمجتمع الإسلامي يتفكك وينهار وينحل في عدله وأخلاقه وقيمه وأمنه، وتسود الجريمة وتنتشر ويرتفع الشر والفساد ويسيطر في كل مناحي الحياة..

وثالث أسبابها، ضياع التعليم، فقد انخرط الفكر في طواحين الهواء الأوروبية، والآن الأمريكية، ونقلنا فكرهم وعظمناه وفضلناه وأرسيناه في أولادنا، فإذا بهم غرباء بين آبائهم، غرباء في بلدهم، فدرسوا فلسفات الوجودية المادية التي تؤمن بالغرائز وحقها الكامل المطلق وتكفر بالنفس ونورها، ولم نذكر شيئًا عن حقائق القرآن في الإنسان وفي خلق الله، ودرسنا كل ما شطح فيه فكر المشركين وكل الظن فيه والتخرص على القرآن، معظمين ما قالوا، هاجرين علم الله في كتابه، مدعين العقلانية، موقنين بهذا الإفك من المشركين؛ فإذا ما قال عبد من عباد الله، عودوا إلى حقائق القرآن؛ قالوا والجهل يتساقط من أفواههم، والشرك يسود ألسنتهم، إن العلم من أوروبا وأمريكا، أما القرآن فكتاب عبادة وغيبيات؟!!

وضاع التعليم

أضاعه الجهلة، الذين أشركوا بالله دون أن يدروا..

وإذا ضاع التعليم، فقد انهار بناء الإنسان، وخرج إلينا الإنسان التافه فكرًا وعلمًا وخلقًا وقيمًا.

ومن ثم لا يؤمن بالله العظيم حقًا وصدقًا.

فأين هذا الإنسان من فريضة بيع نفسه وماله لله العلي الكبير!!

ورابع أسبابها، العمل الدائم وبكل الطرق المباشرة وغير المباشرة على تضييع القرآن من قلوب المسلمين. والقرآن العظيم لغته العربية الفصحى. فإذا بهم يعملون بكل الوسائل، على تدريس اللغات الأجنبية حتى يضيعوا العربية من ألسنة المسلمين، وإذا بالمشركين في بعض البلدان الإسلامية كالجزائر والمغرب وتونس يعملون على منع التعليم إلا باللغة الفرنسية، كما حاولوا ذلك في مصر والعراق والشام، وإذا ناضل المسلمون تمسكًا بلسانهم العربي، فإن الإنسان التافه علمًا وفكرًا الذي تعلم في أوروبا وهم كثيرون، يعودون بمركبات النقص فيهم، فيجعلوا من اللغات الأجنبية أساسًا رفيعًا في التعليم وليس من حياء للإسلام فيهم فيمنعهم من وصم كلام الله بأنه غير رفيع، وقال رسول الله ﷺ (لكل دين خلق وخلق الإسلام الحياء فإن لم تستح فاصنع ما شئت).

وإذا بالناس، يهبون هبة واحدة في أولادهم فيدخلونهم مدارس اللغات الأجنبية، وإذا بأمة المسلمين وقد أدخل عليها هذا الضياع الهائل على شفا حفرة من الجهل الكامل بكتاب الله العظيم.

وهذا تمامًا وبالضبط ما يريده المشركون فينا. أن نجهل القرآن فلا نؤمن به، فيضيع الإيمان منا، ومن ليس مؤمنًا لا يقاتل في سبيل الله.

ومن ضاع منه هذا، ضربه الله بالذل.

والذل الذي فيه أمة المسلمين الان كاف لأن يجعل كل ذي سمع وبصر ان يفئ إلى أمر الله.

وخامس أسبابها، هو النأي عن تعليم المفاهيم الإسلامية في كل مراحل التعليم وتعرية المرأة وزجها بين الرجال، والنظر إلى الدين نظرة التخلف وإن أمسكوا السنتهم عن ذلك، فهم يراءون الناس، دليل ذلك عدم الحكم بما أنزل الله، ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الكافرون﴾ [المائدة].

سادس أسبابها، ان المشركين قد استخدموا القوة ضد المسلمين، منتهزين تخلف المسلمين المتمرغين ضعفًا وسقوطًا في فهم العبادات ظانين بأنها الدين، وما الدين إلا كل حركة الحياة: ري الأرض وزرعها وبناء بيوتها ومصانعها وقوة جيشها وقوة علمها وصنع الأسماء في أرض الله والقتال في سبيل الله؛ كل أولئك هو بناء الإسلام.

فالمسلمون يرون قوة صناعة المشركين فيشعرون بالتخلف والضعف وما يجره ذلك الشعور على النفس التي ترضع في المدارس علوم الوهم والشك وفلسفة اللذة والغرائز من خور ومهانة. ويرون قوة السلاح فيزيد شعورهم بالضياع وضرورة الانصياع للمشركين الأقوياء.

ومن ثم لا يقاتلون في سبيل الله. وما علموا أن القوة لله جميعًا..

وسابع أسبابها، جاء منطقيًا، فهجر القرآن، هجر لكل حقائق الخلق، فلم نستخدم الماء الذي ساقه إلينا ربنا في إحياء أرضه وحرث زرعه، ولكن منعنا الماء وحجزناه. ومنعنا خيره، فضعف الزرع وقل الضرع وأصبحنا نستورد ٨٠٪ من طعامنا.

والإنسان، مهما كان، عبد لمن يطعمه.

وهذا هو أخطر ما يمكن أن يلاقيه إنسان، فما بال الأمة بأسرها.

ومن ثم

هل يقاتل الإنسان الجائع من يطعمونه؟؟!

وإذا كانت هذه هي بعض الأسباب التي أبت على المسلمين ان يكونوا أمة مؤمنة قوية بقوة الله فتقاتل في سبيله صفًا.

فإن ما في هذه الأسباب من بيان، هو أوضح ما يكون إصلاحًا للإنسان وإصلاحًا وتوحيداً لأمة المسلمين.

والله المأمول برحمته وهدايته.

وخير ما نختم به هذا الفصل هو إعادة رواية حديث رأس الأمر للتذكرة والتبصرة.

روي الإمام احمد بن حنبل بسنده عن معاذ بن جبل، قال: قال رسول الله ﷺ:
(.... الا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟) فقلت: بلى يا رسول الله فقال:
(رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله ...) ورواه
الترمذي والنسائي وابن ماجة وابن جرير من طرق أخرى(١).

---

(١) تفسير ابن كثير حـ٣/٤٥٩.

الفصل التاسع عشر
الله يصلي على النبي

أصل "الصلاة" في كلام العرب: الدعاء(١).

والصلاة بهذا المعنى، صلة للداعي بمن يدعوه.

ولأن أكرم وأشرف الصلة هي دعاء العبد للرب ورحمة الله العظيم بالعبد، فقد أطلقت كلمة "الصلاة" على أشرف موقف يكون فيه الإنسان إذ هو قائم وراكع وساجد لله العلي العظيم يمجده ويثني عليه ويبتهل إليه ويناجيه.

وتختلف "الصلاة" باختلاف المصلي، فصلاة الله على رسوله الكريم، غير صلاته على المؤمنين، غير صلاة الملائكة على الرسول، غير صلاتهم على المؤمنين، وكل ذلك غير صلاة الناس لله رب العالمين، غير صلاة المؤمنين على رسوله ﷺ.

وأعظم الصلاة صلاة رب العالمين على رسوله سيدنا محمد ﷺ تسليماً كثيراً. ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي﴾.

ويبين العلي الكبير ذلك لرسوله وللعالمين فيقول سبحانه عز وجل:

﴿واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا...﴾ [الطور: ٤٨].

قال الطبري: نراك ونرى عملك ونحوطك ونحفظك(٢).

وقال ابن كثير: بمرأى منا وتحت كلاءتنا والله يعصمك من الناس(٣).

وقال الجلالين: نراك ونحفظك(٤).

---

(١) ابن كثير حـ١/ ٤٢ - ٤٣ ومختار الصحاح.

(٢) مختصر الطبري/ ٦٠٠.

(٣) ابن كثير حـ٤/ ٢٤٥.

(٤) الجلالين/ ٤٦٥ وكذلك صفوة التفاسير حـ٣/ ٢٦٩.

وأخرج الإمام ابن كثير:

قال الإمام البخاري: قال أبو العالية: صلاة الله تعالى ثناؤه عليه عند الملائكة، وصلاة الملائكة الدعاء. وأخرج بسنده عن ابن عباس أنه قال: يصلون يُبركون. كما أخرج عن ابن أبي حاتم بسنده: صلاته تبارك وتعالى: سبوح قدوس سبقت رحمتي غضبي.

ويقول الإمام ابن كثير: إن المقصود من قوله تبارك وتعالى: ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليمًا﴾ أن الله سبحانه وتعالى أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه عنده في الملأ الأعلى بأنه يثني عليه عند الملائكة المقربين، وأن الملائكة تصلي عليه، ثم أمر تعالى أهل العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين: العلوي والسفلي(١).

وأرى أن النسق القرآني يتفق مع قول ابن عباس لقوله تعالى: ﴿تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير﴾ [الملك: ١] ﴿تبارك الله رب العالمين﴾ [الأعراف: ٥٤] ﴿تبارك الله أحسن الخالقين﴾ [المؤمنون: ١٤] ﴿تبارك الذي نزل الفرقان﴾ [الفرقان: ١] ﴿تبارك الذي جعل في السماء بروجًا..﴾ [الفرقان: ٦١] ﴿تبارك الذي له ملك السماوات والأرض وما بينهما﴾ [الزخرف: ٨٥] ﴿تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام﴾ [الرحمن: ٧٨] ﴿تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك..﴾ [الفرقان: ١٠].

فالله سبحانه وتعالى هو الوهاب الرازق الرزاق عنده الرزق ومنه الهبة والعطاء في كل شيء. فالمنطقي إذًا أن الله سبحانه وتعالى يصلي على نبيه أي يزيده بركة وبركات.

والبركة هي الخير الكثير، وتبارك أي كثر خير الله ﴿بيدك الخير﴾ [آل عمران: ٢٦]. فإذا كانت الصلاة من الله عز وجل، فإنها بمعنى يبرك كما قال ابن عباس، أي

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٣/٥٠٦ - ٥٠٧.

يعطي للرسول البركات تلو البركات لشد أزره ونصره ﴿إلا تنصروه فقد نصره الله﴾ حتى يقوم برسالته على خير وجه؛ كما أمره الله عز وجل.

أما صلاة الملائكة على الرسول ﷺ، فهي دعاء منهم لله رب العالمين أن يحنو على رسوله الكريم حبًا منهم لمن أحبه الله وعلمًا منهم بأنه صفوة خلقه ومبعوث رحمته ومعلم قرآنه، وعونًا منهم للرسول ﷺ وهو في الغطاء في القيام برسالته بين الناس في الأرض؛ وإن كان غطاؤه أشف غطاء..

قال الإمام القرطبي: والصلاة من الله رحمته ورضوانه، ومن الملائكة الدعاء والاستغفار، ومن الأمة الدعاء والتعظيم لأمره(١).

وقال الإمام الصاوي: في هذه الآية: ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي﴾ أعظم الدليل على أنه ﷺ مهبط الرحمات، وأفضل الأولين والآخرين على الإطلاق، إذ الصلاة من الله علي نبيه رحمته المقرونة بالتعظيم، ومن الله على غير النبي مطلق الرحمة كقوله تعالى ﴿هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور، وكان بالمؤمنين رحيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣] فانظر الفرق بين الصلاتين، وبين المقامين، وبذلك صار منبع الرحمات، ومنبع التجليات، وحكمة صلاة الملائكة والمؤمنين على النبي ﷺ تشريفهم بذلك، حيث اقتدوا بالله جلا وعلا في الصلاة عليه وتعظيمه، ومكافأة لبعض حقوقه على الخلق، لأنه الواسطة العظمى في كل نعمة وصلت لهم، وحق على من وصل له نعمة من شخص أن يكافاه، ولما كان الخلق عاجزين عن مكافاته ﷺ طلبوا من القادر الملك أن يكافؤه، وهذا هو السر في قولهم: اللهم صلى على محمد(٢).

ولأن الله عز وجل يصلي على رسوله ويجعله في أعينه سبحانه؛ إذًا فالرسول ﷺ دائمًا أبدًا..

---

(١) القرطبي ١٤/ ٢٣١.

(٢) صفوة التفاسير حـ٢/ ٥٣٦ عن حاشية الصاوي على تفسير الجلالين ٣/ ٢٨٧.

في نور ربه عز وجل، فشرح له صدره وملأ قلبه نوراً وجسده نوراً فكان "نور على نور".

وفي رحمته عز وجل ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ فكان الرسول ﷺ ﴿حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم﴾.

وفي حمايته عز وجل، ﴿والله يعصمك من الناس﴾.

وفي منعته عز وجل؛ ﴿فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك﴾.

وفي نصره عز وجل ﴿إلا تنصروه فقد نصره الله﴾.

وفي أسرار علمه عز وجل ﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾.

وفي حبه وشوقه عز وجل فرأى ربه بفؤاده ﴿ما كذب الفؤاد ما رأى﴾. ورآه ببصره ﴿ما زاغ البصر وما طغى﴾.

وفي الإيمان بعلم قرآنه ﴿الرحمن. علم القرآن﴾.

وتلميذ ربه عز وجل وأستاذاً للعالمين ﴿كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلوا عليكم آياتنا ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾ [البقرة: ١٥٠].

فطهَّره عز وجل من قبل وطهَّر أهل بيته الكرام من بعد ﴿ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾ [الأحزاب].

فجعل سبحانه تبارك وتعالى الملائكة في موكبه ليلة أنزله، وجعل الروح القدس رسولاً من عنده له لما بُعث، ومصاحبًا له في الإسراء والمعراج في السماوات.

وأنزل الله عز وجل، ملائكته جنداً له يوم قاتل في بدر.

لذلك قربه سبحانه وتعالى منه ﴿فكان قاب قوسين أو أدنى﴾ وحياه بقوله تبارك وتعالى: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، وكلمه في هذا القرب دون وساطة وليس أحداً من العالمين معهما .. أعظم التشريف وأكبر الحب وأكمل التقدير من الله جل جلاله لرسوله ﷺ.

ولكل هذا، بكى الرسول ﷺ عندما أنزل عليه قول العلي الجبار ﴿فاستقم كما أمرت﴾ [هود: ١١٢].

وإذا كان الله سبحانه يغمر رسوله ﷺ ببركاته في رحماته وفيوضاته، والملائكة تدعوا له الله عز وجل لدوام الوصل والنصر والبركات والإشراقات والفيوضات.

فإن الله سبحانه أبان للعالمين في قرآنه أمرًا مهمًا جدًا يدعوهم به ليتفكروا بعمق الفكر وحق الفهم في حقيقة الرسول ﷺ، حتى يروا مدى جاهه عند خالقه العظيم رب العالمين ﴿ذي قوة – أي عظيم حب الله له – عند ذي العرش مكين﴾ [التكوير].

يقول العلي الكبير:

﴿وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم، وقضي بينهم بالحق، وقيل الحمد لله رب العالمين﴾ [الزخرف: ٧٥].

وكلمة "بينهم" ضمير جمع العقلاء عائد على الملائكة، وإذًا فالقضاء بين الملائكة، أي أن الملائكة سيحاسبون يوم القيامة.. هذا هو معنى الآية طبقًا لقواعد اللغة العربية وطرق الاستدلال أي دلالة الألفاظ على المعاني طبقًا لطرق الاستدلال الستة.

وإذًا فالقضاء أي الحساب بين الملائكة؛ ذلك بأن الملائكة وإن كانوا في طاعة الله إلا أنهم ليسوا على القطع متساويين في وسع هذه الطاعة ومن ثم في الدرجة. يقول ربنا العظيم عنهم: ﴿ولله يسجد ما في السماوات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون. يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ [النحل: ٤٩ – ٥٠] وقوله تعالى ﴿ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ..﴾ [الرعد: ١٣]. ومن ثم فأساس الطاعة الخوف من العلي الكبير، وبالتالي فإن درجة إتمام العمل والتبتل في الطاعة، أمر لا يعلم حقيقته إلا الله سبحانه، ذلك بأن الاستجابة بسبب الخوف قد لا تكون في كل أحوالها متساوية العمق ومن ثم وجب الحساب، ليس للعقاب، ولكن لتقدير المنازل، فالكل خائف وطائع وإن تفاوتت الدرجات ﴿ولكل درجات مما عملوا، وما ربك بغافل عما يعملون﴾ [الأنعام: ١٣٢].

وعندئذ فإن حساب الملائكة أمر ثابت قرآنياً، والتفسير بغير ذلك خروج على أصول التفسير، وبغير أساس من قواعد اللغة وطرق دلالة ألفاظها على معانيها، ومن ثم يؤدي إلى باطل.

أما قوله جل جلاله عن الملائكة الغلاظ ﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ [التحريم: ٦]، فهو خاص بخزنة جهنم. وهذا في الآخرة بعد تمام الحساب وبداية العقاب. ومن ثم لا صلة لهم بالحساب بين الملائكة يوم القيامة، فالله أعلم بهم وبعملهم.

وقال سبحانه وتعالى:

﴿وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء، وقضي بينهم بالحق، وهم لا يظلمون﴾ [الزمر: ٦٩].

ومع احترامنا الكامل والكبير لعلمائنا الأجلاء، فنرجوا أن نلاحظ الصياغة اللفظية لهذه الآية الكريمة مع الآية الكريمة السابقة، لنجد أنها واحدة.. فكلمة "الملائكة" هي التي تقابل ﴿النبيين والشهداء﴾ وكلمات ﴿وقضي بينهم بالحق﴾ واحدة في الآيتين.

وهذه الآية تفيد الحساب للنبيين والشهداء أي الذين استشهدوا في سبيل الله[١] وأرى أن الكلمة تشمل "العلماء" لقوله تعالى: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم﴾ [آل عمران: ١٨].

ثم يقول ربنا عقب ذلك مباشرة ﴿ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون﴾ [الزمر: ٧٠] أي تم حساب كل الناس وكل ما له نفس حتى الوحوش ﴿وإذا الوحوش حشرت﴾ [التكوير: ٥] ﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم؛ ما فرطنا في الكتاب من شيء؛ ثم إلى ربهم يحشرون﴾ [الأنعام: ٣٨].

---

(١) ما قاله الإمام «السُّدِّيّ» وهو الراجح ويتفق مع التفسير ... صفوة التفاسير حـ٣/ ٨٨.

ومن استقراء هذه الآيات الكريمة، نرى أن الله سبحانه سيحاسب يوم القيامة الملائكة والنبيين والشهداء وكل الناس من بعدهم وكل ما خلق الله من نفس؛ كبر أو قل حجمها أو تفه في عين الإنسان أمرها.

فهل يدخل الرسول ﷺ في كلمة «النبيين» ومن ثم يحاسب كما يحاسبوا؟!

يقول العلي العظيم

﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي﴾.

وهذه الآية الكريمة إخبار عن صلاة الله سبحانه وتعالى على الرسول بكل معاني كلمة «الصلاة» على الرسول منذ قال ذلك .. وأول وقت بدأ الله سبحانه فيه هذه الصلاة على النبي هي على الأقل منذ القرآن .. والقرآن قديم من قبل الخلق؛ للحديث الشريف: (أول ما خلق الله القلم فقال له أكتب فجرى بكل ما هو كائن إلى يوم القيامة).

وإذا قيل أنها كتبت وتحقيقها عندما سيكون ..

فإن الله سبحانه أخبرنا: ﴿الرحمن. علم القرآن﴾ ثم قال: ﴿خلق الإنسان﴾ فالذي تعلم القرآن هو الرسول ﷺ وكان ذلك قبل خلق الإنسان[١].

وكلمة «يصلون» فعل مضارع، وطبقًا لقواعد اللغة، فإن الصلاة قائمة منذ بدأت ومستمرة إلى أن يرث الله الأرض وما عليها.

أي أن الله سبحانه «يصلي» على الرسول من قبل أن نكون.. ويصلي عليه دائمًا وأبدًا إلى يوم القيامة وما شاء الله سبحانه..

فإذا كان الله سبحانه وتعالى يصلي أي يغمر رسوله ﷺ بالرحمات والخيرات والفيوضات من قبل الخلق إلى ما شاء الله، فإن ذلك معناه الوحيد أن الرسول لن يحاسب يوم القيامة؛ ﴿فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾ [الرعد: ٤٠] وغفر له ذنبه ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ [الفتح].

---

(١) طبقًا لقاعدة دلالة النص بطريق الاقتضاء.

ولهذا؛

فإن الرسول هو الشهيد على كل النبيين.

وهذه الخصوصية هي التي تتفق تماماً مع آية ميثاق النبيين الذي أخذه الله العظيم عليهم للرسول ﷺ كما بينا من قبل.

والشاهد يشهد ولا يحاسب.

قال العلي العظيم: ﴿ولا يضار كاتب ولا شهيد﴾ [البقرة: ٢٨٢].

والله عز وجل ملك يوم الدين.

والرسول ﷺ هو الشفيع عنده سبحانه..

أخرج الصحاح أن رسول الله ﷺ قال: (آتي تحت العرش فأخر ساجداً، فيدعني ما شاء الله أن يدعني. ثم يقال ارفع رأسك وقل تسمع واشفع تشفع - قال - فيحد لي حداً فادخلهم الجنة) وهذا هو المعروف بحديث الشفاعة.

وهذا بيان لقوله تعالى ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾.

وهذا من عظمته سبحانه وتعالى وكبريائه عز وجل لا يتجاسر أحد على الشفاعة عنده سبحانه إلا بإذنه عز وجل[1].

وفي رواية وقائع وفاته ﷺ، ما يجلي معنى من معاني صلاة الله والملائكة عليه؛ ويبين للعالمين أن رسوله هو صفوة خلقه وسيدهم..

أخرج الإمام حجة الإسلام أبو حامد الغزالي: عن عبد الله بن مسعود قال: قال ابن مسعود رضي الله عنه: دخلنا على رسول الله ﷺ في بيت عائشة رضي الله عنها حين إذ دنا الفراق، فنظر إلينا فدمعت عيناه ﷺ ثم قال: ﴿مرحباً حياكم الله آواكم الله نصركم الله أوصيكم بتقوى الله وأوصي بكم الله إني لكم منه نذير مبين أن لا تعلوا على الله في عباده وبلاده وقد دنا الأجل والمنقلب إلى الله تعالى وإلى سدرة المنتهى وإلى الكأس الأوفى، فاقرءوا على أنفسكم وعلى من دخل في دينكم بعدي مني السلام).

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١/ ٣٠٩.

وروى عبد الله بن مسعود: انه ﷺ قال: لجبريل عليه السلام عند موته: (من لأمتي بعدي؟ فأوحى الله تعالى إلى جبريل أن بشر حبيبي اني لا آخذ له أمته، وبشره بانه أسرع الناس خروجاً من الأرض إذا بعثوا وسيدهم إذا جمعوا وأن الجنة محرمة على الأمم حتى تدخل أمته.

فقال الرسول ﷺ: الآن قد قرت عيني).

وروى عبد الله بن مسعود أن النبي ﷺ قال لأبي بكر والرسول حين دنا أجله: (سل يا أبا بكر) فقال: يا رسول الله؛ دنا الأجل ؟! قال (قد دنا وتدلى). فقال أبو بكر: ليهنك يا نبي الله ما عند الله فليت شعري عن منقلبنا!! فقال: (إلى الله وإلى سدرة المنتهى ثم إلى جنة المأوى والفردوس الأعلى والكأس الأوفى والرفيق الأعلى والحظ والعيش المهنا). فقال أبو بكر: يا نبي الله من يلي غسلك؟ قال: (رجل من أهل بيتي الأدنى) فقال أبو بكر: ففيم نكفنك؟ قال: (في ثيابي هذه وفي حلة يمانية وفي قباطي مصر) قال أبو بكر: كيف الصلاة عليك منا؟ وبكينا وبكى ثم قال: (مهلاً غفر الله لكم وجزاكم عن نبيكم خيراً. إذا غسلتموني وكفنتموني فضعوني على سريري في بيتي هذا على شفير قبري. ثم اخرجوا عني ساعة فإن أول من يصلي على الله عز وجل ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي﴾، ثم يأذن سبحانه للملائكة في الصلاة علي، فأول من يدخل علي من خلق الله ويصلي عليَّ جبريل عليه السلام ثم ميكائيل عليه السلام ثم إسرافيل عليه السلام، ثم ملك الموت مع جنود كثيرة ثم الملائكة بأجمعهم ثم أنتم فادخلوا عليَّ أفواجاً فصلوا علي أفواجاً زمراً وسلموا تسليماً، ولا تؤذوني بتزكية ولا صيحة ولا صرخة ولا رنة وليبدأ منكم الإمام وأهل بيتي الأدنى فالأدنى ثم زمر النساء ثم زمر الصبيان). قال أبو بكر: فمن يدخل القبر؟! قال: (زمر أهل بيتي الأدنى فالأدنى مع ملائكة كثيرة لا ترونهم وهم يرونكم. قوموا فادوا عني إلى من بعدي السلام)[1].

---

(١) مختصر إحياء علوم الدين/ ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٨٥.

وأخرج حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالي؛

عن وقائع وفاة رسول الله ﷺ عن السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها وأرضاها. قال:

قالت عائشة، لما كان اليوم الذي مات فيه رسول الله ﷺ، رأوا منه خفة في أول النهار.. فتفرق عنه الرجال إلى منازلهم وحوائجهم مستبشرين، وأخلوا رسول الله ﷺ بالنساء؛ فبينا نحن على ذلك لم نكن على مثل حالنا في الرجاء والفرح مثل ذلك، فقال رسول الله ﷺ: (أخرجن عني هذا الملك يستأذن علي). فخرج من في البيت غيري ورأسه في حجري وجلس. وتنحيت في جانب في البيت. فناجى الملك طويلاً، ثم إنه عاد وأعاد رأسه في حجري، وقال للنساء: (ادخلن) فقلت: ما هذا بحس جبريل عليه السلام! فقال رسول الله ﷺ: (أجل يا عائشة. هذا ملك الموت جاءني فقال: يا رسول الله إن الله تعالى أرسلني وأمرني أن لا ادخل عليك إلا بإذن. فإن لم تأذن أرجع. وإن أذنت لي دخلت. وأمرني أن لا اقبضك حتى تأمرني؛ فماذا أمرك؟ فقال النبي ﷺ اكفف عني حتى يأتيني جبريل عليه السلام فهذه ساعة جبريل).

قالت عائشة: فاستقبلنا بأمر لم يكن له عندنا جواب ولا رأي فوجمنا، كما أنه ضربنا بصاخة ما نحير إليه شيئًا. وما يتكلم أحد من أهل البيت تعظيمًا لذلك الأمر وهيبة.

قالت عائشة: وجاء جبريل عليه السلام في ساعة فسلم فعرفت صوته؛ وخرج أهل البيت. ودخل جبريل فقال: إن الله عز وجل يُقرئك السلام، ويقول لك كيف تجدك وهو أعلم بالذي تجد منا ولكن أراد أن يزيدك كرامة وشرفًا وأن يتم كرامتك وشرفك على الخلق وتكون سنة أمتك. فقال الرسول ﷺ: (أجد وجعًا). قال جبريل: أبشر فإن الله تعالى أراد أن يبلغك ما أعد لك، فقال (يا جبريل إن ملك الموت أذن علي) وأخبره الخبر. قال: يا محمد إن ربك إليك مشتاق. ألم أعلمك الذي يريد بك. لا والله ما استأذن ملك الموت على أحد قط ولا يستأذن عليه أبدًا. إلا أن ربك متم لك وهو إليك مشتاق. قال رسول الله ﷺ لجبريل: (فلا تبرح إذًا حتى يجيء).

قالت عائشة: وأذن للنساء فقال ﷺ: (يا فاطمة أدني) فاكبت عليه وجهها

فناجاها فرفعت رأسها وعيناها تدمع وما تطيق الكلام ثم قال: (أدني مني رأسك) فناجاها فرفعت رأسها وهي تضحك وما تطيق الكلام. فكان الذي رأينا منها عجباً، فسألناها بعد ذلك، فقالت قال لي: (إني ميت اليوم) فبكيت ثم قال: (إن دعوت الله أن يلحقك في أول أهلي بي وأن يجعلك معي). فضحكت.

قالت عائشة: وجاء ملك الموت وأستاذن فاذن له فقال الملك: ما تأمر يا محمد؟ قال: (الحقني بربي الآن). قال: بلى، من يومك هذا، أما إن ربك إليك مشتاق ولم يتردد عن أحد تردده عنك ولم ينه عن الدخول على أحد إلا بإذن غيرك، ولكن ساعتك أمامك. وخرج.

قالت عائشة: وجاء جبريل عليه السلام فقال: السلام عليك يا رسول الله. هذا آخر ما أنزل فيه إلى الأرض. طوي الوحي. وطويت الدنيا. وما كان لي في الأرض حاجة غيرك. وما لي فيها حاجة إلا صورتك.

ثم؛ قالت عائشة تحدث نفسها:

ثم لزوم موقفي لا، والذي بعث محمداً ﷺ بالحق ما في البيت أحد يستطيع أن يحير إليه في ذلك كلمة. ولا يبعث إلى أحد من رجاله لعظم ما يسمع من حديثه ووجدنا وإشفاقنا.

قالت عائشة: فقمت إلى النبي ﷺ حتى أضع رأسه بين ثديي وأمسكت بصدره وجعل يغمي عليه حتى يغلب، وجبهته ترشح عرقاً ما رأيت من إنسان قط أطيب منه. وجعلت أرسل ذلك العرق وما وجدت رائحة شيء قط أطيب منه فكنت أقول له إذا أفاق بأبي وأمي ونفسي وأهلي ومالي ما تلقى جبهتك من العرق والرشح فقال: (يا عائشة إن نفس المؤمن تخرج بالرشح، ونفس الكافر تخرج من شدقه كنفس الحمار).

فعند ذلك إرتعنا، وبعثنا إلى أهلنا.

فكان أول رجل جاءنا ولم يشهده؛ أخي عبد الرحمن؛ بعثه إليَّ أبي، فمات رسول الله قبل أن يجيء أحد.

وإنما صدهم الله عز وجل عنه، لأنه تولاه جبريل وميكائيل، وجعل إذا أغمى عليه قال: (بل الرفيق الأعلى).

قالت عائشة: قبض رسول الله ﷺ في بيتي وفي يومي وبين سحري ونحري وجمع الله بين ريقي وريقه عند الموت، ثم نصب يده وقال: (الرفيق الأعلى) فقلت إذاً والله لا يختارنا.

وكان ذلك بين ارتفاع الضحى وانتصاف النهار يوم الاثنين[١].

اللهم صلي على سيدنا رسول الله النبي الأمي الحبيب العالي القدر العظيم الجاه، وعلى آله وصحبه والتابعين بإحسان على نهجه إلى يوم الدين، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد

فإن الحق محكم أبلج مبين.

والرسول، ﷺ، قد تركنا على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها.

﴿ فأين تذهبون ﴾.

﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾.

﴿ لمن شاء منكم أن يستقيم ﴾.

﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾.

الاثنين ٢٨ ذو الحجة ١٤٠٤ قمرية هجرية

٢٤ سبتمبر ١٩٨٤ شمسية مصرية

وتمت مراجعته في يوم الاثنين ٤ من ربيع الأول ١٤١٩هـ

٢٩ يونيو ١٩٩٨ شمسية مصرية

صلاح الدين أبو العنين

المحامي بالنقض

وعضو اتحاد الكتاب

---

(١) مختصر إحياء علوم الدين/ ٢٨٤ - ٢٨٦ وجاء تفسير ابن كثير «المختصر» حـ١/ ٤١١ ان رسول الله قال: ["مع الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين" فقالت عائشة: فعلمت انه خُيِّر] عن صفوة التفاسير حـ١/ ٢٨٧.

المراجـــع

١	القرآن العظيم		
٢	جامع البيان عن تأويل القرآن	للإمام الطبري	دار المعارف بمصر
٣	تفسير القرآن العظيم	للإمام الحافظ بن كثير	دار إحياء الكتب العربية (الحلبي)
٤	تفسير الجلالين	جلال المحلي وجلال السيوطي	دار الشعب بالقاهرة
٥	التفسير الوسيط	مجمع البحوث الإسلامية	الأزهر الشريف
٦	مختصر من تفسير الطبري	ابن صمادح الأندلس	دار الشروق — القاهرة
٧	صفوة التفاسير	محمد علي الصابوني	دار القرآن الكريم — بيروت
٨	شروح البخاري	للإمامين النووي والقسطلاني	إدارة الطباعة بالمنيرة — القاهرة
٩	المقصد الأسنى شرح أسماء الله الحسنى	الإمام أبو حامد الغزالي	مكتبة القاهرة بالقاهرة
١٠	الله	عباس محمود العقاد	دار الهلال القاهرة
١١	الله والكون	صلاح الدين أحمد أبو العنين	دار الفكر العربي بالقاهرة
١٢	السيرة النبوية	لابن هشام تحقيق د. محمد فهمي السرجاني	دار التوفيق بالأزهر
١٣	حياة محمد	د. محمد حسين هيكل	دار المعارف بمصر
١٤	عبقرية محمد	عباس محمود العقاد	دار الهلال بالقاهرة
١٥	محمد الرسول البشر	توفيق الحكيم	مكتبة الآداب بالجماميز
١٦	مولد سيدنا محمد	مقالات لعلماء الأزهر	المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
١٧	القرآن	محمد صبيح	مكتبة الأنجلو المصرية
١٨	القصص القرآني	عبد الكريم الخطيب	مكتبة النهضة
١٩	تاريخ الأدب الجاهلي	د. علي الجندي	جامعة القاهرة
٢٠	مختصر إحياء علوم الدين	الإمام أبو حامد الغزالي	مكتبة نصير بالقاهرة
٢١	خلاصة التشريع الإسلامي	عبد الوهاب خلاف	المؤلف
٢٢	علم أصول الفقه	عبد الوهاب خلاف	المؤلف
٢٣	أبو حنيفة	محمد أبو زهرة	دار الفكر العربي بالقاهرة
٢٤	أصول الفقه	محمد أبو زهرة	دار الفكر العربي بالقاهرة
٢٥	دراسات في علم أصول الفقه	محمد أبو زهرة	دار الفكر العربي بالقاهرة
٢٦	عبقرية الصديق	عباس محمود العقاد	وزارة التربية والتعليم بمصر
٢٧	الصديق أبو بكر	د. محمد حسين هيكل	وزارة التربية والتعليم بمصر
٢٨	عبقرية عمر	عباس محمود العقاد	وزارة التربية والتعليم بمصر
٢٩	الخليفة العادل عمر بن الخطاب	عطية عبد الرحيم عطية	المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
٣٠	علي إمام المتقين	عبد الرحمن الشرقاوي	جريدة الأهرام المصرية

تابع المراجـــع

٣١	أصول الإيمان	الإمام محمد بن عبد الوهاب	المملكة العربية السعودية
٣٢	التوحيد	الإمام محمد بن عبد الوهاب	مكتبة المعارف بالرياض
٣٣	القول السديد	عبد الرحمن ناصر بن سعدي	مكتبة المعارف بالرياض
٣٤	على هامش السيرة	د. طه حسين	وزارة التربية والتعليم بمصر
٣٥	الإسراء والمعراج	د. عبد الحليم محمود (شيخ الأزهر)	دار الكتاب العربي – القاهرة
٣٦	السيد أحمد البدوي	د. عبد الحليم محمود (شيخ الأزهر)	دار الشعب – القاهرة
٣٧	أبو الأنوار شمس الدين	د. عبد الحليم محمود (شيخ الأزهر)	مجمع البحوث الإسلامية – الأزهر الشريف
٣٨	سورة الفرقان	د. منيع عبد الحليم محمود	مجمع البحوث الإسلامية – الأزهر الشريف
٣٩	حقائق الإسلام وأباطيل خصومه	عباس محمود العقاد	دار الهلال – القاهرة
٤٠	تاريخ النظم القانونية والاجتماعية	د. محمد بدر	جامعة القاهرة
٤١	أبو الحسن الأشعري	د. حمودة غرابة	مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة
٤٢	ابن سينا بين الدين والفلسفة	د. حمودة غرابة	مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة
٤٣	أينشتين والنسبية	مطفى محمود	دار المعارف – القاهرة
٤٤	الروح لابن القيم	الإمام شمس الدين بن القيم	مكتبة محمد علي صبيح بالأزهر
٤٥	محاورات رينان الفلسفية	ارنست رينان – ترجمة علي ادهم	دار العصور بمصر
٤٦	شوبنهور	عبد الرحمن بدوي	مكتبة النهضة بمصر
٤٧	نيتشة	عبد الرحمن بدوي	مكتبة النهضة بمصر
٤٨	حكاية البشر علمياً	صلاح الدين أبو العنين	شمس الفكر بالقاهرة
٤٩	الذين هبطوا من السماء	أنيس منصور	دار الشروق القاهرة وبيروت
٥٠	شخصية مصر – عبقرية المكان	د. جمال حمدان	مكتبة عالم الكتب بالقاهرة
٥١	النحو والصرف	د. رمضان عبد التواب	جامعة عين شمس
٥٢	التعبير البياني	د. شفيع السيد	مكتبة الشباب
٥٣	في علم اللغة العربية	د. عبد الصبور شاهين	مكتبة دار العلوم
٥٤	قضايا ومواقف في التراث البلاغي	د. عبد الواحد علام	مكتبة الشباب
٥٥	شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب		
٥٦	شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك		

ت: ٢٨٧٦٣١٥

الناشر: شمس الفكر ٦٩ شارع جمال الدين دويدار – المنطقة ٨

مدينة نصر – القاهرة. تليفون ٢٨٧٦٣١٥

رقم دولي 2 - 00 - 5653 - 977

رقم الإيداع ٧٢٧٦ / ١٩٩٨